

مِنْجُ الْكَرِيمِ الْمَتَّانِ

فِي شَرْحِ

صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ





حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مِنَحُ الْكَرِيمِ الْمَنَانِ
فِي شَجَرِ

صِفَاتِ عِبَادِ الْحَمْدِ

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

رقم الإيداع

٢٠١٦/١٠٩٠٢ م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-152-0

دار العالمية للنشر والتوزيع



ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٣١-٢١١١١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: +٢٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ / ت: +٢٠٣ ٤٩٧٠٣٧٠ / فاكس: +٢٠٣ ٣٩٠٧٣٠٥

E.mail: alamia_misr@hotmail.com

مِنْجُ الْكَرِيمِ الْمَنَانِ

فِي شَرَحِ

صِفَاتِ عِبَادِ الْحَمْدِ

تَأَلِيفُ

د. أَحْمَدُ خَضِرُ حَسِينِ الْحَسَنِيِّ



الدارُ العالَمِيَّةُ للنشرِ والتوزيعِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أطمع أن أدخل بها في رحمته، وأشهد أن سيدنا محمد عبد الله ورسوله الداعي إلى رضوان الله وإلى جنته، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وجميع صحابته.

أما بعد: فإنه من المعلوم لدى كل مسلم أن الله تعالى أنزل كتابه هدى للناس فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وعبارة ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ تعتبر من أبلغ العبارات بل هي في أعلى درجات البلاغة لأنها جاءت مطلقة ولم تبين ما هي ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾؟ أهو - أي القرآن - يهدي للتي هي أقوم في مجال توحيد الله ومعرفة أسائه وصفاته؟ أم يهدي للتي هي أقوم في مجال العبادة والتقرب إلى الله تعالى بمختلف الطاعات، أم يهدي للتي هي أقوم في مجال مكارم الأخلاق وجميل الصفات؟ أم يهدي للتي هي أقوم في مجال إقامة الحدود والتشريعات وتنظيم حياة الناس؟ أم يهدي للتي هي أقوم في مجال العلاقات الاجتماعية بين الناس على مختلف طبقاتهم وأشكالهم وألوانهم وأماكن وجودهم (١).

إن الآية تحتل ذلك كله وزيادة إذ القرآن أنزل هداية لكل ما يسعد البشر في دينهم ودنياهم وآخرتهم ولهذا عدمي مرة أخرى إلى الآية لتجد أن أولها مبدوء بالجملة الاسمية المؤكدة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ وهي تدل على ثبوت الحكم وتأكيده؛ ثم ختمت بالجملة الفعلية ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ فقولها: ﴿يَهْدِي﴾ يدل على الاستمرار والتجدد، فهذا

(١) أضواء البيان والتحريير والتنوير بتصرف.

يعني أن القرآن دوماً وأبداً وفي كل زمان ولكل إنسان يهدي للتي هي أقوم في جميع المجالات التي يحتاجها الإنسان في حياته في الدنيا والآخرة.

وانطلاقاً من هذا كان اختياري لموضوع غاية في الأهمية تناولته خواتيم سورة الفرقان ألا وهو: صفات عباد الرحمن، إذ أن تلك الآيات عرضت الصفات التي اتصف بها عباد الرحمن عرضاً واضحاً مشوقاً مرغباً كل مؤمن في الاتصاف والتحلي بها.

هذه الصفات جمعت بين عبادة الله وحسن التعامل مع خلق الله تعالى أي إن هذه الصفات من جملة ما وصف الله تعالى به كتابه في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ فكان أقوم طريق وأفضله وأحسنه لنيل السعادة في الدنيا والآخرة أن يتصف الإنسان بصفات عباد الرحمن.

وإذا كان الحكماء ودعاة الإصلاح في العالم يحاولون قدر استطاعتهم أن يرشدوا البشرية إلى الأخلاق التي بها تكون بها سعادتهم في الدنيا فانهم مهما كانت كلماتهم رائعة ومهما كانت محاولاتهم جادة فإنهم لن يصلوا إلى عشر معشار ما جاء به القرآن الكريم من بيان جلي لجملة من مكارم الأخلاق التي بها تكون السعادة للبشرية في الآخرة والأولى.

ولكن لماذا صفات عباد الرحمن وليس شيئاً آخر في هذا الكتاب الذي جمعت مادته وعملت على ترتيبها قرابة عامين؟ للجواب عن ذلك أقول هناك عدة أسباب تجعل هذا الموضوع غاية في الأهمية:

أن كثيراً من المسلمين - ومن جملتهم الملتزمون - أصبحوا يعتقدون أن الإسلام محصور في العبادات الظاهرة و فقط، فأصبح جل اهتمامهم منصب لأداء الصلوات وصيام رمضان وقيامه والإكثار من العمرة خلال العام أو أن يحج كل عام، وهذا شيء مطلوب ومهم في التقرب إلى الله تعالى، ولكن هناك جانب آخر من دين الإسلام أهمله عدد كبير



من المسلمين ألا وهو جانب تحسين الأخلاق وتربية النفس وتزكيتها والابتعاد بها عن إيذاء خلق الله بأي نوع من أنواع الأذى، يدل على ذلك الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ قَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحَسَنَ الْخُلُقِ»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، قال: «الغم والفرج»^(١)، فانظر كيف نبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حسن الخلق وعظيم دوره في دخول الجنة بل إن حسن الخلق يرفع العبد إلى أعلى درجات الجنان كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ»^(٢).

أن الفصل بين العبادات والأخلاق في حياة المسلمين أمر بات واضحاً جلياً، فقلما تجد من جمع له الأمران، فإما تجده مقصراً في العبادات وقد يصل إلى درجة ترك الصلاة والصيام ولكنه حسن الخلق مع القريب والبعيد، وهذا في الحقيقة لأمر غاية في الخطورة لأنه يدل على عدم فهم الإسلام فهمًا صحيحًا لأن الإسلام كما جاء بالعبادات وبيان ما يجب الله تعالى منها فهو أيضًا جاء ببيان مكارم الأخلاق وأوجبها؛ تمامًا كما أوجب الصلاة والصيام، والدليل على ذلك أن الأمة قد أجمعت على وجوب الصدق وأداء الأمانة والعدل وغيرها من مكارم الأخلاق، ويقول الدكتور أحمد الشرباصي في مقدمة كتابه (موسوعة أخلا القرآن):

«ولقد تعرض الله تعالى لأصول الأخلاق التي يريد الله لعباده أن يتحلوا بها، وان يستجيبوا لروحها، ولذلك هدف حديث القرآن عن الأخلاق إلى غاية سامية جلييلة، هي أن يكون المسلم المؤمن المتخلق بمكارم الأخلاق صالحًا لتلقى الفيوضات الروحية، والفيوضات الإلهية التي تجعله يسيطر بروحه على بدنه ويسمو بنفسه فوق حسه». اهـ.

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

ثم إن إهمال الجانب الخلقى قد يؤدي إلى هلاك العبد - وإن كان كثير العبادة -
والدليل على ذلك ما ورد إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن امرأة تكثر الصلاة والصيام
ولكنها تؤذى جاراتها فقال: «هي في النار»، وأشد من ذلك ما ورد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قال: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة قد ضرب هذا وقذف هذا وأكل مال هذا،
فيؤخذ لهذا من حسناته ولهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاته فكب
عليه فكب في النار»^(١).

أن المتأمل في صفات عباد الرحمن يجد أنها جمعت بين إحسان عبادة الله تعالى وبين
التخلي عن سيء الأخلاق والتحلي بأحسنها، أي أن عباد الرحمن هم الذين سلكوا السبيل
الأقوام في تربية النفس والتقرب إلى الله تعالى، وليك بيان ذلك: فمن صفاتهم قيام الليل
﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ وهذا فيه أخذ بجانب التقرب إلى الله تعالى
في تربية النفس وتهذيبه لها.

ومن صفاتهم: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾. وهذا من التخلي عن الكبائر التي هي من خبث
النفوس وسيء الأخلاق.

ومن صفاتهم التواضع والحلم، الواردان في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ
يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ وهذا من التحلي بمحاسن
الأخلاق.

كل تلك الأسباب دعنتي إلى التأمل في صفات عباد الرحمن ومحاولة توضيحها من
كلام العلماء. والتوقف عندها، والمحاولة الجادة لتطبيقها وأخيرًا نشرها بين المسلمين

لعل الله تعالى أن ينفع بها، أسميت هذا الشرح لأواخر سورة الفرقان (منحة الكريم المنان بشرح صفات عباد الرحمن) وأما المنهج الذي أتبعه في ذلك فيتلخص في النقاط الآتية:

أولاً: كتبت تمهيداً شرحت فيه معنى قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ بينت فيه معنى العبد والعبادة وأهميتها وشرفها ثم بينت معني اسمه الرحمن وخصائصه ثم الحكمة من إضافة هؤلاء العباد إلى هذا الاسم المبارك (الرحمن).

ثانياً: جعلت لكل صفة مباحث خاصة بها، وغالباً ما تكون هذه المباحث أربعة: **أولها:** ذكرت فيه أقوال المفسرين في معنى الآية.

ثانيها: ذكرت فيه التعريف بالصفة التي أشارت إليها الآية الكريمة لغة واصطلاحاً ثم حكم تلك الصفة وما ورد في فضلها وأهميتها من الآيات والأحاديث.

ثالثها: بيان أنواع ومراتب تلك الصفة إن كانت لها مراتب وأنواع وإلا انتقلت إلى المبحث الرابع.

رابعها: ذكر صور من تحلى السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بتلك الصفة وحرصهم عليها، ومرجعي في ذلك سير أعلام النبلاء للذهبي، في الغالب الأعم.

ثالثاً: حرصت على نقل أقوال المفسرين في غالب الآيات التي جاءت في ثنايا البحث حرصاً مني على ربط القارئ الكريم بفهم القرآن الكريم والنظر في تفسيره، وكذلك فعلت في الأحاديث النبوية فقد نقلت أقوال شراح الحديث من أمثال ابن حجر والنووي والمباركفوري وغيرهم من شراح الحديث رحمهم الله تعالى.

رابعاً: وحرصت على الاستدلال بالأحاديث الصحيحة والحسنه، ليس في هذا الكتاب حديث ضعيف إلا في القليل النادر، كما أنني أشرت إلى مصادر الأحاديث من الكتب الصحاح والسنن والمسانيد، ومرجعي في ذلك إما أن يكون الحديث في

الصحيحين أو السنن فأرجع إليه فيها غالبًا، وإما أن يكون الحديث في غير هذه المراجع كمعجم الطبراني أو مسند الإمام أحمد أو مستدرک الحاكم فمرجعي هو الترغيب والترهيب للإمام المنذري، وذلك لأستفيد الحكم على الحديث.

خامسًا: بعض الصفات تحتاج إلى تدريب عملي حتى تصبح واقعًا في حياة المسلم، فما كان من هذا النوع ذكرت فيه الأسباب المعينة على الوصول إلى تلك الصفة من كلام أهل العلم كابن القيم والماوردي والغزالي وغيرهم رحمهم الله تعالى جميعًا، وغالبًا ما يكون ذلك في المبحث الأخير من مباحث تلك الصفة.

سادسًا: جعلت لكل صفة مقدمة خاصة بها أي تحتوي على الحمد لله والثناء عليه والصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتكشف هذه المقدمة عن مباحث الصفة وأحيانًا الحكمة من ترتيبها بين بقية الصفات، والهدف من جعل المقدمة لكل صفة لأن كل واحدة من هذه الصفات صالحة لأن تقرأ منفصلة عن بقية الصفات ويتم الانتفاع بها، إذ كل صفة مطلوبة على حدتها علمًا وعملاً، وهناك

هدف آخر أيضًا ألا وهو أن من أراد أن يطبع صفة منها في صورة كتيب أو مطوية يجدها كاملة مع مقدمتها دون حاجة إلى تبديل أو إضافة أو تغيير.

سابعًا: الصفات التي توصلت إليها من آيات أو آخر سورة الفرقان ست عشرة صفة (١٦ صفة) وهي بالترتيب: التواضع، الحلم، قيام الليل، الخوف، الاقتصاد في النفقة، الإخلاص، اجتناب قتل النفس بغير حق، الابتعاد عن الزنا، التوبة والنصح، البعد عن كل باطل، ترك اللغو، التأثر عند سماع القرآن الكريم، سؤال الله صلاح الذرية والزوجة، التقوى، الإمامة في الدين، الصبر.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن ينفعني والمسلمين والمسلمات بالقرآن الكريم وأن يجعله
لنا إماماً وقائداً إلى رضوان الله وإلى جناته، وأن يغفر لنا ذنوبنا وأن يستر لنا عيوبنا بمنه
وكرمه ورحمته آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. إجمال خصم حنين الحنين

الدوحة / ٢٢ / شعبان / ١٤٢٦ هـ

الموافق / ٢٥ / سبتمبر / ٢٠٠٥ م

تمهيد

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ :

لما كان الموضوع الذي يتناوله الكتاب هو صفات (عباد الرحمن) كان لا بد من معرفة السبب أو الأسباب التي استحق بها هؤلاء العباد هذه التسمية وهذه الإضافة (عباد الرحمن) التي هي إضافة تشريف وتكريم وتفضيل، وقبل ذلك لا بد من معرفة من هو العبد؟ وما هي العبادة؟ وما هي مجالاتها؟ والبحث في هذا المجال يتطلب معرفة منزلة العبد الذي يحقق العبادة، أو مقام العبودية في حياته، ولا يقدر أحد على الإتيان بالعبادة على الوجه الأتم إلا الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأوفرهم حظاً هو النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلهذا كان هو أعلى الخلق درجة ومنزلة وأرفعهم مكاناً وأشرفهم مقاماً عند ربه جَلَّ وَعَلَا.

ومما نحتاج إلى بحثه في هذا المقام هو أن نسأل لماذا كانت إضافة هؤلاء العباد إلى اسمه الرحمن دون غيره من الأسماء فمثلاً لماذا لم يقل عباد الله أو عباد الغفار أو غيرهما من الأسماء الحسنى إذ لا بد أن يكون في تخصيصهم بهذا الاسم حكمة.

إذن هذا التمهيد يحتوي على معرفة معنى العبد والعبادة وشرفها وأهميتها ومجالاتها، ثم معرفة خصوصية عباد الرحمن وتشريفهم بهذه الإضافة، وليبيان ذلك كله أقول ومن الله أرجو الإعانة والقبول.. ها هنا مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالعبد والعبادة وبيان مجالاتها وشرفها وأهميتها.

المبحث الثاني: الحكمة من إضافة هؤلاء العباد إلى اسمه تعالى الرحمن.

المبحث الأول

B :

العبد مفرد ويجمع على عبيد وعباد وأعبد، ويحتمل معنيين:

الأول: عبد بمعنى معبّد: أي مذلل ومسخر، كما نقول طريق معبّد أي أصبح مذللًا بكثرة طرقه والمشى عليه، والعبد بهذا المعنى يشمل جميع المخلوقات ويدخل في ذلك جميع الناس: المؤمن والكافر، والبر والفاجر لأنهم مربوبون لله تعالى مسخرون له، لا يملك الإنسان ضرًا ولا نفعًا، وبهذا يصح أن يقال إن الكافر عبد لله إذ كان تدبير أمره بيد الله لا بيده وكذا موته وحياته وصحته ومرضه بيد الله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿إِنْ كُفُّوا مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] أي ذليلًا منقادًا غير ممتنع؛ الملائكة والإنس والجن وغيرهم مملوك له عز وعلا.

الثاني: عبد بمعنى عابد: والمقصود به المحب المتذل لله تعالى وهذا المعنى خاص بالمؤمنين حيث قاموا بطاعة الله تعالى^(١)، وتوحيده وهو المراد في نحو قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] الآية وغيرها من الآيات.

وهذا المعنى الثاني للعبد هو الذي يحتاج إلى معرفة العبادة لله تعالى لأنه هو الذي يحققها في حياته ويدعو الناس إلى عبادة الله تعالى.

(١) أعلام السنة المشورة (٣٤) بتصرف.

: B

(أ) **العبادة لغة:** العبدية والعبودية والعبادة كلها بمعنى الطاعة، وفي الصحاح: «أصل العبودية: الخضوع والذل، والعبادة أبلغ من العبودية لأن العبادة هي غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله وحده».

(ب) **العبادة شرعاً:** هي اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة^(١) وهي بهذا المعنى تتضمن شيئين:

١- **كمال الخضوع:** وهو معنى كمال الذل والطاعة لله تعالى.

٢- **كمال الحب:** لأن الواجب على كل مسلم أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، بل لا يستحق المحبة التامة والذل التام إلا الله عَزَّوَجَلَّ، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] فلما تدعو الله تعالى على ترك محبته ومحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ علمنا أن المحبة فرض.

وهذا التعريف الذي ذكرناه هو قول ابن تيمية في كتابه (العبودية) وأضاف إليه الشيخ حافظ أحمد حكيمي عبارة وهي: «والبراء مما ينافي ذلك ويضاده»، وهذه الزيادة تعتبر زيادة توضيح لكلام ابن تيمية لأن مما يحبه ويرضاه التبرؤ من كل ما لا يحبه ولا يرضاه.

: B !

يقول الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه ويرضاه فالصلاة والزكاة والصيام والحج عبادة وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، والجهاد للكفار والمنافقين، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الأدميين والبهائم عبادة، والدعاء والذكر والقراءة للقرآن، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين - أي العمل - له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته وأمثال ذلك كله من العبادات»^(١) اهـ.

قلت: يؤخذ من كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أَنْ الْعِبَادَاتِ تَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ أَشْيَاءَ:

- ١- الفرائض والأركان والشعائر من صلاة وزكاة وحج وصيام.
- ٢- ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي كالذكر والتلاوة والدعاء.
- ٣- حسن المعاملة والوفاء بحقوق الخلق كبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى اليتيم.
- ٤- الأخلاق والصفات الإنسانية الفاضلة من صدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وغيرها من مكارم الأخلاق التي أوجبها الإسلام.
- ٥- أعمال القلوب من حب الله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخشية الله تعالى والإنابة إليه.

وبناء عليه نقول:

فالعبادة ليست كما يفهم كثير من الناس اليوم أنها تقتصر على أداء الصلوات وذكر الله تعالى في المسجد والصيام والحج بل العبادة تسع الحياة كلها كما سيأتي:

B :

إن العبادة كما سبق تشتمل على شؤون الإنسان كلها وتستوعب حياته جمعاء، وسنذكرها هنا أمثلة توضيحية لهذه الشمولية للعبادة لكل شيء في الحياة، وهذه الأمثلة مأخوذة من كتاب (العبادة في الإسلام) للدكتور يوسف القرضاوي أثابه الله تعالى.

١- الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة: إن كل عمل اجتماعي نافع فإن الإسلام

يعده من أفضل العبادات إن كان صاحبه قد أخلص النية لله تعالى، والدليل على ذلك أحاديث كثيرة منها:

قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»^(١).

وفي رواية: «هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

ومعلوم أن إصلاح ذات بين من الأعمال الاجتماعية المحضة، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعله من أفضل العبادات وهي الصلاة والصيام والصدقة، وذلك لثلاث يظن الظان أن السعي في الإصلاح بين الناس مضيعة للوقت وأن الاشتغال بالعبادة -كالصلاة- أفضل منها.

ومن ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقه، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها للصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقه»^(٢)، ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث ستة أعمال

(١) رواه الترمذي وصححه.

(٢) متفق عليه من حديث أبو هريرة.

كلها في خدمة الناس عدا واحدا هو المشي إلى الصلاة، وجعلها كلها من الصدقات، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما يعمر الأرض وينفع الناس.

٢- أداء الإنسان لوظيفته يعتبر عبادة لكن بشرط: عن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال: مر على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل فرأى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جلده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله -أي الجهاد- فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخره فهو في سبيل الشيطان»^(١)، ولهذا فالعمل يعتبر عبادة لكن بخمسة شروط هي:

- ١- أن يكون العمل مشروعاً، أما الأعمال المحرمة كالتجارة في السلع المحرمة وغيرها من الكسوب الممنوعة شرعاً فلا تكون هذه الأعمال عبادة.
- ٢- أن تصحبه النية الصالحة كما تقدم في حديث كعب بن عجرة وذلك كنية إعفاف نفسه أو الكد على أولاده أو نفع الناس وقضاء حوائجهم.
- ٣- أن يؤدي العمل بإتقان وإحسان لما ورد في الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»، والحديث الآخر: «إن الله يحب إذ عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».
- ٤- أن يلتزم في عمله المباح حدود الله فلا يغش ولا يخدع ولا يقدم أحداً في التوظيف - إن كان مسؤولاً - على آخر إلا بالمؤهلات المطلوبة ونحو ذلك.
- ٥- أن لا يشغله عمله هذا عن أداء ما افترض الله عليه من الصلوات والصيام وغيرهما ﴿رَجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَجْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا نَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

٣- قضاء الشهوة عبادة: إن الإسلام قد جعل أداء حق المعاشرة الزوجية -الجماع-

عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه، نجد ذلك واضحاً في قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرًا، قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(١).

قال العلماء في شرح هذا الحديث: «وهذا من تمام رحمة الله حيث أثابهم على ما فيه قضاء شهوة الفرج إذا نوا أداء حق الزوجة وإحسان الفرج والله الحمد».

B :

يظهر شرف العبادة وأهميتها من خلال النقاط الآتية:

١- العبادة هي الغاية المحبوبة لله والمرضية له التي خلق الخلق من أجلها كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] قال ابن كثير: أي إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم.

٢- لقد وصف الله تعالى الملائكة المقربين بأنهم عباد الله جَلَّ وَعَلَا في أكثر من آية في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْبِخُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

٣- ووصف الله تعالى الأنبياء والمرسلين بأنهم عباد الله تعالى كما قوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ [ص: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].

ووصف الله تعالى نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه (عبداً) في أشرف المقامات فقال تعالى في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى في مقام إنزال القرآن الكريم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، وقال تعالى في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

٤- العبادة صفة أولياء الله تعالى كما بين ذلك في كتابه فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. قال السعدي في تفسيرها ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: «تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم، وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ فرضى بولايته وطاعتك بدلاً من طاعة الرحمن ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ والغوي ضد الراشد: فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال: هو الذي تركه من غير علم منه به» اهـ.

إذن فالعبادة تؤدى إلى ولاية الله تعالى وتؤدى الولاية إلى حفظ الله لذلك الولي من وساوس الشيطان وجميع أذاه.



المبحث الثاني

B :

قبل الخوض في بيان الحكمة من إضافتهم إلى (الرحمن) لا بد من بيان أن المؤمنين ليسوا جميعاً في درجة واحدة من الطاعة واجتناب المعصية بل هم على أقسام ذكرها المار ودي في كتاب (أدب الدنيا والدين) وسأذكرها هنا بتصرف على حسب المقام فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:

القسم الأول: منهم من يستجيب إلى فعل الطاعة ويكف عن ارتكاب المعاصي:

وهذا أكمل أحوال أهل الدين، وأفضل صفات المتقين، فهذا يستحق جزاء العاملين، وثواب المطيعين، وهؤلاء هم الذين يبشروا بها ورد في القرآن من بشارات للمتقين ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِءُ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وهؤلاء في أعلى درجات المؤمنين وهم الذين ترقوا إلى درجة الأبرار والمحسنين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

القسم الثاني: ومنهم من يمتنع عن فعل الطاعات ويقوم على ارتكاب

المعاصي:

وهذه أخص أحوال المكلفين وشر صفات المتعبدین، فهذا يستحق عذاب اللاهي

عن فعل ما أمر به من طاعته، وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه، وقد قال ابن شبرمة: «عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء، كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار؟»، وهؤلاء هم الذين يستحقون ما ورد من الوعيد في القرآن الكريم لعصاه المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْقُؤْا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ في هذه الآية أشد تحذير للمؤمنين حيث حذرهم النار التي هي في الأصل أعدت للكافرين.

وهؤلاء يقال لهم لا بد من الصبر حتى يخرجوا من هذه الورطة المهلكة، قال ابن ضباوه: إنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى، أهون من الصبر على عذاب الله تعالى، وقال آخر: «اصبروا عباد الله على عمل لا غني لكم عن ثوابه، واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه».

القسم الثالث: منهم من يستجيب إلى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب

المعاصي:

فهذا يستحق عذاب المجترئ لأنه تورط بغلبة الشهوة، على الإقدام على المعصية، وإن سلم من التقصير في فعل الطاعة، وقد روى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَقْلَعُوا عَنِ الْمَعَاصِي قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَكُمْ اللَّهُ، فَيُدْعَكُمْ هَتًّا بَتًّا»^(١)، الهت: الكسر، والبت: القطع.

ولذلك قال بعض العلماء: أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه، ولم تنزل الشبهة يقينه، وقال حماد بن زيد: عجبت لمن يحتمي من الأطعمة لمضراتها، كيف لا يحتمي من الذنوب لمعراتها.

وهؤلاء هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى أن يتوب الله عليهم، ولا يأمن الواحد منهم إذا مات من غير توبة أن يدخل النار ويعذب فيها بقدر ذنوبه عياداً بالله تعالى.

(١) النهاية في غريب الحديث (٥ / ٢٤١).



القسم الرابع: ومنهم من يمتنع عن فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي:

فهذا عنده تقصير في الطاعات وهو يستحق عذاب اللاهي عن دينه، وقد جاء في الأثر: «اجتهدوا في العمل، فإن قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي»، وقال بكر بن عبد الله: رحم الله امرءاً كان قوياً، فأعمل قوته في طاعة الله تعالى، وأن كان ضعيفاً فكف عن معصية الله تعالى. هذه هي أقسام المؤمنين في فعل الطاعات وترك السيئات، ما بين مجتهد ومقصر وذلك كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ﴾ [فاطر: ٣٢]، ولا شك أنك علمت من خلال هذه الأقسام أن عباد الرحمن هم أهل القسم الأول وهم من السابقين بالخيرات بإذن الله كما سيتبين من صفاتهم في هذا الكتاب المبارك إن شاء الله تعالى.

: B :

١- يقول العلماء الرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة، ثم اختلفوا في صفة الرحمة هل هي من صفات الذات أو من صفات الفعل على قولين، وقال بعضهم الرحمن من صفات الذات والرحيم من صفات الفعل كما ذكر ذلك ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ.

والدليل على أن الرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة ما ورد عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: أَنَا اللَّهُ وَأَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحْمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَتْهُ»^(١).

.

اعلم أن جميع أسماء الله تعالى بالغة في الحسن ولهذا كلها مبنية على صيغ المبالغة وذلك لأنها كاملة تامة في معناها الذي اشتقت منه، ولهذا أقول، هذان الاسمان (الرحمن الرحيم) مشتقان من الرحمة، ولكن اختلف العلماء أيهما أبلغ وإليك ما قاله الفخر الرازي

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح.

رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: «واعلم انه لا شك أن الرحمن الرحيم كل واحد منهما مشتق من الرحمة وإن لم يكن أحدهما أشد مبالغة من الآخر كانا مترادفين من جميع الوجوه من غير تفاوت في المعنى، وذلك بعيد، فوجب القطع بكون أحدهما أكثر مبالغة من الآخر، ثم اختلفوا فقال الاكثرون: الرحمن أكثر مبالغة من الرحيم واحتجوا له بوجوه:

الأول: أنه من المشهور أنهم كانوا يقولون: يا رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة ومعلوم أن رحمته في الدنيا شاملة للمؤمن والكافر، الصالح والطالح، وذلك بإيصال الرزق وخلق الصحة ورفع الأسقام، المصائب والدواهي.

وأما رحمته في الآخرة فمختصة بالمؤمنين، فدل هذا على أن الرحمن أكثر مبالغة من الرحيم، لأن الرحمة ناشئة من اسم الرحمن عامة في حق الولي، والعدو، والصديق والزنديق، والرحمة الناشئة من الرحيم مختصة بالمؤمنين.

الثاني: أن الرحمن يأتي للمبالغة يقال: رجل غضبان وشبعان وأنا ملآن، ورجل عريان للذي لا ثوب له أصلاً، فإن كان له ثوب خُلِقَ يقال له: إنه عار، ولا يقال عريان. وأما الرحيم فهو وإن كان صيغة مبالغة إلا أن وزن فعيل قد يأتي بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول فيقال سميع ويراد به السامع ويقال قتيل والمراد به المقتول.

الثالث: أن الرحمن والرحيم كلمتان من جنس واحد، وحروف الرحمن أكثر، وكل ما كان كذلك كان أكثر مبالغة، لأن كل زيادة في المعني تدل على زيادة المعنى، فوجب كون الرحمن أكثر مبالغة.

: B

(أ) اسم الرحمن اسم انفرد به الرب جَلَّ وَعَلَا كما انفرد باسم الجلالة (الله) قال تعالى:

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠].

(ب) أن اسم الرحمن يفيد معنى الرحمة فإنه يفيد مع ذلك نوعاً من الهيبة والجلال والكبرياء والدليل قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، فلولا إشعار اسم الرحمن بالقهر والهيبة لما كان لذكر الوعيد بعده فائدة.

(ج) أن الرحمن وإن كان يفيد الرحمة العامة لكل - كما سبق بيانه - إلا أن الرحيم يفيد الرحمة الخاصة بالمؤمنين، فكان الرحمن كالأصل والرحيم كالزيادة في التشريف، والأصل مقدم على الزيادة كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ومن هنا كانت البسملة على الترتيب المعروف بسم الله الرحمن الرحيم فقد تقدم الرحمن على الرحيم.

. : B

الله تعالى أرحم بالعباد من رحمة الأم بولدها ومن رحمته بنا أن أرسل إلينا محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانزل علينا كتابه وعلمنا به من جهالة وهدانا به من ضلاله، وبعدنا من العمي، وأرشدنا من الغي وتلك أعظم رحمة، لأن من يتبع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينجو من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة.

ومن رحمته جلَّ وَعَلَا أنه خلق مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة، نشرها بين الخليقة ليراحموا بها، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والطير والوحش والبهائم على صغيرها، وبهذه الرحمة قوام واستمراره ونظامه.

يدل على ذلك قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ طَبَاقٍ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ

رحمة، فيها تعطف الوالدة على ولدها والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة^(١).

ومن رحمته تعالى أنه أحوج الخلق بعضهم إلى بعض لتتم مصالحهم ولو أغنى بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم وانحل نظامهم، وكان من تمام رحمته بهم أن جعل فيهم الغني والفقير، والعاجز والذليل، والعزيز والقادر، والراعي والمرعي، أفقر الجميع إليه ثم عم الجميع برحمته سبحانه.

ومن رحمته تعالى أنه خلق الجنة ورجب عبادته في دخولها وبين لهم السبل الموصلة إليها قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْصَتْ وُجُوهُهُمْ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

قال ابن كثير في تفسيرها: «يعني الجنة ما كثون فيها أبداً لا يبغون عنها حولا» اهـ. وقد أخبر تعالى أن رحمته واسعة وأنها تغلب غضبه وما ذلك إلا ليطمع العصاة في رحمته فيتوبوا إليه جَلَّ وَعَلَا، وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُدِّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبِيٍّ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ تَسْعَى -أَي تَطْلُبُ شَيْئًا بِاجْتِهَادٍ شَدِيدٍ- إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ فَأَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلِوَلَدِهَا فِي النَّارِ؟» قَالُوا: لَا، وَاللَّهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا»^(٢).

. B : E A

والمقصود بحظ المسلم من اسمه هو أن يتخلف بخلق الرحمة لأن الله تعالى لما كان موصوفاً بالرحمة أحب أن يرحم العباد بعضهم بعضاً كما تقدم في الحديث: «فيها تعطف الوالدة على ولدها».

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

ومن هنا كان التخلق بالرحمة يعتبر من الأخلاق العظيمة التي يجب على المسلم أن يتحلى بها، ويدل على ذلك أن الله تعالى مدح نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الناس رحمة بالمؤمنين بل وبالكافرين بل وبجميع المخلوقات لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يبين أن رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمت جميع العوالم فكان هو رحمته رحم الله بها عباده وكانت رسالته رحمة رحم الله بها المكلفين من خلقه.

وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نفسه أنه رحمة فقال: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة»^(١)، وحث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التخلق بخلق الرحمة فقال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢)، وجاء في الحديث الآخر: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^(٣).

ومدح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر بالرحمة فقال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر».

فانطلاقاً من هذا كله كان على المسلم أن يتعامل مع عبادة الله بالرحمة وإنما يتحقق ذلك بمراعاة ثلاثة أشياء:

١- أعظم رحمة يرحم بها المسلم أن يراعي فيهم الأوامر والنواهي الشرعية، فإن الواقع في المعصية كالمرضى يحتاج إلى من يرحمه لا إلى من يعنفه، والرحمة إنما تكون بتعليمهم ما ينقصهم في دينهم ودعوتهم إلى الخير وتذكيرهم بالحق ونحو ذلك.

٢- قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «إن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع إلى العبد وإن كرهتها نفسه، وشقت عليه، فهذه هي الرحمة الحقيقية فارحم الناس من شق عليك في إيصال منافعك ودفع المضار عنك».

(١) رواه الحاكم وصححه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الشيخان.

ويدخل في هذا الباب قسوة الأب على أولاده لتأديبهم وتقويمهم على الشرع، فمن كمال رحمته بهم أن يكرههم على حفظ القرآن الكريم وتعلم السنن والقيام بالعبادات ومكارم الأخلاق. والله أعلم.

٣- لابد أن يجتمع لديك عند قضاء حاجة المحتاج أمران هاما وهما الفعل والقصد أي أن تقضي حاجة المحتاج عن قصد ذلك وبناء عليه: إذا قُضيت حاجة إنسان على يديك دون قصد منك فهذه لا تعتبر رحمة، وإذا كانت لديك أحاسيس رقيقة لمواساة هذا المحتاج ولكن لم تقدم له شيئاً ملموساً يخفف معاناته فهذه أيضاً ليست رحمة.

إذن لا تستحق أن توصف بأنك رحيم حتى تعزي المصاب بنيتك الصادقة من قلبك وفعلك الإيجابي تجاه المصاب، ليتضح المعنى... أعطيك مثلاً: أسرة فقيرة لهم أقارب أغنياء، مات عائل تلك الأسرة الفقيرة، فجاء أقاربهم الأغنياء وعزوهم بكلمات مليئة بمشاعر الحزن والأسى، ولكن لم يقدموا لهم شيئاً من المال أو إبداء الاستعداد لتوظيف الابن الأكبر، قل لي بالله ماذا تستفيد هذه الأسرة الفقيرة من هذه الكلمات، ثم هل تستطيع أن تقول أن هؤلاء الأغنياء رحماء؟ كلا وألف كلا، هذا ما تقوله الفطرة ويقوله الشرع أيضاً لان الرحمة الحقيقية في هذا المقام الأخذ بأيديهم من الفقر.

B

بعد هذه الجولة السريعة التي تقدمت في معرفة العبد والعبادة أولاً ثم معرفة اسمه تعالى الرحمن وما يتعلق به نستطيع أن نصل إلى الحكمة من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر الآيات التي وضعتهم وبينت محاسنهم وذلك من خلال الآتي:

١- هؤلاء العباد حققوا المرتبة العليا من العبادة في نطاق القدرة البشرية، فكانوا هم أهل الطاعة والبعد عن المعصية، فكانوا في الدرجة العليا من درجات المؤمنين فلهذا سموا بعباد الرحمن.

٢- لما أضافهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى اسمه (الرحمن) علمنا أن الغالب على صفاتهم الرحمة بالخلق فلهذا رأينا في صفاتهم التواضع والحلم أي ليسوا بأفظاظ ولا غليظي التعامل مع الناس بل هو الحلم وعدم رد السيئة بالسيئة لأنهم ينظرون إلى الناس بعين الرحمة التي ملأ الله بها قلوبهم فهم (عباد الرحمن) حقيقة.

٣- وإذا تأملنا في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وجدناهم أيضًا يستحبون صفة الرحمة، فهم لا يعنفون ولا يشتمون في أمرهم ونهيهم ولكن برفق في المشاعر، ذلك واضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

٤- سموا بعباد الرحمن لأنهم في عبادتهم لله تعالى نظروا إلى جانبيين جانب الرحمة منه تعالى وجانب الهيبة والعظمة له جَلَّ وَعَلَا فجاء في صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

كما جاء في صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، فكان جانب الرحمة في دعائهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾؛ لأن الله تعالى لما كانت رحمته بالخلق عامة أراد عباد الرحمن أن تكون دعوتهم للخلق عامة، فسألوا الله أن يصبحوا هم أسوة للناس وقدوة في الخير والتقوى وما ذلك إلا لرحمتهم بالناس، وهذا الأمر أعني الإمامة في التقوى ليست للترفع على الناس والتعالى عليهم بل حرصًا على هدايتهم وإرشادهم إلى الحق.

وكان جانب الهيبة في النظر إلى ما أعده الله تعالى من عقوبة للعصاة وذلك في دعائهم ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ الآية، فامتلاأت قلوبهم هيبة من الله تعالى وخوفاً من عقابه، فسألوا الله تعالى أن يصرف عنهم هذا العذاب.

٥- كانت الإضافة لاسمه الرحمن إشعاراً بما لهم عند الله تعالى من المنزلة العليا حيث أحبهم وحببهم إلى خلقه فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. أي محبة في قلوب الخلق، فكان هذا الحب من الله تجاه عباد الرحمن وحببهم له جَلَّوَعَلَا واضحا في هذه الإضافة (عباد الرحمن) حيث اختار اسمه تعالى إشعاراً بأنهم من المرحومين برحمته جَلَّوَعَلَا، فمن هنا كانت هذه الإضافة الشريفة، وأما تحبيب الله عباده إليهم فلان كل من يسمع (عباد الرحمن) فإنه سيشعر بارتياح لاسمهم ولصفاتهم فإذا عاملهم وجد منهم الرأفة والرحمة وازداد محبة لهم... والله أعلم.





الصفة الأولى:

﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

التواضع



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد العالمين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: فإن هذه الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، تشير إلى أولى صفات عباد الرحمن ألا وهي التواضع، ومن لطيف ما في هذه الصفة وجعلها أولى صفات عباد الرحمن أنهم مع ما ترقُّوا إليه من التحلي بجميل الصفات والسعي في نوافل العبادات والخيرات أن من أعظم ما يهتمون به في أخلاقهم أنهم من أهل التواضع لا الكبر ولا الفخر بل كلما ترقَّى الإنسان في الدرجات العلى كلما ازداد تواضعه لله وللناس ويرحم الله القائل:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه على طبقات الجوّ وهو ضيع

ولا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام أن التواضع صفة مندوبة من نوافل الخيرات من شاء اتصف بها ومن شاء تكبر، كلا! بل إنها من الصفات الواجبة، وذلك لأنه لا بد من التواضع أو ضده وهو الكبر وهذا حرام بالإجماع بل هو من الكبائر، والتخلص من الكبر واجب ولا يتم إلا بالتواضع وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ومن ثمَّ كان التواضع واجباً، وسيأتي بيان درجات التواضع، ومن هنا أقول الحديث حول هذه الآية ينتظم في أربعة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

المبحث الثاني: الكلام على صفة التواضع وأقسامه وما ورد فيه من الآيات

والأحاديث والآثار.

المبحث الثالث: صور من تواضع الصحابة والتابعين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

المبحث الرابع: في بيان كيفية اكتساب التواضع والبعد عن الكبر.

المبحث الأول

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾

قال الميداني رَحِمَهُ اللهُ: «المشي يطلق على الانتقال برفق ورصانة دون تباطؤ ولا سرعة، وهوناً: الهون الخفة والرفق، والسكينة والوقار والعمل والتصرف برفق وحسن سمت وعقل وروية، فمن صفات عباد الرحمن التي يلاحظها الناظر إليهم من أول مشاهدة أنهم يمشون على الأرض هوناً: أي يمشون لقضاء شؤون حياتهم الدنيا برفق وسمت حسن ويطلبون أرزاقهم بأنهم يمشون في مناكب الأرض هوناً، وضد ذلك السعي والهرولة والركض دون حاجة لذلك، وضد ذلك أيضاً المشي بعنف واستكبار، وضرب في الأرض، وضد ذلك أيضاً المشي بضعف وتهاون أو خفة ورعونة أو خفق سريع بغير روية ولا عقل، وضد ذلك أيضاً السعي لطلب الدنيا بإسراع ومغالبة ومقاتلة ومنازعة لأهلها...» (١).

- قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: هوناً أي سكينة ووقارا متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبرين قال الحسن: علماء حلماء، وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون وإن سفه عليهم حلموا.

والهُونُ: بالفتح في اللغة: الرفق واللين، والهُونُ بالضم: الهوان، والمفتوح من صفة أهل الإيوان، والمضموم: صفة أهل الكفران وجزاؤهم النيران.

ولما كانت العشرة عشرين: عشرة الرجل، وعشرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم (٢).

(١) معارج التفكير ودقائق التدبر (٦/٦٠٨) باختصار.

(٢) الضوء المنير (٤/٤٠٧).

قال غير واحد من السلف (في صفة مشي عباد الرحمن): بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت، وهي مشية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه مع هذه المشية كان كأنها ينحط من صيب، وكأنها تطوى له الأرض حتى كأن الماشي معه يجهد نفسه ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مكترث^(١).

قال القرطبي: يمشون على الأرض حلماً متواضعين في اقتصاد، وقال زيد بن أسلم: «هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض»، وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل لأنه كم من ماشي هونا وهو ذئب أطلس^(٢).

قال الطاهر بن عاشور: والمشي الهون، هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق بالنعال فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم، وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله تعالى، والتخلق بأداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية، فكانت هذه المشية من خلال - أي صفات - الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية.

والتخلق بهذا الخلق من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمن، لأن الرحمة ضد الشدة، فالهون يناسب ما هيئتها - أي الرحمة - وفيه سلامة من صدم المارة وجوزَّ الرَّجَّاجُ أن يكون قوله: ﴿يَمْشُونَ﴾ عبارة عن تصرفاتهم في معاشره الناس فعبر عن ذلك بالانتقال في الأرض وتبعه ابن عطية^(٣).



الفائدة الأولى:

يفهم مما نقلنا من كلام هؤلاء المفسرين رَحْمَةُ اللهِ أَنْ الآية ترمى إلى تربية عباد الرحمن على التواضع في ظواهرهم وبواطنهم، لأن أكثر المفسرين - كما مرَّ - ذكروا وصف

(١) الضوء المنير (٤/٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) تفسير القرطبي (٦٨/٣).

(٣) تفسير الطاهر ابن عاشور (١٩/٨٨، ٨٩) باختصار.

مشيهم الدال على التواضع، وما لم يكن هذا التواضع هو خُلُق باطن فيهم، كان مشيهم عبارة عن نفاق ورياء ولذا أنكر القرطبي على من فهم أن المقصود من المشي هو المشي مجردا عن التواضع، أو المشي الذي يريد به صاحبه الاحتيال على الناس بالتظاهر بالخلق والدين وهو خالٍ من ذلك، ولعل هذا هو المراد والله أعلم.

الفائدة الثانية:

جاء كلمة ﴿عَلَى﴾ في الآية الكريمة ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ذلك فيه إشارة - فيما أظن والله أعلم - إلى أن هؤلاء العباد متواضعين تواضعاً مصحوباً بالعزة لا ذل فيه ولا هوان لأحد من خلق الله، لأنهم لا يذلون إلا الله عَزَّجَلَّ، ومعلوم من آيات أُخْرَ أن أهل الإيمان هم أهل العزة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].



المبحث الثاني

الكلام على التواضع يتناول تعريفه لغة وشرعاً وأقسامه وما ورد فيه من آيات وأحاديث وذلك من خلال ثلاث نقاط هي:

١. التواضع لغة:

١- التواضع لغة: مصدر «تَوَاضَعَ» أي أظهر الضعة وهو مأخوذ من مادة «و ض ع»، التي تدل على الخفض للشيء وحطه، يقال وضعت المرأة ولدها، وصيغة تفاعل من «وضع» تدل على الإظهار فإذا قلت تواضع فلان أي أظهر التواضع، كما يقال: تغافل بمعنى أظهر الغفلة وهو ليس بغافل على الحقيقة، ومن هنا كانت صفة التواضع سمة لمن أظهر التواضع والذلة لله ولرسوله وللمؤمنين وإن كان عزيزاً في نفسه.

٢- التواضع شرعاً: ذكر ابن القيم في المدارج عددًا من أقوال العلماء في الكشف

عن معنى التواضع اقتصر على ذكر بعضها:

- سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟

فقال: «يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله». قلت: وهذا يعني عدم الالتفات إلى شكل القائل أو لونه أو قبيلته أو مكانته الاجتماعية، مادام قد نطق بالحق فلا بد من قبوله منه.

- وقيل التواضع ألا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب. ولعل هذا التعريف هو من أوضح ما قيل في التواضع لا من حيث المعنى فقط بل من حيث الكشف عن حقيقة النفس التي ترى أن النزول عن منزلة معينة يحصل به التواضع فيها هنا نقول لصاحب تلك النفس قد جعلت لها قيمة فلست من المتواضعين.

- قال ابن عطاء الله: هو قبول الحق من كان، والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

- وقيل من رأى نفسه متواضعاً فهو المتكبر في الحقيقة وهذا القول قريباً من الثاني. والله أعلم^(١).

: B

ذكر العلماء أن للتواضع أقسام أربعة:

الأول: التواضع لله تعالى: والمراد أن يتواضع لدين الله تعالى، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «التواضع لدين الله هو الانقياد لما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاستسلام له والإذعان لذلك، وهذا لا يتم إلا بعدم رد شيء من الشرع الحكيم»^(٢) اهـ.

قلت: بناءً عليه لا يجوز أن يقال لبعض تاركي الصلاة أنهم من أهل التواضع؛ ولو فعلوا ما فعلوا في خدمة الناس وزيارتهم والتواضع لهم لأن تارك الصلاة أباي أن يتواضع لله تعالى حيث تكبر على السجود ووضع الوجه في الأرض لله تعالى.

الثاني: التواضع للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وهذا يعنى كمال المتابعة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يخالف شيئاً من سنته لا في الظاهر ولا في الباطن، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

- قال ابن القيم في تفسيرها: «أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٢٦٨).

(٢) المرجع السابق: نفس الموضوع.

في إيمانهم بهذا التحكيم بمجردة حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً، وينقادوا انقياداً^(١) اهـ.

الثالث: التواضع للناس:

وهو الذي ينصرف إليه لفظ التواضع إذا أُطْلِقَ، ومعناه: ألا تفضّل نفسك على أحد من المسلمين، وألا ترى نفسك أرفع من أحد منهم مهما كان قدره، وهذا يتحقق بثلاثة أشياء:

١- أن ترضى بأخوة المسلمين، لأن الله تعالى رضي بهم عبيداً له وأنت عبد مثلهم، فكيف لا ترضى بأخوة من رضيهم الله عبيداً له، فمن الكبر أن تتكبر على عبد مثلك ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

٢- أن تقبل الحق ممن جاء به إليك عدواً كان أو صديقاً، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

٣- قبول اعتذار من اعتذر إليك من الناس لإساءة وقعت منه تجاهك، وقد قبل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتذار المنافقين عندما تخلفوا عن تبوك فضلاً عن غيرهم، وعدم قبول الأعداء مما يؤدي إلى الكبر^(٢).

ثم إنه قد وردت آيات وأحاديث تأمر بالتواضع وترغب فيه، سيأتي ذكرها بعد قليل فينبغي لكل مؤمن التأمل فيها حتى يتواضع لعباد الله تعالى.

الرابع: التواضع مع النفس:

ويكون ذلك بأن يبعدها عن أسباب العجب والكبر والاعتزاز، وقد نهى الله تعالى عن تزكية النفس لأن ذلك من علامات العجب بل هو العجب عينه، قال الله تعالى:

(١) الضوء المنير (٢/ ٢٥٠).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٤، ٢٧٥) بتصرف.

﴿ فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢]، قال ابن عاشور في تفسيرها المعنى: لا تحسبوا أنفسكم أذكياء وابتغوا زيادة التقرب إلى الله تعالى، أو لا تثقوا بأنفسكم بأنكم أذكياء فيدخلكم العجب بأعمالكم، ويشمل ذلك: ذكر المرء أعماله الصالحة للتفاخر بها أو إظهارها للناس، ولا يجوز ذلك إلا إذا فيه جلب مصلحة عامة، كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [يوسف: ٥٥].

وقد ورد النهي عن تركية الناس بأعمالهم في أحاديث كثيرة منها حديث أم عطية حين مات عثمان بن مظعون في بيتها، ودخل عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت أم عطية: «رحمة الله عليك أبا السائب - هذه كنية عثمان - فشهادتي عليك لقد أكرمك الله (فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقالت: إذا لم يكرمه الله فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير، وإني والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»، فقالت أم عطية: فلا أزكي أحداً بعد ما سمعت هذا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

قال ابن عاشور: وقد شاع من آداب عصر النبوة بين الصحابة التحرز من التركية، وكانوا يقولون إذا أثنوا على أحد: «لا أعلم عليه إلا خيراً ولا أزكى على الله أحداً».

: B

(أ) الآيات القرآنية:

- قال الله تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

- وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ أَذَلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک وأصله في الصحيحين.

(ب) الأحاديث النبوية الشريفة:

الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة أكتفي هنا بذكر بعضها:

- عن ركب المصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة - أي مصيبة - وذل في نفسه من غير مسألة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية»^(١).

- عن عياض بن حمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد

- ولا يبغي أحد على أحد»^(٢).

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما نقصت صدقة من مال،

وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٣).

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من امرئ إلا وفي رأسه

حكمة، والحكمة بيد ملك إن تواضع قيل للملك ارفع الحكمة وإن أراد أن يرفع قيل للملك:

ضع الحكمة»^(٤).



(١) رواه الطبراني وحسنه ابن عبد البر.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البزار وإسناده حسن، والحكمة: ما يشبه اللجام للفرس.

المبحث الثالث

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

!è رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

إن تواضع أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهد به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد ورد في البخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» فقال أبو بكر: إن أحد شِقِّي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهده، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنك لست تصنع ذلك خيلاء»^(١)، ولهذا كان أبو بكر الصديق من أشد الناس تواضعاً، وسأذكر هنا ما يدل على ذلك من سيرته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل الخلافة يجلب للحي أغنامهم فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا يجلب لنا منائح دارنا - أي أغنامهم - فسمعها أبو بكر فقال: لعمري لأحلبنها لكم، وإني أرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خُلَّتِ كنت عليه) فكان يجلب لهن وكُنَّ إذا أتينه بأغنامهنَّ يقول: أنضح أم اللَّبْدُ؟ فإذا قالت: انضح باعد الإناء عن الضرع حتى تشتد الرغوة، وإن قالت: لَبْدُ أدناه منه حتى لا تكون له رغوة.

وورد أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تبعه يوماً بعد العشاء فوجده يمشى حتى يخرج إلى بعض نواحي المدينة حتى يأتي بيتاً فيمكث فيه ساعة فدخل وراءه ذلك البيت فوجد فيه عجوزاً عمياء، فسألها عمر: ماذا يفعل هذا الرجل عندك يا أماء؟ فقالت يكنس داري ويضع طعامي ويصلح من شأني.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لوددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن»، ويقول: «والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد»، وهذا كله من تواضعه.

(١) متفق عليه.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في يوم حار واضعاً رداءه على رأسه، فمر به غلام على حمار، فقال يا غلام أحملني معك، فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين قال: لا اركب أنت وأركب أنا خلفك، تريد أن تحملني على المكان الوطئ، وتركب أنت على الموضع الخشن، فركب خلف الغلام، فدخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون.

وعن سنان بن سلمة الهذلي قال: خرجت مع الغلمان ونحن نلتقط البلح، فإذا عمر ابن الخطاب ومعه الدرة، فلما رآه الغلمان تفرقوا في النخل، قال: (وقمت وفي إزارى شيء قد التقطته، فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا ما تلقى الريح، فقال: فنظر إليه في إزارى فلم يضرني، فقلت: يا أمير المؤمنين، الغلمان الآن بين يدي، وسيأخذون ما معي، قال: كلا، امش، قال: فجاء معي إلى أهلي.

ومن تواضعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما ورد أنه صعد المنبر يوماً ثم قال: «يا أيها الناس، لو رأيتمني وأنا أرعى غنما لخالاتي فأخذ القبضة من التمر والزبيب وأظل يومي»، أي يظل يومه على هذا التمر ليس له طعام غيره، فلما نزل من المنبر قال له عبد الرحمن بن عوف: «ما زدت يا أمير المؤمنين على أن عبت نفسك»، فقال: «إن نفسي قالت: إنك اليوم أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها نفسها»، تأمل يا أخي القارئ هذا مع ما سبق ذكره من أن التواضع هو أن لا ترى لنفسك قيمة، ها هو عمر يطبق هذا المبدأ، فمن يا ترى أولى بذلك هو أم نحن الذين لم نقدم شيئاً يذكر للإسلام ولا للمسلمين ومع ذلك تجد البعض يتيه متعاطفاً لأنه أدى بعض العبادات والأوراد.

وعن أسلم مولى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج عمر إلى حرة واقم وأنا معه حتى إذا كنا بصرار - مكان على بعد ثلاثة أميال من المدينة - وإذا نار توقد - أي تشعل - قال:

«يا أسلم إنى أرى هاهنا ركبانا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا»، فخرجنا نهروا حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان، وقدر منصوب على نار، وصبيانها يتضاغون، قال عمر: «السلام عليكم يا أهل الضوء»، وكره أن يقول: يا أصحاب النار، قالت: وعليكم السلام، فقال: أأدنو؟ «فقلت: ادن بخير أو دع، فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: فما بال الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال: أي شيء في هذا القدر، قالت: ماء أسكنهم به، حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر، فقال: أي رحمك الله، وما يُدرى عمر، وما يُدرى عمر بكم؟ قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ قال أسلم: فأقبل علي وقال: انطلق بنا، فخرجنا حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عِدلاً من الدقيق ثم كبه في الشحم، وقال: «احمله عليّ» قلت: أنا أحمله عنك؟ قال: «أأنت تحمل عني وزري يوم القيامة، لا أم لك؟ فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه نهروا إليها، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذرِّي على أن أحرَّ لك - أي اتخذ لك حرة وهي حساء يصنع من الدقيق والدسم - وجعل ينفخ تحت القدر، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته، حتى طبخ لها، ثم أنزلها وقال: أبغيني شيئاً، فأتته بصحفة فأفرغها فيها، فجعل يقول لها: أطعميهم وأنا أسطِّح لهم، أي أبسطه بيدي حتى يبرد، فلم يزل كذلك حتى شعوا وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيرًا، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين فيقول: قولي خيرًا، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله، ثم تنحى ناحية، ثم استقبلها فربض مريضاً، فقلت له: لك شأنًا غير هذا؟ فجعل لا يكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرون ثم ناموا وهدأوا، فقام يحمد الله، ثم أقبل علي فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت، وهذا المشهد قد نظمته الشاعر حافظ إبراهيم بأبيات رائعة يقول فيها:

والنار تأخذ منه وهو يذكيها

ومن رآه أمام القدر منبطحا

منها الدخان وفوه غائب فيها

وقد تخلل في أثناء لحيته

رأى هناك أمير المؤمنين على حال تروع لعمر الله رأيها
يستقبل النار خوف النار وفي غده والعين من خشية الله سالت مآقيها

!ê رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن ثابت البناني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان سلمان أميرًا على المدائن، فجاء رجل من أهل الشام ومعه جُمْلُ تَبْنٍ، وعلى سلمان اندرورد -لباس أعجمي- وعباءة، فقال الشامي لسلمان - تعال، احمل -ظنه حمالًا- وهو لا يعرفه فحمل سلمان فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير، فقال الشامي: لم أعرفك، قال سلمان: لا حتى أبلغ منزلك.

وافتخرت قريش عن سلمان يوما فقال: لكني خلقت من نطفة قدرة ثم أعود جيفة منتنة، ثم يؤتى إلى الميزان، فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم.

!ë رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

افتقد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ درعه بعد إحدى المعارك فوجده عند رجل نصراني فأقبل به إلى القاضي شريح يخاصمه، وقال له: إنها درعي، ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين، قال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي وقال: ألك بينة؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح ما لي بينة ففضى بالدرع للنصراني، فأخذها ومشى وعلي ينظر، إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فاشهد أن هذه أخلاق الأنبياء وأن هذا هو الدين الحق، وأن الدرع درع علي وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم قال لعلي: «اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فأصبتهما - أي أخذتها - من بعيرك الأورق» فقال علي: «أما إذ أسلمت فهي لك» (١).

!i . . . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

روى الحاكم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ جَاءَ لِيَسْتَأْذِنَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي مَرْضَاهَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيتِ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ لِتُسْعِدِي وَإِنَّهُ لَأَسْمَكُ قَبْلَ أَنْ تُولِدِي، إِنَّكَ كُنْتِ مِنْ أَحَبِّ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِبُ إِلَّا طَيِّبًا، وَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَلْقَى الْأُحِبَّةَ إِلَّا أَنْ يَفَارِقَ الرُّوحَ الْجَسَدَ، وَلَقَدْ سَقَطَتْ قِلَادَتُكَ بِالْأَبْوَاءِ فَجَعَلَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ خَيْرَةً فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آيَةَ التِّيْمَمِ، وَنَزَلَتْ فِيكَ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَلَيْسَ مَسْجِدًا مِنْ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا يَتْلَى فِيهِ عِزْرَكَ أَنْاءَ اللَّهِ وَأَنْاءَ النَّهَارِ، فَقَالَتْ: «دَعْنِي مِنْ تَرْكِتِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَوَدِدْتُ أَنْيَ كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا» (١).

!i . . . رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الراوي: اشتكى رجل من ولد محمد بن واسع إليه فقال لولده: تستطيل على الناس وأمك اشتريتها بأربعمائة درهم، وأبوك لاكثر الله في المسلمين مثله.

!i . . . رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال يونس: إني لأعد مائة خصلة من خصال البر ما في خصلة واحدة منها.

!i . . . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان عنده رجاء بن حيوة ذات ليلة، فضعف المصباح، فقام أحد الحاضرين ليصلحه، فمنعه عمر قائل: «ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيوفه»، وكان الخادم نائمًا، قالوا: أيقظه، قال: «هي أول نومة نامها»، فقام وأصلحه بنفسه، فقال له رجاء: أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين، فأجابه: «قمت وأنا عمر بن عبدالعزيز ورجعت وأنا عمر بن عبدالعزيز».

ولما فرغ عمر بن عبدالعزيز من دفن سليمان بن عبد الملك الخليفة السابق أتى بمراكب الخلافة فقال: دابتي أرفق بي، فركب بغلته، ثم قيل له: تنزل منزل الخلافة، قال:

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه عليه الذهبي.

فيها عيال أبي أيوب - يعني سليمان - وفي فسطاطي كفاية فلما كان مساء تلك الليلة، قال: يا رجاء ادع لي كاتبًا، فدعوته فأملى عليه كتابًا أحسن إملاءً وأجزه وأمر به فنسخ إلى كل بلد.

!ð · · · · · رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

معلوم أن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان سيد المسلمين في زمانه وولي الخلافة بعد مقتل أبيه ستة أشهر ثم تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومع ذلك يحكى عنه الشيء العجيب في التواضع، من ذلك:

مر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذات يوم بجماعة من الفقراء وقد وضعوا طعامهم على وجه الأرض وهو عبارة عن كسرة من الخبز؛ كانوا قد التقطوها من الطريق؛ فدعوه إلى مشاركتهم فأجابهم إلى ذلك وهو يقول: إن الله لا يحب المتكبرين، ولما فرغ من تناول الطعام دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم من إحسانه.

ومر ذات يوم أيضًا بصبيان يتناولون طعامهم فدعوه إلى مشاركتهم فأجابهم إلى ذلك ثم حملهم إلى بيته فمنحهم من بره ومعروفه، وقال: اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر مما أعطيناهم.

!èç · · · · · رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال خلف بن تميم: رأيت الثوري بمكة وقد كثروا عليه، فقال: إنا لله، أخاف أن يكون الله قد ضيع الأمة حيث احتاج الناس إلى مثلي.

وقال علي بن المديني: كان سفيان الثوري إذا سئل عن شيء يقول: لا أحسن، فنقول: من نسأل، فيقول: سل العلماء وسل الله التوفيق.

وأختم بما قاله عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا عرف الرجل قدر نفسه، يصير عند نفسه أذل من الكلب.

المبحث الرابع

هناك صفات معينة يعرف بها الإنسان نفسه إن كان متواضعًا أم متكبرًا، ذكرها الغزالي في الإحياء، ولينظر كل مسلم موقعه من تلك الصفات وليكن صادقًا في ذلك وليحكم على نفسه هل هو من أهل التواضع أم لا؟ وسأذكرها هنا باختصار وتصرف فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:

أولاً: من صفات الكبر أن يجب أن يقوم الناس له إذا دخل مجلسًا أو مكتبًا أو أي موقع يجتمع فيه الناس، ويرى أنه إذا لم يُقَمَّ له فقد نُقصَ من قدره وحُطَّ من مكانته، وقد ورد في الحديث ذم هذه النوعية من الناس: «من أحب أن يتمثل الرجال له قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»^(١)، وأما إذا قام الناس له دون تطلع منه لذلك بل كرهه فلا يدخل في هذا الحديث وبخاصة إذا كان من أهل العلم والشرف في الناس.

ثانيًا: من علامات الكبر أن لا يمشى إلا ومعه غيره سواء كان عالما والذي خلفه أحد طلبته أو ثريا والذي خلفه أحد خدمه أو ما أشبه ذلك من الناس ممن لهم أتباع، ورد عن أبي الدرداء قوله: «لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما مُشِيَ خَلْفَهُ»، وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة، وهذا أدب الصحابة والصالحين كانوا لا يتميزون عن خدمهم وعبيدهم خشية الكبر.

ثالثًا: ومن علامات الكبر أن لا يزور غيره بل يجب أن يزار ولا يزور ولو كانت زيارته لزيد من الناس فيها نفع في دينه، وذلك لأنه يرى أنه دون أن يمشى إلى أحد في

(١) رواه أبو داود.

بيته، وأن الأصل أن يأتيه الناس فمن وجد ذلك في نفسه فليعلم أنه متكبر، ومعلوم من سيرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يزور أصحابه في الأفراح والأحزان.

رابعًا: ومن علامات الكبر أن يكره أن يجلس غيره بالقرب منه بحيث يلتصق بدنه بدنه بل يريد أن إذا جلس مجلسًا أن يكون من معه جالس بين يديه، وهذا يورث الكبر، قال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فمس فخذي فخذته فنحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه، وقال: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف رجلاً منكم رجلاً شرًّا مني؟

خامسًا: ومن علامات الكبر أن ينأى بنفسه عن مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشاهم وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يجس عن طعامه مجذومًا ولا أبرص ولا مبتلى إلا أفعدهم على مائدته.

سادسًا: ومن علامات الكبر أن لا يتعاطى في بيته شغلًا بيديه، بل دائمًا يحب أن يخدمه أهل البيت ولا يخدم، وفي الحقيقة أن الخدمة في البيت أيا كان نوعها لها أثر كبير في تواضع الإنسان، وعدم مزاوله أعمال البيت من أعظم ما يورث الكبر - عيادًا بالله - ولهذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما وصفته عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «يكون في مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة».

وورد عن عمر بن عبدالعزيز أنه أتاه ضيف وكان يكتب، فكاد السراج أن ينطفئ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام؟ يعني خادم عمر، فقال: لا، هي أول نومة نامها، فقام عمر وأخذ القارورة وملاً المصباح زيتًا، فقال الضيف: قمت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء.

سابعًا: أن لا يشتري حوائجه بنفسه ولا يحملها إلى بيته فتجده يرسل من يشتري له حاجياته وهذه عادة المتكبرين لا المتواضعين ولقد كان سيد المتواضعين سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشتري حوائجه بنفسه، ولهذا قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله».

ثامنًا: أن يلبس الفاخر من الثياب ولا يكتفي بالمتوسط الذي عليه عامة الناس، وقد أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن التواضع هو الرضا بالدون من اللباس، عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها»^(١).

وعن أبي أمامة الأنصاري قال: ذكر أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً عنده الدنيا فقال: «ألا تسمعون ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان»^(٢)، وفسر العلماء البذاذة بالدون من اللباس.

واللباس الفاخر والدون إنما هو بحسب المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان فقد يكون فاخراً في مجتمع أو قرية وهو ليس كذلك في مجتمع آخر، كما أنه يختلف بحسب مقامات الناس وصناعاتهم، والمقصود ألا يلبس الفاخر بحسب المجتمع الذي يعيش فيه، ولا يرى في نفسه حرجاً أن يلبس ما وهو دون بالنسبة لأمثاله دون أن يزري بحاله بين الناس والله أعلم.

وأخيراً: هذه الخصال التي سبق ذكرها هي المقياس الذي يقيس به الإنسان نفسه، فإن وجد أنه - على سبيل المثال - لا يجد غضاضة في نفسه أن يزور بعض معارفه دون النظر إلى الفارق الاجتماعي بحسب أحوال الدنيا فهو من المتواضعين، وأما إذا كان

(١) رواه الترمذي وحسنه.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه.

يتخرج من زيارة من هو دونه في المنزلة فعليه أن يراجع نفسه فلعله من المتكبرين وهو لا يشعر، ومن هنا أقول: لا بد من تطبيق عملي لكل خصلة من الخصال الثمانية آنفة الذكر حتى يتبرأ الإنسان من الكبر ويدخل في زمرة أهل التواضع، وأذكر القاري بالبيتين الذين بدأت بهما هذا الصفة من صفات عباد الرحمن.

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه على طبقات الجو وهو ضيع





الصفة الثانية:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

الْحُلْم



المَقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،
ويعد: فمع الخصلة الثانية من خصال عبد الرحمن وهي الحلم وقد وردت في قوله تعالى:
﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾.

ولعل ورود الحلم بعد التواضع لكون التواضع فيه إشارة إلى مخالطة الناس ومن
يخالط الناس لا بد أن يلحقه شيء من الأذى فمن ثمة فهو مفتاح إلى الحلم، ولهذا جاءت
هذه الصفة في إشارة واضحة إلى أن عباد الرحمن هم أهل الحلم كما أنهم أهل التواضع.

وسوف ينتظم الكلام على هذه الصفة في أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
قَالُوا سَلَمًا﴾.

المبحث الثاني: بيان صفة الحلم من خلال الآيات والأحاديث والآثار إن شاء الله
تعالى.

المبحث الثالث: في بيان الأسباب الموصلة إلى الحلم.

المبحث الرابع: بيان حلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.



المبحث الأول

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

١- قال الميداني: خاطبهم أي جعل يراجع معهم الكلام، يقال لغة: خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً إذا تراجع الكلام بينهما في خطبٍ ما، أي في أمر ما.... والجاهلون المراد بهم هنا الذين لا عقل لهم يمسكهم عن السفه والغضب وإطلاق الشتائم والألفاظ القبيحة، الأمر الذي قد يجر إلى التقاتل، ومنه مقالة العربي الجاهلي «عمرو بن كلثوم»: ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ثم قال بعد ذلك بأسطر: فعباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون بجهالة وسفه، مستثيرين غضبهم قالوا لهم: سلاماً، فيفارقون - بإعلان السلام - مجلس الجاهلين. والسلام يشمل سلامة العرض والجسم والمال وكل ما يهم الإنسان سلامته، وقد بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من الصفات الأساسية للمسلم أن يسلم أخوه المسلم من لسانه ويده، روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(١).

٢- قال ابن كثير: أي إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيئ لم يقابلوه عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تزيده شره الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، وروى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسبَّ رجلٌ رجلاً آخر عنده، فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) معارج التفكير ودقائق التدبر (٦/ ٦١٢ و ٦١٣) باختصار.

«أما إن ملكاً بينكما يذُبُّ عنك كلما شتمك هذا قال له: بل أنت، وأنت أحق به، وإذا قلت له: وعليك السلام: قال: لا بل عليك، وأنت أحق به»^(١).

قال سعيد بن جبير: «ردوا معروفًا من القول»، وقال الحسن البصري: «قالوا سلام عليكم، إن جهل عليهم حلموا»^(٢).

٣- قال الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين: قوله: ﴿الْجَاهِلُونَ﴾ أي السفهاء وقوله: ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ أي مع القدرة على الانتقام، فالمراد الإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام وهذا الخلق من أعظم الأخلاق لما في الحديث: «كاد الحليم أن يكون نبياً»^(٣).

قلت: خلاصة ما قاله أهل العلم: أن من صفات عباد الرحمن: الحلم، وذلك لأن الله تعالى أخبر أنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، لأن همتهم أكبر من أن ينزلوا إلى درك هؤلاء السفهاء مع أنهم في إمكانهم الرد وكما يقال الصاع صاعين والكيل كيلين ولكنهم تركوا ذلك نظرًا إلى عواقب الأمور، إذ أن مجارة السفهاء غالبًا تؤدي إلى الفتنة وإلى شر مستطير والله أعلم.



(١) إسناده حسن ولم يخرجوه.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٣/ ١٦٥)، [ولا أعلم شيئًا عن هذا الحديث الذي جاء به الصاوي



المبحث الثاني

B B

(أ) **معنى الحلم لغة:** مصدر حَلَمَ فلان أي صار حليماً وهو مأخوذ من مادة (ح ل م)، التي تدل على ترك العجلة، يقال حَلَمْتُ عنه أحلم فأنا حليم، قال ابن فارس: الحلم: خلاف الطيش، وقال الجوهري: الحِلْم - بالكسر - الأناة، وقيل هو الأناة والعقل، وهو نقيض السفه، وجمعه أحلام وحُلُوم، وفي التنزيل: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا ﴾ وقولك: حَلَمٌ يَحْلِمُ حِلْمًا أي صار حليماً، وتقول تحلّم أي تكلف الحلم.

تحلّم عن الأذنين واستبق ودّهم ولن تستطيع الحلم حتى تحلّما

(ب) **الحلم شرعاً:** جاء في تعريفه أقوال:

- ١- قال الراغب: الحلم: ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب.
- ٢- قال الجاحظ: الحلم: ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة عليه.
- ٣- قال القشيري: «قيل الحلم: تأخير العقوبة عن المستحق لها، فيكون من صفات فعله - أي الباري عزّ وجلّ - يوصف به في الأزل، وقال أهل الحق: حلمه - أي الله عزّ وجلّ - إرادته تأخير العقوبة، فهو من صفات ذاته، لم يزل حليماً ولا يزال، فيؤخر العقوبة عن بعض المستحقين ثم قد يعذبهم، وقد يتجاوز عنهم ويعجل العقوبة لبعضهم، فالأمر في ذلك على ما سبق به الحلم في الأزل وتعلقت به الإرادة والعلم».

جاءت صفة الحِلْم في القرآن الكريم باعتبارها صفة لله تعالى وباعتبارها صفة
للأنبياء وكذلك صفة للمؤمنين، وإليك الآيات في ذلك:

١- ما جاء من الآيات في وصف الله تعالى بالحليم: قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ نَسَأُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١]، والآيات في وصف الله تعالى بالحليم كثيرة وهذه للاستدلال فقط.

توضيح معنى الحليم في الآية الأولى: الحليم: هو ذو الأناة الذي لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم، ولا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكن جعل لكل شيء مقداراً فهو متته إليه^(١).

قلت: تأمل هذا الكلام تجده موافقاً لما ذكرناه قريباً عن القشيري في تعريف صفة الحلم في حق الله تعالى، وهذا يوافق المقولة المشهورة على السنة الخطاباء: «يمهل ولا يهمل».

٢- ما جاء من الآيات في وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالحلم:

قال الله تعالى في وصف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

وقال تعالى في وصف إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ المراد أن الله بشر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بغلام حليم هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بدلالة ما بعدها: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

٣- ما جاء من الآيات في وصف المؤمنين بالحلم: لم ترد كلمة الحلم بلفظها في وصف المؤمنين وإنما جاءت بمعناها من ذلك:

قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنَعِي الْجَاهِلِينَ﴾ [التقصص: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]. يقول الشريبي في تفسير معنى ﴿اللَّغْوِ﴾: «قيل هو كل ما لا يعنى الشخص من قول أو فعل وهو ما يستحق أن يسقط ويلغى، فمدحهم الله تعالى بأنهم معرضون عن هذا اللغو، والإعراض عنه هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط ما يأتيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه»^(١) اهـ.



المبحث الثالث

قال ابن حبان: «الحلم منه ما يكون سجية وطبعاً، ومنه ما يكون تجربة وتكلفاً ومنه ما يكون مركباً منها، وأول الحلم المعرفة ثم التثبيت ثم العزم ثم التصبر ثم الصبر ثم الرضى ثم الصمت والإغضاء، وما الفضل إلا للمحسن لمن أساء فالواجب على العاقل إذا غضب واحتد أن يذكر كثرة حلم الله عنه مع تواتر انتهاكه محارمه وتعيده حرمانه، ثم يحلم ولا يخرج غيظه إلى الدخول في أسباب المعاصي»^(١) اهـ.

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك صار ذلك اعتيادياً له فلا يهيجه الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهذا هو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ويكون ابتداءه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً ويعتاد ذلك حتى يصير خلقاً مكتسباً»^(٢).

قلت: ويدل على كل من الحلم والتحلم ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ يَا أَشَجُّ خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ» قَالَ: وَمَا بَأْبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ»، قَالَ الْأَشَجُّ: خُلُقَانِ تَخَلَّقْتَهُمَا أَوْ خُلُقَانِ جُبِلْتُ عَلَيْهِمَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ خُلُقَانِ جَبَلَكُ اللهُ عَلَيْهِمَا»، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ. هذه رواية أبي يعلى وأصل الحديث في الصحيح كما أشرنا إليه.

(١) نضرة النعيم (١٧٣٦/٥).

(٢) الإحياء (١٧٦/٣) بتصرف نقلاً عن نضرة النعيم (١٧٣٩/٥).

من هنا نعلم أن المرء قد يُجِبُّ على الحلم وقد يتكلفه حتى يصير له خلقا. ولذا جاء في الأثر «الحلم بالتحلم والعلم بالتعلم»، ثم من لم يكن الحلم من أخلاقه وأراد أن يتحلم فعليه أن يأخذ بأحد الأسباب أو بمجموعها التي ذكرها الماوردي في أدب الدين والدنيا^(١)، وسأورد هنا بعضا من تلك الأسباب بحسب ما يقتضيه حال الناس اليوم بتصرف يسير:

السبب الأول: الرحمة للجهال: وإنما تأتي هذه الرحمة في قلب من كانت له رحمة ولذا قال أبو الدرداء لرجل أسمعته فاحشًا من القول: «يا هذا، لا تغرقن في سبنا، ودع للصلح موضعاَ فإننا لا نكافى من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه»، وشمتم رجل الشعبي، فقال: «إن كنتُ كما قلتَ فغفر الله لي، وإن لم أكن كما قلتَ فغفر الله لك».

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

أُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ جُهْدِي	وَأَكْرَهُ أَنْ أُعْيِبَ وَأَنْ أُعَابَا
وَأُصْفِحُ عَنِ سَبَابِ النَّاسِ حُلْمًا	وَشَرِّ النَّاسِ مَنْ يَهْوِي السَّبَابَا
وَمَنْ هَابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوهُ	وَمَنْ حَقَرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يَهَابَا

السبب الثاني: الترفع عن السباب: وذلك من شرف النفس، وعلو الهمة كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم، وقد قيل: إن الله تعالى سمى يحي سيدا لحلمه، وأكثر رجل من سب الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه: فقال: «والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه»، وفي هذا المعنى يقول الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

إِذَا نَطَقَ السُّفِيهَ فَلَا تَجِبْهُ	فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ
فَإِنْ كَلِمَتُهُ فَرَجَّتْ عَنْهُ	وَإِنْ خَلِيَتُهُ كَمَدَ يَمُوتُ

(١) أدب الدنيا والدنيا للماوردي (٢٤٣-٢٤٦).

السبب الثالث: الاستحياء من جزاء الجواب: وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة، وقال بعض الحكماء: «احتمال السفية خير من التحلي بصورته، والإغضاء عن الجاهل خير من مشاركته»، وهذا يعني ما نسميه نحن بعدم النزول من مستواك إلى مستوى هذا الجاهل وإلا ساويته في جهله وسفهه، وبذلك تسقط من أعين الناس بل ومن عين الملائكة كما دل عليه الحديث الذي رواه أحمد ونقلناه من تفسير ابن كثير عند ذكر أقوال المفسرين في الآية حيث كان الملك يقول له: «وعليك، وأنت أحق»، هذا خطابه للحليم فلو لم يكن هذا جوابه لقليل له ما قيل للسفيه «بل أنت وأنت أحق به».

السبب الرابع: التفضل على السفية: وهذا يكون من الكرم، وحب التآلف بين القلوب، وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال: «ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى منى عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدرتي عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه»، فأخذ الخليل هذا الكلام ونظمه شعراً:

سألزمت نفسي الصفح عن كل مذنب	وإن كثرت منه إلي الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ومشروف وممثل مقاوم
فأما الذي فوقى فأعرف قدره	وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فأحلم دائبا	وأصون به عرضي وإن لام لائم
وأما والذي مثلي فإن زل أو هفا	تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

قلت: وإنما الأخذ بهذه الأسباب يكون حسب المواقف وقد يكفي التزام الشخص بواحد منها حتى يصير تحلّمه حلماً، ولكن الذي أراده الماوردي رَحِمَهُ اللهُ هو الكشف عما في النفوس من دوافع للحلم ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ والله أعلم.



المبحث الرابع

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١- لما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر الناس حلماً كان لا بد وأن تجد في سيرته العطرة ما يدل على ذلك، إذ حكي أن أعرابياً جاء إليه يطلب منه عطاءً، فأعطاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال له: «أحسنْتَ إليك؟» قال الأعرابي: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه.... فأشار إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئاً ثم قال له: «أحسنْتَ إليك؟» قال: نعم فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرًا، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنك قلت ما قلت أنفًا، وفي نفس أصحابي منك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عنك»، فقال: نعم، فلما كان من الغد جاء، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي أكذلك؟»، قال: نعم فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «مَتَلِي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه، فتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورًا فناداهم صاحبها، فقال لهم: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه بين يديها، فأخذ من قمام الأرض فردها هونًا هونًا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار».

٢- عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أمشي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذدة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أثرت بها الحاشية ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء (١).

٣- لقد تألق في تاريخ المسلمين رجال كثيرون حازوا قصب السبق في الحلم ومنهم من صار يضرب به المثل في الحلم ومن أولئك الأحنف بن قيس فقالوا: «أحلم من الأحنف»، ومما يذكر من حلمه أن رجلاً تبعه بالشم حتى بلغ الأحنف حيه، فقال للرجل، يا هذا إن كان بقى في نفسك شيء فهاته وانصرف، لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره»، وقد سئل الأحنف: ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم المنقري ثم ذكر القصة التالية فقال: «كان قيس جالساً ذات يوم بفناء داره، وهو محتب بكسائه، فدخل عليه جماعة يحملون شخصاً مقتولاً، ويقودون شخصاً مكتوفاً: فقالوا: هذا ابنك قد قتله ابن أخيك، فلم يضطرب ولم يفك حبوته، بل التفت إلى أحد أبنائه وقال له: قم فاطلق عن ابن عمك، وواد أخاك، واحمل إلى أمه مائة من الإبل فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

دَنَسٌ يَغْيِرُهُ وَلَا أَفْنُ	إِنِّي أَمْرٌ لَا يَعْتَرِي خُلُقِي
وَالْغُصْنُ يَنْبِتُ حَوْلَهُ الْغُصْنُ	مَنْ مَنَقَرَ فِي بَيْتٍ مَكْرَمَةٍ
بِيضُ الْوَجْهِ أَعْضَةٌ لَسُنُّ	خَطْبَاءٌ حِينَ يَقُومُ قَائِلُهُمْ
فَهُمْ لِحَفْظِ جَوَارِهِ فُطْنُ	لَا يَفْطَنُونَ لَعَيْبِ جَارِهِمْ

ثم أقبل على ابن أخيه وهو القاتل فقال له: «قتلت قرابتك، وقطعت رحمك وأقلت عددك، لا يبعد الله غيرك».

٤- سأل سائل مالكا عن مسألة فأجابه، فقال: «أنت من الناس أحياناً تخطئ وتصيب أحياناً» قال: «صدقت، هكذا الناس» ف قيل لمالك: لم تدر ما قال لك؟ ففطن لها مالك وقال: «عهدت العلماء لا يتكلمون بمثل هذا وإنما أجبتك على جواب الناس»^(١).

٥- عن أبي يعقوب المدني قال: كان بين حسن بن حسن وبين ابن عمه علي بن الحسين شيء، فما ترك شيئاً إلا قاله، وعليٌّ ساكت فذهب حسن، فلما كان في الليل أتاه عليٌّ فخرج له فقال علي: «يا ابن عمي إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك، السلام عليك»، قال: «فالتزمه حسن -أي ضمه إليه- وبكى حتى رثى له»^(١).

٦- عن عمر بن إسحاق قال: «دخلنا على الحسن بن علي نعوده، فقال لصاحبي: يا فلان سلمي، ثم قام من عندنا فدخل كنيئاً ثم خرج، فقال: إني والله قد لفظت -أي أخرجت طائفة- كمية- من كبدي فقلبتها بعود، وإني سقيت السم مراراً، فلم أسق مثلاً هذا، فلما كان من الغد أتيته، وهو يسوق -يعنى في حالة الاحتضار- فجاء الحسين فقال: أي أخي أنبئني من سقاك السم؟ قال: لم؟! لتقتله؟ قال: نعم، قال: ما أنا بمحدثكم شيئاً إن كان صاحبي الذي أظن -يعني الذي سقاه السم- فالله أشد انتقاماً وإلا فوالله لا يقتل بي برئ»^(٢).

٧- عن هشام قال: كان أبو السوار يعرض له الرجل فيشتمه، فيقول: «إن كنت كما قلت إني إذا لرجل سوء»^(٣).

٨- قال لقمان الحكيم: «ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه».

٩- وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله وإذا أسأت استغفرت الله»، وقال أيضاً: «إن أول ما عُوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل».

(١) المرجع السابق (٤/ ٣٨٥).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٢٧٣).

(٣) المرجع السابق (١١/ ٣٥١).

١٠- قال ابن حيان: «الحِلْمُ أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام، وهو يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والتثبت، ومن يتصف به يكون عظيم الشأن، رفيع المكان محمود الأجر، مرضي الفعل، ومن أجل نفاسته تسمى الله به فسمى حليماً».

١١- وقال الشافعي:

يخاطبني السفيه بكل قبح	فأكره أن أكون له مجيباً
يزيد سفاهة فأزيد حلماً	كعود زاده الإحراق طيباً

وقال أيضاً:

إذا نطق السفيه فلا تجبه	فخير من إجابته السكوت
فإن كلمته فرجت عنه	وإن خليته كمدا يموت

١٢- قال بعض العلماء: «ليس الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا».

١٣- جاء رجل إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسبه فالتفت ابن عباس إلى عكرمة وقال له: «يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضها»، فنكس الرجل رأسه واستحى مما رأى من حلمه وعلمه.

١٤- عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ «أن رجلاً سبه فرمى إليه بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم»، فقال بعضهم: جمع له خمس خلال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

١٥- قال الشافعي:

إن سبني نذل تزايدت رفعة	وما العيب إلا أن أكون مسابيه
ولو لم تكن نفسي علي عزيزة	لمكنتها من كل نذل تحاربه

ولو أنني أسعى لنفعي وجدتني كثير التواني للذي أنت طالبه
ولكنني أسعى لنفع صاحبي وعار على الشبعان أن جاع صاحبه

خامساً: مقارنة بن هذه الآثار وبين واقع المسلمين اليوم:

وبعد قراءة هذا الآثار لعلك تعلم أخي القارئ الكريم الفرق الشاسع والبون البعيد بين ما كان عليه سلف هذه الأمة وبين ما آل إليه حال المسلمين اليوم وليتضح ذلك فسوف نطرح هذه الأسئلة:

- ١- لو قام شخص وسب الآخر وشتمه، فما هو رد فعل هذا الأخير؟ هل سيسكت أم سيرد بأقبح الألفاظ.
- ٢- عندما يقود أحدنا السيارة فيأتي من يعاكسه في الطريق سواء كان بقصد أم بغير قصد؟ ما ذا سيكون رد الفعل يا ترى؟
- ٣- عندما يحدث شجار بين أولادك الصغار في البيت ويحدث شيء من الإزعاج ما هي رد فعلك تجاههم؟ إن لم يكن لعن فهو سب وشتم.
- ٤- كم من القضايا في المحاكم الشرعية وغيرها بسبب كلمة قالها أحد الناس لأخيه المسلم فأنشبت بينهما القطيعة والجري وراء المحكمة؟
- ٥- عندما يسمع الرجل من زوجته كلاماً لا يرضاه أيسكت أم أنه يطيش غضباً فيسبها ويسب اليوم الذي جمعه بها....؟.
- ٦- ما ذا لو ضرب ابن الجيران ولدك؟ أتعلمه الحلم أم الغضب والانتقام؟ أم ما ذا يا ترى؟ الواقع يقول: آخذ حقي ولو على رأسي....؟!.





الصفة الثالثة:

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾

قيام الليل



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

وبعد:

فهذه هي الصفة الثالثة من صفات عباد الرحمن ألا وهي قيام الليل والتي أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾.

وهذه الصفة فيها بيان لحال عباد الرحمن مع الخالق جَلَّ وَعَلَا بعد أن استبان حالهم مع الخلق من الحلم والتواضع في الصنفين السابقين.

ولما كان قيام الليل هو المدرسة التي تتربى به النفوس على تقوى الله تعالى والقيام بأوامره واجتناب نواهيه، كان لا بد من إطالة النفس فيها قليلاً وتلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾.

المبحث الثاني: آيات أخر تحث على قيام الليل وتفسير آيتين منها.

المبحث الثالث: فوائد قيام الليل من خلال الأحاديث الواردة فيه.

المبحث الرابع: بيان الأسباب الميسرة لقيام الليل.

المبحث الخامس: في ذكر نماذج من قيام الليل عند السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.



المبحث الأول

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ قال الزجاج: بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم، قال زهير:

فبِتْنَا عِنْدَ رَأْسِ جِوَادِنَا يَزَاوِلُنَا عَنِ نَفْسِهِ وَنَزَاوِلُهُ
وَأَنْشَدُوا فِي صِفَةِ الْأَوْلِيَاءِ:

إِمْنَعْ جِضُونُكَ أَنْ تَذُوقَ مَنَامَا وَأَذْرِ الدَّمُوعَ عَلَى الْخُدُودِ سِجَامَا
وَأَعْلَمْ بِأَنَّكَ مَيِّتٌ وَمِحَاسِبٌ يَأْمَنُ عَلَى سَخَطِ الْجَلِيلِ أَقَامَا
لِلَّهِ قَوْمٌ أَخْلَصُوا فِي حُبِّهِ فَرَضِي بِهِمْ وَاخْتَصَّصَهُمْ خُدَامَا
قَوْمٌ إِذَا جَنَّ الظُّلَامُ عَلَيْهِمْ بَاتُوا هُنَاكَ سُجَّدًا وَقِيَامَا
حُمُصُ الْبَطُونِ مِنَ التَّعْظُفِ ضُمَّرَا لَا يَعْرِفُونَ سِوَى الْحَلَالِ طَعَامَا

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً».

وقال الكلبي: «من أقام ركعتين بعد المغرب، وأربعاً بعد العشاء فقد بات ساجداً وقائماً».

وقال الخطيب الشربيني: ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهي الصفة الثالثة بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ ﴾ من البيوتة، قال الزجاج: كل من أدركه الليل قيل بات وإن لم ينم، كما يقال: بات فلان قلقاً، والمعنى يبيتون ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾ أي المحسن إليهم ﴿ سُجَّدًا ﴾ على وجوههم في الصلاة، وقدمه لأنه أنهى - أي منتهى الخضوع، وآخر عنه قوله تعالى: ﴿ وَقِيَمًا ﴾ على أقدامهم - وإن كان تطويل القيام

أفضل، للروى، أي فواصل الآيات، وتخصيص البيوتة لأن العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء.

وقال الميداني: «سجداً: جمع ساجد، وأصل السجود الخضوع وطأطة الرأس، ويستعمل بمعنى الخضوع التام، وهو نوعان:

١- سجود بالاختيار: كسجود الملائكة وكسجود العباد من الإنس والجن لله

عَزَّجَلَّ.

٢- سجود بالجبر: وهو سجود لأمر الله التكويني وهو خضوع كل شيء لأمر الله

التكويني وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وفي كلا نوعي السجود يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]. هذا عام في السجود العام بمعنى غاية الخضوع لأمر الله التكويني وأمر الله التكليفي وأما السجود في عبادة الصلاة فهذه صفة خاصة معروفة... وهذا السجود الجسدي يتضمن تعبيراً مادياً جسمىً عن غاية الخضوع الإرادي لله عَزَّجَلَّ في عبادته ﴿وَقِيمًا﴾: جمع قائم، وفي تقديم ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ على ﴿سُجَّدًا وَقِيمًا﴾ حصر وقصر أي يسجدون ويقومون لله وحده.

والمعنى: أن من صفات عباد الرحمن أنهم يتفرغون في لياليهم لعبادة ربهم، يتهدجون

بكثره السجود لله وحده، وكثرة القيام لله وحده ذاكرين الله عَزَّجَلَّ بألسنتهم وقلوبهم

وأفكارهم يمجّدونه ويمدّونه ويسبّحون بحمده ويقدسون له، ويسألونه خوفاً وطمعاً ويخشون عذابه، ويرجون ثوابه... ثم قال بعد كلام طويل فهذا الوصف ملازم لهم غالباً كلما باتوا ودخل عليهم الليل وخلوا بأنفسهم لربهم دل على هذا الفعل ﴿يَبْتَئُونَ﴾^(١) .



المبحث الثاني

ââ

- قال الله تعالى: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧) ﴿ وَإِلَّا اسْتَحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمُرْمِلُ ۝١ قُرْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنْتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ ءَأَنَاءَ اللَّهِ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ﴾ [ق: ٤٠].

- تفسير قوله تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧) ﴿ وَإِلَّا اسْتَحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصحة في تأويل: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا... ﴾ قول من قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم: لأن الله وصفهم بذلك مدحاً لهم وأثنى عليهم فوصفهم بكثرة العمل وسهر الليل ومكابدته فيما يقربهم منه ويرضيه عنهم أولى وأشبه ممن وصفهم من قلة العمل وكثرة النوم مع أن الذي ذكرناه أغلب المعاني على ظاهر التنزيل.

وقال ابن كثير: ثم إنه تعالى بين إحسانهم - أي المتقين - في العمل فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً»، وقال قتادة عن مطرف ابن عبد الله: «قلَّ ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عَزَّجَلَّ، إما من أولها وإما من

أوسطها»، وقال مجاهد: «قل ما يرقدون ليلة حتى الصباح إلا يتهجدون»، وكذا قال قتادة وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبو العالية كانوا يصلون بين المغرب والعشاء.

- والآخر: إن ما مصدرية تقديره كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير.

وقال الحسن البصري: «كابدوا قيام الله فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر».

وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله ويرسل الله، مكذبون بالبعث بعد الموت، فقد وجدت من خيرنا منزلةً قومًا خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا ذكر الله تعالى قومًا، فقال: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبي: «طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ».

وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَإِلَّا سَحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلون، وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧].

فإن كان الاستغفار في صلاة فهو حسن، وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيُعْطَى سؤُله؟ حتى يطلع الفجر».

تفسير قوله تعالى: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [١٦] فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [السجدة: ١٦-١٧].

قال القرطبي: أي ترتفع وتنبو - جنوبهم - مواضع الاضطجاع، والمعنى: متجافية جنوبهم، والمضاجع جمع مضجع وهي مواضع النوم، ومنه قول عبد الله بن رواحة:
وفينا رسول الله يتلوا كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استقلت بالمشركين المضاجع

- وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان:

- أحدهما: لذكر الله، إما في صلاة وإما في غير صلاة، قاله ابن عباس والضحاك.

- الثاني: للصلاة، وفي هذه الصلاة أربعة أقوال:

- القول الأول:

التنفل بالليل، قاله جمهور المفسرين وعليه أكثر الناس وهو الذي فيه المدح، وهو قول مجاهد والأوزاعي ومالك بن أنس وغيرهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفي والله أعلم.

- القول الثاني:

صلاة العشاء، قاله الحسن وعطاء، وفي الترمذي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة - أي العشاء» حسن غريب.

- القول الثالث:

التنفل ما بين المغرب والعشاء، قاله قتادة وعكرمة، روى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ... ﴾ قال: كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء، وفي رواية عنه: «انتظار صلاة العشاء الآخرة لأنهم كانوا يؤخرونها إلى ثلث الليل».



- القول الرابع:

قال الضحاك: تتجافى جنوبهم هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة، وقاله أبو الدرداء وعبادة.

- قلت: وقد جاء حديث رواه الترمذي وغيره يبيّن أن المراد بالآية الكريمة هي صلاة الرجل في جوف الليل، عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير، الصوم جنة، والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم تلا: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ... ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

- قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً فإن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: «أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر».

وعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة، يقول: أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول:

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد والنسائي وذكره النووي في الأربعين النووية وللحديث بقية وهو حديث معروف مشهور.

لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: لك ذلك وعشرة أمثاله ولك ما اشتتهت نفسك ولذت عينك، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصادقه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)، وورد في تفسيرها عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الأمر في هذا أجل وأعظم من أن يعرف تفسيره».

- قال القرطبي: وفي معنى هذه الآية قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«قال الله عَزَّجَلَّ أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿نُتَجَفَى جُنُوبُهُمْ﴾^(٢).

- قال القرطبي: وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً كما جاء مبيناً في صحيح مسلم ثم ذكر الحديث السابق: «سأل موسى ربه... الخ».



(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الشيخان.

المبحث الثالث

الفائدة الأولى: الوصول إلى محبة الله تعالى: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ وَثَلَاثَةٌ يَسْنُؤُهُمُ اللَّهُ: الرَّجُلُ يَلْقَى الْعَدُوَّ فِي فِئَةٍ فَيَنْصَبُ لَهُمْ نَحْرَهُ حَتَّى يَقْتُلَ أَوْ يَفْتَحَ لِأَصْحَابِهِ، وَالْقَوْمُ يَسَافِرُونَ فَيَطُولُ سِرَاهِمَ حَتَّى يُحِبُّوا أَنْ يَمْسُوا الْأَرْضَ فَيَنْزِلُونَ، فَيَتَنَحَّى أَحَدُهُمْ فَيُصَلِّي حَتَّى يُوَقِّظَهُمْ لِرَحِيلِهِمْ، وَالرَّجُلُ يَكُونُ لَهُ جَارٌ يُؤَذِيهِ جَارُهُ فَيَصْبِرُ عَلَى آذَاهُ حَتَّى يَفْرُقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ، وَالَّذِينَ يَسْنُؤُهُمُ: التَّاجِرُ الْحَلَّافُ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ»^(١)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب، وعزاه إلى الطبراني في الكبير وقال: «بإسناد حسن»، ولفظه كما يلي: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ، وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ: الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتِلٌ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، فِيمَا أَنْ يَقْتُلَ وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ وَيَكْفِيهِ، فَيَقُولُ: انظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا كَيْفَ صَبَرَ لِي بِنَفْسِهِ، وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَةٌ وَفِرَاشٌ لَيْنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: يَذِرُ شَهْوَتَهُ وَيَذْكُرُنِي، وَلَوْ شَاءَ رَقِدَ، وَالَّذِي إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ مَعَهُ رُكْبٌ فَسَهَرُوا، ثُمَّ هَجَعُوا - رَقَدُوا - فَقَامَ مِنَ السَّحَرِ فِي سِرَاءٍ وَضِرَاءٍ».

قلت: ما من شك أن الوصول إلى محبة الله تعالى من أجل ما يصبو إليه المؤمن فإذا وجد عملاً يحبه الله تعالى فعله ولو مرة واحدة كما قال بعض السلف: «إذا سمعت بعمل صالح فافعله ولو مرة تكن من أهله».

الفائدة الثانية: قيام الليل من الأعمال التي يباهي الله بها ملائكته: يدل على ذلك ما تقدم في الحديث السابق ويدل عليه أيضاً الحديث الذي ورد عن ابن مسعود

(١) الحديث رواه الترمذي وابن حبان والحاكم والنسائي بلفظ آخر.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وظيفته وولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته، فيقول الله جَلَّ وَعَلَا: انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووظيفته من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله، وانهزم أصحابه وعلم ما عليهم من الانصراف في الانهزام، وما له في الرجوع، فرجع حتى يهريق دمه، فيقول الله عَزَّجَلَّ ملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رجاء فيما عندي وشفقة مما عندي حتى يهريق دمه» (١).

الفائدة الثالثة: الفوز بدخول الجنة بقيام الليل: عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أول ما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستثبته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» (٢).

الفائدة الرابعة: الفوز بغرف خاصة في الجنة بقيام الليل: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها وباطنُها من ظاهرها»، فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام» (٣).

الفائدة الخامسة: استجابة الدعاء في قيام الليل: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً

(١) قال المنذري: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن والحاكم وقال صحيح على شرطها ووافقه الذهبي.

من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»^(١). وقد تقدم بمعنى هذا الحديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا»، ذكرته عند تفسير قوله تعالى ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ...﴾ الآية.

قلت: إن كثيراً من الناس يسمي ويصبح في هموم لا أول لها ولا آخر ولكنه لا يفكر في هذا الإرشاد النبوي لإزالة هذه الهموم ألا وهو الدعاء في آخر الليل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الغفلة الشديدة عن الله تعالى، نسأل الله تعالى أن يوقظنا والمسلمين من رقدتنا.. آمين.

الفائدة السادسة: الدخول في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحمة لمن قام من الليل: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبِي نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»^(٢).

الفائدة السابعة: الدخول في زمرة الذاكرين الله كثيراً والذاكرات: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَتَبَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»، وزاد النسائي «جميعاً» بعد «فصلياً»^(٣).

الفائدة الثامنة: دخول العبد بقيام الليل في زمرة الصالحين: عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قَرِيبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلْسَيِّئَاتِ، وَمَنْهَاجَةٌ عَنِ الْإِثْمِ»^(٤).

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود، وهذا لفظه، والنسائي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٣) والحديث أخرجه النسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٤) رواه الترمذي وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي في التلخيص.

- **قلت:** انتبه إلى قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «عليكم» فيها الحث الشديد على قيام الليل فكأنه قال: «أحرص على قيام الليل»، وزادك تحريماً لهذا القيام بقوله: «فإنه دأب الصالحين» وهذا يعني أن مشقة قيام الليل ستخف عليك عندما تعلم أنك تسير في درب من سبقك من الصالحين، لأن قوله «دأب» يعني عادة تعودوها، وما ذلك إلا لما فيها من الخير الكثير وانظر إلى كل من يحرص على قيام الليل كيف يحفظه الله من الشرور ويسهل له الأمور، وفقني الله وإياك لذلك... آمين.

الفائدة التاسعة: قيام الليل يطهر العبد من السيئات وينهاه عن الوقوع في

الإثم: الحديث السابق فيه «مكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم»، وجاءت رواية أخرى عن بلال وأبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات ومطرودة للداء من الجسد»^(١).

- **قلت:** في هذا الحديث عدد من الفوائد أرجو أن أكون مصيباً فيها وهي:

١- **قيام الليل منهاة عن الإثم:** إنما كان قيام الليل منهاة عن الإثم لثلاثة أسباب هي:
- **الأول:** أن العبد إذا كان يقوم الليل فإن قيام الليل يربى فيه خشية الله ومراقبته، وذلك لأن صلاة الليل أقرب إلى الإخلاص، فإذا حصلت المراقبة استحى من الله أن يعصيه في النهار وما أعظمها من فائدة.

- **الثاني:** إن العبد إذا قام الليل وتقبل الله قيامه ذلك، وفقه لفعل طاعة أخرى لأن من علامة قبول الطاعة الطاعة بعدها، وهذا بدوره سيؤدى إلى محو السيئات والابتعاد عنها ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

(١) أخرجه الترمذي والحاكم عن بلال وقال: صحيح على شرط البخاري، وأقره الذهبي، ورواه البيهقي في السنن عن أبي أمامة، رهبان الليل (١/١٩٨ و ١٩٩).

- **الثالث:** قيام الليل قربة إلى الله تعالى: إن العبد يستشعر أن الصلاة في الليل قربة خالصة لله تعالى لأنها بعيدة عن الرياء وعن أعين الناظرين ثم أنه قد ورد حديث آخر يوضح هذا المعنى أكثر وهو قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»^(١).

٢- قيام الليل ينفي عن العبد المضار الدينية والدنيوية: وهذه الفائدة مأخوذة

من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وتكفير للسيئات، ومطرودة للداء من الجسد» إذ لو بقيت على العبد سيئاته لأضرت بدينه، لأنه قد يتردى يوماً بعد يوم والسيئة تجر إلى أختها، وأما إذا كَفَّرَهَا اللهُ تعالى بسبب قيام الليل مشى العبد خفيفاً في طاعة الله تعالى، وللسيئات أضرار كثيرة دينية ودنيوية ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي (الداء والدواء) فمن ذلك حرمان الرزق وحرمان العلم، وإدخال الخوف على قلبه، والوحشة بينه وبين ربه وغير ذلك مما لا مجال لذكره في هذا المبحث المختصر.

- وفي الشق الثاني من الحديث: إشارة إلى أن قيام الليل ينفي عن العبد مضار جسدية واكتفى هنا بنقل ما ذكره صاحب رهبان الليل (١/١٩٩-٢٠١)، حول قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومطرودة للداء من الجسد»، حيث قال: «... وفي مؤتمر الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، الذي عقد بالقاهرة - وشاركت فيه عدة منظمات - قدمت الدكتورة سلوى محمد رشدي - جامعة حلوان - كلية التربية الرياضية - بحثاً كان موضوعه «صلاة التراويح للمسلم، وأثر ذلك على الكفاءة الوظيفية للقلب ودرجة المرونة في العمود الفقري...»، وقد أُجْرِيَتْ هذه الدراسة على عينة مكونة من ستين رجلاً وامرأة مقسمين إلى ثلاثين ممن قاموا بتأدية صلاة التراويح في شهر رمضان ١٤٠٥ وثلثين من المصلين الذين لم يقوموا بتأديتها؛ وقد طبقت عليهم اختبارات لمعرفة درجة مرونة

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

العمود الفقري من الأوضاع المختلفة... وقد أظهرت الدراسة أن هناك فروقاً كبيرة بين المصلين لصلاة التراويح وغير المصلين في درجة مرونة العمود الفقري وكذلك في الكفاءة الوظيفية للقلب. وقالت الدكتورة سلوى: لقد أوصيت في هذه الدراسة بتشجيع المسلم على تأدية الصلاة عموماً، وعلى صلاة التراويح على وجه الخصوص لما لها من فائدة على الجهاز الدوري والتنفسي، ومرونة مفاصل الجسم وخاصة العمود الفقري، حيث إن كبار السن في حاجة إلى القيام بتأدية التمرينات التي تحافظ على اللياقة البدنية، واللياقة الوظيفية للقلب.

- قلت: إن المؤمن إذا أدى العبادة - أيا كانت - إنما يؤديها لأجل الله وخالصاً بها قلبه، ثم إن حصلت هذه الفوائد البدنية المشار إليها فإنها هي من فضل الله تعالى عليه وإلا فهي ليست أصلاً وليست هدفاً، أقول ذلك حتى لا تصبح العبادة تبعاً لهذه الفوائد الدنيوية والله أعلم.

الفائدة العاشرة: المؤمن يعلو قدره ويرتفع شأنه بقيام الليل: عن سهل بن

سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عَشَ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزَى بِهِ، وَأَحْبَبُ مِنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ، وَأَعْلَمُ أَنْ شَرَفَ الْمُؤْمِنُ قِيَامَهُ بِاللَّيْلِ، وَعَزَهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»^(١)، قال المناوي: «الشرف لغة العلو: وشرف كل شيء أعلاه، لما وقف المؤمن - في ليله وقت صفاء ذكره متذللاً متخشعاً بين يدي مولاه لا إذا بعز جنابه وحماه وشرفه بخدمته ورفع عند ملائكته وخواص عباده بعز طاعته على سواه»^(٢).

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

(٢) رهبان الليل (١/٢٠٣).

الفائدة الحادية عشرة: التأسي بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة والأنبياء عموماً عليهم الصلاة والسلام.

.....

- أما قيام الليل عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد ورد الشيء العظيم فمن ذلك ما رواه الشيخان: عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تورمت قدماه، فقبل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، وفي الصحيحين عن عائشة بنحوه وقال فيه: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً».

- وأما الأنبياء فقد ورد قيامهم في الآثار وأحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً»^(١). وجاء عن جابر مرفوعاً: «قالت أم سليمان بن داود لسليمان يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»^(٢).



(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه وقال الهيثمي: وفي إسناده احتمال التحسين.



المبحث الرابع

إن معرفة هذه الأسباب من الأهمية بمكان ولقد ذكر الإمام الغزالي في إحيائه عددًا من الأمور التي تعين المؤمن على قيام الليل وقسمها إلى أسباب ظاهرة وأخرى باطنة وسأذكرها هنا مرتبًا لها حسب أهميتها وبعبارتي مع إضافات هامة فأقول:

١- حب لله تعالى يملأ على العبد جوانح قلبه، فإذا أحب الله تعالى أحب الخلوة به ومناجاته، ولذا تجده يرحب بالليل عند قدومه، حتى ورد أن بعض السلف كان إذا طلع الفجر يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، سنخرج للقاء الناس»، وهذا يذكر حاله بقول الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر

٢- سلامة القلب من الحقد على المسلمين: وذلك لأن هذا من الأمراض التي تصرف الإنسان عن طاعة الله تعالى، وكذلك حب الدنيا والاهتمام بها وكذلك البدع في الدين، فهذه كلها أمراض ما لم يجتنبها الإنسان فلا يطمع في قيام الليل.

٣- خوف من الله تعالى يغلب على القلب ويلزمه أكثر الأوقات: فهذا يزعج الإنسان ليقوم بالليل ليسأل ربه المغفرة والرحمة، كما قال طاووس: «إن ذكر جهنم طير نوم العابدين»، ولقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، ولقد وردت آثار كثيرة عن السلف تبين أن أكثرهم إنما كان يقوم الليل - كله أو أكثره - لهذا الخوف المزعج مع أنهم هم الأبرار الأطهار وسأورد هنا بعضًا منها:

- سألت ابنة الربيع بن خيثم أباه: يا أبتاه الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: «يا

بنية إن أباك يخاف السيئات» وهل فينا أحد مبرأ من السيئات حتى ينام؟!!!

- قالت ابنة لعامر بن قيس: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ فقال: «يا بنية إن جهنم لا تدع أباك ينام» وعامر هذا كان يصلي ثمانمائة ركعة في يومه وليلته.

- كان شداد بن أوس إذا دخل فراشه يتقلب ولا يأتيه النوم، فيقول: يا رب إن النار أذهبت النوم، فيقوم فيصلي حتى الصباح.

- يقول مالك بن دينار: «لو استطعت أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون في منار الدنيا كلها يا أيها الناس النار... النار».

- وقال هرم بن حيان: «لم أر مثل النار نام هاربها، ولم أر مثل الجنة نام طالبها».

- قلت: تعالوا أيها الصالحون لتروا ما نصنع في ليلنا، لو نمنا لكان خيراً لنا ولكننا للأسف نقضى الليل في مبارزة الله بالمعاصي، ولم نكتف بما يقع منا في النهار وإنما إليه راجعون.

٤- معرفة ما لصاحب قيام الليل من الأجر والمثوبة عند الله تعالى: وهذا يتم بالرجوع إلى كتب أهل العلم التي تذكر فضائل قيام الليل، ولعل فيما مضى ذكره هنا يدفع الهمة لقيام الليل، وهذا السبب بعينه ورج عند كثير من السلف، يقول الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته، فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره، فدخل المسجد - مسجد بيته - ولم يزل يصلي حتى أصبح، فقالت له زوجته: كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصباح؟ قال: والله إني كنت أتفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل، فنسيت الزوجة والمنزل، فقممت طول ليلتي شوقاً إليها».

وكان عبد العزيز بن أبي داود، إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمريده عليه ويقول: «إنك للين ووالله إن في الجنة لألين منك، ولا يزال يصلي الله كله» اهـ.

٥- **ترك الذنوب والمعاصي في نهاره لأن الذنوب مما يقسي القلب:** ويحول بينه وبين أسباب الرحمة، قال رجل للحسن: يا أبا سعيد إني آبيت معافى وأحب قيام الليل وأعدُّ طهوري - ماء الوضوء - فما بالي لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيدتك.

٦- **أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل:** كما أن أكلة السحر تعين على صيام النهار.

٧- **أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تصيبها الجوارح:** وتضعف بها الأعصاب فإن ذلك مما يجلب النوم ويكسل من القيام.

٨- **ألا يكثر الإنسان من الأكل في العشاء فيكثر شرب الماء:** فيثقل بدنه ويغلبه النوم ويعجز عن القيام، وهذه الأسباب الثلاثة الأخيرة كلها جسدية والهدف منها هو تجنب كل ما يؤدي إلى كثرة النوم والله أعلم.

تنبيه: وقد يسأل سائل ما هي الأسباب المانعة التي تمنع الشخص من قيام الليل؟ وجوابه: أن كل ما ذكر من الأسباب المعينة على قيام الليل يكون ما هو ضده مانع من قيام الليل، ولكن هناك سبب هام يمنع من القيام ألا وهو كثرة الذنوب والمعاصي، وقد تقدم كلام الحسن البصري عند السبب الخامس، وأزيد هنا ما قاله الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم كبتك خطيئتك»، وقال بشر بن الحارث رَحِمَهُ اللهُ: «لا تجد حلاوة الإيمان حتى تجعل بينك وبين الشهوات سدا»، ولعل كلام بشر هذا يبين أن التوسع في المباحات أيضًا من الأسباب المانعة من قيام الليل والله أعلم.



المبحث الخامس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

: B

١- **قيام أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن أبي عثمان النهدي، قال: تضيفت أبا هريرة سبعا فكان هو وامرأته وخادمه يقسمون الليل ثلاثا، يصلى ثم يوقظ هذا « وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسبح كل ليلة اثنتي عشرة ألف تسيبحة، يقول: أسبح بقدر ذنبي » فحياته تسيبحة، وحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيام ليل واستغفار. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- **قيام عثمان بن عفان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن ابن سيرين قال: « قالت امرأة عثمان حين قتل، لقد قتلتموه وانه ليقوم الليل كله بالقرآن في ركعة ». وقال عبد الرحمن التميمي: لأغلبن الليلة النفر على المقام، فلما صليت العتمة تخلصت إلى المقام حتى قمت فيه، فينا أنا قائم إذا رجل وضع يده بين كتفي فإذا هو عثمان بن عفان، قال: فبدأ القرآن فقرا حتى ختم القرآن، فركع وسجد، ثم أخذ نعليه، فلا أدري أصلى قبل ذلك شيئا أم لا « وفي رواية قال: فلما انصرف قلت: يا أمير المؤمنين إنما صليت ركعة؟ قال: أجل هي وترى. وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: « قد روى من غير وجه أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج، وقد كان هذا دأبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ».

٣- **قيام أبي موسى الأشعري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن مسروق قال: « كنا مع أبي موسى الأشعري في سفر، فأوانا الليل إلى بستان حرث فنزلنا فيه، فقام أبو موسى من الليل يصلى، فذكر من حسن صوته وحسن قراءته.

٤- **قيام سلمان الفارسي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: روى أبو نعيم بسنده عن سلمان الفارس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: « حافظوا على الصلوات الخمس، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتله - الكبائر - فإذا صلى الناس العشاء صدروا على ثلاث منازل:

- منهم من عليه ولا له، ومنهم من له ولا عليه، ومنهم من لا له ولا عليه: فرجل اغتتم ظلمة الليل وغفلة الناس فركب رأسه في المعاصي فذلك عليه ولا له، ومنهم من اغتتم ظلمة الليل وغفلة الناس فقام فصلى فذلك له ولا عليه، ومنهم من لا له ولا عليه فرجل صلى ثم نام فذلك لا له ولا عليه، وإياك والحققة - الشدة - وعليك بالقصد والدوام».

- وقال طارق بن شهاب: أتيت سلمان الفارسي فقلت: لأنظرن كيف صلواته - يعنى في الليل - فكان ينام من الليل ثلثه - أي يقوم بقية الليل.

٥- قيام عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لقد قال فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل» ففهم ابن عمر هذا الكلام فما كان ينام من الليل إلا قليلاً.

قال نافع - مولى ابن عمر - : «كان ابن عمر يحبى الليل صلاة ثم يقول: يا نافع، أسحرنا؟ فيقول: لا فيعاود، فإذا قال نعم، قعد يستغفر حتى يصبح».

٦- قيام عبد الله بن يزيد بن زيد الخطي: قال مسعر حدثني بعض آل عبد الله بن يزيد أن عبد الله كان ينام آخر أهل الدار حتى يقوم فيصلي فكان يصل حتى تنقع رجلاه في الماء الحار»

٧- قيام تميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: قال: ما بلغني عن أحد من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العبادة ما بلغني عن تميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وعن جعفر بن عمرو بن العاص قال: كنا فئة من أبناء أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلنا: إن آباءنا قد سبقونا بالهجرة وصحبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهلّموا نجتهد في العبادة لعلنا ندرك فضائلهم... وهم عبد الله بن الزبير، ومحمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد يغوث، قال فاجتهدنا في العبادة بالليل والنهار، وأدركنا تميم الداري

شيخا فما قمنا له ولا قعدنا في طول الصلاة» ومراده من هذا الكلام أنهم مع كونهم شبابا لم يدركوا اجتهاد تميم وهو شيخ مسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- كان تميم كثير التهجد قام ليلة بآية حتى أصبح وهي: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجملة: ٢١].

- عن المنكدر بن محمد عن أبيه: أن تميما الداري نام ليلة لم يقيم يتهجد، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع.

٨- قيام أبي ثعلبة جرهم بن ناشم الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال أبو الزاهرية: سمعت أبا ثعلبة يقول: «إني لأرجوا ألا يخنقني الله - يعنى بالموت - كما أراكم تختنقون، فيينا هو يصلى في جوف الليل، قبض وهو ساجد، فرأت ابنته - في المنام - أن أباه قد مات، فاستيقظت فرعة، فنادت أمها أين أبي؟ قالت: في مصلاه، فنادته فلم يجيبها، فأنبهته فوجدته ميتاً».

٩- قيام أبي ريحانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن ضمرة بن حبيب قال: استأذن أبو ريحانة صاحب مسلحته - أمير الثغور - من الساحل إلى أهله، فأذن له، فقال له الوالي كم تريد أن أؤجلك؟ قال: ليلة، فأقبل أبو ريحانة، وكان منزله في بيت المقدس، فبدأ بالمسجد قبل أن يأتي أهله، فافتتح سورة فقرأها ثم أخرى، فلم يزل كذلك حتى أدركه الصبح وهو في المسجد لم يرمه - لم يبرحه - ولم يأت أهله فلما أصبح دعا بدابته فركبها متوجهاً إلى مسلحته، فقيل: يا أبا ريحانة إنما استأذنت لتأتي أهلك فلو مضيت حتى تأتيهم ثم تنصرف إلى صاحبك؟ قال: «إنما أجلني أميرى ليلة وقد مضت، لا أكذب ولا أخلف»، وانصرف إلى مسلحته ولم يأت أهله.

١٣ : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١- **قيام سيد التابعين سعيد بن المسيب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن عبد الله بن إدريس عن أبيه قال: «صلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة وكان يسرد الصوم» أي صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة.

٢- **قيام عامر بن قيس (راهب العرب)** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكان يصوم أغلب الدهر، ويقوم الليل فقيل له في ذلك، فقال: «وما هذا؟ إن هو إلا أني قد جعلت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك كبير أمر»، وكان يردد: «ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربا».

- وكان إذا جاء الليل قال: «أذهب حر النار النوم، فما ينام حتى يصبح، وإذا جاء النهار قال: أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي، فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى» يعنى بالسرى: سير الليل للمسافر.

٣- **قيام مسروق بن عبد الرحمن** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكانت امرأته تقول: «والله ما كان مسروق يصبح من ليلة من الليالي إلا وساقاه منتفختان من طول القيام، وكنت أجلس خلفه فأبكي رحمة له، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا طال عليه الليل وتعب صلى جالسًا، ولا يترك الصلاة، وكان إذا فرغ من صلاته يزحف كما يزحف البعير، وحج مسروق فما بات إلا ساجدًا».

٤- **قيام الربيع بن خثيم** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تلميذ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن عبد الرحمن بن عجلان قال: بت عند الربيع بن خثيم ذات ليلة، فقام يصلى، فمرَّ بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاء شديد. واشترى رَحِمَهُ اللَّهُ فرسًا بثلاثين ألف فغزا عليها، ثم أرسل غلامه يسار يحتش وقام يصلى، وربط فرسه، فجاء الغلام، فقال: يا ربيع أين فرسك؟ قال: سرقت يا يسار، قال:

وأنت تنظر إليها، قال: نعم يا يسار إني كنت أناجي ربي عَزَّجَلَّ فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء، اللهم إنه سرقني ولم أكن لأسرقه، اللهم إن كان غنيا فاهد، وإن كان فقيراً فأغنّه» ثلاث مرات. وسألته ابنته: يا أبت مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ فقال: إن النار لا تدع أباك ينام.

٥- قيام الليل عند ثابت بن أسلم البناني:

- قال أنس بن مالك: إن للخير مفاتيح وإن ثابتاً من مفاتيح الخير، قالت ابنة ثابت بن أسلم: «كان يقوم الليل خمسين سنة»، وقال رَحْمَةُ اللَّهِ: «كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة»، وقال: «ما شيء أجده في قلبي ألد عندي من قيام الليل».

- قال شعبة: «كان ثابت البناني يقرأ القرآن كل ليلة، ويصوم الدهر»، وقال هشام بن حسان: «ما رأيت أحداً قط أصبر على طول القيام والسهر من ثابت، صحبته مرة إلى مكة، إن نزلنا ليلاً فهو قائم يصلي حتى يصبح، وإلا فمتى شئت أن تراه أو تحس به مستيقظاً، ونحن نسير إما باكياً وإما تالياً»^(١).

تنبيه: اشتهر بقيام الليل كله وصلاة الفجر بوضوء العشاء الكثير من خيار هذه الأمة منهم من لم يشتهر بذلك ومنهم من عرف بذلك ومن أولئك: سعيد بن المسيب، وصفوان بن سليم، ومحمد بن المنكدر - هؤلاء مدنيون أي من أهل المدينة المنورة. وفضل بن عياض ووهب - المكيان - وطاووس ووهب اليمانيان، والربيع بن خيثم الحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وأبو جابر الفارسيان، وسليمان التيمي ومالك بن دينار ويزيد الرقاشي وحبيب العجمي ويحيى البكار والهمس ورابعة العدوية وهؤلاء بصيرون - رحم الله الجميع ورضي الله عنهم وألحقنا بهم آمين آمين آمين.

: B

١- **قيام زين العابدين بن علي بن الحسين:** كانت له ثففات كثففات البعير، وكان يقطعها في العام مرتين، وكان يسمى زين العابدين لعبادته، قال مالك: «لقد بلغني أنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات» رَحِمَهُ اللهُ.

٢- **قيام منصور بن ذازان:** «زين القراء والفتيان، والميسر له تلاوة القرآن»، كان يصلي الليل كله، وكان رَحِمَهُ اللهُ لا يبيت كل ليلة حتى تبل عمامته بدموعه ثم يضعها كما رواه عنه الحسن، وقيل: كان يختم القرآن في كل يوم وليلة.

٣- **قيام مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير:** كان من أعبد أهل زمانه، صام هو وأخوه نافع خمسين سنة، قالت عنه ابنته أسماء: كان أبي يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وقال مصعب بن عثمان وخالد بن وضاح: كان مصعب بن ثابت يصوم الدهر، ويصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، يبس من العبادة وكان أبلغ أهل زمانه.

٤- **قيام على بن عبد الله بن عباس:** قال ابن سعد: «كان من أجمل قريش، وكان يدعى السجاد لكثرة سجوده، قال مصعب بن الزبير: سمعت بعض أهل العلم يقول: إنما كان سبب عبادته أنه رأى عبد الرحمن بن إبان بن عثمان بن عفان وعبادته فقال: «لأننا أولى بهذا منه وأقرب إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحماً» فتجرد للعبادة، وعند أبي سنان قال كان على بن عبد الله معنا بالشام وكان يصلي كل يوم ألف ركعة».

٥- **قيام الإمام أبي حنيفة النعمان رَحِمَهُ اللهُ:** قال أبو عاصم النبيل: «كان أبو حنيفة يسمى الوتد لكثرة صلاته»، وقال سفيان بن عيينة: «ما قدم مكة رجل في وقتنا أكثر صلاة من أبي حنيفة، وتواترات الأخبار أنه كان يحيى الليل كله، حتى قال مغسله بعد الفراغ من غسله: لقد أتعبت من بعدك وفضحت القراء».

- وعن مسعر بن كدام قال: «دخلت ليلة المسجد، فرأيت رجلاً فاستحيت قراءته فقرأ سبعة أجزاء ونصف - فقلت يركع ثم قرأ الثلث ثم قرأ النصف فلم يزل يقرأ القرآن حتى ختمه كله في ركعة فنظرت فإذا هو أبو حنيفة».

- وقال خارجة بن مصعب: «ختم القرآن في الكعبة أربعة من الأئمة: عثمان و تميم الداري وسعيد بن جبير وأبو حنيفة»، وورد أنه ظل يردد في ليلة: ﴿ فَمَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴾ [الطور: ٢٧]، حتى أصبح.

٦- قيام الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: قال أشهب بن عبد العزيز: «خرجت ذات ليلة بعدما رقد الناس، فمررت بمنزل مالك بن أنس، فإذا هو قائم يصلي، فلما فرغ من قراءة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ابتداءً: ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ حتى بلغ: ﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾، فبكى بكاءً طويلاً ثم جعل يرددتها ويبكي، وشغلني ما أسمع من كثرة بكائه عن التوجه إلى حاجتي التي خرجت إليها، ولم أزل قائماً وهو يرددتها ويبكى حتى طلع الفجر، فلما تبين له الفجر ركع، فانصرفت إلى منزلي فتوضأت ثم أتيت المسجد، فإذا به في مجلسه والناس حوله، فلما أصبح - أي انتشر الضوء - نظرت إلى وجهه وقد علاه نور». وقد ورد أنه صلى الفجر بوضوء العشاء تسعاً وأربعين عامًا، قالت ذلك جاريته.

٧- قيام أبي بكر بن عياش المقرئ: عن أبي عبد الله النخعي قال: «لم يفرش لأبي بكر بن عياش فراشاً خمسين سنة»، وقال يزيد بن هارون عنه: «لم يضحج جنبه على الأرض أربعين سنة».

٨- قيام الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال عنه الربيع بن سليمان: كان يحيى الليل إلى أن مات وكان يختم في كل ليلة ختمة. وورد أنه كان يختم في رمضان ستين ختمة كل يوم ختمتين.

٩- قيام داود الطائي: قالت أم سعيد الطائية: «كان بيننا وبين داوود الطائي جدار قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل، لا يبدأ، ولربما ترنم في السحر بشيء من القرآن، فأرى أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه تلك الساعة»، وقال عنه أبو عبد الرحمن المذكر: «إن داود يحيي الليل صلاة».

١٠- قيام الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: يقول إبراهيم بن شماس: «كنت أرى أحمد بن حنبل يحيي الليل وهو غلام»، وعن عبد الله بن الإمام أحمد قال: «كان أبي يقرأ القرآن في كل يوم سُبْعًا، ويختتم في كل سبعة أيام، وكانت له ختمة في كل سبع ليال سوى صلاة النهار، وكان ساعة يصلي عشاء الآخرة ينام نومة خفيفة ثم يقوم يدعو إلى الصبح»، وقد ورد عن صلاة الإمام أحمد الشيء العجيب إذ كان يصلي في كل يوم ثلاثمائة ركعة فلما جلد وأثر فيه الجلد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة أو مائة وخمسين ركعة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حبه للصلاة رَحِمَهُ اللهُ عَنَّهُ.

١١- قيام يزيد بن هارون أمير المؤمنين في الحديث رَحِمَهُ اللهُ عَنَّهُ: قال عاصم بن علي: «كان يزيد بن هارون إذا صلى العتمة -العشاء- لا يزال قائمًا حتى يصلي الغداة -الصبح- بذلك الضوء نيفًا وأربعين سنة»، وورد أنه ظل يبكي حتى ذهبت عيناه -أي عمى- وكان أحسن الناس عينين.

١٢- قيام الإمام النووي صاحب رياض الصالحين أبو زكريا محيي الدين رَحِمَهُ اللهُ: قال في البدر السافر: «وكان النووي كثير العبادة، وحكى البدر بن جماعة أنه سأله عن نومه، فقال: إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وانتبه». وقال أبو عبد الله البعلي: «كنت ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق والشيخ - يعني النووي - واقف يصلي إلى سارية في ظلمة وهو يردد قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤]، مرارًا بخوف وخشوع حتى حصل عندي أمر عظيم».



: B

١- قيام أم الصهباء: معاذة بنت عبد الله العدوية رحمها الله تعالى:

- كانت رحمها الله تعالى إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تمسى، وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها فما تنام حتى تصبح، وإذا جاء البرد لبست الثياب الرقاق حتى يمنعها البرد من النوم، ولما مات زوجها شهيداً لم تتوسد فراشاً بعده.

٢- قيام حفصة بنت سيرين رحمها الله تعالى:

- كانت رحمها الله تعالى تسرج السراج من الليل ثم تقوم في مصلاها فربما طفئ السراج فيضيء لها البيت حتى تصبح، ومكثت في مصلاها ثلاثين سنة لا تخرج إلا لحاجة أو قائلة - قيلولة - وكانت تدخل مصلاها فتصلي فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، ولا تزال فيه حتى يرتفع النهار فتركع ثم تخرج - فيكون عند ذلك وضوءها ونومها.

- وقال عبد الكريم بن معاوية: «ذكر لي عن حفصة أنها كانت تقرأ نصف القرآن كل ليلة، وكانت تصوم الدهر وتفطر أيام العيدين والتشريق».

٣- قيام رابعة العدوية رحمها الله تعالى:

- كانت رابعة العدوية البصرية مضرب المثل في توله القلب واحتراق الكبد حباً لله وإيثاراً لرضاه، وكانت تواصل صيامها وقيامها تقول خادمته عبدة بنت أبي شوال: «كانت رابعة تصلي الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها إذا وثبت من مرقدها تقول وهي فزعة: يا نفس كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة النشور».

٤- قيام عفيفة العابدة رحمها الله تعالى:

كانت رحمها الله تعالى لا تضع جنبها إلى الأرض في ليل وتقول: أخاف أن أؤخذ على غرة وأنا نائمة، وكانت لا تمل من البكاء، فقيل: أما تسأمين من كثرة البكاء، فقالت: يسأم الإنسان من دوائه وشفائه. وقيل لها: إنك لا تنامين بالليل، فبكت ثم قالت: ربما اشتهيت أن أنام فلا أقدر عليه، وكيف ينام أو يقدر على النوم من لا ينام حافظاه عنه ليلاً ولا نهاراً.

٥- قيام بردة الصريمية البصرية رحمها الله تعالى:

- كانت تقوم الليل، وكانت تقول: ربما سمعت القرآن فأرى ملك بنى مروان قد حول لي، وكانت تبكى حتى يرحمها من رآها، ولقد بكت حتى ذهب بصرها فلاموها على ذلك فقالت: لو رأيتم بكاء العصاة يوم القيامة لعلمتم أن هذا البكاء كاللعب.

٦- قيام جارية عبيد الله بن الحسن العنبري قاضى البصرة رحمها الله تعالى:

- قال عبيد الله بن الحسن: كانت عندي جارية أعجمية وضيئة، وكنت بها معجباً، فكانت ذات ليلة نائمة إلى جنبي، فانتبهت فلم أجدها، فالتمستها فإذا هي ساجدة تقول: بحبك لي أغفر لي، فقلت: يا جارية لا تقولي بحبك لي، قولي بحبي لك، فقالت: يا بطّال، حبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام فأيقظ عيني وأنا عينك، فقلت: اذهبي فأنت حرة لوجه الله، فقالت: يا مولاي أسأت إليّ، كان لي أجران فصار لي أجر واحد.

تنبيه: جميع الآثار التي وردت في هذا البحث منقولة بتصرف يسير من الكتاب الحافل (رهبان الليل) لمؤلفه الشيخ الدكتور سيد حسين العفاني حفظه الله. من الجزئين الأول والثاني، وما نقلته غيض من فيض فالكتاب حري بالقراءة والتأمل والله أعلم.



الصفة الرابعة:

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۗ عَلٰٓ

إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۗ ﴾

الخوف



المَقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين وسيد العالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: في هاتين الآيتين الكريمتين بيان للصفة الرابعة من صفات عباد الرحمن وهي عبارة عن سؤالهم ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لأنها بئس المستقر وبئس المقام لمن يدخلها - عياذا بالله من النار - وهذا السؤال وهذا الدعاء من هؤلاء العباد الصالحين إن دل على شيء فإنها يدل على خوفهم من دخول النار، وهذا الخوف إذا خلا منه قلب العبد فلا خير في حياته بعد ذلك لأنه لن يتورع عن ترك الواجبات وانتهاك المحرمات، ومن هنا سأشرح هذه الصفة في أربعة مباحث:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى الآيتين.

المبحث الثاني: التعريف بالخوف وبيان أسبابه.

المبحث الثالث: في ذكر صور من خوف السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

المبحث الرابع: الوسائل العملية لاستجلاب الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ.



المبحث الأول

- قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥]، أي هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله، قال ابن عباس: «يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم».

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي لازماً دائماً غير مفارق، ومنه سمي الغريم لملازمته. وقال الحسن: «قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم»، وقال الزجاج: «الغرام أشد العذاب».

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، أي بسّ المستقر وبسّ المقام، أي أنهم يقولون ذلك عن علم وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون فيكون ذلك أقرب إلى النجاة» اهـ.

قال الخطيب الشربيني رَحِمَهُ اللهُ: ولما ذكر تعالى - في الصفات السابقة - تهذيبهم مع الخلق والخالق وصفهم الله تعالى أنهم مع ذلك خائفون وجلون وهي الصفة الرابعة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ أي المحسن إلينا ﴿اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: «يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول»، ثم علل سؤالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي هلاكاً وخساراً ملحاً لا ينفك عنه... فهم يبتهلون إلى الله تعالى في صرف العذاب عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم. اهـ.

قلت: يعني أن هؤلاء العباد مع شدة حرصهم على الطاعات والبعد عن المحرمات لا ثقة لهم بأعمالهم من جهتين:

الأولى: عدم الوثوق من الاستمرار على ذلك لأنه ورد في الحديث: «انقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»، فلهذا كان هذا الدعاء بصرف العذاب عنهم.

الثانية: لا ثقة لهم في أن تكون هذه الأعمال ارتقت إلى درجة القبول، فهم يخشون من ردها عليهم فيأتوا يوم القيامة ولا عمل صالح لهم، هذا ما عناه الشريبي رحمه الله، والله أعلم.

قال الطاهر بن عاشور: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ دعاؤهم هذا أمانة على شدة مخالفتهم الذنوب فهم يسعون في مرضاة ربهم لينجوا من العذاب، فالمراد بصرف العذاب إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح وتوفيره واجتناب السيئات. وجملة ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يجوز أن تكون من كلام الله وعلى كل حال فهي تعليل لسؤال صرف العذاب عنهم وجملة ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ يجوز أن تكون من كلام القائلين فتكون تعليلًا ثانيًا مؤكداً لتعليلهم الأول، وأن تكون من كلام الله تعالى، والمستقر: مكان الاستقرار، والاستقرار: قوة القرار، والمقام: مكان الإقامة، أي ساءت موضعاً لمن يستقر فيها بدون إقامة مثل عصاة أهل الأديان ولن يقيم فيها من المكذبين للمرسلين والنبیین. اهـ.

قلت: وقد جرى خلاف بين المفسرين في أيهما أطول إقامة في النار «المستقر» أم «المقام»، واستدل الميداني على أن الاستقرار هو الأطول إقامة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ثم قال: إن الإقامة في الغزو إقامة محدودة بحدود معاركها السالمة أو الظاهرة ثم بعد ذلك تكون العودة؛ بخلاف الاستقرار في المكان، لأنه يدل على عدم مفارقة المكان كما تقول العرب لما يلصق في الطبخ بأسفل القدر: قرارة وقرورة وقرارة لأنها تلتصق وتستقر ولا تخرج إلا باقتلاعها.

قلت: ولأنه لا أحد يقدر على الصبر على عذاب جهنم استعاذ عباد الرحمن من كلا النوعين المستقر والمقام.

مما تقدم من كلام هؤلاء المفسرين وغيرهم ممن تكلم حول هاتين الآيتين يتبين أن من صفات عباد الرحمن الخوف الملازم لقلوبهم، لأن الدعاء الوارد على لسانهم يدل على شدة تضرعهم لله تعالى، ومن هنا كان لا بد من الكلام على الخوف الذي هو من أعظم أعمال القلوب ثواباً ومن أكثرها نفعاً في السير إلى الله تعالى كما سيتبين إن شاء الله تعالى من خلال المبحث الآتي.



المبحث الثاني

وبيان ذلك يندرج تحت عدة نقاط كالاتي:

B : **B**

الخوف لغة: تدل مادة «خ و ف» على الذعر والفرع، يقول ابن فارس: «الخاء والواو والفاء: أصل واحد يدل على الذعر والفرع، يقال: خفت الشيء خوفاً وخيفة» اهـ. وللخوف إطلاقات أخرى ذكرها في لسان العرب منها، أن الخوف يأتي بمعنى القتل، والقتال، والعلم، والفرع، وقد وردت آيات في هذه المعاني للخوف.

الخوف شرعاً: وردت عدة تعريفات على ألسنة العلماء أذكر منها:

قال الراغب الأصفهاني: الخوف: توقع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة، ويضاده الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية.

وقيل الخوف: هروب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف، وقيل غير ذلك.

B : **B**

لقد تحدث العلماء حول أهمية الخوف وضرورته لإصلاح القلب ومن ثم إصلاح أعمال الجوارح: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله» ومن أجمل ما قيل في ذلك ما ذكره ابن رجب الحنبلي في كتاب (التخويف من النار) وإليك خلاصة ما قاله في ذلك:

«إن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ويخافوه، ونصب لهم الأدلة الدالة على عظمتهم وكبريائه ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال».

ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرر سبحانه في كتابه ذكر النار وما أعده فيها لأعدائه من العذاب والنكال، ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه والمساورة إلى امتثال أمره واجتناب ما نهى عنه.

فمن تأمل الكتاب والسنة وجد من ذلك العجب العجيب، وكذلك سير السلف الصالح أهل العلم والإيمان من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ من تأملها علم أحوال القوم وما كانوا عليه من الخوف والخشية والاحبات، وأن ذلك هو الذي رقاهم إلى تلك الأحوال الشريفة والمقامات السنية، من شدة الاجتهاد في الطاعات والانكفاف عن دقائق الأعمال والمكروهات فضلاً عن المحرمات» اهـ.

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بها رتبة القرب من الله تعالى»، وقال أبو سليمان الداراني: «ما فارق الخوف قلب إلا خرب».

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «إن الخوف من المقامات العلية، وهو من لوازم الإيمان، قال تعالى: ﴿وَحَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا أَلْتَكَاَسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤]، قلت: ولا بد لكل مسلم أن يكون له نصيب من الخوف من الله على الأقل بمقدار ما يدفعه إلى فعل الواجبات وترك الكبائر من المحرمات، فمن فقد هذا المقدار فهو في حاجة إلى مراجعة إيمانه بالله وإيمانه بالجنة والنار، ومن هنا سأذكر في الفقرة القادمة أسباب الخوف حتى نعالج أنفسنا بها لنصل إلى الخوف ولو في أقل درجاته ومراحله فلعل الله أن يفتح على قلوبنا - آمين».

! B

لقد ذكر العلماء أسباباً كثيرة تؤدي إلى الخوف من الله تعالى وسأذكر بعضاً منها ولهذا قلت: من أسباب الخوف، وقد أوصلها الدكتور: مجدي الهلالي إلى خمسة عشر سبباً

وقد أحسن في عرضها وسأذكر هنا ستة فقط بتصرف كبير، وكذلك قد لا ألتزم بعبارته أو أستفيد منه عنوان السبب فقط والله المستعان.

السبب الأول: الخوف من دخول النار:

وهذا هو السبب الذي يجعل عباد الرحمن يتضرعون إلى الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، وقول أهل الإيثار في دعائهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٢]، وهذا يعني أن المؤمن لا يأمن من دخول النار بسبب بعض ذنوبه التي لم يتطهر منها في الدنيا قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦].

فالنار شر دار، عذابها شر عذاب، حرها شديد، وقعرها بعيد ومقامها من حديد، يهوى بها الحجر سبعين خريفا، وما يدرك قعرها، مسالكها ضيقة، ومواردها مهلكة، يوقد فيها السعير، ويعلو فيها الشهيق والزفير، أبوابها موصدة، وعمدها ممددة، فيها غضب الجبار وسخطه ونقمته - خوف النار فلق فلذ كبد الصالحين ﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبِيرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَبْقَدَّمَ أَوْ يَأْخَرَ ﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧].

كان الحسن البصري إذا تكلم كأنه يعاين الآخرة، فيخبر عن مشاهدتها، وكان إذا بكى فكأنها النار لم تخلق إلا له، وإذا قدم إلى الناس فكأنه قدم من دفن حميم لديه، وإذا جلس فكأنها هو أسير جلس ليضرب عنقه.

يقول موسى بن سعد: كنا إذا جلسنا إلى سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ كأن النار قد أحاطت

بنا لما يرى من خوفه وجزعه.

السبب الثاني: الخوف من عاقبة الذنوب:

إن المتأمل في ذنوبه، قد يجدها كثيرة بل وكثيرة جداً وحرى به أن يخشى أن يكون أحد تلك الذنوب أو جب له شقاء الأبد - والعياذ بالله - ومن باب التذكير فقط أسوق لك هذه العبارات التي ذكرها الدكتور الهلالي:

من منا لم يذنب، ومن منا لم تقع عينه على ما حرم الله في يوم من الأيام؟ ومن منا لم يسيء الظن بمسلم طوال حياته؟ ومن منا لم يترك واجبا من الواجبات تهاونا وكسلا؟ ومن منا لم يقصر في حق والديه أو أقاربه أو جيرانه، أو زوجته وأولاده؟ فالذنوب كثيرة جدا إذا وجهنا لأنفسنا هذا السؤال، واليك بعض ما ورد في عاقبة الذنوب:

- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، وإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب لهن مثلاً: «كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم - أي وقت طعامهم - فجعل الرجل ينطلق فيجيء بعود والرجل يجيء بعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها»^(١). فكم من هفوات قمنا بها لا تساوى شيئاً في أعيننا لكنها قد تكون عند الله عظيمة، يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، وإن كنا لنعدّها على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات» أي المهلكات^(٢).

- يقوم ابن القيم: «وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنوب وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى، وسبحان الله كم أهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزالت من نعمة؟ وكم جلبت من نقمة؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلاً عن الجهلاء ولم يعلم المغتر أن الذنب يَنْقُضُ ولو بعد حين، كما ينقُضُ

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه البخاري.

السم وكما ينقُصُ الجرح المندمل على الغش والدغل، وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتى، وأعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يطغيكم، وأعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا ينسى».

وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: ٣٣-٣٤). ولهذا على العبد إذا حلت بواديه المصائب أن يوجه تفكيره إلى ما ارتكبه من ذنوب وخطايا فيتوب إلى الله منها ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وإلا فما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسح ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها... وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم وما الذي سلط الريح على قوم عاد وألقتهم موتى على كل وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية... إنها الذنوب والمعاصي.

ومن هنا أقول يجب على المسلم أن يحذر من الذنوب كل الحذر خوفاً من تلك العواقب الوخيمة التي لا يجامل الله فيها أحداً من خلقه إلا أن يتوب.

السبب الثالث: الخوف من هيبة الله وجلاله وعظمته:

من أشرف أسباب الخوف استحضار عظمة الله وجلاله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٤) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٥) ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٣-١٦].

وفي الحقيقة إن التفكير في عظمة الله تعالى والتأمل في أسمائه الحسنى وصفاته العلى من الأمور التي تؤدي إلى زيادة الخوف منه جَلَّ جَلَالُهُ وامتلاء القلب من عظمته، ويضاف إلى ذلك التأمل في مخلوقاته، ولهذا من تأمل في هذه الآيات من سورة نوح علم أن الله

تعالى يريد من عباده توقيره وتعظيمه؛ والسبيل الموصل إلى ذلك هو ما ذكر من مخلوقات
﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا... الخ﴾.

والله عرفنا بنفسه من خلال قدرته وعظمته كما في قوله جَلَّالَهُ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ
الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا
حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقوله تعالى:
﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا
يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

فالله تعالى هو أحق من ذكر وأحق من حمد وأولى من شكر وأنصر من ابتغى وأرأف
من ملك، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته، يطاع فيشكر، ويعصى
فيتجاوز ويغفر، كل نعمة منه عدل وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد وأدنى حفيظ.

وكما قال الشاعر:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعى لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

قال ابن القيم في النونية:

وهو العليم أحاط علما بالذي في الكون من سر ومن إعلان
وكذلك يعلم ما يكون غدا وما قد كان والموجود في ذا الآن
وكذلك علم ما لم يكن لو كان كيف يكون ذا إمكان
وهو السميع يرى ويسمع كل ما في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا يخفى عليه بعيدها والداني

ومن هنا كان العلماء هم أشد الناس خشية لله تعالى قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

السبب الرابع: الخوف من عدم قبول الأعمال: الخوف من عدم قبول الأعمال

بعد الاجتهاد فيها إنما هو ناتج من علمك أيها المؤمن بأن أعمالك مهما عظمت فهي لا تليق بالعظيم جَلَّ جَلَالُهُ الذي امتلاً قلبك بتعظيمه، من هنا يخشى المؤمن من رد أعماله عليه فهو على يقين من تقصيره في عمله وفي شك من قبولها.

ولما سألت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].. قالت: يا رسول الله، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر فهو يخاف الله عَزَّجَلَّ؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصوم ويصلى ويتصدق وهو يخاف ألا يقبل منه»^(١).

ويدل على ذلك ما شرع من الاستغفار بعد الأعمال الصالحة فهناك دعاء بعد الوضوء: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»، وبعد الصلاة «أستغفر الله» ثلاثاً، وبعد الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا﴾ **اللَّهُ** ﴿فهذا كله يدل على خوف المؤمن من عدم القبول.

ولقد كان هذا هو حال الصحابة والصالحين فهذا أبو الدرداء يقول: «لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا وما فيها»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقال ابن عون: «لا تثق بكثرة الأعمال فإنك لا تدري يقبل منك أم لا، ولا تأمن من ذنوبك فإنك لا تدري هل كفرت أم لا؟ لأن عملك مغيب عنك لا تدري ما الله صانع به».

(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

وقال إبراهيم التيمي: «ما عرض قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً» أي مكذباً بالوعد والوعيد، وقال يحيى بن معاذ: «كيف يفرح المؤمن في دار الدنيا، إن عمل سيئة خاف أن يؤخذ بها وإن عمل حسنة خاف ألا تقبل فهو إما محسن وإما مسيء؟».

السبب الخامس: الخوف من سلب الإيمان:

لقد حذر الله من الأمن من مكره فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَقْوَمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. ولو كان لأحد أن يأمن من مكر الله لأمنه أبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أليس هو الذي دعا الله قائلاً: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ولأمنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لقد دعا الله قائلاً: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، بل إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أكرم الخلق على الله تعالى كان يقول في دعائه كثيراً: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(١)، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني وأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»^(٢).

لما تقدم من نصوص أقول يجب على المؤمن أن يخشى على نفسه النفاق وهو لا يشعر أو أن يعمل عملاً يوجب له سوء الخاتمة أو سلب الإيمان عند وفاته - عياداً بالله - وهذا هو حال الصالحين من هذه الأمة وانظر إلى هذه الآثار:

دخل جبير بن نفير على أبي الدرداء بمنزله بحمص فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس تشهد جعل يتعوذ بالله من النفاق، فلما انصرف - أي انتهى من صلاته - قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء مالك أنت والنفاق؟ قال: اللهم غفرا - ثلاثاً - من يأمن من البلاء؟ من يأمن من البلاء؟ والله إن الرجل ليفتن في ساعة فينقلب عن دينه»، وكان

(١) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح.

(٢) رواه مسلم.

يقول: «ما لي لا أرى حلاوة الإيمان تظهر عليكم، والذي نفسي بيده لو أن دب الغابة وجد طعم الإيمان لظهرت عليه حلاوته، ما خاف عبد على إيمانه إلا منحه، وما آمن عبد على إيمانه إلا سلبه».

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: إن البصراء لا يأمنون أربع خصال:

- ذنب قد مضى لا يدري ما الرب صانع فيه، وعمر بقى لا يدري ماذا فيه من المهلكات، وفضل قد أعطي لعله مكر واستدراج، وضلالة قد زينت له فيراها هدي، ومن زيغ القلب ساعة ساعة أسرع من طرفة عين قد يسلب دينه وهو لا يشعر، لذلك كان من دعاء الراسخين في العلم ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

السبب السادس: الخوف من سوء الخاتمة:

وسبب هذا الخوف هو أن الإنسان قد غيبت عنه خاتمته فلا يدري بأي شيء يختم له، وقد ورد في الحديث: «إنما الأعمال بالخواتيم»، ويقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «.. فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١).

- والمراد بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فيسبق عليه الكتاب» هو الكتاب الذي كتبه الملك عند النفخ في الروح في مرحلة تخليق الجنين في بطن أمه حيث ورد في الحديث: «فيؤمر بكتب أربع كلمات؛ بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد».

- ولكن وردت رواية أخرى لهذا الحديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وكذا يقال للآخر، ومن هنا قال العلماء: إن المؤمن الذي استقام ظاهراً وباطناً أي لم يضمّر في قلبه كبيرة من الكبائر كالحسد والكبر وحب الدنيا ونحوها فإنه بإذن الله يموت على الإيمان ومن هنا قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. - يقول ابن رجب الحنبلي: من هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخاتمة، بكى بعض الصحابة عند موته فسئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين، فقال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار» ولا أدري في أي القبضتين كنت؟.

- وكان سهل التستري يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ يقول: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].
- ولا خلاف بين ما ذكرته لك من أن المؤمن الذي استقام في ظاهره وباطنه أن تكون خاتمته حسنة وبين الحديث الذي بعد قولي الصحابي وقول التستري لأن هذا ينصب حول الخوف من الوقوع في الذنب في آخر حياته.



المبحث الثالث

قبل ذكر صور من خوف الصحابة والصالحين أحب أن أنبه إلى أن الخوف على

مرتين

ذكرهما ابن رجب الحنبلي رَحْمَةُ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: «القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات كان ذلك فضلاً محموداً»، فهاتان المرتبتان مطلوبتان الأولى فرض والثانية: مستحبة.

- ثم وراء ذلك مرتبة مذمومة أشار إليها بقوله: «فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضاً أو موتاً أو همّاً لازماً بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عَزَّجَلَّ لم يكن محموداً».

- أما ما ورد من الصحابة والصالحين من الخوف فهي آثار كثيرة اكتفى بذكر بعضها هنا عسى الله أن ينفعني بها ومن يطلع عليها:

١- خوف أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ:

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «ومن تأمل أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن فهذا الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «وددت أني شعرة في جنب مؤمن»، ودُكِرَ أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيراً ويقول: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا».

ومن مواقف أبي بكر التي تدل على خوفه من الله تعالى ما ذكره الإمام أحمد بن حنبل في الزهد عن قيس ابن أبي حازم قال: كان لأبي بكر غلام فكان إذا جاء بغلته لم يأكل من

غَلَّتْهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ، فَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِمَّا يَجِبُ أَكْلُ، وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ لَمْ يَأْكُلْ، قَالَ: فَنَسَى لَيْلَةَ فَأَكَلَ وَلَمْ يَسْأَلَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ مِنْ شَيْءٍ كَرِهَهُ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْبِرُهُ أَنَّهُ كَانَ تَكْهَنُ لِقَوْمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَصَارَ مَا تَكْهَنُ لَهُمْ بِهِ، فَمَرَّ بِهِمْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ وَكَانَ عِنْدَهُمْ عَرَسٌ فَأَعْطَوْهُ هَذَا الطَّعَامَ - فَصَارَ هَذَا الْكَسْبَ حُلُومَانَ الْكَاهِنِ وَهُوَ حَرَامٌ - فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فِي فَمِهِ فَتَقَيًّا حَتَّى لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا.

قلت: هذا هو الخوف الحقيقي من الله تعالى أعني البعد عن أكل ما حرم الله تعالى.

٢- خوف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى:

اشتهر أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَمُرُّ بِالْآيَةِ مِنْ وَرْدِهِ بِاللَّيْلِ فَتَخِيفُهُ فَيَبْقَى فِي الْبَيْتِ أَيَّامًا يَعَادُ، يُحْسِبُونَهُ مَرِيضًا، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ خَطَانٌ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ.

وقرأ ذات يوم سورة الطور حتى بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ بكى واشتد بكاءؤه حتى مرض وعادوه.

جاء أعرابي ذات يوم فوقف عند عمر وقال:-

يا عمر الخير جزيت الجنة جهز بنياتي وأمهنته

أقسم بالله لتفعلنه

قال عمر: فإن لم أفعل ماذا يكون يا أعرابي؟ قال:

أقسم أنى سوف أمضيته

قال عمر: فإن مضيت ماذا يكون يا أعرابي؟ قال:

والله عن حالي لتسألن ثم تكون المساءلات ثمه

والواقف المسئول بينهنه إماما إلى نار وإماما جنه

فبكى عمر بن الخطاب حتى اخضلت لحيته بدموعه، ثم قال: يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره، والله ما أملك قميصاً غيره.

وكان ذات يوم مشغولاً ببعض أمور العامة، فجاءه رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعنى على فلان فإنه قد ظلمني، فرفع عمر الدرّة - عصاة - فخفق بها رأس الرجل، وقال: تتركون عمر وهو مقبل عليكم، حتى إذا انشغل بأمر المسلمين أتيتموه، فانصرف الرجل متذمراً، فقال عمر: علي بالرجل، فلما أعادوه ألقى عمر بالدرّة إليه وقال: أمسك بالدرّة وأخفق كما خفقتك، قال الرجل: لا يا أمير المؤمنين أدعها لله ولك، قال عمر: ليس كذلك إما أن تدعها لله وإرادة ما عنده من الثواب، أو تردّها علي فأعلم ذلك، فقال الرجل: أدعها لله يا أمير المؤمنين، وانصرف الرجل، أما عمر فقد مشى حتى دخل بيته، ومعه بعض الناس منهم الأحنف بن قيس الذي حدثنا عما رأى من عمر في بيته: فافتتح الصلاة فصلّى ركعتين ثم جلس، فقال: يا ابن الخطاب، كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب المسلمين فجاء رجل يستعديك، فضرّبتة، ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟ فجعل يعاتب نفسه حتى ظننت أنه خير أهل الأرض).

- وعندما بعث سعد بن أبي وقاص - أيام القادسية - إلى عمر بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسراويله وقميصه، وتاجه وخفيه، نظر عمر في وجوه القوم فكان أجسمهم وأمدهم قامه سراقه بن خثعم المدلجي، فقال: يا سراقه قم فالبس، فقام فلبس وطمع فيه، فقال له عمر: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل، فأقبل ثم أمره بخلعه، ثم قال عمر: «اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك وأكرم عليك مني، ثم أعطيتني فأعوذ بك أن تكون أعطيتني لتمكر

بي ثم بكى حتى رحمة مَنْ عنده، ثم قال لعبد الرحمن بن عوف أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمي.».

٣- خوف عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

روى ابن أبي شيبة بإسناده قال: دخل عثمان بن عفان على غلام له يعلف ناقة فرأى في علفها ما كره، فأخذ بأذن غلامه فعركها ثم ندم فقال لغلامه: اقتص مني، فأبى الغلام، فلم يدعه حتى أخذ بأذنه فجعل يعركها، فقال له عثمان شد، حتى ظن أنه قد بلغ مثل ما بلغ منه، ثم قال عثمان: «واها لقصاص قبل قصاص الآخرة».

هذه القصة فيها عبرة لكل من يؤذى خدمه في البيت أو العمل بغير حق وينسى أن الحساب يوم القيامة بالنقير والفتيل ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْعًا ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولا أظن أن الخادم إذا وجد من صاحبه الذي يعمل له في الدنيا ظلماً يوم القيامة أن يتخلى أو يتنازل عن أخذ حسناته، فرضي الله عن الخائفين من القصاص في الآخرة أمثال عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

روى كتاب التراجم عن عثمان قوله: «لو أني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لتمنيت أن أصير رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

وعن هاني مولى عثمان بن عفان قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته، فقيل له تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفضح منه».

ولقد اشتهر عثمان بأنه من أهل الثروة والغنى ولكن ذلك لم يكن سبباً في نسيانه القبر والدار الآخرة.

٤- خوف علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من ربه عَزَّجَل:

دخل الأشتر النخعي على أمير المؤمنين عليّ وهو قائم يصلى بالليل فقال له: يا أمير المؤمنين صوم بالنهار وسهر بالليل وتعب فيما بين ذلك، فلما فرغ - عليّ - من صلاته قال له: «سفر الآخرة طويل فيحتاج إلى قطعه بسير الليل».

ووصفه صاحبه ضرار بن ضمرة الكناني حين طلب منه معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذلك فقال: «كان يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتمايل في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تلمل السليم - الملدوغ - ويبكى بكاء الحزين فكأنني أسمعه الآن يقول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع، ثم يقول للدنيا: أبي تغررت؟ أم إليّ تشوقت هيهات هيهات، غري غري، قد بَتَّتْكَ ثلاثاً - طلقتك - فعمرك قصير، ومجلسك حقير وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق». فسالت دموع معاوية ما يملكها وجعل ينشفها بكمه.

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوصي الناس بقوله: «يا أيها الناس خذوا عني هؤلاء الكلمات فلوركبتن المطى حتى تضنوها - تهزلوها - ما أصبتم مثلها: لا يرجون عبداً إلا ربّه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي إذا لم يعلم أن يتعلم، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس له».

٥- خوف أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الله عَزَّجَل:

كان أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت؟ وكان يقول: لو تعلمون ما أعلم ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شربتم شرباً على شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، وخرجتم إلى الصعيد تضربون على صدوركم، وتكون على أنفسكم ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل».

٦- خوف أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ:

بكى أبو هريرة في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكى على دنياكم هذه، ولكن على بعد سفري وقلة زادي، وأنى أمسيت في صعود مهبطة على جنة أو نار فلا أدري أيهما يؤخذ بي.

٧- خوف محمد بن كعب القرظي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قالت له أمه: يا بني، لولا أنى أعرفك طيباً صغيراً وكبيراً لقلت أنك أذنبت ذنباً موبقاً، لما أراك تصنع بنفسك، قال: يا أماه، وما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع علي وأنا في بعض ذنوبي، فمقتنى وقال: اذهب لا أغفر لك، مع أن عجائب القرآن ترد بي على أمور حتى أنه لينقضي والله ولم أفرغ من حاجتي.

٨- خوف عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قالت زوجته فاطمة بنت عبد الملك لمغيرة بن حكيم: «يا مغيرة إنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر، وما رأيت أحداً قط أشد فرقا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجد بيته ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم يتبته، فلم يزل رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عيناه».

بكى عمر يوماً فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار لا يدري هؤلاء ما يبكي هؤلاء فلما تجلى عنهم البكاء، قالت له فاطمة: «بأبي يا أمير المؤمنين مم بكيت»، قال: «ذكرت يا فاطمة منصرف القوم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ فريق في الجنة وفريق في السعير، ثم صرخ فغشى عليه».

٩- خوف سفيان الثوري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قال عطاء الخفاف: ما لقيت سفيان الثوري إلا باكياً، فقلت: ما شأنك؟ قال: «أتخوف أن أكون في أم الكتاب شقياً»، وقال الذهبي: لقد لحق سفيان الثوري خوف

مزعج للغاية، وقال ابن المهدي: كنت أرمق سفيان في الليلة بعد الليلة ينهض مرعوباً ينادي: «النار، النار: شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات».

١٠- خوف علي بن فضيل بن عياض رحمهما الله تعالى وخوف أبيه فضيل:

قال أبو بكر بن عياش: صليت خلف فضيل بن عياض المغرب وابنه علي إلى جانبي فقراً: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ حتى بلغ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ سقط على وجهه مغشياً عليه، وبقي فضيل عند الآية، فقلت في نفسي: ويحك أما يكون عندك من الخوف ما عند فضيل وعلي، فلم أزل أنتظر علياً فما أفاق إلى ثلث من الليل بقي.

عن الفضيل بن عياض: قال أشرفت ليلة على علي وهو في صحن الدار يقول: النار، ومتى الخلاص من النار، وقال لي: يا أبت سل الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة، ثم قال: لم يزل منكسر القلب حزينا، ثم بكى فضيل - وكان ابنه علي مات قبله - ثم قال: كان يساعدي على الحزن.

١١- خوف الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ:

قال المروزي: كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان علي كل أمر الدنيا إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنما هي أيام قلائل، ما أعدل بالفقر شيئاً ولو وجدت سبيلاً لخرجت حتى لا يكون لي ذكر.

وقال المروزي: بال أبو عبد الله أحمد بن حنبل في مرض الموت دمًا عبيطاً فأريته الطبيب، فقال: هذا رجل قد فتت الغم أو الخوف جوفه.



المبحث الرابع

من باب إكمال الفائدة أريد أن أذكر للقاري وسيلتين من الوسائل العملية التي بها يكون من أهل المخافة من الله عَزَّوَجَلَّ، لأن الخوف من أهم الصفات التي بها يكون صلاح القلوب ونسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وهاتان الوسيلتان مأخوذتان بتصرف من كتاب (الإيمان أولاً) للدكتور الهلالي.

B

إن من أسباب الأمن الذي يلازمنا هو استشعارنا بأن يوم القيامة بعيد عنا، وأن العمر مازال فيه بقية، لذلك فإن الخروج من دائرة الأمن إلى الخوف يستلزم استشعار النفس أنها في خطر مداهمة الموت لها في أي لحظة من اللحظات، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اذكروا هاذم اللذات: الموت فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه»^(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس، وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأشدهم استعداداً له، أولائك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»^(٢).

ومن هنا كان السلف ومن بعدهم يرون أن ذكر الموت من أهم أسباب علاج

القلب وإعمارها بذكر الله تعالى، إليك بعض الآثار:

قالت صفية أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن امرأة شكت إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قساوة قلبها فقالت: أكثرني ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها.

(١) أخرجه البزار بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه بإسناد جيد.

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة يتذكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال أبو الدرداء: «إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم، وكان عمر يقول: « كل يوم يقال: مات فلان وفلان ولا بد من يوم يقال فيه: مات عمر».

وكان علي يقول: «إذا كنت في إدبار الموت في إقبال فما أسرع الملتقى».

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «ملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعد، ويتجافى عن دار الغرور وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتة».

وقال الدقاق: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت، عوقب بثلاثة: تسويق التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

وقال ابن الجوزي: يا أخي إذا أردت أن تدرى كيف حالك من بعدك - أي بعد موتك - فاخرج إلى القبور وانظرها وقد عفت - خربت - ومثل قبرك بينها، ثم انظر ماذا تحتاج إليه في قبرك؟ فأكثر مما يعينك على طول مدتك فيه - أي في القبر - وهو العمل الصالح، فأما ما سوى ذلك فليس لك حاجة في شيء من أمور الدنيا، فإنه يصير عليك وبالاً في قبرك وحسرة.

وانظر حالك الذي أنت عليه إن كان يصلح للموت والقبر فتهادى عليه - أي استمر عليه - وإن كان لا يصلح لهذين - الموت والقبر - فتب إلى الله منها وارجع إلى ما يصلح.

وقال القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ: مثل لنفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات فمن قائل يقول: إن فلاناً قد أوصى، وإن فلاناً قد أحصى، ومن قائل يقول: إن فلاناً ثقل لسانه فلا يعرف جيرانه ولا يكلم إخوانه فكأنى أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر على رد الجواب، ثم تبكى ابنتك وهي كالأسيرة، وتتضرع وتقول: حبيبي أبي من ليتمي من بعدك؟ ومن حاجتي؟ وأنت تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب، فخيّل لنفسك يا ابن آدم، إذا أُحِذَّتْ من فراشك إلى لوح مغسلك، فغسلك الغاسل وألبست الأكفان وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل: أين زوجة فلان تعالى فتحللي منه؟ وأين اليتامى ترككم أبوكم لن تروه بعد هذا اليوم أبداً؟

وهذه الوسيلة لن تنجح ولن تحصل إلا بعد ذكر الموت وهما من أعظم الوسائل للخوف من الله تعالى.

والمجالات التي ينبغي للعبد أن يحصي من خلالها ذنوبه كثيرة، وقبل ذكرها أقول: أحضر ورقة وقلماً ثم تفكر ولا بد أن تصدق في هذا التفكير في عملية إحصاء الذنوب، وليكن دافعك إلى هذه الكتابة ما قاله أحد الصالحين: «متى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق». ولكن هدفك من كتابة ذنوبك، إذلال النفس لله، والتوبة والندم على التفريط ثم حفظ تلك الذنوب ليلازم الخوف قلبك.

وأما المجالات التي بها يتذكر الإنسان ذنوبه ليكتبها فهي كثيرة:

١- **معاصي الجوارح:** ومن ذلك معاصي اللسان: الغيبة والنميمة والكذب والسخرية والاستهزاء بالآخرين، ومعاصي العين: كالنظر إلى ما حرم الله، ومعاصي الأذنين: كالاستماع إلى الأغاني، والاستماع إلى الغيبة في المجالس، وما أشبه ذلك، ومعاصي اليدين كالمصافحة للأجنبيات أو ملامستنهن في الأماكن المزدحمة أو أخذ ما

لا يحل لك من الأموال، ومعاصي القدمين: كالذهاب إلى أماكن الحفلات الراقصة أو مجالس الغيبة والنميمة والغفلة، وما أشبه ذلك، وهكذا قس على تلك الأمثلة، وما أكثر معاصينا، نسأل الله التوبة منها.

٢- معاصي القلب: ومعاصي القلب أخطر بكثير من معاصي الجوارح فمن ذلك: الإعجاب بالنفس وبالعمل الصالح، والتكبر على كل ضعيف من المسلمين، والحسد لمن فضله الله عليك، ومن أخطر معاصي القلب النفاق والرياء، وغلبة حب الدنيا وكرهية الصالحين.

٣- التقصير في حقوق الناس: كحق الوالدين والزوجة والأولاد والأرحام وكالتقصير في حق عامة المسلمين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو التقصير في القيام بواجب النصح للأصدقاء وما أشبه ذلك، ومن أهم ما يجب أن نلتفت إليه هو التقصير في حقوق المسلمين والذين نزلت بهم بلايا الحروب فلا نكاد ندعو لهم أو نقدم لهم يد العون مع القدرة إلا من رحم الله.

٤- التقصير في الطاعات: ومن ذلك قلة حضور القلب في الصلاة وعند تلاوة القرآن، وحال الأذكار الصباحية والمسائية أو غيرها من الذكر المطلق، هذا إذا واطبنا عليها وإلا فالبعض لا يكاد يتلوا القرآن أو يذكر الرحمن إلا قليلا وهذا تقصيره أعظم.

٥- التقصير في شكر نعم الله علينا: وهذا باب عظيم على العبد أن يلججه ليعلم مدى تقصيره في جنب الله تعالى... ولكي يستشعر بعظم تقصيره فعليه أن يحاول إحصاء نعمه عليه في شتى المجالات، وبعد أن يحصيها عليه أن يتذكر المقابل الذي قابل به هذا الكم الهائل من النعم، فإنه إن صدق في ذلك لا يملك إلا أن يقول: «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أبوء لك - اعترف لك - بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وأختم بقولي: الهدف من كتابة هذه الذنوب هو استشعار الخوف وليس اليأس من رحمة الله ولهذا من رأى أن الأمر قد يخرج به إلى حد اليأس فليكتف بكتابة بعض الذنوب ليذكر نفسه بها بين الحين والآخر.. ولا شك أن ما ذكرته سابقاً ليس بالضرورة أن يجتمع في كل أحد من الناس بل قد يجد نفسه ٥٠٪ فيها أو أقل أو أكثر وإنما الهدف هو أنه لا بد من وجود ذنب من أي نوع من تلك الأنواع آنفة الذكر والله أعلم.



الصفة الخامسة:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا
وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

الاقتصاد في النفقة



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: هذه هي الصفة الخامسة من صفات عباد الرحمن وتأتى بعد أن بين الله عزَّجَلَّ بعض صفاتهم المعنوية وان شئت قلت بعضاً من الصفات غير الملموسة ولكنها أمور لا تحتاج إلى بذل مال أو غيره من الأمور المادية الملموسة فأراد الله تعالى أن يذكر صفة أخرى تدل على كرم الأصل وساحة النفس وقوة الإيِّان، إذ إن الأنسان جُبل بطبعه على حب المال ولا يمكن أن يفارقه أو يخرج من يده إلا لأمر هو عنده أفضل وأجدى من المال، وهذا بيِّن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ - أَي الْإِنْسَانَ - لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]، والخير هو المال في هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي: حبًّا شديداً.

فلما كان عباد الرحمن أصحاب إيمان قوى لم يكن المال عندهم يساوى شيئاً في مقابل الحصول على مرضاة الله تعالى، لأن الوصول إلى رضى الله هو أسمى أمانيتهم وأغلى ما يتطلعون إليه... إذن فليذهب المال مادام العوض هو رضا الرحمن وهم عبَّادُهُ، فهذه الخصلة جاءت لتدل على قوة إيمانهم وعلى زهدهم في الدنيا وتطلعتهم إلى الآخرة ألا وهي صفة الإنفاق في سبيل الله وقد يقول قائل: لم كان الإنفاق هو الدليل على قوة الإيِّان دون ما تقدمه من الصفات - من التواضع والحلم وقيام الليل؟ أقول إنها كان ذلك كذلك لقول طيب القلوب والأجساد وخير العباد سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (والصدقة برهان) أي: دليل قاطع وحنة ساطعة وبرهان بين على إيمانهم بالله والدار الآخرة، لم ذلك يا رسول الله؟ الجواب لما سبق ذكره من حب الإنسان للمال وكراهية إنفاقه إلا في مقابل فإن كان المقابل ملموساً أخرجه وإلا حبسه، وهذا على خلاف المؤمنين لأن إيمانهم بالغيب أعظم من إيمانهم بالمشاهدة ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، ومعنى الآية

كما قال السعدي رَحْمَةُ اللَّهِ: «وما أنفقتم من نفقة واجبة أو مستحبة على قريب أو جار أو مسكين أو غير ذلك فهو تعالى «يخلفه» فلا تتوهما أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد الله بأنه يخلفه للمنفق»^(١)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُمِؤِنُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ [البقرة: ٣].

وثمة ناحية أخرى تبين مدى أهمية الإنفاق في سبيل الله ألا وهي أن عباد الرحمن يعلمون يقينا أن هذه الدنيا دار ممر وليست دار مقر وأنها كثيرة البلايا والمصائب، فلا بد إذن لمن كان من أصحاب الأموال أن ينفق بسخاء على مَنْ مستهم الفاقة وأصابهم الفقر، أو نزلت بهم كربة من كربات الدنيا فهم، أي عبادا الرحمن، يغيثون الملهوف وينفون على المكروب ويفكون العاني ويواسون الفقراء والمحتاجين؛ إذن فكان لا بد من الإنفاق في سبيل الله وناحية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ألا وهي أن عباد الرحمن ينفقون في سبيل الله تبرئة لنفوسهم من الشح والبخل الذي كان سبباً في هلاك الأمم السابقة كما أخبر بذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه عقوبة البخل في الدنيا، وأما عقوبته في الآخرة فهي الحرمان من دخول الجنة كما أخبر بذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يدخل الجنة بخیل»، ثم إن الشح يجرم أهله من الفلاح عموماً في دينهم ودنياهم وأخراهم ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. فكان من الضروري أن يتخلصوا من الشح.

وسيكون الحديث حول الآية التي جاءت في وصف عباد الرحمن بالاعتقاد في

النفقة من عدة نواح في عدة مباحث:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾:

المبحث الثاني: مراتب الإنفاق في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: استنباط أصول الاقتصاد الإسلامي من قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا

أَنفَقُوا... ﴾ الآية.

المبحث الرابع: يشترط للنفقة أن تكون من كسب حلال طيب.



المبحث الأول

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

- قال الميداني: «﴿أَنْفَقُوا﴾ أي بذلوا من أموالهم فيما أذن الله ببذل المال فيه، من وجوه الخير، وهذا شأن عامة المتقين، وسمى بذل المال إنفاقاً لأنه يؤدي إلى نفاذه وفنائه، فالإنفاق في اللغة: الفقر والإملاق بنفاد المال، ويقال: نفق الشيء ينفق نفقاً إذا نفد، وكذلك نفد الزاد، ولكن المال الذي ينفقه المنفق في سبيل الله وطاعته فإن الله يخلفه.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ أي لم يتجاوزوا حد الحكمة في الإنفاق، يقال لغة: أسرف في المال أو في الكلام أو في القتل أو نحو ذلك إذا تجاوز حد الحق أو الحكمة أو ما يقتضيه العقل الراجح.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي لم يضيقوا على أنفسهم، وعلى من تجب عليهم نفقتهم ولم يجعلوها أقل من المطلوب منهم أو أقل من الحاجة، والقترة لغة: الضيق.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي وكان بين الإسراف والتقتير وسطاً معتدلاً مستقيماً غير مائل ولا معوج. والقوام في اللغة: العدل، ويقال رمح قوام إذا كان مستقيماً معتدلاً، فدل هذا على أن كلا من الإسراف والتقتير انحراف واعوجاج عما تقتضيه الحكمة من الاستقامة والعدل»^(١).

- قال الفخر الرازي: ذكر المفسرون في الإسراف والتقتير وجوها:

أحدها: وهو الأقوى: أنه تعالى وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقتير وبمثله أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ثانيها: وهى قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وقتادة والضحاك: إن الإسراف: الإنفاق في معصية الله تعالى، والإقتار منع حق الله تعالى، قال مجاهد: لو أنفق مثل جبل أبي قبيس - جبل في مكة - ذهباً في طاعة الله لم يكن سرفاً، ولو أنفق صاعاً في معصية الله تعالى كان سرفاً، وقال الحسن: لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عما ينبغى وذلك قد يكون في الإمساك عن حق الله، وهو أقبح التقدير، وقد يكون عما لا يجب ولكن يكون مندوباً مثل الرجل الغنى الكثير المال إذا منع الفقراء من أقرابه.

- ثالثها: المراد بالسرف مجاوزة الحد في التمتع والتوسع في الدنيا، وإن كان من حلال فإن ذلك مكروه لأنه يؤدي إلى الخيلاء، والإقتار: هو التضييق^(١) اهـ.

- قال القرطبي: قال ابن عطية: الوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمرٌ قد حضرته الشريعة قليلة وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو النفقة في الطاعات وفي المباحات فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى لا يضيع حقاً آخر أو عيالاً أو نحو هذا، وألا يضيق حتى يبيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب حاله وعياله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوسطها، ولهذا ترك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر يتصرف بجميع ماله، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين.

- وقال يزيد بن حبيب في هذه الآية: أو لائك أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا لا يأكلون طعاماً للتعلم واللذة ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم، ويكفئهم من الحر والبرد. وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله»^(٢) اهـ.

(١) باختصار من تفسير الرازي (١٣/٦٠٩).

(٢) (٧٧/١٣) باختصار.

قال الشنقيطي: فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير، وبين البخل والاقتصاد...

فالمنع في محل الإعطاء مذموم، والإعطاء في محل المنع مذموم أيضاً؛ وقد قال الشاعر:

لا تمدحن ابن عباد وان هطلت يدها كالمزن حتى تُخجلَ الدِيَمَا
فإنها فلتات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا وكرما

إشكال في الآية: قال الشنقيطي: «فإن قيل: هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد على الحاجة الضرورية مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].»

- **الجواب:** أجاب الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ بِجواب سألته بتصرف:

- إن لكل مقام مقالاً، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعاً: منها ما يأتي:

١- إذا كانت على المنفق نفقات واجبة، كنفقة الزوجات ونحوها، فتبرع بالإنفاق في غير الواجب وترك الفرض، فهذا هو إيثار ممنوع لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأبدأ بمن تعول»^(١) وهذا بدأ بمن لم يُعَلِّ.

٢- أن يكون المنفق لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم ما لهم، فلا يجوز له ذلك.

- والإيثار إنما يحصل في حالة وهي إذا لم يضيع نفقة واجبة وكان واثقاً من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال^(٢).

(١) أخرجه الترمذي وأحمد والنسائي.

(٢) أضواء البيان (١/٣٨).

المبحث الثاني

للإنفاق في القرآن الكريم مراتب ثلاث - ذكرها الشيخ عطية محمد سالم في تمة ضوء البيان (٨ / ٥٤) باختصار شديد فقامت بالتوسع في بيانها وأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك - ولكن قبل بيانها أقول: لا بد لكل مؤمن أن يكون منفقاً مادام يملك ما يحتاجه وزيادة، وأما من لا يجد ما يسد حاجته فليس بواجب عليه الإنفاق إلا في حدود ضيقة كما سيأتي من خلال هذه المراتب.

١- المرتبة الأولى: الإنفاق من بعض المال بصفة عامة: قل أو أكثر كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، هذه المرتبة هي الحد الأدنى في الواجب، حتى قيل أن المراد بها الزكاة. ويدخل في هذه المرتبة شيئان:

(أ) النفقة الواجبة: وهذه تشمل الزكاة الفرض، وزكاة الفطر، والنفقة على الزوجة وعلى الأولاد الذين تجب نفقتهم على أبيهم، والنفقة على الأبوين الفقيرين، وهذه أفضل أنواع النفقة لأنها قيام بالحق الواجب ولا شك أن الواجب أعظم أجراً من غيره، يدل على ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»، وروى مسلم أيضاً عن ثوبان قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل دينار ينفقه الرجل على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله عَزَّجَلَّ، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله».

- ولستُ أيها القارئ الكريم في حاجة لأن أسرد لك الآيات والأحاديث الواردة في زكاة المال ترغيباً وترهيباً لأنها من أركان الإسلام ومما هو معلوم من الدين بالضرورة، ولكن سأكتفي بذكر حديثين أحدهما في الترغيب والآخر في الترهيب في

إخراج الحق الواجب في المال، تعليمًا للجاهل، وتنبهًا للغافل، وما تذكر متذكر بمثل حديثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

- **الحديث الأول:** عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، ثُمَّ أَكْب، فَأَكْبَ كُلُّ رَجُلٍ مَنَّا يَبْكِي لَا يَدْرِي عَلَى مَاذَا حَلَفَ»، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَفِي وَجْهِهِ الْبُشْرَى، فَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حَمْرِ النَّعْمِ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَصَلِي الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ وَيُخْرِجُ زَكَاةَ مَالِهِ وَيَتَجَنَّبُ الْكِبَائِرَ السَّبْعَ إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ وَقِيلَ لَهُ ادْخُلْ بِسَلَامٍ»^(١).

- **الحديث الثاني:** عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ آتَاهُ

اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَقْرَعًا، لَهُ زَبَيْبَتَانِ، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي شَدَقِيهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. قَالَ ابْنُ حَجْرٍ فِي الْفَتْحِ (٤/ ١٥٠، ١٠٦)، قَوْلُهُ زَبَيْبَتَانِ: تَشْيَةُ زَبَيْبَةٍ...

وهما الزببتان اللتان في الشدقين، وقيل: هما النكتتان السوداوان فوق عينه، وقيل هما في حلقة بمنزلة زنمتى العنز وقيل: هما لحمتان على رأسه مثل القرنين، وقيل: نابان يخرجان من فيه... قال القرطبي: الأقرع من الحيات الذي يبص رأسه من السم. قوله: بلهزمتيه: قد فسر في الحديث بالشدقين، وفي الصحاح: هما العظمان الناتان في اللحين تحت الأذنين، وفي الجامع: هما لحم الخدين الذي يتحرك إذا أكل الإنسان باختصار، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يرك فلا صلاة له»^(٢).

(١) ذكره المنذرى في الترغيب وقال: رواه النسائي، واللفظ له، وابن ماجه وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحهما، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه الطبراني في الكبير موقوفاً بأسانيد صحيحة، الترغيب والترهيب حديث رقم (١١٢٤).

(ب) النفقة المندوبة: وهذه هي الصدقة التي يخرجها الإنسان تطوعاً لله تعالى يبتغى بذلك الأجر قال الشيخ عطية محمد سالم رَحِمَهُ اللهُ: «وهي تشمل النافلة يعنى المرتبة الأولى؛ وتصدق -أي يصح إطلاقها- على أدنى شيء ولو شق تمرة، وتدخل في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧]، ومما هو معلوم أن الإنفاق التطوعي لا يكون إلا بعد الإنفاق الواجب، ولما كانت النفوس مجبولة على الشح وجمع المال جاءت الآيات الكثيرة والأحاديث النبوية التي لا تعد للحث على الإنفاق في سبيل الله، فقد وردت تلك الأحاديث ترغيب المسلم في الإنفاق مما زاد على حاجته ابتغاءً لما عند الله عَزَّجَلَّ، وسأذكر هنا بعضاً منها تلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية:

- **فأما الآيات القرآنية:** فمنها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْمَانِ وَالْإِحْسَانِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٢١]، وغيرها كثير.

- **وأما الأحاديث النبوية:**

جميع هذه الأحاديث وردت في الترغيب والترهيب للمندوب في النفقة المندوبة فيها على مراتب فمنها ما يحث على الصدقة على الأقارب وفيها ما يحث على الصدقة على الجيران والضييف والمسكين الذي اشتدت به الحاجة وغير ذلك فهذا يحتاج إلى مبحث خاص وهو ليس نحن بصدده ولهذا سأذكر هنا بعضاً من الأحاديث الهامة:

١- عن أم كلثوم بنت عقبة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح»^(١)، وفي معناه عن أبي أمامة مرفوعاً: «إن الصدقة على ذوي القرابة يضعف أجرها مرتين»^(٢)، وعن سلمان بن عامر يرفعه أيضاً: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصل»^(٣).

٢- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(٤)، وورد في معناه من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصللة الرحم تزيد في العمر»^(٥).

٣- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بيننا رجل في فلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة: إسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل في حديقة يحوّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك، قال: فلان للإسم الذي سمع في السحاب، فقال له: يا عبد الله لم سألتني عن أسمى؟ قال: سمعت في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لا سمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر

(١) رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه الطبراني في الكبير.

(٣) رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه الطبراني بإسناد حسن.

إلى ما يخرج منها، فاتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها الثلث»^(١). وقوله: الحرة: الأرض التي بها حجارة سود، والشرجة: مسيل الماء إلى الأرض السهلة، المسحاة: المجرفة من حديد.

٤- عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمر»^(٢).

٥- عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس»^(٣)، وفي رواية لابن خزيمة عن يزيد بن أبي حبيب أن أبا الخير مرثد بن أبي عبد الله المدني كان أول أهل مصر يروح إلى المسجد، وما رأته داخلًا المسجد قط إلا وفي كفه صدقة: إما فلوس، وإما خبز، وإما قمح، قال: حتى ربما رأيت البصل يحملها، قال: فأقول: يا أبا الخير، إن هذا يتنن ثيابك قال، فيقول: يا ابن أبي حبيب أما إني لم أجد في البيت شيئًا أتصدق به غيره إنه حدثني رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ظل المؤمن يوم القيامة صدقته».

٦- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»^(٤).

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحها والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٤) رواه الشيخان.

المرتبة الثانية: الإنفاق مما يحبه الإنسان ويحرص عليه: وهذا ينبغي أن يكون

مما زاد على الحاجة، وهذا هو المراد في قوله تعالى: ﴿وَعَاقَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَأَيْتَمَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله تعالى: ﴿لَن نَّأْلُوا اللَّيْلَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]. يقول الشيخ السعدى رَحِمَهُ اللهُ: دلت الآية على أن العبد بحسب إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك وقيل: إن البر هو الجنة.

- يقول الشيخ عطية محمد سالم رَحِمَهُ اللهُ: وهي الحد الوسط بين الاكتفاء بأقل الواجب وبين الإيثار على النفس - كما سيأتي - وهي ميزان التوسط لعامة الناس، كما بينه تعالى بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، وكما امتدح الله قوامًا بالاعتدال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]^(١).

- وهؤلاء المذكورون في الآيات السابقة أنفقوا مما يحبون وقد لا يكونون في حاجة إليه ولكنهم حازوا هذه الدرجة عند الله تعالى بترك محوبات النفس.

١- كان أبو طلحة الأنصاري أكثر الأنصار مالاً من نخل، فقال: يا رسول الله إن أحب أموالى إلى بيرحاء - مزرعة قريبة من المسجد النبوي - وإن الله تعالى يقول: ﴿لَن نَّأْلُوا اللَّيْلَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ﴿ وَإِنهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بَرَهَا وَذَخَرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِخِ ذَاكَ مَالِ رَابِعِ ذَاكَ

مال رابع، وقد سمعتُ ما قلت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله؟ قال أنس: فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبنِي عمه^(١).

٢- قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا رسول الله، لم أر مالا قط هو أنفُس عندي من سهمي الذي هو بخير فما تأمرني؟ قال: «أحبس الأصل وسبّل الثمرة»^(٢).

ومعنى احبس الأصل: أي أبقه في ملكك، وسبّل الثمرة: أي أجعلها صدقة في سبيل الله، يأكل منها الفقراء والمحتاجين.

٣- أعطى عبد الله بن جعفر ابن عمر في نافع عشرة آلاف، فدخل على صفيّة امرأته فحدثها، قالت: فما تنظر؟ قال: فهلا ما هو خير من ذلك هو حر لوجه الله فكان يخيل إليّ أنه كان ينوي قول الله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾^(٣)، والمقصود أن عبد الله بن جعفر أراد شراء نافع من ابن عمر بعشرة آلاف ولكن آثر بن عمر أن يعتقه لوجه الله.

٤- عن أيوب بن وائل: قال: أتى ابنُ عمر بعشرة آلاف ففرقها، وأصبح يطلب لراحلته علفا بدرهم نسيئة؛ وقال نافع: «كان ابن عمر يفرق في المجلس الواحد ثلاثين ألفاً ثم يأتي عليه شهر ما يأكل مزعة لحم»، وقال أيضاً: «ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف إنسان»^(٤)؛ أي من العبيد الأرقاء.

٥- عن محمد بن إسحاق قال: «كان أناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين، فقدوا الذي كانوا يؤتّون بالليل»، وعن

(١) أخرجه أحمد وغيره.

(٢) متفق عليه.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٢١٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٢١٨).

عمرو بن ثابت: «لما مات علي بن الحسين وجدوا بظهره أثرا مما كان ينقل من الجرب بالليل إلى منازل الأرامل»، الجرب: جمع جراب وهو كيس توضع فيه النقود وقال شيبه بن نعام: «لما مات علي بن الحسين وجدوه يعول مائة أهل بيت»^(١).

٦- قدم الشافعي صنعاء فضربت له خيمة، ومعه عشرة آلاف دينار، فجاء قوم فسألوه، فما قلعت الخيمة ومعه منها شيء^(٢).

المرتبة الثالثة: في الإنفاق مع الإيثار على النفس: وهذا يعنى أن الإنسان ينفق مع شدة حاجته إلى المال الذى ينفقه، ولكن هذه المرتبة لا يقدر عليها إلا من أوتى صبراً وجلداً على الفقر وأوتى قوة في التوكل على الله، وقد دل على هذه المرتبة ما امتدح الله به الأنصار في قوله: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وسأذكر هنا سبب نزولها لعله أن يكون فيه عبرة لمعتبر، قال ابن كثير: روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى رجل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تدخره شيئاً فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالى فأطفئ السراج، ونطوى بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «لقد عجب الله عزَّجَلَّ -أو ضحك- من فلان وفلانة»، وأنزل الله: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، فهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم إلى ما أنفقوه، فهم أعلى منزلة ممن قال الله فيهم: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، ومن قال الله تعالى فيهم:

(١) المرجع السابق (٣/٤٦٠) وما بعدها.

(٢) رواه الأصبم وجماعة عن الربيع، المرجع السابق (١٠/٣٨).

﴿وَعَائِي أُمَالٌ عَلَىٰ حِيَّتِهِ﴾ ومن هنا تصدق الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجميع ماله فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال: «أبقيت لهم الله ورسوله»، وهكذا الماء الذي عُرضَ على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده إلى الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (١) أهـ.

فقد وردت آثار كثيرة عن التابعين ومن بعدهم في الإيثار مع شدة الحاجة والفاقة، وسنورد هنا ما يسمح به المقام.

١- عن عطاء الخراساني أن امرأة أبي مسلم الخولاني قالت: ليس لنا دقيق، فقال: هل عندك شيء؟ قالت: درهم بعنا به غزلا، قال: أبغينيه وهاتي الجراب، فدخل السوق فأناه سائل وألح، فأعطاه الدرهم وملاً الجراب نشارة مع التراب، وأتى وقلبه مرعوب منها ووضعها وذهب، ففتحتته فإذا به دقيق حوارى فعجنت وخبزت، فلما جاء الليل وضعته، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الدقيق، فأكل وبكى (٢).

٢- قال عبدالرحمن بن يزيد: «ما رأيت أحداً أفضل من القاسم - أبي عبدالرحمن -، كنا بالقسطنطينية وكان الناس يرزقون رغيفين رغيفين، فكان يتصدق برغيف ويفطر على رغيف» (٣).

٣- عن الواقدي قال: «أضقت مرة - أصابتنى فاقة شديدة - وأنا مع يحيى بن خالد، وحضر عيد فجاءتني الجارية فقالت: ليس عندنا من آلة العيد شيء، فمضيت إلى تاجر صديق لي ليقرضني، فأخرج إليّ كيساً مختوماً فيه ألف دينار ومئتا درهم، فأخذته،

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/١٢).

(٣) المرجع السابق (٥/١٩٥).

فما استقرت في منزلي حتى جاءني صديق لي هاشمي فشكا لي تأخر غلته وحاجته إلى القرض، فدخلت إلى زوجتي وأخبرتها، فقالت: على أي شيء عزمت؟ قلت: على أن أقاسمه الكيس، قالت: ما صنعت شيئاً، أتيت رجلاً سوقة - أي عامياً - فأعطاك ألفاً دينار ومئاتي درهم، وجاءك رجل من آل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعطيه نصف ما أعطاك السوقة؟ فأخرجت الكيس كله إليه، فمضى، فذهب صديقي التاجر إلى الهاشمي - وكان صاحبه - فسأله القرض، فأخرج الهاشمي إليه الكيس بعينه، فعرفه التاجر، وانصرف إليّ فحدثني بالأمر، قال الواقدي: وجاءني رسول يحيى يقول: تأخر رسولنا عنك لشغلي، فركبت إليه وأخبرته بأمر الكيس، فقال: يا غلام، هات تلك الدنانير، فجاءه بعشرة آلاف دينار، فقال: خذ ألفي دينار لك، وألفي دينار للتاجر، وألفي دينار للهاشمي، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم»^(١).

٤- قال هارون المستملي: «لقيت أحمد بن حنبل، فقلت: ما عندنا شيء، فأعطاني خمسة دراهم، وقال ما عندنا غيرها، وقال المروزي: رأيت أبا عبد الله - أحمد بن حنبل - قد وهب لرجل قميصه، وربما واسى من قوته»^(٢).

٥- قال منصور الغضاري: شاهدت الحافظ عبد الغني بن عبدالواحد المقدسي في الغلاء بمصر وهو ثلاث ليال يؤثر بعشائه ويطوى^(٣).

٦- قال ابن لبابة الحافظ: «كان بقي بن مخلد من عقلاء الناس وأفاضلهم، وكان أسلم بن عبد العزيز يُقدِّمه على جميع من لقيه بالمشرق ويصف زهده، ويقول: ربما كنت أمشي معه في أزقة قرطبة، فإذا نظر في موضع خال إلى ضيف محتاج أعطاه أحد ثوبيه»^(٤).

(١) المرجع السابق (٩/٤٦٦ و ٤٦٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/٢١٨ و ٢١٩).

(٣) المرجع السابق (٢١/٤٥٧).

(٤) المرجع السابق (١٣/١٧٠).

٧- عن علقمة بن مرشد قال: «قال الحسن البصرى: والله لقد رأيت أقوامًا كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه، ولقد رأيت أقوامًا يمسي أحدهم ولا يجد عنده إلا قوتًا - أي ما يكفيه فقط - فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني فيتصدق ببعضه، ولعله أحوج إليه ممن يتصدق به عليه»^(١).



المبحث الثالث

سأذكر في هذا المبحث ما أشار إليه الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ مِنْ أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ فيها أصول الاقتصاد الإسلامي مع شيء من التصرف والزيادات، ومن شاء فليراجع كلام الشنقيطي في أضواء البيان قال رَحِمَهُ اللهُ^(١):

- هذه الآية الكريمة قد بينت أحد ركني ما يسمى الآن بالاقتصاد الإسلامي، وإيضاح ذلك أن جميع مسائل الاقتصاد على كثرتها واختلاف أنواعها راجعة إلى أصلين لا ثالث لهما ولا فائدة في واحد منهما دون الآخر وهما:

الركن الأول: اكتساب المال: وهذا قد جاء موضحاً في آيات أخر دلت على أن الله تعالى قد فتح الأبواب إلى اكتساب المال بالأوجه اللائقة به كالتجارات وغيرها كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ۖ وَأَخْرُجُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. وأشار إلى أنواع الشركات في قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَوَارِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩]. وغير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

ولا بد لهذا الركن من أمرين ضروريين هما:

١- معرفة حكم الله فيه: لأن الله تعالى لم يبيح اكتساب المال بجميع الطرق بل أباح بعضها وحرم بعضها كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فمعرفة حكم الله

(١) أضواء البيان (٦/ ٢٣٧ و ٢٣٨).

أمر ضروري لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام، والمال الحرام لا خير فيه البتة، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الضَّعْفَتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

٢- معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال: فقد يعلم الإنسان مثلاً أن هذه التجارة في النوع الفلاني مباحا شرعا، ولكنه لا يعلم أوجه التصرف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل المال، فلا بد له إذن من دراسة مشروعه التجاري والموسم المناسب وما إلى ذلك مما يتعلق بذلك المشروع، وهكذا يقال في كل مشروع فيه اكتساب للمال، لأنه من لم يتصرف تصرفا يريد الربح فيعود عليه تصرفه بالخسران، لعدم معرفته بالأوجه التي يحصل بها الربح، إن هذا الإنسان قد يضيع كثيرا من الأموال والجهود والأوقات بسبب جهله، هذا إذا كان يسعى لمصلحة نفسه، فكيف إن كان ضمن شركة أو بنك إسلامي وسُلمت إليه أموال الناس، فيقع الخسران على كل مشارك في ذلك البنك أو تلك الشركة.

الركن الثاني: صرف المال في مصارفه: لأن الإنسان لو كان حسن النظر في جمع المال وجاهل بمواضع صرفه، فلا فائدة إذن من جمعه للمال، ويكون قد أضاع جهده ووقته في جمع ذلك المال، وكذلك لو كان حسن النظر في صرفه ولكنه جاهل باكتسابه لم تكن هناك فائدة، إذن فلا بد من حصول هذين الركنين: حسن النظر في الكسب، وحسن النظر في صرفه، فجاءت الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ جاءت لبيان هذا الأصل، لأن الأخرق في صرفه يبدد الأموال والبخيل يقتر على نفسه، فيصبح المال عنده كالعدم، إذن فلا بد من الوسطية والاعتدال في صرف المال، وهذا الصرف يعتمد على شيئين لا بد منهما حتى يكون مقبولا في شرع الله تماما كما بينا في الكسب، فهما:

١- معرفة حكم الله في الجهة التي يصرف إليها المال: اعلم أنه تعالى لم يبح صرف

المال في كل شيء بل أحل بعض الصرف وحرّم بعضه، فقال جَدَّوَعَلَا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فهذا في جانب الصرف الحلال، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فهذا في جانب الصرف الحرام، ولهذا كان لا بد من معرفة حكم الله في صرف المال حتى يميز بين الواجب كالزكاة والنفقة على الزوجة والأولاد، وبين المندوب كمطلق الصدقات، وبين الصرف الحرام كالدخول في شركات تتاجر في أمور حرمها الله كالتجارة في الخمر وآلات الغناء وغيرها، وهكذا يأخذ الصرف جميع الأحكام الشرعية.

٢- معرفة كيفية الصرف في المجالات المشروعة: وهذا تتبين أهميته من جهة أن

الإنسان قد يعلم أن الصرف في بناء مسجد مثلاً عمل صالح ولكن قد لا يحسن اختيار المكان المناسب لبناء هذا المسجد وبهذا يضيع أمواله، لأنه كان في الإمكان أن يتصدق بهذا المال على بعض المحتاجين إذا لم يجد المكان المناسب.

الخلاصة: إن الاقتصاد الإسلامي يقوم على أربعة أسس هامة وهي:

- ١- معرفة حكم الله في الوجه الذي يكتسب به المال، فيترك إن كان محرماً.
- ٢- حسن النظر في اكتساب المال بعد التأكد من إباحته شرعاً.
- ٣- معرفة حكم الله في الأوجه التي يصرف فيها المال، فيجتنبه إن كان محرماً.
- ٤- حسن النظر في أوجه الصرف، واجتناب ما لا يفيد منها.



المبحث الرابع

لقد تقدم في المبحث الثاني ذكر أجور الصدقات سواءً كانت واجبة أو مندوبة ولكن هذه الصدقات لكي تكون مقبولة عند الله تعالى فلا بد أن تكون من المال الحلال، لأن الله تعالى لا يتقبل إلا الطيب، ولهذا أحببت أن أذكر هنا ما يدل على هذا المعنى من الكتاب والسنة حرصاً على أن يكون إنفاق عباد الرحمن مقبولاً عند الله تعالى، ولقد حرص السلف حرصاً شديداً على الكسب الحلال والبعد عن المحرم بل والمشتبه فيه كل ذلك خوفاً من أن تُردَّ عليهم صدقاتهم، فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:

B :

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

- قال ابن الجوزي: في سبب نزولها قولان:

أحدهما: «أن الأنصار كانوا إذا جدوا النخل - أي حصدوه - جاء كل رجل بشيء من ذلك فعلقه في المسجد ف يأكل منه فقراء المهاجرين، وكان أناس ممن لا يرغب في الخير - يجيء أحدهم بالقنو - هي العزق التام بشماريخه ورطبه - فيه الحشف والشيص - رديء التمر - فيعلقه، فنزلت هذه الآية، هذا قول البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^(١).

(١) رواية الإمام الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

الثاني: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بزكاة الفطر، فجاء رجل بتمر رديء، فنزلت هذه الآية، هذا قول جابر بن عبد الله»^(١).

قال ابن الجوزي: وفي المراد بالطيب ها هنا قولان: أحدهما: أنه الجيد الأنفس وهو قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. والثاني: أنه الحلال، وفي الخبيث أيضًا قولان في مقابل الطيب فهو إما الرديء أو الحرام، والأول هو قول الأكثر، والثاني قاله ابن يزيد^(٢).

وقال ابن كثير: قال تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودينئه وهو خبيثه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي لا تقصدوا الخبيث ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ وقيل معناه: ولا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه، ويذكرها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم»، إلى قوله: «ولا يتصدق فيقبل منه»، وسيأتي بتامه إن شاء الله^(٣).

قال الطاهر بن عاشور: المراد بالطيبات: خيار الأموال، فيطلق الطيب على الأحسن في صنفه، والكسب ما يناله المرء بسعيه، التجارة والغنيمة والصيد، ويطلق الطيب على المال المكتسب بوجه حلال لا يخالطه غش ولا ظلم، وهو الطيب عند الله كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من تصدق بصدقة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا طيبًا - تلقاها الرحمن بيمينه»، وفي الحديث الآخر: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا».

وقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي الخبيث الشديد السوء في صنفه فلذلك يطلق على الحرام وعلى المستقذر، قال الله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]،

(١) رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) زاد المسير (١٦٤) بتصرف.

(٣) تفسير ابن كثير (١/٣٢٠).

وهو الضد الأقصى للطيب فلا يطلق على الرديء إلا على وجه المبالغة ووقوع لفظه في سياق النهي يفيد عموم ما يصدق عليه اللفظ.

- قلت: لو أخذنا بالقول الأول من قولي المفسرين وهو أن المراد من الآية المال الرديء أو الصنف الرديء حتى ولو كان حلالاً كما تقدم في أسباب النزول، فيقال: إذا كان الله تعالى لا يقبل الحلال الرديء فكيف يقبل الحرام الخبيث فإنه من باب أولى أن يكون أقرب إلى رده وعدم قبوله من صاحبه.. ثم ننبه على أمر هام وهو أن الذي ينفق من الحلال الرديء غالباً غير طيب النفس بما ينفق وليس في قلبه الوصول إلى مرضاة الله تعالى، بل قد يخرج حياءً من الناس أو رداً لصفة البخل أو كفاً لبعض الألسنة عنه فهذا بخل بالجيد الأنفس من المال وجاء بالرديء وذلك لأنه ليس همم الصدقة المقبولة، وإنما همم أن يقال تصدق فلان، فكان أجدر بالأ يقبل منه، فكيف بالذي ينفق من كسب حرام لا شك أنه أبعد من ذلك بكثير، وهذا المعنى يزداد وضوحاً من خلال الأحاديث التي سيأتي ذكرها.

: B

١- عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحْبَبَهُ، وَلَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسَلِّمُ - أَوْ لَا تَسْلُمُ - عَبْدٌ حَتَّى يُسَلِّمُ - أَوْ يُسَلِّمُ - قَلْبَهُ وَلسَانَهُ وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارَهُ بِوَأْتِقِهِ» قَالُوا: وَمَا بِوَأْتِقِهِ؟ قَالَ: «غَشْمُهُ وَظَلْمُهُ»، «وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا حَرَامًا فَيَتَصَدَّقَ بِهِ فَيَقْبَلُ مِنْهُ، وَلَا يَنْفَقُ مِنْهُ فَيُبَارِكُ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتْرِكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنْ اللَّهُ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنْ الْخَبِيثُ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ»^(١).

(١) قال المنذري: رواه أحمد وقد حسنه بعضهم، الترغيب والترهيب (٣٤٧).

٢- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَغْبِطَنَّ جَامِعَ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، - أَوْ قَالَ - مِنْ غَيْرِ حَقِّهِ، فَإِنَّهُ إِنْ تَصَدَّقَ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ وَمَا بَقِيَ كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ» (١).

٣- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا» (٢).

- يقول ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد أن الله تعالى لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيباً حلالاً، وقد قيل إن المراد أعم من ذلك، وهو ألا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها كالرياء والعجب، ومن الأموال إلا ما كان حلالاً» (٣).

- يقول ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه الحث على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق من غيره، وأن المأكول والمشروب والملبوس ونحوها ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً».

B : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١- مما يحكى من يونس بن عبيد أنه جاءه رجل من الشام فقال له: عندك مطرف بأربعمائة؟ فقال: «عندنا بمائتين» وبينما هم كذلك نادى المنادى للصلاة، فانطلق يونس إلى بني قشير ليصلى بهم، فجاء وقد باع ابن أخته المطرف من الشامي بأربعمائة درهم فقال له: ما هذه الدراهم؟ قال: ثمن ذلك المطرف، فانطلق حتى لحق بالشامي، وقال له: «يا عبدالله هذا المطرف الذى عرضته عليك بمائتي درهم، فإن شئت فخذها وخذ مائتين، وإن شئت فدعه»، قال الشامي: من أنت؟ قال: «رجل من المسلمين»، قال: أسألك بالله

(١) رواه الحاكم وصححه.

(٢) رواه مسلم وهذا جزء منه.

(٣) جامع العلوم والحكم.

من أنت؟ ما اسمك؟ قال: يونس بن عبيد، قال: «فوالله إنا لنكون في نحر العدو، فإذا اشتد الأمر علينا، قلنا: اللهم رب يونس فرج عنا، أو شبه هذا»، فقال يونس: سبحان الله، سبحان الله.

٢- قال الجنيد: اجتاز الحارث المحاسبي يوماً بي، فرأيت في وجهه الضر من الجوع فدعوته فقدمت له ألوانا من الطعام، فأخذ اللقمة فرأيته يلوكها فوثب وخرج، ولفظ اللقمة، فأتيته فعاتبته، فقال: «أما الفاقة فشديدة، ولكن إذا لم يكن الطعام مرضياً، ارتفع إلى انفي منه زفرة فلم أقبله».

٣- يقول الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: «دخلت على أبي الحسن -والد البخاري- عند موته فقال: «لا أعلم من مالي درهماً من حرام، ولا درهماً من شبهة»، قال أحمد: «فتصاغرت إليّ نفسي عند ذلك»، ثم قال: «أصدق ما يكون الرجل عند الموت»، ولعل في هذه الآثار كفاية والله أعلم.





الصفة السادسة:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾

إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ



المَقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: هذه الآية فيها بيان للصفة السادسة من صفات عباد الرحمن - جعلنا الله وإياكم منهم بمنه وكرمه - ألا وهي: إخلاص العبودية لله وحده، وإن شئت قل: التبرؤ من الشرك بجميع صورته؛ الأكبر والأصغر والخفي؛ وقبل بيان ما قاله أهل التفسير في معنى الآية الكريمة سأذكر مبحثاً أجيب فيه عن سؤالين هامّين حول هذه الصفة من صفات عباد الرحمن ثم أذكر بعد ذلك أقوال المفسرين حول الآية الكريمة ثم أذكر ثلاثة مباحث هامة فيما يتعلق بالإخلاص وفوائده وعلاماته وصوراً من إخلاص السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ثم اختتم بمبحث هام ألا وهو الأسباب الموصلة إلى الإخلاص وعليه يكون نظام عقد هذه الصفة في خمسة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: سؤالان هامان حول الآية الكريمة والجواب عنهما.

المبحث الثاني: أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

ءَاخَرَ﴾.

المبحث الثالث: الإخلاص: معناه وفوائده وعلاماته.

المبحث الرابع: صور من إخلاص السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

المبحث الخامس: الأسباب الموصلة إلى الإخلاص.



المبحث الأول

السؤال الأول: قد يقول قائل: لقد علم مما تقدم من صفات عباد الرحمن أنهم في أعلى درجات المتقين فكيف يوصفون مع هذا بالتبريء من عبادة غير الله تعالى؟

الجواب: الإجابة عن هذا السؤال من ثلاثة أوجه: -

الوجه الأول: لما كان التوحيد هو أساس كل عمل صالح وبدونه لا يقبل الله من عبد صرفاً ولا عدلاً - فرضاً ولا نفلاً - ولما كان الإخلاص هو الموصل الوحيد إلى تقبل طاعات العبد إذ لا يقبل الله من أحد عبادة مالم يخلص فيها لله تعالى، أقول: لما كان ذلك كذلك كان لا بد من بيان أن ما تقدم ذكره من صفات عباد الرحمن: من تواضع وحلم ونفقة وقيام ليل إنما هي صفات وعبادات مبنية على توحيد الله والإخلاص له في ذلك كله، فهذه الآية نفت عنهم الشرك الأكبر والشرك الأصغر كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الوجه الثاني: لقد ذكر الله سبعة عشر نبياً ورسولاً في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ﴾ [الأنعام: ٨٣]، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَأَيُّسَعَ وَيُوشَعَ وَثُوطًا وَكَانُوا إِخْوَتَنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦]، ثم عقب تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ولا شك أن هؤلاء الصفوة من البشر هم أبعد عن الشرك من غيرهم ومع ذلك بين الله خطورة الشرك به تعالى، فمن باب أولى أن يبين جَلَّ وَعَلَا أن من صفات عباد الرحمن أنهم ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ثم تأمل أخي الكريم قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. فإذا كان أبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يسأل الله أن يجنِّبه وبنيه عبادة الأصنام،

فماذا يقول غيره، ومن هنا كان إبراهيم التيمي يقول في وعظه للناس: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، كما عبدها أبي وقومي.

الوجه الثالث: لو لم تذكر هذه الصفة لظن بعض الناس أنه في إمكانه أن يكون من عباد الرحمن ولو عبد مع الله إلهًا آخر وذلك لأن أهل الشرك كانوا يتحلون ببعض جميل الخصال التي تعطيهم مكانة اجتماعية ولا يعلم الناس ما في قلبه من شرك أكبر أو أصغر، فأراد الله تعالى أن يبين لعباده أن الشرك مفسد لكل خصلة جميلة ولا ينفع العبدَ عملٌ إذا كان من أهل الرياء والسمعة، والفرق بين هذا الوجه والوجه الأول أن هذا للتنبيه على أن عباد الرحمن قد صلح ظاهرهم وباطنهم والوجه الأول لبيان ارتكاز تلك الأعمال على الإخلاص فيها وقبل هذا وذاك توحيد الله جل في علاه.... والله أعلم.

السؤال الثاني: كان من المفترض أن يبدأ بذكر صفات التحلي وهي المذكورة في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]. ثم يعقب بذكر صفات التحلي وهي آفة الذكر، ولكن جاء ذلك معكوسًا، ومعلوم أن صفات التحلي مقدمة على صفات التحلي، فما هي الحكمة في ذلك؟

الجواب: والإجابة عن هذا السؤال من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: إن يقال أن تقديم صفات التحلي على صفات التحلي هو الأصل في اكتساب الصفات وبيانه: أن التحلي عن الصفات الذميمة كسوء الخلق والزنا ليس مقصودا لذاته وإنما هو لإفساح المجال لصفات التحلي كحسن الخلق والعفة وغيرها لأنه لا يمكن أن تجتمع هذه المتناقضات في قلب واحد، فكان لا بد من التحلي أولاً

عن صفات الذم ثم التحلي بصفات المدح ومن هنا نعلم أن صفات التحلي هي المقصود الأسنى والمطلب الأعلى.

وبناءً عليه نقول: إن صفات التحلي هي الغاية وصفات التحلي هي الوسيلة؛ والغاية أشرف من الوسيلة، فقدم الله تعالى الغاية على الوسيلة لشرفها.

الوجه الثاني: ليس من المناسب أن نبدأ بمدح الإنسان بنفي الصفات المذمومة عنه، لأن ذلك يستوي فيه الجميع أعنى أنه ليس من المناسب أن تأتي لرجل سيد في قومه لتقول له: لست زانيا ولا سارقا ولا.... فهذا مذموم عند العرب بل مذموم بالفطرة، ومن هنا كان لا بد أن يقدم الله صفات المدح على نفي صفات الذم لأن صفات المدح ليست معلومة بينما صفات الذم معلومة، ثم التحلي عنها ليس مما يمدح به الإنسان بل هو من الأمور التي يستوي فيها أكثر المؤمنين كما سبق ذكره، ولهذا قدمت صفات التحلي على صفات التحلي.

الوجه الثالث: إن صفات التحلي صفات دائمة وصفات التحلي صفات عارضة فقدم الدائم على العارض لحسنه.

تنبيه: ما يقال هنا في الصفتين الآتيتين بعد ذلك وهما العفة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ والابتعاد عن قتل النفس بغير حق ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بل ويدخل فيه قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] والله أعلم.



المبحث الثاني

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

الأول: ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أيُّ؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أيُّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية.

الثاني: «أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت الآية إلى قوله: ﴿عَفُورًا رَحِيمًا﴾»^(١).

الثالث: أن وحشياً - قاتل حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد كنت أحبُّ أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيت مستجيراً فأنت في جوارى حتى تسمع كلام الله»، قال: فإني قد أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنيت، فهل يقبل الله مني توبة، فصمت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ فتلاها عليه فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فدعاه فتلاها عليه، فقال: ولعلي ممن لا يشاء الله، أنا في جوارك حتى أسمع

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كلام الله، فنزلت: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. فقال: نعم لا أرى شرطاً فأسلم»^(١). قال ابن الجوزي: وهذا وحشي قاتل حمزة وفي هذا الحديث المذكور نظر؛ وقلت: وقد ذكر هذه القصة غير واحد من المفسرين.

- قال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، إلى قوله: ﴿مُهِكَّنًا﴾ وهذا قسم آخر من صفات عباد الرحمن، وهو قسم التخلي عن المفسد التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين، فتنزه عباد الرحمن عنها بسبب إيمانهم، وذكر هنا تنزههم عن الشرك وقتل النفس والزنا، وهذه القبائح الثلاث كانت غالبية على المشركين.

- وقد جمع التخلي عن هذه الجرائم الثلاث في صلة موصول واحد، ولم يكرر اسم الموصول (والذين) كما كرر في صفات تحليهم، للإشارة إلى أنهم لما أقلعوا عن الشرك ولم يدعوا مع الله إلهاً آخر فقد أقلعوا عن أشد القبائح لصوقاً بالشرك وذلك قتل النفس والزنا، فجعل ذلك شبيهه خصلة واحدة وجعل في صلة موصول واحد.

- قال ابن القيم: أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة؛ تعليق القلب بغير الله وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية، وهي الشرك والظلم والفواحش، فغاية التعليق بغير الله شرك وأن يدعى مع إله آخر، وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا، ولهذا جمع الله بين هذه الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾. وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفها عن صاحبه قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

(١) رواه عطاء عن ابن عباس.

وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْأَمْطَلِصِينَ ﴿﴾ [يوسف: ٢٤]، فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا، وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفحشاء، فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا جمع الله سبحانه بينها.

- قال الميداني: وعباد الرحمن من أوصافهم أنهم لا يعبدون مع الله إلهًا آخر، بأي لون من ألوان العبادة وفي مقدمتها السؤال والطلب على سبيل التضرع والتذلل واعتقاد القدرة على التصرف في الغيبات فلا يسألون لمطالب دنياهم أو أخراهم مع الله إلهًا آخر.

- وهذه الصفة الإيمانية التي يتحلى بها عباد الرحمن قد أعلنها من قبل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظَمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٢]، فأعلن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن الله عَزَّجَلَّ هو الخالق، وهو الهادي وهو الذي يطعم ويسقي وهو الذي يداوي ويشفي، وهو الذي يحيى ويميت وهو الذي يغفر الخطايا، إذن فأى فائدة من دعاء غير الله تعالى وكل ما سواه لا ينفع عنده ولا يضر.

- وهذه الصفة الإيمانية قد علمها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته في روائع بياناته حيث قال لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (١).

- وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: والذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخر فيشركون في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة.

- الخلاصة: نخلص من جميع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ هي صفة إخلاص العبودية لله تعالى. ومن هنا كما قلت في بداية حديثي سأذكر مبحثاً حول معنى الإخلاص وما يتعلق به ثم أذكر مبحثاً آخر حول صور من إخلاص الصحابة وغيرهم.



المبحث الثالث

هذا المبحث ملخصاً من كتاب: (تعطير الأنفاس بشرح حديث الإخلاص) للدكتور سيد العفاني ما عدا تفسير الآيات.

: B

1- الإخلاص لغة: مصدر أخلص يخلص، وهو مأخوذ من مادة «خ ل ص» الدالة على تنقية الشيء وتهذيبه، وأخلص الشيء أي اختاره.

2- الإخلاص شرعاً: لقد وردت عبارات كثيرة لأهل العلم في بيان معنى الإخلاص وكلها تدور حول معنى واحد هو: إرادة وجه الله تعالى وحده بالعمل الصالح، ولهذا اكتفى هنا بذكر ما قاله سهل التستري في معنى الإخلاص حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: «نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته - أي العبد - وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا ييازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا». قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: وهذه كلمة جامعة محيطية بالعرض.

: B

يتبين فضل الإخلاص وما فيه من فوائد دينية ودنيوية وأخروية من خلال النقاط الآتية:

1- الإخلاص ينقى القلب من الخيانة والغش:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَصَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها وَحَفَظَهَا ثُمَّ أَدَاها إِلى مَنْ لَمْ يَسْمَعِها فَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ غَيْرَ فِقْهِهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ إِلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثَةٌ لَا يَغْلِبُ عَلَيْهِنَ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحُ لِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلِزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تَحِيْطُ مِنْ وِرَائِهِمْ»⁽¹⁾.

(1) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم.

قال ابن القيم في شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاثة لا يغفل... الخ»: أي لا يبقى فيه غل مع هذه الثلاثة بل تنفى عنه غله وتنقيه منه وتخرجه عنه، فإن القلب يغفل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغفل على الغش وعلى خروجه على جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاث تملؤه غلا ودخلا، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة «وقوله يغفل: من الإغلال وهو الخيانة في كل شيء».

٢- الإخلاص وصية الله تعالى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأمته تبعاً له:

قال الله تعالى مخاطباً نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢٠]، قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾: أي أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان بأن تفرد الله وحده بها وتقصد بها وجهه لا غير ذلك من المقاصد.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وقال تعالى مخاطباً هذه الأمة: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَادْعُوهُ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى.

٣- الإخلاص هو التوحيد العملي وهو خلاصة الدعوة النبوية:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وقد أخبر سبحانه أن الأولين

والآخرين إنما أمروا بذلك في غير موضع فقال تعالى: ﴿ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿ [البينة: ٤-٥].

٤- الإخلاص سبب في حفظ الأمة ونصرها:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم» (١).

وعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّيِّئِ وَالرَّفْعَةِ وَالتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» (٢).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِصَوْتِ أَبِي طَلْحَةَ فِي الْجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ» (٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَمْ مِنْ أَسْعَثِ أَغْبَرٍ ذِي طَمْرِينٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ، مِنْهُمْ الْبِرَاءُ بِنِ مَالِكٍ» (٤).

٥- الإخلاص سبب في مغفرة الذنوب والنجاة من النار:

جاء في حديث عمرو بن عبسة - الطويل - : «فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذي هو أهله وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»، ومحل الشاهد قوله: «فرغ قلبه لله»، أي أخلص لله تعالى، والثواب: «انصرف من خطيئته... الخ».

(١) رواه النسائي وإسناده صحيح.

(٢) رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه الحاكم وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» (١). وكذا ورد في صيام رمضان وقيامه، ومحل الشاهد قوله: «احتساباً» أي مخلصاً لله تعالى.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ» قيل: وما إخلاصها؟ قال: «أَنْ تَحْجِزَهُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ» (٢).

وهكذا تجد أن الأحاديث الدالة على أن مغفرة الذنوب والنجاة من النار متوقفة على الإخلاص كثيره ولكن فيما سبق ذكره كفاية للتنبية على بقيتها والله تعالى أعلم.

٦- الإخلاص طريق الجنة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَهَهُمْ مَكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ [الصافات: ٣٨-٤٣]، وكلمة المخلصين فيها قراءتان بكسر اللام وفتحها، فقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر وابن عامر بكسر اللام، وقرأ الباقون بالفتح، والاستدلال بهذه الآية على قراءة المخلصين بالكسر.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ فإنهم غير ذائقوا العذاب الأليم لأنهم أخلصوا لله الأعمال فأخلصهم واختصهم برحمته وجاد عليهم بلطفه.

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا...﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾

[الإنسان: ٨-٢٢].

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الطبراني في الوسط والكبير.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنْعِمُكُمْ لُوَجْهِ اللهِ﴾ أي يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير ﴿إِنَّمَا نُنْعِمُكُمْ﴾ في الله جل ثناؤه، فزَعَا من عذابه وطمعًا في ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي مكافأة ﴿وَلَا شُكْرًا﴾ أي ولا أن تشنوا علينا بذلك، وعن سالم عن مجاهد قال: (أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله جل ثناؤه منهم فأثنى به عليهم ليرغب في ذلك الراغب) أهد وقول مجاهد هو الأقرب لبيان حالهم إذ ليس من الإخلاص التكلم بها ذكر في الآية ﴿إِنَّمَا نُنْعِمُكُمْ لُوَجْهِ اللهِ﴾.

وهناك فوائد وفضائل أخرى للإخلاص تركتها خشية الإطالة، ولعل فيما سبق ذكره كفاية والله أعلم.

: B

هناك عدة علامات يجب على المؤمن أن يلاحظها في نفسه حتى يدخل في زمرة المخلصين، وهي كثيرة جدًا، أكتفي هنا بذكر بعضها فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:

العلامة الأولى: إخفاء العمل الصالح:

والمقصود من إخفاء العمل هنا: العمل الصالح الذي لا تطلب فيه الجماعة كتلاوة القرآن والذكر والصدقة وصلة الرحم وقيام الليل وغيرها، وأما ما يطلب فيه الجماعة كالصلوات الخمس وصلاة التراويح فلا يمكن أخفاؤها بل إخفاؤها يعني أداءها بانفراد وفي ذلك مخالفة للسنة.

فالمقصود أن المخلص إذا عمل عملاً صالحًا من الأعمال التي لا تُطلبُ فيه الجماعة وكان في إمكانه إخفاءه فالأولى به ألا يعملها أمام الناس ولا يتكلم به، وينبغي أن يستحضر أنه يعمل لله تعالى والله لا تخفى عليه خافية.

ولقد حث السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَى إِخْفَاءِ الْعَمَلِ وَأَوْصُوا بِذَلِكَ، وَأَكْتَفِي هُنَا بِذِكْرِ كَلَامِ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ فَقَطْ:

قال سفيان الثوري: «كل شيء أظهرته من عملي فلا أعدّه شيئاً، لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رآه الناس»، وقال بشر الحافي: «أكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك».

وقال الشافعي: «ينبغي للعالم أن تكون له خبيثة من عمل صالح فيما بينه وبين الله تعالى، فإن كل ما ظهر للناس من علم أو عمل قليل النفع في الآخرة».

العلامة الثانية: اتهام النفس ومقتها:

ومن علامات الإخلاص أن يتَّهم المخلص نفسه بالتقصير فيجعله جنب الله تعالى وعدم قيامها بعبودية الله تعالى، فلا يرى الإنسان لنفسه أي فضل مهما كانت أعماله عظيمة، وقد كان الصحابة وغيرهم يتهمون أنفسهم فمن ذلك ما ورد عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَمْسُكُ لِسَانَهُ وَيَقُولُ «هَذَا الَّذِي أوردني المهالك»، وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ لحذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَاتَمَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا حذيفة هل أنا منهم؟ يعني المنافقين، هل سماني لك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فإذا عمر يتهم نفسه بالنفاق فماذا نحن قائلون؟.

وروى البخاري عن ابن أبي مليكة قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يخاف على نفسه النفاق ما منهم من أحد يقول إيمانه كإيمان جبريل».

العلامة الثالثة: عدم الاعتزاز بمدح الناس:

المخلص لا يعتر إذا مدحه الناس ولا يحزن إذا ذموه لأنه إنما يعمل لله وحده ولا يعمل لأحد من الناس، وأما إذا كان يتأثر سلباً أو إيجاباً بما يسمعه من الناس مدحاً وذمماً فهو ليس بمخلص، ولهذا لما سئل يحيى بن معاذ متى يكون العبد مخلصاً؟ قال: «إذا صار

خُلِقَهُ كَخَلْقِ الرُّضِيعِ لَا يَبَالِي مِنْ مَدْحِهِ أَوْ ذَمِّهِ»، وقال محمد بن شاذان: «إياك والطمع في المنزلة عند الله، وأنت تحب المنزلة عند الناس».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضرب والحوت، فإذا حدثتكَ نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أو لا فأذبحه بسكين اليأس وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهَّلَ عليك الإخلاص، فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في المرح والثناء؟ قلت: يسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله عزَّجَلَّ وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده كما قال ذلك الأعرابي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن مدحي زين وذمي شين: فقال: ذاك الله عزَّجَلَّ».

العلامة الرابعة: الخوف من الشهرة:

وإنما كان خوف الشهرة من علامات الإخلاص لأن الذي يجب الشهرة قلماً يراعي قلبه وإخلاص عمله لله وإنما يكون همه أن تزداد مكانته في قلوب الناس فيظل أكبر همه: ماذا قال الناس عني؟ هل هم راضون أم لا؟ لأنه يخشى من سقوط منزلته عندهم فهو يراعيهم في كل قول وعمل ولهذا قيل: حب الظهور يقصم الظهور، وقيل: طقطقة النعال قطعت أعناق الرجال.

ومن هنا كان السلف يوصون دائماً بالابتعاد عن الشهرة، وأكتفي هنا بذكر بعض

عباراتهم:

هذا علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «تبدل ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك فتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تُسر الأبرار وتغيظُ الفجار».

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى أحلاس البيوت، جدد القلوب خلجان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون على أهل الأرض».

وقال إبراهيم بن أدهم: «ما اتقى الله مَنْ أَحَبَّ أَنْ يذكره الناس بخير» قلت: لقد صدق والله كيف يتطلع الإنسان أن يذكره الناس بخير وهو يعلم من نفسه الشر والذنوب.

واختم هنا بكلام للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي حول الشهرة حيث قال في كتابه (النية والإخلاص) ما نصه: «والشهرة في ذاتها ليست مذمومة فليس هناك أشهر من الأنبياء والخلفاء الراشدين، والأئمة المجتهدين ولكن المذموم هو طلب الشهرة والزعامة والجاه والحرص عليها، فأما وجودها من غير هذا التكلف والحرص فلا شيء فيه، وإن كان فيه - كما قال الغزالي فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الْعَمَلَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ الْخَيْرِ وَيُحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(١)، وخرجه ابن ماجه وعنده: «الرجل يعمل العمل لله فيحبه الناس»، وهذا فسرهُ الإمام أحمد وإسحاق بن راهوية وابن جرير الطبري وغيرهم» اهـ.

العلامة الخامسة: الحرص على العمل الأكثر نفعاً وإن كانت لذة النفس

في غيره:

من المعلوم أن الأعمال نوعان: قاصرة ومتعدية، أي قاصرة من حيث الأجر والمنفعة على العامل وذلك كنوافل الصلوات والصيام وتلاوة القرآن أو متعدية أي نفعها متعد للغير كتعليم العلم والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن ما كان متعدياً كان أعظم أجراً: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم».

(١) خرجه مسلم.

فمن هنا كان من علامات الإخلاص: الحرص على العمل الأجدى نفعاً والأعظم أثراً - في وقته والأقرب إلى الله تعالى، وليس الأرضى للنفس، وغالبا ما يظهر هذا في بعض الأثرياء الذين اعتادوا على أداء الحج كل عام أو العمرة في رمضان، وإذا قيل له في سنة من السنوات تصدق بهال الحج لبعض المرضى أو الفقراء من أهلك وأقاربك أبي إلا أن يذهب ليحج أو يعتمر، وهذا داء قديم فقد ورد أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد بن حنبل رَحْمَةُ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ: أريد الحج هذا العام؟ فقال له الإمام أحمد: أحججت؟ أي حجة الإسلام، فقال: «نعم»، إذن تصدق على الفقراء فقال: ولكنني أريد الحج: فقال له الإمام أحمد: تريد الأجر فتصدق فقال: بل أريد الحج، حينها قال له الإمام مغضباً: «تريد أن تركب وتذهب وتجيء ليقول الناس حج فلان»، أي أنك لست من طلاب الأجر.

وأكبر مشكلة تواجه الإنسان في هذه العلامة من علامات الإخلاص هي دقة التفريق بين لذة النفس وحب الشهرة، وبين طلب الأجر، فهو يظن أنه يريد الأجر والواقع يبحث عن لذة النفس بتلك العبادة مع ما يحصل له من ثناء الناس على مواظبته على الحج أو العمرة لسنوات طوال، نسأل الله البصيرة في الدين، آمين.

واختتم هذه العلامات بقولي: إن هناك علامات أخرى تركتها لأنها قد لا تكون مطلوبة من عامة الناس بل من العلماء والدعاة ومن ذلك: البعد عن التقرب إلى السلطان، واستواء العمل في القيادة والجندي والفرح بما يظهر من دعوة على يدي غيره من الدعاة فهذه يجب أن ينتبه لها الدعاة والعاملون في حقل الإصلاح والله تعالى أعلم.



المبحث الرابع

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

!é

ما سأذكره هنا فقط نهاذج يحتذى بها القاري الكريم وإلا فحياة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت كلها بالله والله كيف لا وهو الذي مدحه الله بقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتْنَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩-٢٠]، ومن هنا أقول: أليس أبو بكر هو الذي بذل جهده وماله ونفسه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أراد الهجرة للمدينة المنورة.

علام يدل ذلك؟

أليس هو الذي أسلم على يديه خمسة من المبشرين بالجنة في أول الدعوة الإسلامية وهم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف بل وأسلم على يديه عدد كبير من أجلاء الصحابة من أمثال: عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم، علام يدل ذلك.

أليس هو الذي ثبت في وجوه المرتدين وثبتت الصحابة وَعَقَدَ أَحَدُ عَشْرَ لُؤَاءًا لمحاربة مانعي الزكاة وغيرهم من المارقين عن الإسلام، وثبت ثباتا لولاه لكان حال الأمة الإسلامية غير ما ترى... على أي شيء يدل ذلك، وغير ذلك كثير بل كثير جدا.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

!é

من ذا الذي يبحث في إخلاص عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو الذي إذا سلك فجأ سلك الشيطان فجأ آخر، وهو الذي إذا قال للشيء أظنه كذا كان كما قال وهو الذي وافقه الوحي في أكثر من موضع، إن إخلاص عمر لا يحتاج إلى بحث ولكن لما كان القصد هو إعطاء القاري صورة يحتذى بها عن هؤلاء الأجلاء الكرام من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا بد من ذكر شيء من إخلاص عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمن ذلك:

لقد كان عمر أكبر همه بناء الدولة الإسلامية، وإقامة طاعة الله في الأرض حتى أصبحت تلك أمنيته لا تفارق خياله ولهذا ورد أنه قال لأصحابه ذات مرة: «تمنوا»، فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقته في سبيل الله وأتصدق به، وقال رجل، أتمنى لو أنها مملوءة زبرجداً وجواهر فأنفقته في سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين، فقال: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة ابن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان، فأستعملهم في طاعة الله».

وهناك حادثة أخرى تدل على أن عمر كان همه إرضاء الله والعمل للإسلام لا شيئاً آخر: حضر عند باب بيته جمع من سادات قريش على رأسهم سهيل بن عمرو بن الحارث، وأبو سفيان بن حرب وبعض عبيد قريش السابقين من أمثال صهيب الرومي وبلال الحبشي فأذن عمر في الدخول للعبيد قبل السادة من قريش، فغضب السادة وقال أبو سفيان: لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابهم؟ وقال سهيل يرد عليه: (أيها القوم إني والله أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم دعي القوم - إلى الإسلام - ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتهم.

وأختم هذه الصورة الجميلة من إخلاص عمر: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقسم المال ويفضل بين الناس على السابقة والنسب، ففرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف، وفرض لعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف، فقال: يا أبت فرضت لأسامة أربعة آلاف وفرضت لي ثلاثة آلاف؟ فما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لك، وما كان له من الفضل ما لم يكن لي، فقال عمر: «إن أباه كان أحب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبيك، وهو كان أحب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منك».

!è · · · · رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

خالد بن الوليد الذي غزا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقهر أصحاب الردة وسوى بالتراب عرشي الروم وفارس، وهو فاتح العراق والشام يعلم ذلك القاصي والداني، وهذا مما يدل على إخلاصه لله تعالى، وكفى بذلك دليلاً، ولكن سأذكر هنا نموذجاً من إخلاصه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. يقول المؤرخون: لقد جاء الأمر من عمر بن الخطاب بعد فتح الشام بعزل خالد بن الوليد من قيادة الجيوش، فماذا كانت ردة فعله، لقد قال له رجل: أصبر أيها الأمير فإنها الفتنة، فقال خالد: «أمّا وابن الخطاب حي فلا»، وهذا الكلام يدل على امتثاله لأمر عمر بطيب نفس لأنه تضمن الشهادة لعمر بالإخلاص وعدم إرادته الفتنة، ثم لما جاء أمر عمر لخالد بالرجوع إلى المدينة سافر راجعاً إلى المدينة مباشرة فلما وصل استقبله عمر وهو يرتجز:

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع القوم فالله صانع

ثم كتب عمر إلى الأمصار: «إني لم أعزل خالد عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن ياكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة».

!è · · · · رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما أراد عقبة الخروج من القيروان للجهاد في بقية أرجاء المغرب دعا أولاده وقال لهم: «إني بعت نفسي من الله عَزَّجَلَّ فلا أزال أجاهد من كفر بالله»، ثم وعظهم ووصاهم وقال: «عليكم سلام الله، وأراكم -أي أظنكم- لا تروني بعد يومكم هذا»، ثم قال: «اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك»، ثم سار إلى مدينة باغية لا يدافعه أحد والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً فانهمزوا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وغنم مغانم كثيرة.. وانتهى إلى السوس الأدنى؛ وسار حتى وصل إلى

مالبان أقصى المغرب ورأى البحر المحيط، فقال: «يا رب لولا هذا البحر لمضيت مجاهدًا في سبيلك»، ثم قال: «اللهم اشهد أنني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحدٌ دونك»، وسقط شهيداً في تهوزة على يد البربر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَلْحَقْنَا بِهِ.. آمين.

!i رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

روى أحمد وابن المبارك في الزهد عن عبد الله بن الشخير أن عامرا كان يأخذ عطاءه -راتبه الشهري- فيجعله في طرف رداءه فلا يلقي أحدا من المساكين يسأله إلا أعطاه، فإذا دخل على أهله رمى به إليهم فيعدونها فيجدونها سواء كما أعطيتها؛ أي يجدونها كاملة.

قال ابن جرير الطبري في تاريخه في حوادث سنة ١٦ هجرية: «لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض - الغنائم - أقبل رجل بحقّ - وعاء - مملوء من الجوهر والتحف فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال صاحب الأقباض والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا؛ أي لا يساوي هذا الوعاء ما جمعنا نحن ثم قالوا له: «هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: والله لو لا الله ما أتيتكم به فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله، لا أخبركم فتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني، ولكنني أحمد الله وأرضى ثوابه»، فأمروا رجلاً بأن يتابعه حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فقيل: هذا عامر بن قيس.

!i رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قال الحسين بن محمد البغدادي سمعت أبي يقول: زرت بشر بن الحارث فقعدت معه ملياً - طويلاً - فما زادني على كلمة قال: «ما اتقى الله من أحب الشهرة»، وكان بشر يقول: «من ابتلي بالشهرة ومعرفة الناس فمصيبته عظيمة»، وقال: «لا يجد حلاوة

الآخرة رجل يجب أن يعرفه الناس»، وقال: «غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وإخفاء مكانه عنهم».

قال أبو نصر منصور الصياد: مر بي بشر الحافي في يوم الجمعة وهو منصرف من الصلاة، فقال: مالي أراك في هذا الوقت؟ قلت: ما في البيت دقيق ولا شيء يباع، فقال: «الله المستعان، أحمل شبكتك وتعال إلى الخندق -أي الساحل-»، فحملتها وذهبت معه، فلما انتهينا إلى الخندق قال لي: توضأ وصل ركعتين «ففعلت فقال: سم الله وألق الشبكة، فسميت وألقيتها، فوقع فيها شيء ثقيل، فجعلت أجره فشق علي، فقلت له: ساعدني فإني أخاف أن تنقطع الشبكة فجرها معي، فخرجت سمكة عظيمة لم أر مثلها سمناً وعظماً وفراهة، فقال: خذها وبعها واشتر بئمنها ما يصلح عيالك، فحملتها فلقيني رجل فاشتراها مني، فابتعت لأهلي ما يحتاجونه، فلما أكلت وأكلوا، ذكرت الشيخ فقلت: أهدى له شيئاً، فأخذت رقاقتين وجعلت عليهما من الحلوى، وأتيت فطرت الباب، فقال: من؟ قلت: أبو نصر، قال: أفتح وضع ما معك على الدهليز وادخل، فدخلت، وحدثته بما صنعت، فقال: الحمد لله على ذلك، فقلت: إني هيات للبيت شيئاً وقد أكلوا وأكلت ومعني رقاقتان فيهما حلوى، قال: «يا منصور لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة اذهب وكله أنت وعيالك». قلت: أبي أن يأخذ منه شيئاً لأنه عندما أعانه فيما سبق ذكره أعانه لوجه الله تعالى.

!١ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن رافع بن عبد الله قال: قال لي هشام بن يحيى الكناني: «لأحدثك حديثاً رأيته بعيني وشهدته بنفسي فنفعني الله به فعسى الله أن ينفعك به كما نفعني.... غزونا أرض الروم سنة ثمان وثمانين وعلينا -قائدنا- مسلمة بن عبد الملك وعبد الله بن الوليد بن عبد الملك وهي الغزوة التي فتح الله فيها الطوانة، وكنا رفقة من أهل البصرة وأهل الجزيرة

في موضع واحد تتناوب الخدمة والحراسة، وطلب الزاد والعلوفات، وكان معنا رجل يقال له سعيد بن الحارث ذو حظ من عبادة يصوم النهار ويقوم الليل، وكنا نحرس أن نخفف عنه من نوبته، ونتولى ذلك فيأبى إلا أن يكون في جميع الأمور بحيث لا يترك شيئاً من عبادته، وما رأيته في ليل ولا نهار إلا في حال اجتهاد فإن لم يكن وقت الصلاة أو كنا في سير لم يفتر عن ذكر الله ومدارسة القرآن».

ثم قال هشام: «فأدركني وإياه ذات ليلة النوبة، في الحراسة ونحن محاصرين حصنا من حصون الروم، وقد استصعب علينا أمره فرأينا من سعيد تلك الليلة من شدة الصبر على العبادة ما احتقرت معه نفسي وعجبت من قوة جسمه على ذلك... وأصبح كالأمن التعب فقلت له: «يرحمك الله، إن لنفسك عليك حقاً ولعينك عليك حقاً، وقد علمت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تَطِيقُونَ»، وذكرت له شبه هذا من الأحاديث، فقال لي: «يا أخي إنما هي أنفاس تعد، وعمر يفنى وأيام تنقضي وأنا رجل أرتقب الموت وأبادر خروج نفسي»، فأبكاني جوابه، ودعوت الله له بالعون والتثبيت، ثم قلت له: «نم لتستريح»، فنام في الخباء، وتفرق أصحابنا، وأقمت في مكاني أحرس رحالهم، وأصلح طعامهم فبينما أنا كذلك إذ سمعت كلاماً في الخباء، وعجبت مع أنه ليس فيه غير سعيد نائماً، وظننت أن أحداً دخله ولم أره فدخلت فلم أجد أحداً غيره وهو نائم بحاله إلا أنه يتكلم وهو يضحك في نومه، فأصغيت إليه وحفظت من كلامه ما أحب، وهممت أن أرجع ثم مد يده اليمنى كأنه يأخذ شيئاً، ثم ردها بلطف وهو يضحك ثم قال: فالليلة، ثم وثب من نومه وثبة استيقظ لها وهو يرتعد، فاحتضنته إلى صدري مدة وهو يلتفت يمينا وشمالاً حتى سكن ثم عاد إليه فهمه، وجعل يهلل ويكبر ويحمد الله تعالى، فقلت له يا أخي: ما شأنك؟ فقال: خيراً يا أبا الوليد قلت: إني رأيت منك شيئاً

وسمعت منك كلامًا في نومك هذا، فحدثني بما رأيت، قال: أخبرك لعل الله أن يجعل لك في ذلك عظة وخيرًا.

ثم أخبره بالرؤيا التي رأى: رأيت رجلين لم يرقط أحسن منهما صورة وكما لا فقالا لي انطلق معنا حتى نريك ما أعده الله لك من النعيم.

وظل سعيد يسرد ما رأى من القصور والحدود وترحيبهم به، والجواري حتى انتهى إلى سرير عليه واحدة من الحدود العين كأنها اللؤلؤ المكنون فقالت له: قد طال انتظارنا لك، فقلت لها: أين أنا، قالت: في جنة المأوى، فقلت: ومن أنت؟ قالت: أنا زوجتك الخالدة، قال: فمددت يدي إليها فردتها بلطف، وقالت: أما اليوم فلا، إنك راجع إلى الدنيا، فقلت: ما أحب أن أرجع، فقالت: لا بد من ذلك، وستقيم ثلاثًا ثم تفطر عندنا في الليلة الثالثة إن شاء الله تعالى، فقلت: فالليلة الليلة، قالت: إنه كان أمرًا مقضيًا، ثم نهضت عن مجلسها، ووثبت لقيامها، فإذا أنا قد استيقظت.

قال هشام فقلت له: يا أخي أحدث الله شكرًا فقد كشف لك عن ثواب عملك فقال لي: هل رأى أحد غيرك مثل ما رأيت مني؟ فقلت: لا، فقال: أسألك بالله عَزَّوَجَلَّ إلا سترت عليَّ ما دمت حيًّا، فقلت: نعم، ثم قال: ما فعل أصحابنا، فقلت: بعضهم في القتال وبعضهم في الحوائج، فقام ففطرهم واغتسل ومس طيبًا، وأخذ سلاحه وسار إلى موضع القتال وهو صائم فلم يزل يقاتل حتى الليل، وانصرف أصحابه وهو فيهم، فقالوا لي: يا أبا الوليد لقد صنع هذا الرجل شيئًا ما رأيناه صنع مثله قط، ولقد حرص على الشهادة وطرح نفسه تحت سهام العدو وحجارتهم، وكل ذلك ينبو عنه، فقلت في نفسي لو تعلمون شأنه لتنافستم في مثل صنيعه، قال هشام: وأفطر على شيء من الطعام، وبات ليلته قائمًا وأصبح صائمًا ففعل مثل صنيعه بالأمس، حتى إذا كان اليوم الثالث وقد مضت ليلتان، انطلقت معه وقلت لا بد أن أشهد أمره وما يكون منه، فلم يزل يلقي

نفسه تحت مكائد العدو نهاره كله ولا يصل إليه شيء وهو يؤثر فيهم الإيثار وأنا أراعه من بعيد لا أستطيع الدنو منه، حتى إذا نزلت الشمس للغروب وهو أنشط ما كان، فإذا رجل من فوق حائط الحصن قد تعمد به سهم فوق في نحره فخر صريعا وأنا أنظر إليه، فصحت بالناس فابتدروه واجتذبه وبه رمق، وجاءوا به يحملونه، فلما رأيته قلت له: هنيئا لك ما تفرط عليه الليلة، يا ليتني كنت معك، فعرض شفته السفلى وأوماً إليّ ببصره وهو يضحك، يعني أكنتم أمري حتى أموت.

ثم قال: الحمد لله الذي صدقنا وعده، فوالله ما تكلم بشيء غيرها، ثم قضى -توفى- رحمة الله عليه.

قال هشام: «فقلت بأعلى صوتي، يا عباد الله لمثل هذا فليعمل العاملون، اسمعوا ما أخبركم به عن أخيكم هذا، فاجتمع الناس فحدثتهم بالحديث على وجهه فما رأيت قط أكثر من تلك الساعة باكيًا، ثم كبروا تكبيرة اضطرب لها العسكر، وأقبلوا للصلاة عليه، وبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فقال: يصلى عليه صاحبه الذي عرف من أمره ما عرف، قال هشام: فصليت عليه ودفناه في موضعه وبات الناس يذكرون حديثه ويُحَرِّض بعضهم بعضًا، ثم أصبحوا فنهضوا إلى الحصن بنيات متجددة، وقلوب مشتاقة إلى لقاء الله عَزَّوَجَلَّ، فما أضحى النهار حتى فتح الله الحصن ببركته رَحْمَةُ اللَّهِ اهـ.

!i رَحْمَةُ اللَّهِ

قال صاحبه في أسفاره محمد بن أعين: كان ابن المبارك ذات ليلة ونحن في غزاة الروم، ذهب ليضع رأسه ليريني أنه نائم، فقبضت رحي على يدي ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام كذلك، فظن أني قد نمت فآخذ في الصلاة فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، وأنا أرمقه، فلما طلع الفجر أيقظني وظن أني نائم، وقال: يا محمد، فقلت: إني لم أنم، قال: فلما سمعها مني ما رأيته بعد ذلك يكلمني ولا ينسبط إليّ في شيء من غزاته

كلها، كأنه لم يعجبه ذلك مني، لما فطنت له من عمله، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات، ولم أُر رجلاً أسر بالخير منه.

وقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: كانت دار ابن المبارك بمرور كبيرة صحن الدار نحو خمسين ذراعاً، كنت لا تحب أن ترى في داره صاحب علم أو صاحب عبادة أو رجلاً له مروءة وقد بمرور إلا رايته في داره يجتمعون في كل يوم حلقةً يتذاكرون حتى إذا خرج ابن المبارك انضموا إليه.

فلما صار ابن المبارك بالكوفة نزل في دار صغيرة وكان يخرج إلى الصلاة ثم يرجع إلى منزله لا يكاد يخرج منه، ولا يأتيه أحد كثيراً، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن إلا تستوحش ها هنا مع الذي كنت فيه بمرور؟ فقال: إنما فررت من مرور من ذلك الذي تراك تحبه، وأحببت ما ها هنا للذي أراك تكرهه لي، فكنت بمرور لا يكون أمر إلا أتوني فيه، ولا مسألة إلا قالوا: اسألوا ابن المبارك وأنا ها هنا في عافية من ذلك.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

!ð

هو أبو مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني من سادات التابعين، قال فيه كعب: «إن حكيم هذه الأمة أبو مسلم الخولاني» وهاك قصته مع النار: روى الحافظ السلفي بإسناده عن شرحبيل بن مسلم أن الأسود بن قيس العنسي الكذاب لما ادعى النبوة باليمن بعث إلى أبي مسلم الخولاني فلما جاءه، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فردد ذلك عليه، فأمر بنار عظيمة فأججَتْ فألقى فيها أبا مسلم فلم تضره، فقيل له: انفه عنك وإلا أفسد عليك من تبعك فأمره بالرحيل من اليمن، فجاء أبو مسلم المدينة وقد توفي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستُخْلِيفَ أبو بكر فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد ثم دخل فصلى إلى سارية، فبصر به عمر، فقام إليه وقال: ممن الرجل؟ فقال: من أهل اليمن، قال:

فلعلك الذي حرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذلك عبد الله بن ثوب، قال: نشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم فاعتقه ثم بكى، ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر فقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فعل به كما فعل بإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خلیل الرحمن». اهـ.

قال النووي: هذا من أجل الكرامات، وأنفس الأحوال الباهرات.

قلت: إن الكلام حول صور الإخلاص عند الصحابة والتابعين لا نهاية له، وذلك لأن قصصهم في ذلك كثيرة ولكن لعل هؤلاء التسعة الذين ذكرنا شيئاً من إخلاصهم يكون دافعاً لكل مؤمن التشوق إلى أن يكون من عباد الله المخلصين، ولهذا سأختم الكلام على هذه الصفة ببيان أسباب ذلك.



المبحث الخامس

هناك بواعث وأسباب إن أخذ بها المؤمن وصل بإذن الله إلى الإخلاص فلا يؤدي عملاً إلا إذا أراد وجه الله تعالى، وإليك بعضاً من تلك الأسباب:

!è

متى ما علم العبد أن له رباً، له الملك، وله الحمد كله، وبيده الأمر كله، قلوب العباد إليه مفضية، والسر عنده علانية، يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم السر وأخفى؛ راقبه واستحى منه، وهذا الإحساس كان لا يفارق السلف واليك بعض من أقوالهم في ذلك:

قال عامر بن عبد قيس: «ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله أقرب إليه مني»، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

وقال الجنيد: «اعلم أن الله عَزَّجَلَّ يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه، فانظر ما يقرب من قلبك».

وقال سيد العفاني: «وأمام نداوة التوحيد وحلاوة الإيمان وأريج الأسماء والصفات تبدد ظلمات الرياء وحجبه وغشاوته».

!é

إذا علم العبد أن الدنيا إلى زوال فلماذا يعمل لها إذن؟ وإذا علم أن أهلها إلى موت وفناء فلماذا يحسب لهم ألف حساب؟ إن هذا لعمري سعيه في تباب، وإليك أحاديث تبين لك حقيقة الدنيا:

عن جابر أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بالسوق والناس كنفثيه -أي على جانبيه- فمر بجدي أسك -صغير الأذنين- ميت فتناوله فأخذ بإذنه ثم قال: «أيكم يحب أن يكون

هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ ثم قال: «أتحبون أنه لكم؟»، قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً إنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»^(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله ضرب للدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً، وضرب مطعم ابن آدم للدنيا وإن قزحه وملحه»^(٢)، ومعناه أن الدنيا ما هي إلا كما يخرج من جوف ابن آدم. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يؤتى بأهمل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة واحدة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم على رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط»^(٣).

!ê

من علم نعيم الجنة وعلو رفعة المخلصين فيها دقق في أعماله وفتش وطرده منها الرياء، فأبى شيء يعدل أن يحرم الرجل على النار، وينال هذا بإخلاص تهليلة واحدة، أفيرغب عاقل عن جوار رب العالمين إلى جوار المرئيين الكذابين. ثم كيف يرغب الإنسان عن نعيم ما خطر على قلب بشر من أجل إرضاء فلاناً وفلاناً، واستمع إلى بعض ما ورد من الأحاديث في وصف الجنة: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، والفرديوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوقه عرش الرحمن، ومنها يتفجر أنهار الجنة، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفرديوس الأعلى»^(٤).

(١) رواه أحمد وغيره بإسناد حسن.

(٢) رواه ابن المبارك والبيهقي في الشعب بإسناد حسن عن أبي بن كعب.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الحاكم بإسناد صحيح عن معاذ وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الجنة بناؤها لبنة من فضة ولبنة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفسى شبابه» (١).

و أنت أيها القاري الكريم لا يخفى عليك ما جاء في وصف الجنة في القرآن الكريم فداوم على التأمل في أوصافها من خلال الآيات حتى ترتفع همتك لتخلص العمل لله تعالى، وإنما أحببت هنا أن أذكر بأثر هذا التفكر في تحصيل الإخلاص.

!ë

لا شك أن الرياء من أكبر الكبائر بل هو من الشرك الأصغر وسيأتي المرثي يوم القيامة بأعمال صالحة كثيرة فيقال له: اذهب لتأخذ أجرك ممن عملت لهم لا أجر لك عندنا، فلا تسأل عن حسرته وندامته حيث اكتشف أن عمله ضاع بلا فائدة، ولك أن تعلم أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة هم من أكثر الناس أعمالاً إلا إنهم فقدوا الإخلاص فكان مصيرهم النار ويأس القرار.

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأُتِيَ به، فعرفه - الله - نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأُتِيَ به، فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتِيَ

به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكن فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار»^(١).

هل بعد هذا يرائي المؤمن بعمله ماذا يقال له؟ لا شك أن هذا الحديث أعظم حديث زاجر عن الرياء والله الموفق.

!i

وهذا السبب لأن الأسوة والمحاكاة لها دور كبير في تعلم الإنسان أي شيء كان الإخلاص وغيره، ثم إن مصاحبة المخلصين تكشف للإنسان حقيقة نفسه، ولا شك أنه في أمس الحاجة إلى ذلك.

قال جعفر بن سليمان: «كنت إذا وجدت في قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع، كان كأنه ثكلى».

وقال ابن المبارك: «إذا نظرت إلى الفضيل جدّدي الحزن ومقت نفسي ثم بكى». هذا هو ابن المبارك يحتاج إلى الفضيل وهو من هو في الزهد والتقى لقد كان ابن المبارك يحج عامًا ويغزو عامًا.

ويدخل في صحبة المخلصين الاطلاع على تراجمهم وسيرهم فإن فيها الكثير مما يذكر الإنسان بأخوته ويعلمه كيف يخلص العمل إلى ربه.... والله تعالى أعلم.



(١) أخرجه مسلم والنسائي وأحمد.

الصفة السابعة:

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

اجتناب قتل النفس

بغير الحق



الْمَقَرَّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: فهذه هي الخصلة السابعة من خصال عباد الرحمن وهي من صفات التخلي التي يجب على العبد أن يتخلى عنها إذ الوقوع فيها يحول بين العبد وبين الوصول إلى الرب جَلَّ جَلَالُهُ وتلكم الخصلة هي قتل النفس بغير حق فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^٤ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

ومع أن هذه الآية التي بينت تخلي عباد الرحمن عن هذه الجريمة النكراء التي لا تقرها الشرائع السماوية ولا القوانين الأرضية إلا إنها جاءت بصيغة الخبر، وهذا فيه دلالة على شدة بعدهم عنها لأن اللفظ حين يكون نهياً يبقى معه احتمال ارتكابه لكن لما جاء خبراً دل ذلك على أن وقوعهم مستبعد، ومعلوم أن حفظ النفس هو أحد الكليات أو الضروريات التي جاء الإسلام بل وجميع الشرائع السماوية لحفظها وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ المال، ولهذا شُدَّت العقوبة على قاتل النفس في غير ما آية من كتاب الله تعالى وهنا سأكتفي بآيتين بجانب الآية التي معنا لبيان ما يلحق القاتل من عقوبة عظيمة حيث من قتل نفساً معصومةً بغير حق شرعي، وسأجعل الحديث على الآية التي معنا في آخر المبحث ثم أثنى بذكر ما ورد من الأحاديث في عقوبة القاتل ثم يأتي الحديث بعد ذلك على النفس التي يجوز قتلها بالحق، ثم بيان هل للقاتل المُتعمد من توبة، ثم أختم الكلام على حكم الانتحار وعقوبة المنتحر في الآخرة، وبهذا تكتمل لدينا خمسة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: الآيات القرآنية التي بينت عقوبة القاتل مع ذكر تفسيرها.

المبحث الثاني: ما ورد من الأحاديث في عقوبة القاتل وشرح بعضها.

المبحث الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا

بِالْحَقِّ﴾.

المبحث الرابع: هل للقاتل المتعمد توبة.

المبحث الخامس: بيان حكم قتل الإنسان نفسه أو تمني الموت.



المبحث الأول

١- الآية الأولى: قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

قال ابن كثير: هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية من كتاب الله حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ إِلَّا فُتْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالْوَالِدِينَ إِحْسِنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] الآية، والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا^(١).

- قال القرطبي: قد أجمعوا أن الآية نزلت في مقيس بن ضبابة، وذلك أنه كان قد أسلم هو وأخوه هشام بن ضبابة، فوجد هشامًا قتيلاً في بني النجار، فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فكتب له إليهم أن أوقفوا إليه قاتل أخيه، وأرسل معه رجلاً من بني فهر، فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلاً ولكننا نؤدي الدية، فأعطوه مائة من الإبل؛ ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعدا مقيس على الفهري - أي الرجل الذي أرسله معه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقتله بأخيه وأخذ الإبل، وانصرف إلى مكة كافراً مرتدًا وجعل ينشد:

قتلت به فهراً وحملت عقله سرارة بنى النجار أرياب فارح
حلت به وترى وأدركت ثورتى وكنت إلى الأوثان أول راجع

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٧).

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا أَوْمُنُهُ فِي حَلٍّ وَلَا حَرَمٍ» وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بأستار الكعبة.

* والخلود قد يطلق على غير معنى الدوام وبناء عليه فلا يقتضى الدوام ولا التأييد ومن ذلك قول زهير:

أَلَا لَا أَرَى عَلَى الْحَوَادِثِ بَاقِيًا وَلَا خَالِدًا إِلَّا الْجِبَالَ الرَّوَاسِيَا

وكذلك تقول العرب: لأخلِّدَنَّ فلانا في السجن، والسجن ينقطع ويفنى وكذلك المسجون، ومثله قولهم في الدعاء: خَلَّدَ اللهُ مَلِكَهُ وَأَبَدَّ أَيَّامَهُ، وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْخُلْدَ﴾، فهذا كله يدل على أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾ لا يعني الخلود الذي هو للكفار بل هو بحسب الجرم الذي ارتكبه، وكل ذلك إن مات على غير توبة (١).

وقال الطاهر بن عاشور: المتعمد: القاصد للقتل، مشتق من عمَدَ إلى كذا بمعنى قصد وذهب، والأفعال كلها لا تخرج عن حالتي عمد وخطأ، ويعرف التعمد بأن يكون فعلا لا يفعله أحد بأحد إلا وهو قاصد إزهاق روحه بخصوصه بما تزهد به الأرواح في متعارف الناس، وذلك لا يخفى على احد من العقلاء. ومن أجل ذلك قال الجمهور من الفقهاء: القتل نوعان: عمد وخطأ، وهو الجاري على وفق الآية، ومن الفقهاء من جعل نوعًا ثالثًا سماه شبه العمد واستندوا في ذلك إلى آثار مروية؛ إن صححت فتأويلها متعين وتحمل على خصوص وما وردت فيه.

وقوله: ﴿حَكِيدًا فِيهَا﴾ محمله عند جمهور علماء السنة على قول المكث في النار لأجل قتل المؤمن عمدًا، لأن قتل النفس ليس كفرًا بالله ورسوله، ولا خلود في النار إلا

(١) القرطبي يتصرف (٥/ ٣٣٣ - ٣٣٥).

لكافر، على قول علمائنا من أهل السنة فتعين تأويل الخلود بالمبالغة في طول المكث وهو استعمال عربي، قال النابغة في مرض النعمان بن منذر:

ونحن لديه نسأل الله خُلده يردُّ ملكًا ولأرض عامرا^(١)

وقال الخطيب الشربيني: والمراد من الآية التخليط كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، إذ ليس بتارك الحج بكافر، وكقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقْتُلْهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ»، هذا الكلام قاله للمقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أو المراد بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم، ولهذا لم يذكر في الآية «أبدا».

ملاحظة: يتلخص من كلام هؤلاء الأعلام أن قاتل العمد لا يخلد في النار وأن الآية جاءت على سبيل التهديد الشديد والوعيد الأكيد كما قرره السعدي أيضًا، حيث قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وينزعج منه أولوا العقل، فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاء جهنم، أي فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازي صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والحزني المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار، فعياداً بالله من كل سبب يبعد من رحمته» اهـ^(٢).

٢- الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٢٢، ٢٢٣) باختصار.

(٢) تفسير السعدي (٢٤٢).

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّهَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ [المائدة: ٣٢].

قال ابن كثير: قال العوفي: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول: من قتل نفسًا واحدة حرّمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعًا، وقال سعيد بن جبير: «من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعًا، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دم الناس جميعًا»، قال ابن كثير: هذا قول وهو الأظهر... وقال الحسن و قتادة: «هذا تعظيم لتعاطى القتل»، قال قتادة: «عظيم والله وزرها وعظيم والله أجرها»، وقال سلمان الربيعي: «قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والله الذي لا إله غيره، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا»، وقال الحسن: «قتل الناس جميعًا أي وزرًا، ومن أحيها أي أجرًا» (١).

وقال ابن القيم: لما كان قتل النفس عند الله تعالى من أعلى أنواع الظلم والفساد في الأرض وخم أمره وعظم شأنه، وجعل إثمه أعظم من إثم غيره، ونزل قتل النفس الواحدة منزلة قاتل الأنفس كلها؛ وقد أشكل على كثير من الناس فهم هذا وقالوا: معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم إثمًا عند الله من قاتل نفس واحدة، وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة، والقول لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه وقال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وذلك لا يوجب أن لبسهم في الدنيا إنما كان بهذا المقدار... وأصرح من هذا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من صام رمضان وأتبعه ستًا من شوال فكأنما صام الدهر»، وقوله: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن»، ومعلوم أن

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٧).

ثواب هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به فيكون قدرها سواء... فإن قيل: ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل النفس الواحدة وبين قاتل الناس جميعاً؟ قيل من وجوه متعددة:

الأول: أن كل واحد منهما عاص لله ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخالف لأمره متعرض لعقوبته، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم، وأعد لهم عذاباً عظيماً، وإن تفاوتت درجات العذاب، فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً أو عالماً يأمر بالقسط كمن قتل من لا مزية له من آحاد الناس.

الثاني: إنها سواء في إزهاق النفس التي حرم الله قتلها بغير الحق.

الثالث: إنها سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام، فإن من قتل نفساً بغير استحقاق بل لمجرد الفساد في الأرض فهو معاد للنوع الإنساني.

الرابع: أنه يسمى قاتلاً، أو فاسقاً، أو ظالماً، أو عاصياً بقتله واحداً كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً.

الخامس: أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فإذا أتلف القاتل عضواً من ذلك الجسد فكأنما أتلف سائر الجسد وألم جميع أعضائه، فمن آذى مؤمناً واحداً فقد آذى جميع المؤمنين، وفي آذى جميع المؤمنين آذى جميع الناس كلهم، فإن الله إنما يدافع على الناس بالمؤمنين الذين بينهم.

السادس: قد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقتل نفساً ظالماً بغير حق إلا كان على

ابن آدم الأول كفل منها، لأنه أول من سن القتل»^(١)، ولم يجيء الوعيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر، وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول

(١) أخرجه الشيخان.

القاتل، لأنه أول من سن الشرك ولهذا رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمر بن لحيى الخزاعي يعذب أعظم العذاب في النار، لأنه أول من غيّر دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

- قال ابن عطية: «إن التشبيه بين قاتل النفس وقاتل الكل لا يطرد من جميع الجهات، لكن الشبه قد يحصل من ثلاث جهات: إحداها: القود فإنه واحد، والثانية: الوعيد، والثالثة: انتهاك الحرمة، فإن نفساً واحدة في ذلك وجميع الأنفس سواء»^(٢) اهـ.

٣- الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۗ﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

تفسير الآيتين الكريميتين: قبل الشروع في نقل كلام المفسرين في هاتين الآيتين الكريميتين أقول: فيهما مبحثان:

الأول: في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ﴿فَمَا هِيَ النَّفْسُ الَّتِي تَقْتُلُ بِالْحَقِّ؟ وَهَذَا سَأَوْجَلُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ لِلْمَبْحَثِ التَّالِي.

والثاني: ما تحويه من الوعيد للقاتل وهذا هو موضوعنا الآن ولذا سينصب النقل من أقوال المفسرين حول الآية الثانية، فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:-

قال الفخر الرازي: في معنى الآثام ثلاثة أقوال^(٣):

- ١- الآثام جزاء الإثم بوزن الوبال والنكال.
- ٢- قول أبي مسلم: إن الآثام والإثم واحد والمراد هنا جزاء الآثام فأطلق اسم الشيء على جزائه.

(١) الضوء المنير (٢/ ٣٧٣ و ٣٧٤).

(٢) تفسير ابن عطية.

(٣) تفسير الفخر الرازي.

٣- قال الحسن: الأثام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد أثاماً واد في جهنم.

أما قوله تعالى: ﴿يُضَعَّفُ لَهُ الْعَذَابُ﴾ سبب التضعيف هو أن المشرك ارتكب المعاصي مع الشرك فعُدِّبَ على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقبِ عليه، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

وقال ابن كثير: (وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «أثاماً واد في جهنم»، وقال عكرمة: «﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة»، وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد، وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره عن أبي أمامة الباهلي مرفوعاً وموقوفاً أن «(غيا وأثاماً) بئران في قعر جهنم»^(١). يشير بقوله «غيا» إلى قوله تعالى في سورة مريم: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قال السعدي: «وأما خلود القاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناوله الخلود لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها أكبر الكبائر فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض»^(٢).

قال الميداني: قوله تعالى: ﴿يُضَعَّفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ضعف الشيء مثله، فمضاعفة العدد تكون بإضافة مثله إليه، فما الحكمة من مضاعفة العذاب لمن سقط من عباد الرحمن في بعض كبائر كالشرك والقتل والزنا؟.

أقول: إن الجزء بالعدل على السيئات المبين في نصوص القرآن والسنة هو أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها... فينبغي أن نفهم أن مضاعفة العذاب في هذا النص

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٧).

(٢) تفسير السعدي (٨١٦).

خاص بعباد الرحمن الذين ارتقوا فوق مرتبة المتقين، وصاروا من أهل مرتبة الأبرار أو من أهل مرتبة الإحسان ... وصاروا في نظر العامة قدوة وأسوة حسنة فكان جزاء كبايرهم المساوى لها مضاعفا بقدر مثلين لمن هم دونهم في المرتبة، وفي مقابل أجورهم على صالحات أعمالهم مضاعفة أيضاً، ونظير هذا ما جاء في الله تعالى: ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ وَمَن يَقْتُلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

وهذا العذاب المضاعف يكون يوم القيامة إذا مات مرتكب هذه الكبائر الذى ارتقى إلى مرتبة عباد الرحمن دون توبة صحيحة صادقة مما سقط فيه.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ ❁ إما خلود في العذاب فبسبب موته وهو مشرك لم يتب من شركه، وإما إهانته فهو أنه قابل تكريم الله له إذا كان من عباد الرحمن بالانتكاس الذى انتكسه فكفر إذا شرك، وارتكب أقبح الكبائر: القتل والزنا.

أما السؤال: كيف يسقط من وصل مرتبة «عباد الرحمن» في الكبائر القتل والشرك والزنا، ولو كان شركه أخف دركات الشرك وأولها انحذاراً؟.

وأما الجواب: بأن يقال: إن حَمَلَةَ جائزة التفوق يكونون مرشحين لمناصب دينية رفيعة، فإذا قبلوها كانوا عرضة لضغوط كثير سلطانية وغير سلطانية، وهذه الضغوط تجعلهم يسقطون في ارتكاب هذه الكبائر، فيدعون مع الله إلهًا آخر، مداراة لسلطان ظالم طاغ، أو خوفاً على مناصبهم وقد تجعلهم الضغوط يفتنون بإهدار دم معارض للسلطان معارضة لا تقتضي إهدار دمه فتكون فتواهم مشاركة منهم في القتل الذى حرمه الله وقد يفتنهم ما هم فيه من سلطان فيقتلون منافسيهم بغير حق ليسلم لهم سلطانهم.

وقد يتعرضون وهم في مناصبهم لفتنة قوية من قبل بعض النساء الحسنات وقد يجد بعضهم نفسه منهار المقاومة فيقع في كبيرة الزنا، فكان من الحكمة التنبيه على احتمال سقوط بعض عباد الرحمن في هذه الكبائر ضمن بيان جملة صفاتهم»^(١).

وقال الطاهر بن عاشور: «والإشارة بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المتبادر من الإشارة أنها إلى المجموع؛ أي من يفعل مجموع الثلاث، ويعلم أن جزاء من يفعل بعضها ويترك بعضها عدا الإشراك دون جزاء من يفعل جميعها، وأن البعض أيضاً مراتب، وليس المراد من يفعل كل واحدة مما ذكر يلق أثاماً لأن لقي الأثام بين هنا بمضاعفة العذاب والخلود فيه، وقد نهضت أدلة متظافرة من الكتاب والسنة على أن ما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود، مما يقتضي تأويل ظاهر الآية.

فأما مضاعفة العذاب فهي أن يعذب على كل جرم مما ذكر عذاباً مناسباً لا يكتفي بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم وهو الشرك، تنبيهاً على أن الشرك لا ينجي صاحبه من تبعة الجرائم والمفاسد الأخرى... وهذا معنى قول من قال من العلماء بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، يعنون خطاب المؤاخذة عليه في الآخرة»^(٢).



(١) معارج التفكير (٦/٦٤٣-٦٤٤) باختصار وتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير (١٩/٩٣ و ٩٤) بتصريف.

المبحث الثاني

هذا المبحث يدور حول أمرين اثنين أحدهما سرد الأحاديث التي فيها بيان لعظم جريمة قتل النفس، والثاني: شرح بعض تلك الأحاديث لبيان ما في قتل النفس من الخطورة.

: B

١- عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِزْوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(١)، وفي رواية للبيهقي زاد فيه: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لِأَدْخَلَهُمُ اللَّهُ النَّارَ»، وفي رواية لمسلم مرفوعاً وموقوفاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لِزْوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ».

٢- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَتِيلٌ قَتِيلٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ قَتْلِهِ، فَصَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَنْبَرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، يَضْتَلُّ قَتِيلٌ وَأَنَا فِيكُمْ، وَلَا يَعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ، لَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى قَتْلِ امْرِئٍ لَعَذَّبَهُمُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ»^(٢)، وعند الترمذي من حديث أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ امْرِئٍ مُؤْمِنٍ لِأَكْبَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»^(٣).

٣- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللَّهَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»^(٤). وعند البيهقي من

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى.

(٣) قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٤) رواه ابن ماجه.

حديث ابن عمر مرفوعاً: «من أمان على دم امرئ مسلم بشرط كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله»، قال سفيان ابن عيينة: شرط كلمة هو أن يقول «أق» يعني لا يكمل كلمة «أقتل».

٤- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١).

٥- عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا»^(٢).

٦- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يديه فيقع في حفرة من النار»^(٣)، وعند مسلم: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعهن حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

٧- عن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، شهر مضر، الذي بين جمادى وشعبان» ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.. قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «فأي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه... قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى، قال: «فأي

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الشيخان.

يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم.. قال: «أليس يوم النحر؟»، قلنا: بلى يا رسول الله... قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ريبكم فيسألکم عن أعمالکم، فلا ترجعوا بعدي كفاراً، أو ضاللاً يضرب بعضكم رقاب بعض.. ألا ليلغ الشاهد الغائب فلعن بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه»، ثم قال: «ألا هل بلغت؟»^(١).

٨- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك، وما أطيّب ريحك وما أعظمك، وما أعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك: ماله ودمه»^(٢).

٩- عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا»، وكان ابن عمر يقول: «من ورطت الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله»^(٣)، «لقد كان ابن عمر يرى أن القتال لا توبة له»^(٤).

١٠- عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بعثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحرقة من جهينة قال: فصباحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله، قال: فكفّ الأنصاري، فطعنته برمحى حتى قتلتها، فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لي: «يا أسامة أقتلتها بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً، قال: «أقتلتها بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) ذكره القرطبي وغيره في التفسير، وكذا ذكره ابن حجر في الفتح.

١١ - عن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إذا التقى المسلمان بسييفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١)، قال الخطابي: «هذا لمن قاتل على عداوة دنيوية فأما من قاتل أهل البغي أو دفع الصائل فلا يدخل في الوعيد لأنه مأذون له في القتال شرعاً»^(٢).

١٢ - عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه سأله سائل فقال: يا أبا العباس، هل للقاتل من توبة؟ فقال ابن عباس كالمعجب من شأنه: ماذا تقول؟ فأعاد عليه مسألته فقال: ماذا تقول؟ مرتين أو ثلاثاً، قال ابن عباس: سمعت نبيكم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يأتي المقتول متعلقاً رأسه بإحدى يديه متلبباً قاتله باليد الأخرى تشخب أوداجه دمًا حتى يأتي العرش، فيقول المقتول لرب العالمين: هذا قتلني، فيقول الله عزَّجَلَّ للقاتل: تعست، ويذهب به إلى النار»^(٣)، وفي رواية الطبراني: «يجيء المقتول آخذاً قاتله وأوداجه تشخب دمًا عند ذي العزة، فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني، فيقول الله عزَّجَلَّ: فيم قتلته؟ قال: قتلته لتكون العزة لفلان، قيل: هي لله».

١٣ - عن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا»^(٤). وفي رواية للنسائي: «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عامًا»، وعند ابن حبان: «وإن ريح الجنة ليوجد من مسيرة مائة عام».

(١) رواه البخاري.

(٢) الفتح (١٤/١٧٩).

(٣) رواه الترمذي وحسنه.

(٤) رواه البخاري.

هذه الأحاديث في قتل المسلم غيره وأما قتل المسلم لنفسه فجاءت فيها أحاديث

منها ما يلي:

١٤ - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ

فَقُتِلَ نَفْسُهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهَا خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّ -تَجَرَّعَ-

سَمًّا فَقُتِلَ نَفْسُهُ، فَسَمَهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ

نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»^(١).

قال في الفتح: هذا محمول على من استحل ذلك أو هو من باب الوعيد الشديد.

١٥ - عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ فِيهَا كَانَ

قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جِرْحٌ فَجَزَعُ، فَأَخَذَ سَكِينًا فَحَزَبَهُ بِيَدِهِ، فَمَا رَقَا الدَّمُ حَتَّى مَاتَ؛ قَالَ اللَّهُ

تَعَالَى: بَادِرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ: حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(٢).

١٦ - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ

لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدْعِي الْإِسْلَامَ: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالَ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا

شَدِيدًا، فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الَّذِي قَتَلْتَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُ قَدْ

مَاتَ، فَقَالَ: «إِلَى النَّارِ»، فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَرْتَابَ فِيهِمَا هُمَ كَذَلِكَ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ

وَلَكِنْ بِهِ جِرَاحٌ شَدِيدٌ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ، لَمْ يَصْبِرْ فَقُتِلَ نَفْسَهُ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بِذَلِكَ فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، ثُمَّ أَمَرَ بِلَاةٍ فَنَادَى فِي النَّاسِ: «أَنَّهُ لَا

يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الضَّاجِرِ»^(٣).

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

: B

الحديث الأول: حديث أسامة بن زيد قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي الْفَتْحِ (١٧٧/١٤) وقع عند مسلم من حديث جندب بن عبدالله في هذه القصة زيادات ولفظه «بعث بعثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين فالتقوا فأوجع رجل من المشركين فيهم فأبلغ، فقصد رجل من المسلمين غيلته - كنا نتحدث أنه أسامة بن زيد - فلما رفع عليه السيف، قال «لا إله إلا الله» فقتله، وفيه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا اتتك يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله: استغفر لي، قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله؟»، فجعل لا يزيد على ذلك».

هذه السرية تسمى سرية غالب بن عبيد الله الليثي، وكانت في رمضان سنة سبع وكان غالب هو أميرها، بعثت إلى الحرقة من جهينة - قوله «فصبحنا القوم» أي هجموا عليهم صباحًا قبل أن يشعروا بهم ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ٣٨].

قوله: (قلت يا رسول الله: والله إنما كان متعوذًا) كذا أعاد الاعتذار، وأعيد عليه الإنكار وفي رواية: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها متعوذًا أم لا» ومعناه: إنما كلفت من العمل بالظاهر وما ينطق به، وأما القلب فليس لك طريق إلى ما فيه... وقوله «أفلا شققت عن قلبه» لتنظر هل كانت فيه حين قالها واعتقدتها أو لا؟

والمعنى: إنك إذا كنت لست قادرًا على ذلك فاكتفى منه باللسان.

قوله: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم: أي أن إسلامي كان ذلك اليوم لأن الإسلام يجب ما قبله، فتمنى أن يكون ذلك الوقت أول دخوله للإسلام ليأمن جريرة تلك الفعلة، ولم يرد أنه تمنى أن لا يكون مسلمًا قبل ذلك.

قال القرطبي: وفيه إشعار بأنه كان استصغر ما سبق له قبل ذلك من عمل صالح في مقابلة هذه الفعلة لما سمع من الإنكار الشديد، وإنما أورد ذلك على سبيل المبالغة ويبين ذلك رواية: «حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ».

الحديث الثاني: حديث: «إن دماءكم.. الخ» الثلاث المذكورة الدماء والأموال والأعراض هي إحدى الكليات الخمس المتفق عليها في كل الملل وهي: حفظ النفوس، وحفظ الأنساب، وحفظ الأموال، وحفظ العقول، وحفظ الأعراض، وحفظ الدماء. فكانوا يستيحيون دماءهم وأموالهم في الجاهلية غير الأشهر الحرم، ويحرمونها في أشهر التحريم لشبهها في التحريم بيوم عرفة وبذي الحجة والبلد - الحرام - لأنها متأكدة التحريم عندهم لا يستيحيون منها شيئاً، وفي تشبيهه هذا مع بيان حرمة الدماء، وما عطف عليها تأكيد بحرمة تلك الأشياء المشبه بها من حيث إنه جعلها أصلاً في تشبيه ذلك^(١).
قوله: «الله وسوله أعلم» جواباً على كل سؤال وجهه إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما جاء على سبيل الأدب معه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله: «فلا ترجعوا بعدي كفاراً» أي لا تكون أفعالكم شبيهة بأفعال الكفار في ضرب رقاب المسلمين، ولا تأخذوا أموالهم بالباطل «أو ضللاً» فإن هذه الأفعال من الضلالة والعدول عن الحق إلى الباطل^(٢).

الحديث الثالث: قوله: «ولن يزال المؤمن في فسحة من دينه»، قال أبو بكر بن العربي: «الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبوله الغفران بالتوبة حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول»؛ قال ابن حجر: «وحاصله أنه فسره على رأي ابن عمر في عدم قبول التوبة»^(٣).

(١) شرح مسلم (٦/١٢١).

(٢) شرح مسلم (٦/١٢٢).

(٣) الفتح (١٤/١٦٧).

الحديث الرابع: قوله: «من أشار إلى أخيه بحديدة» قال في شرح مسلم (٥٨٦/٨): «ظاهره سواء كانت الإشارة جَدًّا أو هزلاً، فإن كانت جدا فقد قصد إلى قتله أو جرحه وذلك كبيرة، وإن كانت هزلاً فقد قصد ترويعه وترويع المسلم حرام، ودليل دخول الهزل قوله: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه» لأنه لا يتهم ففي أخيه».

قوله: «فإن الملائكة تعلنه» لعن الملائكة له دليل على حرمة هذا الفعل، وقد ورد في الصحيحين ما يدل على حرمة ترويع المسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار». قال القاضي عياض: «ينزع رويناه بالعين المهملة ومعناه يرمى من يده أي يدفع في يده ويتحقق ضربته، ومن رواه بالغين المعجمة معناه: إن الشيطان يزين له الضرب لا سيما عند تغير الحال والهزل قد يفضى إلى الجلد» اهـ. بتصرف.

قال في الفتح: قوله: «فيقع في حفرة من النار»، هو كناية عن وقوعه في المعصية التي تقضى إلى دخول النار.. وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديدا سواء كان جادا أم لا عبا، وإنما أخذ اللاعب لما أدخله على أخيه من الروع^(١).

قلت: ولا شك أن مما يشبه الإشارة بالسلاح ما يفعله بعض الشباب من محاولة الاصطدام بسيارته بصاحبه أو ما يحصل من بعض الألعاب بالسيارات وهذه أحيانا تؤدي إلى القتل، ولقد أصبح بعض الشباب اليوم لا يباليون بعواقب مثل هذه الألعاب التي تروع المسلمين في طرقاتهم ولا أظن أن هؤلاء خارجين من لعن الملائكة لهم والله تعالى أعلم. اللهم اهد شبابنا.

الحديث الخامس: وهو نص في التحذير من قتل الذمي أو المعاهد وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»^(٢).

(١) المرجع (٥١٩/١٤) مختصراً.

(٢) رواه البخاري.

شرح الحديث: سيأتي بيان النفس المعصومة في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى وهما نفس المسلم والمعاهد والذمي واخترت هذا الحديث لبيان شدة عقوبة من يخفر ذمة الحاكم فيقتل من أمنه وعصم دمه بمقتضى معاهدات دولية أو غيرها أو قد يكون أمنه مسلم من عامة المسلمين ليقضي له مصلحة أو يؤدي له عملاً، فيأتي بعض من لا علم له فيأخذ الحماس فيقول هذا أمريكي أو أوروبي أو غربي - مثلاً - كافر يجوز قتله ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

والآن إليك ملخص ما جاء في فتح الباري (١٤ / ٢٥٦) في شرح هذا الحديث:

المراد بالمعاهد: من له عهد مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هدنة من سلطان أو أمان من مسلم، ولذا جاء عند النسائي: «من قتل قتيلاً من أهل الذمة، لم يجد رائحة الجنة»، فقال: «من أهل الذمة» ولم يقل «معاهدًا» وهو بالمعنى وجاء عند الترمذي: «من قتل نفساً معاهدًا له ذمة الله وذمة رسوله» إلى الخ. أي إن هذه الروايات تؤدي معنى واحداً وهو كل من له الأمان فعقوبته كذا.

قوله: «لم يريح رائحة الجنة» أي لم يجد رائحة الجنة «وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً» وجاء عند أحمد: «سيكون قوم لهم عهد فمن قتل منهم رجلاً لم يريح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً»، وعند الطبراني: «مسيرة مائة عام»، وفي الموطأ في حديث آخر - أي في غير هذا الموضوع - «وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»، وفي الطبراني الصغير: «إن ريح الجنة ليدرك من مسيرة ألف عام»، وهذا اختلاف شديد... والذي يظهر لي في الجمع - الكلام لابن حجر رَحِمَهُ اللهُ - أن يقال إن الأربعين سنة أقل زمن يدرك به ريح الجنة من الموقف، والسبعين فوق ذلك أو ذكرت للمبالغة، والخمسمائة ثم الألف أكثر من ذلك ويختلف باختلاف الأشخاص والأعمال، فمن أدركه - أي ريح الجنة - من المسافة البعدي أفضل ممن أدركه من المسافة القريبى،

وقد أشار إلى ذلك شيخنا في شرح الترمذي فقال: الجمع بين هذه الروايات أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص بتفاوت منازلهم ودرجاتهم ثم رأيت نحوه في كلام ابن العربي فقال: ريح الجنة لا يدرك بطبيعة ولا عادة وإنما يدرك بما يخلق الله من إدراكه - أي الريح - فتارة يدركه من شاء من مسيرة سبعين وتارة من مسيرة خمسمائة - اهـ.

قلت: ومن الصحابة من أدرك ريح الجنة وهو في هذه الدنيا فضلا عن إدراكه في الآخرة - وهو أنس بن النضر وقصته في غزوة أحد مشهورة والله تعالى أعلم.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألا من قتل نفسًا معاهدًا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخضر بذمة الله، فلا يريح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا»^(١).

شرح الحديث: قال في المجمع: الذمة والذمام وهما بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، وسمى أهل الذمة بهذه التسمية - لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم - اهـ.

وقال القاضي: «يريد بالمعاهد من كان له مع المسلميين عهد» اهـ.

قوله: «فقد أخضر ذمة الله» قال في المجمع: خفرتة أي أجرته، وحفظته والخفارة الذمام، وأخفرتة إذا نفضت عهده وذمامه. اهـ.

قوله: «فلا يريح رائحة الجنة»، أي لم يشم ريحها، والمراد بهذا النفي أي نفى أن يشم هذا القاتل رائحة الجنة وإن كان عاما التخصيص بزمان، أي أنه لن يجد رائحة الجنة في وقت من الأوقات ثم بعد ذلك يدخلها، والدليل على ذلك هو ما تعاضدت عليه الأدلة

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح.

من الكتاب والسنة على أن من مات مسلماً ولو كان من أهل الكبائر فهو محكوم بإسلامه غير مخلد في النار وماله الجنة ولو عذب قبل ذلك»^(١). اهـ.

وسياتي بيان ذلك في المبحث الرابع إن شاء الله.

١- إن قتل المؤمن من أعظم الكبائر وأن الله تعالى قد توعد القاتل المتعمد بوعيد عظيم لم يرد في غيره من الكبائر غير الشرك بالله تعالى.

٢- قتل النفس -الانتحار- أيضاً من كبائر الذنوب وسيأتي مزيد من البيان حول قتل النفس في المبحث الأخير ولكن يؤخذ من الأحاديث أن قاتل نفسه يعذب بما قتل به نفسه ولو كان ذلك القاتل لنفسه رجلاً صالحاً بل ومجاهداً في سبيل الله كما في الحديث الأخير رقم (١٦).

٣- لا يجوز للمسلم أن يقتل الذمي الذي أمنه الحاكم ولو فعل ما فعل وذلك لما في هذا القتل من الفتنة العظيمة وقد يشعل حروباً بين الدول ولا يعلم أحد مدى شرها وعظيم ضررها على المسلمين إلا الله، ولهذا كان الوعيد الشديد لمن قتل ذمياً بعدم دخوله الجنة ابتداءً لأن من لم يجد رائحة الجنة فهو لن يدخلها، والحديث جاء بنفي إيجاد رائحة الجنة كناية عن بعده عنها.

٤- مكانة المؤمن عظيمة عند الله تعالى بل أعظم من الكعبة فلهذا وجب الحذر من أن يناله أحد بسوء في نفسه أو عرضه أو ماله، أو دمه، وينبغي أن يكون الدم أعم من القتل بل ولو بجرحه أو قطع عضو من أعضائه والله تعالى أعلم.



المبحث الثالث

﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

لقد جاء في الآية التي وصف الله فيها عباد الرحمن باجتنا بقتل النفس بغير حق، قسماً للنفس ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ و﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وسنقف هنا لبيان هذا الجزء من الآية الكريمة.

• • • • •

هي النفس المعصومة الدم والعرض والتي حرم الله التعرض لها بأي نوع من أنواع الأذى وهي التي تقدم بيان ما ورد في منتهكها من العقوبات من الآيات والأحاديث، ولكن هنا إشارة خفيفة، إلى ذكر ما ورد في القرآن والسنة من تعريف النفس المعصومة وهي التي حرم الله قتلها، واكتفى هنا بآية واحدة وحديث.

فأما الآية فهي ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ^١ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١]، والمراد فإن تاب المشركون من شركهم وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة أصبحوا إخواناً لنا في الدين لهم مالنا وعليهم ما علينا وتم بذلك عصمة الدم وتحصل حرمة النفس.

وأما الحديث: فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى»^(١).

ولعل هذا القسم ليس في حاجة إلى كلام أكثر من هذا فهو في غاية الوضوح ولكن ذكرته هنا مقدمة لما بعده ألا وهو أن هناك ما يعرض لإهدار هذا الدم وجواز سفكه كما ورد في الشرع وهو ما سيتبين من خلال القسم الثاني إن شاء الله تعالى.

(١) رواه الشيخان من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لقد بين القرآن والسنة الأسباب التي بها يجوز أن تقتل النفس وحينذاك يكون قتلها بالحق وهو المقصود بالاستثناء الوارد في آية الفرقان: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وآية الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وآية الإسراء: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وأما الأسباب التي بها يجوز قتل النفس فقد ذكرها العلماء متفرقة وأجمعها

هنا:

١- الزنى بعد إحصان: والمقصود أن من يزني بعد أن يتزوج فإنه يقتل رجماً بالحجارة ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ يَشْهَدُ أَلَّا لَهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: الثَّيْبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»، والثيب هنا بمعنى المتزوج وللرجم أحكام تخصه ليس هذا محلها ومن أرادها فعليه بالرجوع إلى كتب الفقه في باب الحدود.

٢- قتل النفس بالنفس: ودليل هذا الحديث السابق «والنفس بالنفس»، فمن قتل مسلماً قتل به، ويقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. وهذا فيما لو أبى أهل القتل إلا دمه وأما إذا أرادوا العفو أو أخذ الدية فلهم ذلك.

٣- الارتداد عن الإسلام: وهذا سبق في الحديث: «التارك لدينه المفارق للجماعة»، وجاء في حديث آخر: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١)، وقد علل العلماء قتل المرتد بأن في هذا

حماية للدين من التلاعب وحماية للمجتمع المسلم من المنافقين الذين يدسون السم في الدسم، ولقتل المرتد شروط وأحكام يجب معرفتها لمن كان مشتغلا بالقضاء ومحل ذلك في كتب الفقه.

٤- المحارب: والمراد به ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣٣]. فذهب مالك ومن وافقه إلى أن الإمام مخير بين هذه الثلاث - القتل، القطع من خلاف، النفي من الأرض - إن شاء قتلهم وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالا، وإن شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالا، وإن شاء نفاهم من الأرض، وعلى هذا فقتل النفس بالحراية جائز.

٥- الخليفة يُبَاعِ له بعد الخليفة الأول: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا بُويعَ لِخَلْفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»، هذا نص منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَنْ النَّاسَ إِنْ بَايَعْتَ خَلِيفَةً ثُمَّ جَاءَ وَاحِدٌ آخَرَ فَبُيِعَ لَهُ فَإِنَّهُ يُوجِبُ شِقَ الْعَصَا وَإِرَاقَةَ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَيُقْتَلُ الْآخِرُ لِيَسْتَبَ الْأَمْنُ، وَتَتَفَقَّ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْأَوَّلِ الَّذِي بَايَعُوهُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُرْفُجَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرَكُمْ وَاحِدٌ، يُرِيدُ شِقَ عَصَاكُمْ، وَتَضْرِيْقَ جَمَاعَتِكُمْ فَاقْتُلُوهُ».

٦- ترك الصلاة: ذهب جمهور العلماء ومنهم الأئمة الثلاثة مالك وأحمد والشافعي على أن تارك الصلاة يقتل وإن تركها كسلا لا جحودا ونكرانا لوجوبها، ومشهور مذهب مالك ومذهب الشافعي أنه يقتل حدا لا كفرا وأما مذهب أحمد فإنه يقتل كفرا ليس حدا في أصح الروايتين عنه، واستدلوا على القتل لتارك الصلاة بآيات وأحاديث منها قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]، فالآية

بمفهومها أنهم لا يخلى سبيلهم إن لم يأتوا بالأشياء الثلاثة المذكورة في الآية، وبقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر أئمة السوء قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة»، فهذا بمفهومه أن المانع من قتلهم هو إقامة الصلاة فمن تركها حل دمه والحديث في صحيح مسلم.

٧- منع الزكاة: مانع الزكاة يقال له: أخرج الزكاة، فإن أبى أخرجت قسراً عليه، فإن منعها قوتل دونها، والقتال غير القتل، وهو الذى فعله أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - القتال - مع مانع الزكاة حيث قاتلهم، فالأصل أن يؤمر بإخراجها فإن أبى أخذت منه قسراً فإن جاء دونها قوتل حتى يقتل، وهذا الحكم بإجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٨- البغاة: وهم الذين يخرجون على الإمام وهم المعينون بقوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَمْتًا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيتها على الإمام أو على أحد من المسلمين»^(١) اهـ. ولقتال البغاء أحكام وشروط فمن أرادها فليراجع كتب الفقه.

٩- السحر: للسحر أنواع منها ما يؤدي إلى الكفر ومنها ما هو شعوذة وقد قال النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع»، ولعل دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٣] الآية، وبقوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]. وأما قتل الساحر فهو محل خلاف. فقد ذهب مالك إلى أن حكم الساحر حكم الزنديق فلا تقبل توبته ويقتل حداً إن ثبت عليه أنه عمل السحر، ووافقه الإمام أحمد، وقال الشافعي: «لا يقتل إلا إذا اعترف بسحره فيقتل

(١) تفسير القرطبي (١٦/٣١٧).

به، فإن اعترف أن سحره قد يقتل وقد لا يقتل وأنه سحر زيّداً ومات، لم يجب عليه القصاص ووجبت الدية في ماله لا على عاقلته»^(١) اهـ.

الأول: هذه الأسباب التسعة لقتل النفس بالحق إنما هي من حق الحاكم وليس لأحد من أفراد الناس أن يقتل من توافر فيه سبب منها وإن فعل فقد يقتل به، لأنه فعل شيئاً ليس له، فلا يقال مادام تارك الصلاة - مثلاً - حكمه القتل فأقوم بقتله بل هذا في يد القاضي لا بيد غيره والله تعالى أعلم.

الثاني: للإمام أن يحكم في بعض الجرائم التي ليس فيها حد من الحدود الشرعية بالقتل وذلك إذا كان يرى أنه لا رادع للناس من تلك الجريمة إلا بقتل فاعلها أو فاعليها، أو رأى أن ضررها على الناس عظيم، وهذا يعتبر من الأحكام التعزيرية التي يرى فيها الإمام مصلحة للناس ومما هو مطبق في وقتنا الحالي في بعض الدول الإسلامية قتل مروج المخدرات وهؤلاء هم التجار الذين يتاجرون في شتى أنواع المخدرات، ومن المعلوم أن ضرر المخدرات عظيم جداً على المستعمل له وعلى أسرته بل وعلى مجتمعه فكيف بمن يتاجر فيه فلذا كان لا حرج في أن تصل عقوبته إلى القتل.

الثالث: بوب الإمام البخاري في صحيحه تحت كتاب الحدود باب الحدود الكفارة ثم أورد حديثاً عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجلس فقال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا»، وقرأ هذه الآية كلها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِبَيْعَتِكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَعْفِرَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٢]، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«فمن وفى منكم فأجره على الله، فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارته، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه، إن شاء غُضِرَ له وإن شاء عذبه».

قال ابن حجر في الفتح قال النووي: عموم هذا الحديث - مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فالمرتد إذا قتل على ارتداده لا يكون القتل كفارة له «قال ابن حجر: وهذا بناءً على أن قوله في الحديث: «من ذلك شيئاً» يتناول جميع ما ذكر وهو الظاهر، قال القاضي عياض: ذهب أكثر أهل العلم إلى أن الحدود كفارات واستدلوا بهذا الحديث «فهو كفارته»، قال ابن حجر: «وقوله «فعوقب به» أعم من أن تكون العقوبة حداً أو تعزيراً قاله ابن التين، وقال ابن حجر: ويستفاد من الحديث أن إقامة الحد كفارة للذنب ولو لم يتب المحدود وهو قول الجمهور»^(١) اهـ.

الرابع: هذه الأسباب التي يقتل من تلبس بواحد منها أخذتها من تفسير القرطبي ومن كتاب العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير وكتاب فتح الباري وإنما أنبه على المراجع لأن هناك من ذكر أسباباً أخر سوى هذه ولكن لعل الأخذ به ضعيف وذلك كقتل الفاعل والمفعول من اللوطية وكقتل شارب الخمر بعد الرابعة وغيرها والله أعلم.



المبحث الرابع

إن الذي دعاني لكتابة هذا المبحث هو الخوف من أن يقرأ المؤمن قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاءُ هُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. فيظن أن القاتل يخلد في نار جهنم ولا يخرج منها أخذًا بظاهر الآية، فأحسبت أن أبين قول الجمهور في الآية الكريمة وردهم على من قال بظاهرها من الصحابة والتابعين فأقول ومن الله أرجو العون والقبول، في توبة القاتل قولان:

القول الأول: إن للقاتل توبة وهو الذي عليه جمهور الأمة من السلف والخلف:

قال ابن كثير: والذي عليه الجمهور من الأمة سلفها وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله تعالى، فإن تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه من طلابته: أي من مطالبته.

والأدلة على ذلك من القرآن الكريم:

١- قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، فهذه الآية ظاهرة في قبول توبة من وقع في شيء من هذه العظائم الثلاث، فإن المشرك يتوب من شركه بتحقيق التوحيد والقاتل يتوب بالكف والندم والعزم على عدم العود وكذلك الزاني، ومما هو مجمع عليه أن المشرك إن تاب قبل الله توبته فكيف بالقاتل ولا شك أن المشرك أعظم ذنباً منه.

٢- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

[النساء: ٤٨].

فهذه الآية أيضاً عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك.

الأدلة على ذلك من السنة الصحيحة:

١- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فُدِّلَ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَكَمَلَ بِهِ الْمِائَةَ. ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُدِّلَ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحْوِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ بَهَا أَنْسَاءُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مَقْبَلًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلِكٌ فِي صُورَةِ آدَمَ فَجَعَلَهُمْ بَيْنَهُمْ - أَيِ حَكْمًا - فَقَالَ: قَيَسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِئْتِيهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»^(١) إِذَا كَانَ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أُولَى.

٢- عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ اللَّيْلِ حَتَّى

تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢).

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

٣- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُضْحِكُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيَسْلَمُ فَيَسْتَشْهَدُ»^(١).

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن الله يقبل توبة التائب مطلقاً دون تقييد لنوعية أو كمية الذنوب التي وقع فيها، وبالتأمل في الحديث الأخير يُعلم أن الرجل الآخر الذي دخل الجنة جمع بين الشرك وقتل النفس ومع ذلك تاب الله عليه فتوبته على المؤمن القاتل تكون من باب أولى والله أعلم^(٢).

القول الثاني: القاتل المتعمد لا توبة له:

وهذا قول ابن عباس وزيد بن ثابت وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وأبي سلمة عبد الرحمن وعبيد الله بن عمير والحسن وقتادة والضحاك، نقل هذا القول ابن كثير ونسبه إلى ابن أبي حاتم، والذي اشتهر بهذا القول ابن عباس وابن عمر: فأما ابن عباس فقد أخرج البخاري في صحيحه عن القاسم بن أبي بزة أنه سأله سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ فقرأت ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن الله أخبر ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي فقال: هذه الآية مكية نسختها آية أخرى مدنية في سورة النساء: يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣] الآية، لقد جاءت عدة روايات تدل على أن رأيه في آية الفرقان أنها في أهل الشرك وأن القاتل المتعمد لا توبة له.

وأما ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقد روى البخاري قوله: «إِنْ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا سَفَكَ الدَّمَ الْحَرَامَ بِغَيْرِ حَلَةٍ»، قال ابن حجر: قال ابن العربي

(١) متفق عليه.

(٢) أصل البحث من تفسير ابن كثير (١/٥٣٦ و ٥٣٧) مع شيء من الزيادات.

في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يفسك دمًا حرماً»، وقال ابن العربي: «الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره».

قال ابن حجر تعليقاً على قول ابن العربي: وحاصله أنه فسره على رأى ابن عمر في عدم قبول توبة القاتل... وقد ثبت عن ابن عمر أنه قال لمن قتل عامداً بغير حق «تزود من الماء البارد فإنك لا تدخل الجنة»^(١).

الرد على هذا القول: رد الجمهور على هذا القول بما ملخصه:

١- لقد ثبت أن هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ نزلت في صُبابَة وهو قد قتل ثم ارتد عن الإسلام بإجماع المفسرين فلا ينبغي أن يُحمل ظاهر هذه الآية على المسلمين.

٢- لو فرضنا جواز الأخذ بظاهرها فإن الأخذ به ليس بأولى من الأخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ النُّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، والأخذ بظواهر هذه الآيات بجانب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ ظاهره يؤدي إلى التناقض في حق القاتل فلا بد من أن تكون هذه الآيات مُحْصَصَة لآية النساء، ثم إن الجمع بين آية النساء وآية الفرقان ممكن فلا نسخ ولا تعارض، وهذا المعنى قد تقدم عند الكلام على آية الفرقان: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فيقال في الجميع أن القاتل جزاؤه ما ورد في آية النساء: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ الآية.

٣- قد وردت الأخبار الكثيرة الدالة على قبول التوبة من القاتل فمن ذلك حديث عبادة بن الصامت المتقدم وقد جاء فيه: «فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارته»، وكذلك خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس وغيرها مما تقدم من الأحاديث.

٤- أجمع المسلمون على أن من قتل نفساً عامداً وأقر بالقتل فجاء أهل القتل فقادوه إلى السلطان فأقام عليه الحد فهو غير مُتَّبِعٍ في الآخرة أي ليس لهم أن يطالبوه بشيء في الآخرة بعد أن اقتادوه فقتله السلطان، والوعيد غير نافذ عليه إجماعاً بمقتضى حديث عبادة بن الصامت لأنه قال: «فهو كفارة له» كما في رواية الإمام مسلم، وبناء عليه تكون آية النساء مخصوصة بآية الفرقان وبهذه الأحاديث والله أعلم^(١).



(١) انظر القرطبي وابن كثير في تفسير سورة النساء.

المبحث الخامس

B

إن عباد الرحمن هم أبعد الناس عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وذلك لما يعلمون من التحذير الشديد الذي ورد في الكتاب والسنة - كما تقدم - فإذا كانوا هم كذلك مع غيرهم كان من الأولى أن يعلموا حق الله في أنفسهم وذلك أن الله تعالى قد حرم على الإنسان أن يقتل نفسه، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿ [النساء: ٢٩-٣٠]، وقال الواحدي في تفسيرها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا لأنكم أهل دين واحد، فأنتم كنفس واحدة، هذا قول ابن عباس والأكثرين، وذهب قوم إلى أن هذا نهى عن قتل الإنسان نفسه، ويدل على صحة هذا ما أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: احتلمت في ليلة باردة، وأنا في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت وصليت بأصحابي الصبح، فذكرت ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فقلت: «يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيمنت ثم صليت، فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يقل شيئًا»، فدل هذا الحديث على أن عمرًا تأول هذه الآية هلاك نفسه لا نفس غيره ولم ينكر ذلك عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (١).

(١) الكبائر للإمام الذهبي (١٠٨ و١٠٩) بتصرف.

ولقد مضى في المبحث الثاني ذكر بعض الأحاديث التي تدل على أن قاتل نفسه يعذب في النار بالشيء الذي قتل به نفسه، فإن كانت حديدة فهو يطعن بها نفسه في النار، وإن كان سماً فهو يتحساه في النار وهكذا كل شيء يقتل به الإنسان نفسه، وقد ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ثابت بن الضحاك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَعَنَ الْمُؤْمِنُ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذِبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».



الأول: أسباب قتل الإنسان نفسه: هناك أسباب كثيرة قد تؤدي إلى أن يفكر الإنسان في قتل نفسه وليس المقصود الوقوف عندها ولكن المقصود الإشارة إليها والتنبيه عليها لعلاجها، من تلكم الأسباب؛ أن تضيق بالإنسان سبل العيش فلا يجد ما يقيم أوده وأود عياله، فيفكر حينئذ في التخلص من هم الحياة وعبئها الثقيل بأن يقتل نفسه وما درى أن الموت أشد مما هو فيه.

ومن الأسباب أن يقع في حب امرأة لا يستطيع الوصول إليها فيحاول بشتى الوسائل أن يصل إليها فلا يقدر فيقتل نفسه من أجلها.

وأحياناً تجد طالباً ليس في مستوى الدراسة أو التخصص الذي اختاره لنفسه فيعجز عن مواصلة السير فيه فيخشى من القيل والقال فيفكر حينها في قتل نفسه.

ومن أغرب أسباب الانتحار في عصرنا الحاضر هو رغد العيش والإكثار من ملذات الحياة وشهواتها مع خواء الروح عن الإيمان، فيجد هذا الإنسان نفسه قد ملَّ الحياة وملذاتها فيفكر في الانتحار وقد يفعل، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، ومن الأسباب: كثرة الديون وعدم وجود

ما يسدد به أو يقضى تلك الديون ولا يجد من يعينه على ذلك ولا يجد عفواً أو لئياً من أصحابها وهنا يجد نفسه بين دخول السجن وما يجره له من العار الاجتماعي وبين أن يتخلص من الحياة فيفكر في الانتحار خشية العار... هذه بعض أسباب الانتحار فما هو العلاج؟.

علاج التفكير في الانتحار: لا شك أن الذي يفكر في الانتحار إنما هو إنسان ضعفت ثقته بالله وقوى تعلقه بالدنيا فان اجتمع هذان مع أحد أسباب الانتحار أقدم حينها هذا الشخص على قتل نفسه، ولهذا كان العلاج في معرفة شيئين هامين:

أولهما: أن الدنيا من شأنها أن تتقلب بأهلها، وهي مبنية على الأفراح والأحزان والعسر واليسر كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

فلا حزنٌ يدوم ولا سرورٌ
فلا تجزع لحادثة الليالي
ولا بأسٌ عليك ولا رخاءٌ
فما لحوادث الدنيا بقاءٌ

وقال آخر:

طبعت على كدرٍ وأنت تريدها
ومكلف الأيام ضد طباعها
صضوا من الأقدار والأكدارِ
متطلباً في الماء جذوة النارِ

ثانيهما: أن يعلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبرَ بأن كل ما يصيب المؤمن إنما هو خير له فقال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١)، فهذا الحديث أصل في رضا الإنسان المؤمن بما يجري عليه من أقدار الله تعالى، فمن عرف هذين الأمرين بجانب معرفته بجريمة الانتحار، لا شك أنه سيفكر ألف مرة قبل الإقدام على ذلك والله تعالى أعلم.

التنبيه الثاني: حكم من يسرع بسيارته ثم تنقلب أو يصطدم بغيره ويموت

بسبب ذلك:

لقد أصبح كثير من الشباب لا يبالون بالسرعة الهائلة التي يقودون بها السيارة، وأحياناً من النتائج الوخيمة لهذه السرعة أن يقع السائق في حادث ويموت بسببه فهل هذا يعتبر انتحاراً أم لا؟

الجواب: للعلماء في هذه المسألة قولان: (أعني العلماء المعاصرين):

القول الأول: إن الشاب الذي يقود السيارة - أو غيره - بسرعة تتجاوز ال ١٢٠

كيلومتر في الساعة وليست له حاجة أو ضرورة لهذه السرعة بل يفعل ذلك من باب الطيش والتهور ثم يموت بسبب انفجار أحد إطاراتها أو باصطدامه بسيارة أخرى فهو يعتبر منتحراً ويأثم بذلك إثم الانتحار، وهذا قول الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ وآخرون من علماء المملكة.

القول الثاني: إذا كان هذا المسرع لا ضرورة تلجئه إلى ذلك وسيارته ليست مما

يتحكم فيها مع سرعة ال ١٢٠ كيلومتر في الساعة فإن أصابه حادث ومات نقول هذا آثم إثمًا عظيمًا ولكن لا يعد منتحراً وذلك لسبب وهو أن قائد السيارة عنده غالب نوع توكل عندما يسرع ثم هو لم يقصد بذلك الانتحار فلماذا قلنا يأثم بذلك لأنه قد عرض نفسه للخطر وكان من واجبه أن يحفظ نفسه من الأخطار لا أن يعرضها للأخطار والله تعالى أعلم.

التنبيه الثالث: ما جاء من الأحاديث في النهي عن تمنى الموت:

١ - عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يتمنين أحدكم الموت

لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»^(١).

٢- وعنه أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَتَمَنَّيْنَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنْ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عَمْرَهُ إِلَّا خَيْرًا»^(١)، وعند البخاري: «لَا يَتَمَنَّيْنَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزِدَّادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ».

ويقول القرطبي في شرحهما: «قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتة، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار، وقد سماه الله مصيبة في قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، قال علماءنا: فالموت هو المصيبة العظمى الرزية الكبرى وأعظم منه الغفلة عنه والإعراض عن ذكره، وقلة التفكير فيه».

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَالْمَوْتَ خَيْرَ لَهُ، فَمَنْ لَمْ يَصِدْقْنِي».

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ثم عقد القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بَابًا بِعَنْوَانِ «بَابُ جَوَازِ تَمَنِّيِ الْمَوْتِ وَالِدَعَاءِ بِهِ خَوْفِ ذَهَابِ الدِّينِ»، ثم قال: قال الله عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وعن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي قَوْلِهَا: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّوَسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ»^(٢)، وَلَا تَعَارِضُ بَيْنَ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ السَّابِقَةِ، فَأَمَّا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ قِتَادَةَ: لَمْ يَتَمَنَّيْ الْمَوْتَ أَحَدٌ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ إِلَّا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ تَكَامَلَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه الشيخان.

وجمع له الشمل واشتاق إلى لقاء ربه عَزَّوَجَلَّ، وقيل: إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتمن الموت وإنما تمنى الموافاة على الإسلام، أي إذا جاء أجلى توفي مسلماً، وهذا القول هو القول المختار في تأويل هذه الآية عند التأويل. وأما مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ فإنما تمت الموت لوجهين:

أحدهما: إنها خافت أن يظن بها السوء في دينها وتعير، فيثنيها ذلك عن دينها.

الثاني: لتلايق قوم بسببها في البهتان والزور، والنسبة إلى الزنا وذلك مهلك لهم والله أعلم.

وأما الحديث فإنما هو خبر: أن ذلك سيكون لشدة ما ينزل بالناس، من فساد الحال في الدين، وضعفه وخوف ذهابه، لا لضر ينزل بالمرء في جسمه أو غير ذلك، من ذهاب ماله مما يحبط عنه من خطايا، ومما يوضح هذا المعنى وبينه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه: «وإذا أردت فتنة في الناس فاقبضني إليك غير مفتون»^(١)، ومثل هذا قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم قد ضعفت قوتي، وكبرت سني، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مفتون ولا مضيع ولا مقصر» فما جاوز الشهر حتى قبض الله روحه عليه رضوان الله تعالى.

وذكر أبو عمر في التمهيد والاستذكار من حديث زاذان بن عمر عن عليم الكثري قال: كنت جالساً مع عابس الغفاري على سطح فرأى ناساً يتحملون من الطاعون فقال: «يا طاعون خذني إليك» ثلاثاً، فقال عليم: لم تقول هذا؟ ألم يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يتمنين أحدكم الموت فإنه عند ذلك انقطاع عمله ولا يرد فيستعقب»، فقال عابس: أنا سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «بادروا بالأعمال ستة: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، نشأ يتخذون القرآن مزامير يعولون الرجل ليغنيهم بالقرآن وإن كان أقلهم فقهاً»^(٢).

(١) رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير والبخاري في التاريخ وهو صحيح بطرقه وشواهده. قاله محقق التذكرة للقرطبي وجميع ما تقدم من شرح الحديثين من التذكرة صفحات (١١-١٤) بتصرف يسير.



الصفة الثامنة:

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾

العِفَّة



الْمَقَامَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: فهذه هي الخصلة الثامنة من خصال عباد الرحمن وهي أيضًا من صفات التخلي التي يجب على العبد أن يتخلى عنها وهي البعد عن الزنا ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ومعلوم أن حفظ الأنساب وحفظ الأعراض مما جاءت الشرائع بحفظها وحمايتها وهي إحدى الضروريات الخمس كما تقدم ولهذا وردت الآيات العديدة والأحاديث الكثيرة في التحذير من الوقوع في هذه الجريمة التي تلي جريمة قتل النفس في بشاعتها ونكارتها وعظيم ضررها على المجتمع الإسلامي، ولهذا كان مرتكبها منتهكًا لحد من حدود الله وكان مستحقًا للرجم إن كان محصنًا - أي متزوجًا - ومستحقًا للجلد مائة جلدة إن كان بكرًا، ولهذا أحببت أن أبين ما ورد في الترهيب من الزنا من الآيات والأحاديث من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: الآيات القرآنية الواردة في تحريم الزنا وأقوال المفسرين فيها.

المبحث الثاني: في بيان ما ورد من الأحاديث المنفردة من الزنا مع شرح بعضها.

المبحث الثالث: أضرار الزنا على الفرد والمجتمع.

المبحث الرابع: صور من عفة السابقين عن الزنا.



المبحث الأول

الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

قال القرطبي: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا ملك يمين، ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير حق ثم الزنا، ولهذا ثبت في حد الزنا القتل لمن كان محصناً أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن»، قوله: وأقصى الجلد أي مائة جلدة.

وقال ابن القيم: ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد فهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفي ذلك خراب العالم، كانت - جريمة الزنا - تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه وتعالى بجريمة القتل في كتابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ وقال الله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣]، وكذلك قرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جريمة الزنا بقتل النفس وبالشرك بالله تعالى ففي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً، وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «وأن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك»، وقال الإمام أحمد: «لا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنا» اهـ (١).

(١) بتصرف من الضوء المنير (٤/٤١٧).

وقال الشيخ الميداني: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون لأنهم شديداو الحرص على اجتناب كبائر الإثم، فهم يتعدون عن المواطن التي تجرهم إلى السقوط في كبيرة الزنا، ويتخذون الوسائل التي أمر الله بها ليكونوا قادرين على الإمساك بحبل العفة، والزنى هو الجماع بين الرجل المرأة على الوجه الطبيعي دون نكاح ولا شبهة. وإذا كانوا لا يزنون فهم لا يرتكبون من الفواحش ما هو أقبح من الزنا كاللواط وقد جاء هذا التوجيه بصيغة الخبر لا بصيغة النهي لتضمن معنى الثناء عليهم وأن الوصف الخبري يكفى بالنسبة لهم.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

[الإسراء: ٣٢].

قال الشيخ الشنقيطي: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ فيه سر عظيم، وتعليم كبير لأنه لم يقل «ولا تفعلوا»، لأن من قرب من الشيء قد يقع فيه والرائع حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وهذه الآية الكريمة من الأدلة القرآنية على وجوب سد الذرائع، لأن القرب من الشيء ذريعة للوقوع فيه، فإذا نهى عن القرب منه كان ذلك سدا لذريعة الوقوع فيه، وقد أجمع العلماء على وجوب سد الذرائع في الجملة» اهـ^(١).

وقال الطاهر بن عاشور: عناية الإسلام بتحريم الزنا يرجع إلى عدة أسباب:

- ١- لأن فيه إضاعة النسب وتعريض النسل للإهمال، إن كان الزنا بغير متزوجة وهو خلل عظيم في المجتمع.
- ٢- لأن فيه إفساد النساء على أزواجهن، والأبكار على أوليائهن بل وكل من له صلة بهن.
- ٣- لأن فيه تعريض المرأة إلى الإهمال بإعراض الناس عن تزوجها - إن كانت غير متزوجة - وتعريضها للطلاق إن كانت ذات زوج.

(١) العذب النمير (٢/ ٨٢٨) بتصرف.

٤- لأنه ينشأ من الزنا إثارة الغيرة ومنها ما يحصل القتل والتقاتل بين المسلمين، ولا شك أن ما يؤدي إلى القتل يعتبر أمراً عظيماً وجريمة نكراء.

فلما كان الزنا سبباً في إضاعة الأنساب، ومظنة للتقاتل والتهاجر فكان جديراً بتغليظ التحريم قصداً وتوسلاً^(١).

وقال ابن القيم: «قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمر بن ميمون الأزدي قال: «رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة، فاجتمع القردود عليها فرجوهما حتى ماتا»، ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال... وعلق سبحانه وتعالى فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلى العلاج بدونه فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٧]. وهذا يتضمن ثلاثة أمور؛ من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملمومين، ومن العادين، ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك^(٢).

وقال الميداني: الفاحشة والفحشاء والفحش: في اللغة كل قبيح من القول والفعل وجمعها الفواحش وكل أمر لا يكون موافقاً للحق والقدر المناسب فهو فاحشة، ووصف الزنا بكونه فاحشة يعني أنه ذنب عظيم وإثم كبير كما وصفه بأنه ساء سبيلاً أي قبح سبيلاً لقضاء وطر الشهوة إلى الجماع أي فما أسوءه سبيلاً.

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٧٢ و ٧٣). بتصرف.

(٢) الضوء المنير (٤/ ٩٣ و ٩٤) باختصار.

أما كونه فاحشة: فلأن الله عَزَّجَلَّ شدد النهى عنه، وشدد العقوبة عليه وجعله محرماً في كل ما أنزل من شرائع على عباده منذ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى خاتم الأنبياء سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما كونه ساء سبيلاً: فلما يشتمل عليه من الأضرار الصحية والاجتماعية والدينية وغيرها^(١). وسيأتي بيان تلك الأضرار إن شاء الله تعالى في المبحث الثالث.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾. جاءت هذه الآية في بيان صفات المؤمنين الذين حازوا الفلاح واستحقوا الفردوس الأعلى وهم الذين اتصفوا بعدة صفات ابتدأها الله بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ...﴾، وختمها ببيان مآلهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١-١١]، فالآيات التي معنا قد بينت أن من خصال المؤمنين التي بها يرثون الفردوس حفظ الفروج وإليك أقوال المفسرين في بيانها:

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿الْعَادُونَ﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنى ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي المعتدون. وقد استدل الإمام الشافعي ومن وافقه على تحريم الاستمنا باليد بهذه

الآية الكريمة، وقال: هذا الصنيع خارج عن هذين القسمين - يعنى الزوجة ومملك اليمين - وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ اهـ (١).

وقال أبو حيان الأندلسي: يخصص ما ذكر في الآية من إباحتها وطء الزوجات والإماء ما ورد من الأدلة الدالة على تحريم إتيان الحائض والأمة إذا تزوجت، والمظاهر منها حتى يكفر زوجها كفارة الظهار، ويشمل قوله: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ الزنا واللواط ومواقعة البهائم والاستمناء باليد والجمهور على تحريم الاستمناء ويسمونه جلد عميرة، كناية عن الذكر، وكان أحمد بن حنبل يميز ذلك لأنه فضلة في البدن فجاز إخراجها عند الحاجة كالفصد والحجامة، وسأل حرمة بن عبد العزيز مالكا عن ذلك فتلى هذه الآية ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ اهـ (٢). والجمهور على ما ذهب إليه الشافعي وهو التحريم.

قال ابن حجر الهيثمي: عد الزنا - أي من الكبائر - هو ما أجمعوا عليه، بل مر في الحديث الصحيح أن الزنا بحليلة الجار من أكبر الكبائر وقيل الزنا مطلقا أكبر من القتل، فهو الذي يلي الشرك، والأصح أن الذي يلي الشرك هو القتل ثم الزنا، وأفحش أنواعه الزنا بحليلة الجار، قال في الإحياء: والزنا أكبر من اللواط، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم الضرر بكثرتة (٣)، أي ولأنه يترتب عليه اختلاط الأنساب.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؛ مَدْمَنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحْمِ، وَمَصْدُقُ السَّحْرِ، وَمَنْ مَاتَ مَدْمَنُ الْخَمْرِ سَقَاهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا مِنْ نَهْرٍ

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٣٨).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٦/٣٩٧) بتصرف يسير.

(٣) الزواجر (٢/١٣٦).

الغوطة»، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: «نهر يجرى من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهم»^(١).

قال الهيثمي: «ولا شك أن الزنا أشد وأعظم عند الله من شرب الخمر، وقد روى الخرائطي وغيره أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «المقيم على الزنا كعابد وثن»، وعلم مما ذكر - أي من الأحاديث - أن الزنا له ثمرات قبيحة؛ منها أنه يورد النار والعذاب الشديد، وأنه يورث الفقر، وأنه يؤخذ بمثله من ذرية الزاني وعلم من ذلك أيضًا أن الزنا له مراتب، فهو بأجنبية لا زوج لها عظيم، وأعظم منه بأجنبية لها زوج، وأعظم منه بامرأة محرم، وزنا الثيب أقبح من البكر بدليل اختلاف حديهما، وزنا الشيخ لكمال عقله أقبح من زنا الشاب والحر والعالم لكماهما أقبح من زنا القن - العبد - والجاهل»^(٢) اهـ بتصرف.

وقال الذهبي: «الكبيرة العاشرة: الزنا وبعضه أكبر من بعض: ثم أورد الآيات الآنفة الذكر ثم قال: كما ورد في الزبور مكتوبا: إن الزناة معلقون بفروجهم في النار يضربون عليها بسياط من حديد، فإذا استغاث من الضرب نادته الزبانية: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتمرح ولا تراقب الله تعالى ولا تستحي منه... وعن عطاء في تفسير قوله تعالى عن جهنم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ قال: أشد تلك الأبواب غمًا وحرًا وكرهًا وأنتنها ریحًا للزناة الذين يكثرون الزنا بعد العلم»^(٣).



(١) رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه.

(٢) الزواجر عند اقتراف الكبائر - للهيتمي (١٣٧/٢).

(٣) الكبائر (٤٣).

المبحث الثاني

١ - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١)، وزاد النسائي: «فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ عَنْ عُنُقِهِ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

٢ - عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: الثِّيبُ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٢).

٣ - عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ...»، وفيه: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقَبٍ مِثْلِ التَّنُورِ أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا وَفِيهِ رَجَالٌ وَنِسَاءٌ عِرَاءٌ فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَا: انْطَلِقْ ثُمَّ فَسِّرَا هَذَا الْمَشْهَدَ بِقَوْلِهِمَا: وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقَبِ فَهَمَّ الزَّانَا»^(٣)، وفي رواية له: «فَانْطَلَقْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُورِ فَإِذَا فِيهِ لُغَطٌ وَأَصْوَاتٌ»، قال: «فَاظْلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رَجَالٌ وَنِسَاءٌ عِرَاءٌ وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمُ اللَّهَبُ ضَوْضُوا»، وفي آخره: «وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعِرَاءُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ فَإِنَّهُمْ الزَّانَا وَالزَّوَانِي».

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه البخاري.

٤- وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَأَخَذَا بَضْبِعِي، فَأَتَيَانِي جَبَلًا وَعَرًّا فَقَالَا: اصْعِدْ فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَطِيقُهُ، فَقَالَا: إِنَّا سَنَسَهْلُهُ لَكَ، فَصَعِدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ فَإِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ؟ قَالُوا: هَذَا عَوَاءُ أَهْلِ النَّارِ»، وفيه: «ثُمَّ انْطَلَقَا بِي فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيْءَ انْتِفَاحًا وَأَنْتَنَةً رِيحًا كَأَنَّ رِيحَهُمُ الْمَرَا حِيضُ، قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءُ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي»^(١).

وتأمل أخي القارئ الجزء من جنس العمل لما كان كل من الزاني والزانية يتطيب لصاحبه بالحرام أبدل ذلك الطيب بأنتن ريح وأخبثه ريح المراحيض.

٥- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا زَنِى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ عَلَيْهِ كَالظَّلَّةِ، فَإِذَا أَقْلَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ»^(٢)، لكن تأمل يا أخي كم من زان مات قبل أن يُقْلَعَ فهل ياترى مات بلا إيمان، ظاهر الحديث يدل على ذلك ولكن ليس يعنى هذا أنه مات كافرًا لأن العلماء يقولون في الحديث وأمثاله أن المنفى هنا كمال الإيمان وليس أصله والله تعالى أعلم^(٣).

٦- وعنه أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكَلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٌ، وَمَلِكٌ كَذَابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»^(٤)، قال في شرح صحيح مسلم (١/٣٥٧):

اشتدت العقوبة في حق هؤلاء لأن المعصية مع وجود الصارف عنها يدل على الاستخفاف بحق المعبود والمعادنة، فالصارف للشيوخ عن الزنا انكسار حدته وكمال

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما.

(٢) رواه أبو داود واللفظ للترمذي والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) انظر شرح صحيح مسلم (١/٢٧١).

(٤) رواه مسلم والنسائي وغيرهما.

عقله وطول إغذار الله إليه، والصارف للملك عن الكذب قدرته على نيل اختياره دون كذب إذ لا يخشى أحدًا، والصارف للعائل عن الاستكبار فقره لأن الاستكبار إنما هو بالدنيا ومن ليست عنده دنيا فاستكباره عناد. اهـ.

٧- عن ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا تزال أمتي بخير ما لم يفض فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب»^(١)، ورواه أبو يعلى ولفظه: «لا تزال أمتي بخير متماسك أمرها ما لم يظهر فيهم ولد الزنا...» الخ، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد عن ابن عباس مرفوعًا: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله».

٨- عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلت بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن: - ما لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا.

- ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم.

- ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولو لا البهائم لم يمطروا.

- ولم ينقضوا عهد الله وعهد الرسول إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا

بعض ما في أيديهم.

- ولم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ولم يتخبروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم

بينهم»^(٢).

(١) رواه أحمد بإسناد حسن.

(٢) رواه ابن ماجه والبخاري.

لقد تحقق هذا الحديث في جميع الأمور الخمس وفيما يتعلق بالزنا ظهرت الأمراض التي لم تكن معروفة لوقت قريب، فقد ظهر مرض نقص المناعة المكتسبة، وهو المسمى بالإيدز وظهر مرض السرطان، والسيلان، والله أعلم ما ذا تخفيه الأيام مع بداية إعلان الزنا في بعض الدول التي لم تعهد مجرد التبرج إذ تطور الأمر إلى ما هو أبعد من التبرج فأصبح الزنا في الفنادق والبيوت وكأنه أمر مباح لا ينكره ذو سلطان ولا غيره فنسأل الله أن يلفظ بأمة حبيبه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٩- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ إبليس يبث جنوده في الأرض ويقول لهم: أيكم أضلُّ مسلماً ألبسته التاج على رأسه، فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة، فيجيء إليه أحدهم فيقول له: لم أزل بفلان حتى طلق امرأته، فيقول ما صنعت شيئاً، سوف يتزوج غيرها، ثم يجيء الآخر فيقول: لم أزل بفلان حتى ألقيت بينه وبين أخيه العداوة، فيقول ما صنعت شيئاً سوف يصالحه، ثم يجيء الآخر فيقول: لم أزل بفلان حتى زنى، فيقول إبليس: نِعَمَ ما فعلت، فيدنيه منه ويضع التاج على رأسه»^(١)، لأن جريمة الزنا ثمرتها تتعدى الفاعل إلى غيره. ثم إن اللعين سمي هذا العمل ضلالاً.

١٠- عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تعبد عابد من بني إسرائيل فعبد الله في صومعته ستين عاماً، فأمطرت الأرض فأخضرت، فأشرف الراهب من صومعته فقال: لو نزلت فذكرت الله، فازددت خيراً، فنزل ومعه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فما زال يكلمها وتكلمه حتى غشيها، ثم أغمى عليه، فنزل الغدير يستحم، فجاء سائل فأوماً إليه أن يأخذ الرغيفين، ثم مات فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط وذكره الذهبي في الكبائر.

حسانته، فرجحت حسناته فغفر له»^(١)، ذكره المنذري في الترغيب والترهيب وأشار إليه بالحسن في ثلاثة مواضع من كتابه.

١١- عن عثمان بن أبي العاص قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تفتح أبواب السماء نصف الليل، فينادى منادٍ: هل من داع فيستجاب له؟ هل من سائل فيعطى؟ هل من مكروب فيفرج عنه؟ فلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله عَزَّجَلَّ له إلا زانية تسعى بفرجها أو عشارًا»^(٢)، والعشار: هو الذي يأخذ الأموال من التجار للدولة بالباطل.

١٢- عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرام حرمه الله عَزَّجَلَّ ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره»^(٣).

١٣- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ حِينَ نَزَلَتْ آيَةُ الْمَلَاعِنَةِ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَنْ يَدْخُلَهَا اللَّهُ جَنَّتَهُ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ احْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأُولَى وَالْآخِرِينَ»^(٤).



(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٢) رواه أحمد والطبراني.

(٣) رواه أحمد ورواته ثقات، ورواه الطبراني في الأوسط والكبير.

(٤) رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه.

المبحث الثالث

إن للزنا عواقب وخيمة وآثار سيئة على الزاني وعلى المجتمع الذي يعيش فيه، وتلك العواقب السيئة منها ما هو في الدنيا ومنها ما هو في الآخرة، وما يترتب على واحدة يترتب على متعددة أي ليس له حد أدنى فأردت أن أبين في هذا المبحث شيئاً منها من كلام العلماء، فسأذكر عواقب الزنا على مرتكبه في الدنيا والآخرة ثم على المجتمع، وذلك من خلال مطلبين فأقول ومن الله العون والقبول.

سأسرد تلك الأضرار الدنيوية والأخروية دون تفريق بينهما لأن أمرهما ظاهر، وهذه الأضرار مأخوذة بتصرف من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

١- يكتسب الزاني بسبب الزنا كثيراً من الصفات السيئة ومن ذلك قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانياً معه ورع ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، لأنه لا يتوصل إلى الزنا إلا بعد أن يغدر ويكذب ويخون، وإلا بعد أن يقل حياؤه وتذهب مراقبته لربه إما أن تقل وإما أن تنعدم بالكلية.

٢- الزنا يورث سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين، وكذلك يذهب ماء الوجه ووقاره.

٣- الزنا يتسبب في ظلمة القلب وطمس نوره، وذهاب نور القلب هو الذي أوجب ذهاب نور الوجه وغشيانه الظلمة.

٤- الزنا يذهب حرمة فاعله ويسقطه من عين الله تعالى ومن أعين عباده جزاءً وفاقاً حيث أذهب هو حرمة المسلمين بانتهاك أعراضهم.

٥- الزنا يسلب الزاني أحسن الأسماء ويلبسه أقبحها وأسوأها فهو بعد أن كان عفيفاً عدلاً أصبح فاسقاً خائباً فاجراً إلا أن يتوب، وكذلك يسلبه اسم الإيمان «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

٦- إذا ثبت الزنا عليه وكان بكرًا فإنه يعرض نفسه للجلد مائة جلدة وهذه إهانة جسدية جزاء ما قام به من اللذة المحرمة أضف إلى ذلك من الإهانة المعنوية ﴿وَلَيْشَدَّ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فروية الناس له وهو يُجلد إهانة معنوية له وزجرًا لغيره.

٧- إن الزاني يفارقه اسم الطيب الذي وصف به المؤمن ويستبدل به اسم الخبيث وبالتالي ما يلزم من هذين الوصفين قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، وقد حرم الله الجنة على كل خبيث بل جعلها الله مأوى الطيبين ولا يدخلها إلا طيب، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّئْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وإنما استحق أهل الجنة سلام الملائكة بعد دخول الجنة بطيبيهم، والزناة من أخبت الخلق، وقد جعل الله تعالى جهنم دار الخبث وأهله فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقى أهله في جهنم فلا يدخل النار طيب ولا يدخل الجنة خبيث.

٨- النبذ الاجتماعي للزاني حيث تجده منبوذاً من الناس خصوصاً الصالحين حيث ذهب وجاء، وذلك عقوبة من الله لأن القلوب تجد إيناساً لكل عفيف ووحشة من كل زان خائن، فالزاني يتسوحش من نفسه ويستوحش الناس منه.

٩- يلقي في قلب الزاني الخوف الدائم من أن يفتضح أمره وتنكشف سوءته فهو خائف أبداً لقد تاب أحد الزناة فقال: لا أجد وصفاً للزاني إلا قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ

صَيِّحَةً عَلَيْهِمْ ﴿[المنافقون: ٤]﴾، الزاني لا ينظر الله إليه ولا يكلمه يوم القيامة ولا يزكيه إذا زنا في حال كبره كما سبق في الحديث: «شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر»، وله عذاب أليم.

١٠- الزاني يعرض نفسه لسكن التنور الذي وصفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما سبق في حديث الرؤيا: «يأتيهم اللهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ضوضوا»، أي اختلطت أصواتهم لشدة صراخهم من العذاب.

١١- ورد عن علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لجلسائه يوماً: «هل تدرّون أي الزنا أعظم؟ قالوا: يا أمير المؤمنين كله عظيم، قال: ولكن سأخبركم بأعظم الزنا عند الله، هو أن يزني الرجل بزوجة جاره المسلم فيصير زانياً، وقد أفسد على الرجل زوجته، ثم قال: إن الناس يرسل عليهم يوم القيامة ريح منتنة حتى يتأذى منها كل بر وفاجر -الظاهر أن هذا في الموقف- حتى إذا بلغت منهم كل مبلغ والمتم أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم مناد يسمعهم الصوت ويقول لهم: هل تدرّون ما هذه الريح التي قد آذتكم؟ فيقولون: لا ندري والله، إلا أنها قد بلغت منا كل مبلغ، فيقال: إلا إنها ريح فروج الزناة الذين لقوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه، ثم صرف بهم، فلم يذكر -على- عند الصرف بهم جنة ولا ناراً».

* روى الخرائطي عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يا معشر المسلمين إياكم والزنا فإن فيه ست خصال؛ ثلاثة في الدنيا، وثلاثة في الآخرة: فأما التي في الدنيا؛ فذهاب البهاء، ودوام الفقر، وقصر العمر، وأما اللواتي في الآخرة؛ فسخط الله، وسوء الحساب، ودخول النار»، وهذه الست كلها دلت عليها الأدلة إما في الزنا بخصوصه وإما في بعض المعاصي والزنا من الكبائر حمانا الله... وحى أعراض المسلمين.. والله أعلم.

إن ما سبق ذكره من أضرار خاصة بالفرد أظن أنها كافية في ردع كل من تسول له نفسه بالوقوع في هذه الجريمة النكراء، ولكن لا بد من بيان الأضرار الوخيمة والآثار الجسيمة في المجتمع بل وفي الدول أحيانا من جراء الزنا، وما سأذكره هنا إنها هو انطلاقاً من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم... الخ»، وقد تقدم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»^(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وأما أضرار الزنا على المجتمع فهي:

أولاً- الزنا سبب في انتشار الأمراض الخطيرة القاتلة:

قال الميداني: «جعل الله عَزَّجَلَّ انتشار طائفة من الأمراض الخطيرة المؤلمة والأوبئة القاتلة، منوطاً بانتشار فاحشة الزنا في المجتمع، وهذه حقيقة أثبتتها الدراسات الطبية، والمؤسسات الصحية العالمية، ولا يجادل في هذا مجادل لديه إطلاع على ما يقرره الطب في هذا المجال»^(٢).

وسأذكر هاهنا بعضاً من تلك الأمراض التي تسمى بالأمراض الجنسية المتعددة الناتجة من الاتصال الجنسي الخاطئ الخارج عن دائرة الشرع الإسلامي سواء كان زنا أو لواطاً ومن أخطر تلك الأمراض ثلاثة:

(١) رواه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) معارج التفكير (٦/ ٦٤١).

١- أفعى الزنا: وهو مرض السلفس: هو من أخطر الأمراض الجنسية، ويعرف بالزهري الذي تسببه اللولبية الشاحبة وهي جرثومة تشبه الأفعى في الشكل والحركة والخبث، وتحدث الإصابة بها إما بالعدوى المباشرة ويسمى بالسلفس المكتسب، وإما عن طريق الأم الحامل إلى الجنين وهو في بطنها ويسمى بالسلفس الولادي، وحديثنا سيقصر على الأول:

يقول الأطباء: المصدر الرئيسي للعدوى بالسلفس المكتسب هو الدعارة، وتدخل جرثومة الأفعى في صمت على عكس أي جرثومة أخرى لأن المتعارف عليه أن دخول أي جرثومة على الجسم يجعله يدق ناقوس الخطر في الجسم كله إلا هذه الأفعى فإنها تنسل إلى الجسم مستترة، ولو عبر قبة بسيطة، لأنها تدخل إلى الجسم من خلال الغشاء المخاطي ومنه تنسل إلى الأوعية اللمفاوية وبكل هدوء تنتقل إلى العقد اللمفاوية فتعبرها إلى الأوردة ثم إلى الشرايين وخلال أربع وعشرين ساعة تكون قد انتشرت في البدن كله، ولا يظهر لها أي أثر حتى إذا تمزقت الأوردة والشرايين بدأت ثورة التدمير ثم ظهرت الأعراض وهي تمر بثلاث مراحل:

(أ) السلفس الأوَّلِي: ويتميز بعلامات ثلاث: القرحة: وغالبًا ما يكون في الأعضاء التناسلية (٩٠٪ من حالاته في الجنسين) ثم ضخامة العقد البلغمية ثم وجود اللولبيات في القرحة والعقد البلغمية.

(ب) السلفس الثانوي: يدخل المرض دورًا خطيرًا بسبب تعميم الإصابة وانتشارها ويتميز هذا الدور بتظاهرات مرضية في: الآفات الجلدية المخاطية، وكذلك اللوحات المخاطية على الشفتين واللسان والأعضاء التناسلية، ومن الإصابات الهامة الطلاء على اللسان الذي يمكن أن يتحول إلى سرطان اللسان ثم تأتي الإصابات الحشوية كإصابة

الطحال والكلية والكبد وهما إصابات صامتة لا تنكشف إلا بالتحريات الدقيقة، وهنا يكمن الخطر إذ لا تلبث أن تتحول إلى أمراض مخربة.

ومن الأعراض في هذه المرحلة الإضطرابات العامة كالحرارة المرتفعة والصداع الشديد والألام العظمية.

(ج) السلس المتأخر - الثالث: وهذه تظهر بعد فترة من سنة إلى ٢٠ سنة وهي مرحلة الرعب: وهي تحول الجلد والأحشاء إلى درنات حمضية صلبة وتخرب الكبد والقلب والأبهر والكليتين والمعدة والخصيتين كما يصاب بها بشكل خاص الدماغ والسحايا، وقد أودى هذا المرض بحياة الملايين من البشر.

٢- السيلان: وهو مرض آخر يتبلى الله به الزناة ويسمى أيضًا بالتهاب الإحليل البني، وسببه المكورات البنية التي تنتقل بشكل رئيسي بالاتصالات الجنسية غير الشرعية عندما يتصل مريض بسليمة أو العكس فتنتقل العدوى إليهما، وأعراض هذا المرض تمر بثلاثة مراحل:

(أ) مرحلة التقيح المنتشر: ويسمى التهاب الإحليل الحاد ويتصف بسيلان قيحي مع حرقنة بولية يزدادان بشكل تدريجي حتى يصبحا شديدين.

(ب) دور التوضع البؤري: يتوضع فيه الإلتهاب في بؤر قيحية على ثنايا المهبل وحول عنق الرحم وداخله، وفي الإحليل، هذه البؤرة تسبب أزمات المرض وتحوله إلى التهاب مزمن تتخلله هجمات حادة أثر التعرض للبرد أو تناول البيرة.

(ج) مرحلة الاختلاطات وهي تناسلية عامة: أما التناسلية عند الرجل فهي عبارة عن التهاب الحشفة، وتضييق القلفة وقد وقى الله المسلمين ذلك الختان، والتهاب البروستاتا وما ينجم عنه، أو التهاب الحويصلة المنوية والحبل المنوي والخصية وهذه كلها التهابات تؤدي إلى العقم. وأما الاختلاطات التناسلية عند المرأة فهي عبارة عن

التهاب عدة بارتوليه والتهاب عنق الرحم، وهو شائع، والتهاب الرحم والملحقات وهو اختلاط خطير قد يؤدي إلى التهاب المبيض وهذا كله يؤدي إلى العقم أيضًا. وأما الإختلاطات العامة: فهذه تتسبب في إصابة العين أو عين الطفل عند خروجه ويسمى هذا الالتهاب التهاب القرنية وبدون العلاج الكثيف يؤدي ذلك إلى العمى. كما تتسبب أيضًا فيما يسمى بخمج الدم السيلاني وهذا خطره في وصول الجراثيم إلى الدم ومنه إلى الأعضاء المختلفة وبذلك يحصل التهاب الجلد والمفاصل أو القلب وغير ذلك»^(١).

الإيدز: ويسمى بسرطان العصر، وهو عبارة عن الفشل المناعي أي فشل جهاز المناعة عند الإنسان وهو أخطر من كل أنواع الفشل التي عرفها التاريخ الطبي الحديث، فهو أخطر من الفشل الكلوي والكبدى أو فشل جهاز الدورة الدموية أو النفسية.

ومريض الإيدز يصاب بالفشل المناعي يتحول بعد إصابته إلى شبح لا يحتمل الصمود أمام أضعف الأمراض، ويقع صريع الموت أمام نزلة برد فضلا عن غيره، وتقضى عليه بكل سهولة أقل الميكروبات وأضعف الفيروسات.

ما هي الأسباب التي جعلت الإيدز أخطر الأمراض في هذا العصر؟ يقول سعد

الله عبد الرحمن الغامدي -أخصائي مختبر- يوجد فيروس الإيدز في سوائل المصاب - الدم والسائل المنوي واللعباب وحليب الأم والدموع وكثيرًا ما يطلقون عليه (وباء العصر أو طاعون العصر أو عدو العصر) ولا غرابة في انتقاء هذه الأسماء المفجعة إذا علمنا مدى الذعر الذي انتاب الولايات المتحدة وأوروبا أوائل الثمانينات الميلادية عند انتشار هذا المرض بصورة مرعبة ومؤرقة... ولقد بلغ الأمر بداية ظهور المرض أن مريض الإيدز إذا سلك فجأ سلك الآخرون فجأ آخر مخافة العدوى.

(١) ملخصًا من كتاب: نظرات علمية في أخطار الزنا وآثامه.

والحقيقة أن مرض الإيدز جدير بكل ما أثير حوله من زوابع الرعب والتنفير لأسباب عدة لعل أهمها:

١- فيروس الإيدز من أكثر الفيروسات تعقيداً من الناحية الجينية، وأقل ما يقال عنه أنه فيروس جريء مستهتر إذ إنه يستهدف بعض الخلايا المناعية المهمة ويتلذذ بتحطيمها، وخاصة الخلايا اللمفاوية التيموسية.

٢- قدرة هذا الفيروس على تسخير نوعين آخرين من خلايا المناعة واستخدامهما في هجومه على الجسم وهما: الخلايا موحدة النواة، والخلايا البلغمية أو الملتزمة التي مهمتها: احتواء والتقام أي جسم غريب وتحليله وإبطال أذاه، ولهذه الخلايا لدى الجسم من الخطورة ما ليس لسواها من خلايا المناعة فهي الخلايا الوحيدة التي تستطيع عبور الحاجز الدموي للمخ والجهاز العصبي، أما مع فيروس الإيدز فالحالة غير هذه فبدلاً من أن تكون هذه الخلايا مقبرة للغزاة فإنه هذا الفيروس يحولها إلى حاضنة له، بل قوارب مصفحة ينتقل بها الغزو وأنسجة الجسم الأخرى، دون أن يكتشف الجسم أنه يفتح الطريق أمام عدو في ثياب صديق، حتى إذا وصلت هذه الخلايا إلى الرئتين والمخ - مستقلة ثقة الجسم بها - ترجل الفيروس وبدا مهمته في نقل العدوى إلى المخ ليبدأ الكثير من الأمراض العصبية والنفسية المصاحبة للإيدز.

٣- سرعة انتقال هذا الفيروس وانتشاره تبعاً لكثرة فئات المجتمع المعرضة للإصابة وهي: الزناة والشاذون جنسياً، ومتعاطو المخدرات.

وإليك لمحة سريعة حول عدد المصابين بالإيدز في منتصف عام ١٩٩٥ قدر العدد بحوالي ١٨,٥ مليون حالة، وبحلول عام ٢٠٠٠ توقع أن يصل العدد من ٤٠ إلى ١١٠ ملايين حالة، إضافة إلى ملايين الأطفال الخدج وغير مكتملي النمو.

٤- لا يعلم، وربما لا أمل قريب، في أن يوجد علاج يؤدي إلى القضاء التام على هذا الفيروس، والأدوية المرخص بها حالياً يقتصر دورها فقط على تثبيط تكاثر الفيروس في حين أنها لا تخلو من الآثار الجانبية المتعبة لجسم منهك أصلاً.

٥- صعوبة إيجاد لقاح يقي من هذا المريض ويرجع ذلك إلى مقدرة الفيروس على تغيير شكله بتوليد طفرات سريعة ومتشابهة التركيب «موديلات» يتعذر معها إنتاج تطعيم آمن وفعال. ومن المعوقات أيضاً صعوبة تجريب اللقاح على الإنسان لوجود بعض الخطورة في ذلك، في حين يتردد السؤال عن مدى تطابق استجابة جهاز المناعة البشري وأجهزة مناعة الحيوانات المستخدمة في تجريب اللقاح.

٦- فيروس الإيدز يحول جسم الإنسان إلى كلاً مباح لكثير من الطامعين الإنتهازيين من الداخل والخارج والإصابة به تعنى فعلياً الإصابة بـ«كومة» من الأمراض.

٧- دخول المريض في دوامة الأمراض الجسدية، ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب:
 (أ) صعوبة المضغ والبلع نتيجة للتقرحات والالتهابات في الفم واللسان والحلق وتعسر هضم الطعام وامتصاصه.

(ب) استنزاف غذاء الجسم وطاقته من قبل الميكروبات المتطفلة على شتى أجزاء الجسم.

(ج) الحالة النفسية البالغة السوء والتي تؤدي إلى فقدان الشهية من جهة وإلى إضعاف القوى من جهة أخرى كيف لا؟ والمريض يدرك أنه أصبح موبوءاً يقدره البعيد ويتخلى عنه القريب والحميم، لا يجالس ولا يؤاكل ولا يستأجر، ولا يقدر أحد على إعداد طعامه وشرابه فيزداد غمًّا إلى غم^(١).

(١) ملخصاً من كتاب: هدايا لا يريدتها أحد: الإيدز وهدايا أخرى لعبد الله عبد الرحمن الغامدي.

: B

لا يشك المسلم في أن الوالدين أولاً وجميع أرحامه ثانياً لا يرضون له أن يقع في هذه الجريمة النكراء فإن حصل من مسلم زنى أدى ذلك إلى غضب والديه عليه لأنه - إن صح التعبير - رمى بسمعتها إلى الحضيض حيث يقال فيها: لم يحسن تربيته، وإما إن كانت بنت هي التي زنت فلعله الغضب الذي لا يرضيان بعده أبداً وبهذا تكون هذه الزانية قد أغلقت باباً عظيماً من أبواب الرحمة، لأن الله يسخط بسخط الوالدين ويرضى برضاهما، وأنى لهما أن يرضيا عن ابن زان أو ابنة زانية ألحقت بهم العار والشنار، ولا شك أن هذا من أعظم العقوق بالوالدين، ومن أعظم أسباب قطيعة الأرحام حيث يلحق بهم ما لحق بأسرة الزاني أو الزانية وهو سبب عظيم في تنكيس الرؤوس وشددة الإحراج أمام الناس حيث علموا أن هذا أحد أقارب فلان أو فلانة الزانية، وكان من الممكن اتقاء هذا كله بصبر ساعة فقط عن الوقوع في شهوة يقضيها في ساعة أو أقل.

: B

من المعلوم أن كل مسلم يغار على عرضه فإذا علم أحد أقارب المزي بها وعلم من هو الزاني لا شك أنه سيفكر في الانتقام، وإذا اشتدت الغيرة قد يفكر في قتل الزاني أو إلحاق ضرر بأهله، وبهذا تنشأ عداوة قد لا يوقفها شيئاً، كيف لا؟ وهذا يرى من دنس عرضه ونكس رأسه يمشي بين الناس كأنه لم يفعل شيئاً، ولعل القاتل يرحمه الناس فيمشون إلى أهل الدم فيشفعون في القاتل ويذكرونه بعظيم أجر العفو، وقد يتسجيب لهم فيعفو عنه ولكن لا أحد يشفع في قضية الزنا، ويقولون هذه أعراض ويجب حمايتها، ثم إنه لو حصل ولم يفعل قريب المزي بها شيئاً للزاني اتهمه الناس بأنه ديوث وما أظن أن أحداً يرضى بهذا الوصف لنفسه، ولهذا كان حد الزاني المحصن أن يرحم خشية أن يفسد العوائل ويثير الضغائن ويشجع على ذهاب الغيرة من الناس فهو لم يغر على أعراض

الناس فلعله ألا يغار على عرضه، ولهذا أقول لعله كان من الحكم العظيمة أن يرحم المحصن تطهيراً للمجتمع منه، وأن يغربَّ البكر عامًا كاملاً مع جلده لعل الناس ينسون ما وقع فيه.

: B

يقول أحد العلماء: «إن العار الذي يلحق مَنْ قُذِفَ بالزنا أعلق بنفوس الناس من العار الذي ينجر من رمى بالكفر، فإن التوبة من الكفر تذهب رجسه شرعاً وتغسل عاره عادة ولا تبقى له في قلوب الناس شيئاً بخلاف الزنا فإنَّ التوبة من ارتكاب فاحشته وإن طهرت صاحبها ورفعت عنه المؤاخذة بها في الآخرة يبقى لها الأثر في النفوس... وانظر إلى المرأة التي ينسب إليها الزنا كيف يتجنب الأزواج نكاحها وإن ظهرت توبتها مراعاة للوصمة التي ألصقت بعرضها سلفاً، ويرغبون أن ينكحوا المشتركة إذا أسلمت رغبتهم في نكاح الناشئة في الإسلام»^(١).

: B

إن إحساس الناس بأن هذا الشخص - رجلاً كان أو امرأة - ملطخ بالزنا يتسبب في عزوفهم عن الزواج من تلك الأسرة أو العائلة التي أصبحت في نظر الناس ليست من الأسر الطاهرة العفيفة التي يتشرف كل أحد بمصاهرتهم، وانظر بعد ذلك إلى حال أخوات وقربيات الزاني أو الزانية.



المبحث الرابع

صور من عفة بعض ممن كان في الأمم السابقة:

!è

روى الترمذي بإسناد حسن عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملتني عليه الحاجة، فقال: أفتفعلين هذا - الخوف - ولم تفعليه قط؟ قال: ثم نزل فقال: اذهبي والدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصى الله الكفل أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابهِ، قد غضر الله للكفل»، قلت: وليس هذا هو الكفل النبي المذكور في القرآن لأن ذلك اسمه ذو الكفل وهذا اسمه الكفل.

!é

يروى أن عبدا من بني إسرائيل كان يتعبد في صومعته، فجاء نفر من الغواة إلى امرأة بغي، فقالوا: لعلك أن تزيليهِ - أي تبعديه عن عبادة الله - فجاءته في ليلة مطيرة مظلمة فنادته فأشرف عليها، فقالت: يا عبد الله آوني إليك، فتركها وأقبل على صلاته ومصباحه مضيء، فقالت: يا عبد الله آوني إليك أما ترى الظلمة والمطر، فلم تنزل به حتى آواها إليه، فاضطجعت قريباً منه فجعلت تريبه محاسن خلقها؛ حتى دعتة نفسه إليها، فقال: لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار - يعني نفسه - فتقدم إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه فيه، حتى احترقت، فلم تنزل نفسه تدعوه إلى الزنا وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جمعاء، والبغي تنظر إليه فصعقت وماتت» انتهى.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

سأذكرها هنا مجموعة من القصص الواردة في ذم الهوى وفي «موسوعة أخلاق القرآن»، وهي قصص تدل على أن هذه الأمة بلغت مرتبة عالية في البعد عن الحرام، وأرجو أن تكون هذه القصص نماذج يحتذى بها الشباب إذا دعتهم نفوسهم إلى هتك الأعراس، والآن إليك تلك الصور المشرفة.

!è

روى أبو بكر بن عبد الله المزني إن قَصَابًا هام بفتاة لبعض الجيران وبادلته الفتاة حبا بحب، ولكنها كانت عفيفة شريفة، فتبعها ذات يوم وهى على خلوة من الطريق عن نفسها، فقالت له: لا تفعل، فإني أشد حبا لك منك لي، ولكنني أخاف الله، فارتدع وقال: أنت تخافيه وأنا لا أخافه؟ ثم رجع تائبًا.

!é

ومما رواه السف أن شابًا عابدًا بالكوفة، تعرضت له امرأة في الطريق، وقالت له: يا فتى أسمع منى كلمات، أكلمك بها، فقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون لتهمة موضعا، فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة منى بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى... وجملة ما أقوله لك: «إن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك»، ومضى الشاب في طريقه ثم كتب إليها: بسم الله الرحمن الرحيم: اعلمي أيتها المرأة أن الله عَزَّجَلَّ إذا عصاه العبد حلم، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب، فمن ذا يطيق غضبه، فإن كان ما ذكرت باطلاً: فإني أذكرك يوماً تكون فيه السماء كالمهل وتصير الجبال فيه كالعهن، وتجتو الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإن كان ما

ذكرته حقاً، فأنا أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم الممرضة، والأوجاع المزمنة ذلك هو رب العالمين، فاقصديه بصدق المسألة، فإني مشغول عنك بقوله تعالى: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزِيفَةِ إِذْ أَلْقَوُا لِقُلُوبِ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظَمِيمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، فأين المهرب من هذه الآية.

وبعد أيام تعرضت له، فأراد الرجوع من الطريق فقالت له: يا فتى لا ترجع، فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى، ثم بكت، وقالت: أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما عسر من أمرك، وأمن عليّ بموعظة أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل بها، فقال لها: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

!ê

ذكر ابن الجوزي هذه القصة بسندها عن حصين بن عبد الرحمن قال: بلغني أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان يتفقدّه إذا غاب، قال: فعشقتّه امرأة فذكرت ذلك لبعض نسايتها فقالت لها: ألا أحتال لك في إدخاله عليك؟ قالت: بلى، فقعدت له في الطريق، فلما مر بها قالت له: أنا امرأة كبيرة في السن ولي شاة ولست أستطيع أن أحلبها، فلو تنوّيت الثواب ودخلت فحلبتها لي؟ فدخل فلم ير الشاة، فقالت: أدخل البيت حتى آتيك بها، فدخل فإذا امرأة وراء الباب، فأغلقت عليه الباب، فلما رأى ذلك عمد إلى محراب في البيت فقعد فيه، فأرادته عن نفسه فأبى، وقال: اتقي الله أيتها المرأة، فجعلت لا تكف عنه، ولا تلتفت إلى قوله، فلما أبى عليها صاحت فجاءوا فدخلوا عليها، وقالت: إن هذا دخل عليّ يريدني عن نفسي، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه، فلما صلى عمر الصبح ففقدّه فبينما هو كذلك إذ جاءوا به في وثاق، فلما رآه عمر قال: «اللهم لا تخلف ظني فيه»، قال: ما لكم؟ قالوا: استغاثت امرأة في الليل

فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها، فضربناه وأوثقناه، فقال له عمر: اصدقني، فأخبره القصة وما قالت العجوز، فقال له عمر: أتعرفها؟ قال: إن رأيتها؟ فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزها، فجاء بهن فعرضن عليه، فجعل لا يعرف حتى مرت به العجوز، فقال: هذه يا أمير المؤمنين، فرفع عمر عليها الدرة، وقال: أصدقيني، فقصت عليه كما قص الفتى، فقال عمر: الحمد لله الذي فينا شبيهه يوسف.

!ة

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان بن سيار حاجين من المدينة، ومعهم أصحاب لهم، حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً، فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم، وبقي عطاء قائماً في المنزل يصلي، فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة فأوجز في صلاته، ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قال: وما هي؟ قال: قم فأصب مني، فإني قد ودقت - أي شبتت واحتجت للرجال - ولا بعل لي، فقال: إليك عني لا تحرقيني ونفسك بالنار، ونظر فإذا هي امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه وتأبى إلا ما تريد، فجعل عطاء يبكي، ويقول ويحك إليك عني، إليك عني، قال: واشتد بكائه فلما نظرت المرأة إليه وما دخله من البكاء والجزع بكى المرأة لبكائه فجعل يبكي والمرأة تبكي بين يديه، فبينما هو كذلك جاء سليمان من حاجته، فلما نظر إلى عطاء والمرأة بين يديه تبكى في ناحية البيت بكى لبكائهما، لا يدرى ما أبكاهما، وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتاهم رجل فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم، لا يسألهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت، فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت، وقام القوم فدخلوا فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة منه وكان أسن منه.

ثم إنهما - أي سليمان وعطاء ابني يسار - قدما مصر لبعض حاجتهما، فلبثا فيها ما شاء الله، فبينما عطاء ذات ليلة نائما أستيقظ وهو يبكي، فقال له سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة، قال: وما هي؟ قال: لا تخبر بها أحدا ما دمت حيا، رأيت يوسف النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ في النوم، فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه، فلما رأيت حسنه بكيته فنظر الناس إليّ، فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ قلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله ذكرتك وامرأة العزيز وما ابتليت به من أمرها، وما لقيت من السجن، وفرقة الشيخ يعقوب، فبكيته من ذلك، وجعلت أتعجب منه، فقال يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فهلّا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء»؛ فعرفت الذي أراد، فبكيته واستيقظت باكياً، فقال سليمان: أي أخي وما كان من حال تلك المرأة، فقص عليه عطاء القصة فما أخبر بها سليمان أحداً حتى مات عطاء، فحدث بها امرأة من أهله وما شاع هذا الحديث إلا بعد موت عطاء وسليمان رحمهما الله تعالى.

!i رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ L fi

عن عبد الله بن مسلم العجلي قال: كانت امرأة جميلة بمكة؛ وكان لها زوج فنظرت يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتن به؟ فقال: نعم، قالت: ومن؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فأذن لي فيه فلافتننه، قال: قد أذنت لك، وقال: فأنته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، قال: فأسفرت عن مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله اتق الله قالت: إني قد فتنت بك فأنظر في أمري، قال: إني سألتك عن شيء فإن أنت صدقت نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، فلو أدخلت قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: لا، قال صدقت، قال: فلو أن الناس

أَعْطُوا كُتُبَهُمْ وَلَا تَدْرِينَ تَأْخِذِينَ كِتَابَكَ بِيَمِينِكَ أَمْ بِشِمَالِكَ، أَكَانَ يَسْرُكَ أَنِي قَضَيْتَ لَكَ هَذِهِ الْحَاجَةَ؟ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: صَدَقْتِ، فَلَوْ وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لِلْمَسْأَلَةِ أَكَانَ يَسْرُكَ أَنِي قَضَيْتَ لَكَ هَذِهِ الْحَاجَةَ، قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: صَدَقْتِ، اتَّقِي اللَّهَ يَا أُمَّةَ اللَّهِ، فَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ، قَالَ: فَرَجَعْتَ إِلَى زَوْجِهَا، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَتْ: أَنْتَ بَطَالٌ وَنَحْنُ بَطَالُونَ، فَأَقْبَلْتَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالصُّومِ وَالْعِبَادَةِ، قَالَ: فَكَانَ زَوْجُهَا يَقُولُ: مَا لِي وَلِعَبِيدِ بْنِ عَمِيرٍ، أَفَسَدَ عَلَيَّ امْرَأَةٌ كَانَتْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ عَرُوسًا فَصِيرَهَا رَاهِبَةً.



الصفة التاسعة:

﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَإِنَّهُ يُؤْتِيهِ اللَّهُ مَتَابًا ﴾

التوبة



الْمَقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: فهذه هي الصفة التاسعة من صفات عباد الرحمن وهي التوبة حيث قال تعالى: ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ ومعلوم أن التوبة من أجل مقامات السائرين إلى الله رب العالمين، وهي ضرورة للسالك في أول الطريق وأوسطه وآخره، بل لا بد منها في كل وقت وحين، ولا يعفى منها عبد من عباد الله مهما بلغت منزلته وعلا مقامه، خلا الأنبياء والمرسلين لما نالهم من عصمة الله لهم.

وبناءً عليه لا بد لكل إنسان أن يعرف التوبة وجميع ما يتعلق بها من خلال هذه الآية الكريمة وغيرها من آيات القرآن الكريم وسيكون حديثي ضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في بيان أقوال المفسرين حول الآية الكريمة.

المبحث الثاني: في بيان معنى التوبة وشروطها وفضائلها.

المبحث الثالث: في ذكر صور من توبة السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.



المبحث الأول

﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ تَابَ ﴾ الخ لا يقال: من قام فإنه يقوم، فكيف قال: من تاب فإنه يتوب؟ فقال ابن عباس المعنى: من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحًا وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابًا، أي فإني قدمتهم وفضلتهم على من قاتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستحل المحارم.

وقيل: أي من تاب بلسانه، ولم يحقق ذلك بفعله فليست تلك التوبة نافعة بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة، فهو الذي تاب إلى الله متابا، أي تاب حق التوبة وهي النصح، ولذا أكد بالمصدر، ف﴿ مَتَابًا ﴾ مصدر معناه التأكيد، كقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ أي فإنه يتوب إلى الله حقًا فيقبل الله توبته حقًا. وقال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الآية: دفع الإخبار عن التائب بأنه تائب إذ المتاب مصدر ميمي بمعنى التوبة، فيتعين أن يصرف إلى معنى مفيد:

فيجوز أن يكون المقصود ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ فيكون كناية عن عظيم الثواب.

ويجوز أن يكون المقصود ما في المضارع - يتوب - من الدلالة على التجدد أي فإنه يستمر على توبته ولا يرتد على عقبه، فيكون وعدًا من الله تعالى أن يثبته على القول الثابت إذا كان قد تاب وأيد توبته بالعمل الصالح.

ويجوز أن يكون المقصود ما للمفعول المطلق - متابا - من معنى التأكيد أي من تاب وعمل صالحًا فإنه توبته هي التوبة الكاملة الخالصة لله على حد قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» إلى آخر الحديث، فيكون معنى الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُؤْبَؤُا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] اهـ.

وقال الخطيب الشربيني: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ أي عن ذنوبه غير ما ذكر في الآية السابقة من الزنى والشرك وقتل النفس ﴿وَعَمِلَ﴾ تصديقا لادعائه التوبة ﴿صَلِحًا﴾ ولو كان من نيته وعمله ضعيفا، ورغب سبحانه في ذلك بقوله تعالى - معلما أنه يصل إلى الله - ﴿فَإِنَّهُ يُؤْتِبُ﴾ أي يرجع واصلا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أي الذي له صفات الكمال فهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴿مَتَابًا﴾ أي رجوعا مرضيا عند الله بأن يرغبه تعالى في الأعمال الصالحة فلا يزال كل يوم في زيادة بنيته وعمله فيخف عليه ما كان ثقيلا ويتيسر له ما كان عسيرًا، ويسهل عليه ما كان صعبًا كما مر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، ولا يزال كذلك حتى يحبه الله تعالى فيكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها بأن يوفقه للخير فلا يسمع إلا ما يرضيه وهكذا.

قال ابن القيم: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: فيه أربع تأويلات: **التأويل الأول:** التوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده، موصلًا إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

ونهايتها: الرجوع إلى الله في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلًا إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالشواب وهذا أحد تأويلات قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

التأويل الثاني: إن الجزء المذكور في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يُؤْتِبُ إِلَى اللَّهِ﴾ متضمن معنى الأوامر، والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصاً لا لغيره.

التأويل الثالث: إن المراد لا زم هذا المعنى وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه ورجع إليه،

والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] أي اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

التأويل الرابع: إن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها، ثم إذا قوي العزم وصار حازماً: وجد به فعل التوبة، فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد إلى فعلها، والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها، فالمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً بنيته عزمًا، فتوبته إلى الله عملاً وفعلًا، وهذا نظير قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» الحديث.

أولاً: لا بد لكل إنسان من التوبة إلى الله وترك المعاصي والبعد عنها وهذا لا يكفي بل لا بد من أن يتبع ذلك بعمل صالح بل بالمواظبة على العمل الصالح.

ثانياً: التوبة إلى الله تعالى لها أجر عظيم وثواب كبير وهذا ما أشار إليه ابن عاشور كما سبق ذكره، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

ثالثاً: من صدق في توبته إلى الله تعالى فإنه يزداد في كل يوم من العمل الصالح ويسهل الله له سبيل الخيرات والأعمال الصالحات، كما أنه يتعد بصدقه في التوبة عن كل عمل سيء كان يفعله قبل التوبة، فهو في ترقٍّ دائم في التقرب من الله، وهذا ما أشار إليه الخطيب الشرييني.

رابعاً: ومن آثار الصدق في التوبة الاستمرار على ذلك فلا يرتد على عقبيه، وأما غير الصادق في توبته فإنه لا يكاد يصبر على الطريق الجديد الذي أراد سلوكه، فمن لم يصدق فلا خير في توبته.

خامساً: لا بد في التوبة من الإخلاص لأن كل عمل لا إخلاص فيه فهو غير مقبول عند الله تعالى وذلك ما أشار إليه ابن القيم في التأويل الثاني للآية.



المبحث الثاني

: B B .

١- **التوبة لغة:** من تاب يتوب توباً وتوبة ومتاباً ومتابة: بمعنى رجوع وعاد، فالتوبة العودة والرجوع وتأتي بمعنى الإنابة والندم.

٢- **التوبة شرعاً:** قال الراغب: التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتداركه من الأعمال بالإعادة. قلت: وهذا التعريف قد اشتمل على شروط التوبة وسوف يأتي ذكرها مفصلة بعد قليل إن شاء الله.

قال الأصفهاني: التوبة هي ترك الذنوب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر لم أفعل، أو أن يقول: فعلت لأجل كذا؟ أو يقول: فعلت وأساءت وقد أقلعت، ولا رابع لها، وهذا الأخير هو التوبة. والتائب هو العبد إذا بذل التوبة فيقال تاب إلى الله فهو تائب والله تائب إذا تاب على العبد أي قبل منه توبته.

أما **التوبة النصوح:** فقد ذكر ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، أقوال عن السلف في بيان معنى التوبة النصوح، فقال رَحْمَةُ اللَّهِ: قد اختلفت عبارات السلف فيها ومرجعها إلى شيء واحد:

فقال عمر بن الخطاب وأبي ابن كعب: التوبة النصوح: «أن يتوب من الذنوب ثم لا يعود إليها كما لا يعود اللبن إلى الضرع».

وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على ألا يعود فيه».

وقال سعيد بن المسيب: توبة نصوحاً تنصحون بها أنفسكم، قال ابن القيم: جعلها بمعنى ناصحة للتائب - أي كأن التوبة اسم فاعل - وأما أصحاب القول الأول فجعلوا بمعنى بالمفعول أي قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش، فهي إما بمعنى نصوح فيها أو بمعنى ناصحة.

وقال محمد بن كعب القرظي: «يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان».

قال ابن القيم: «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكلية عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها بكل إرادته وعزمه مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها بمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرغبة مما عنده لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمة، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو غير ذلك من الأغراض» اهـ.

وقال التهاوني: التوبة النصوح من أعمال القلوب، وهي تعني تنزيه القلب عن الذنوب وعلامتها أن يكره العبد المعصية، ويستقبحها فلا تخطر له على بال، ولا ترد في خاطره أصلاً.

وأما التوبة الفاسدة: فهي أن يتوب العبد بلسانه فقط، ولا يعزم على الترك بقلبه ولا يعزم على عدم العود فيما لو ترك بل يعزم على العودة إليه، بل قد تبقى لذة المعصية في خاطره إلى أن يعود إليها وهذا ليس بتائب في الحقيقة بل هو كالمستهزئ بربه عياداً بالله.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١).

: B

قال القرطبي: واتفقت الأمة على أن التوبة فرض متعين على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، والتوبة واجبة من كل ذنب كما ذكره النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، وإذا تاب العبد من ذنب دون آخر فإن توبته من ذلك الذنب مقبولة، ويجب عليه التوبة من بقية ذنوبه، كما قرره العلماء، ويتلخص من هذا أنه لا يشترط في تحقيق وجوب التوبة أن تكون عامة من كل الذنوب والله أعلم.

لقد ذكر العلماء عددًا من الشروط لصحة التوبة ولتكون مقبولة عند الله تعالى في مواضع متفرقة وسأحاول جمعها هنا بإذن الله، فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:-

الشرط الأول: أن يقلع عن الذنب في الحال: وهذا يعني أن من أراد التوبة وهو متلبس بالذنب فأول خطوة تجب عليه أن يترك الذنب ويقلع عنه في الحال، لأنه لا يصح منه أن يقول: إني قد تبت إلى الله وهو لا يزال يمارس الذنب، فعلى سبيل المثال: من كان بيده كأس خمر وأراد أن يتوب فعليه أن يريق ما في الكأس مباشرة كما حصل من الصحابة الذين كانوا يشربون الخمر في بيت أبي طلحة الأنصاري إذ قاموا بإراقة ما في الكؤوس دون تردد، وعلى هذا يقاس كل ذنب.

(١) رواه ابن ماجه والطبراني بإسناد رواه موثوقون، ورواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرفوعًا عن ابن عباس وزاد فيه: «والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه»، وروى موقوفًا بهذه الزيادة وهو أشبه أي كون هذه الزيادة من كلام ابن عباس أشبه بالصواب والله أعلم.

الشرط الثاني: أن يندم على ما بدر منه من الذنوب: لعل هذا الشرط من أهم شروط التوبة وهو عبارة عن استشعار العبد بالندم على ارتكاب الذنوب ومن هنا جاء في الحديث: «الندم توبة»، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن شجرة التوبة تسقى بماء الندم.

ومن أحس بالندم فإنه ستصدق توبته، وندمه يدل على معرفته بعظمة ربه جَلَّ جَلَالُهُ، وهنا أضرب مثلاً به يتضح مكانة الندم من التوبة: إنك إذا أخطأت في حق أبيك ثم أحسست بندمك من هذا الخطأ تستحي من مواجهته فترة طويلة حتى يزول إحساسك بالحياء حتى ولو علمت أنه عفا عنك، وأما إذا أخطأت في حق زميلك في العمل أو أحد جيرانك ثم ندمت فإنك تكره مواجهته إما حياء منه وإما أنفة من الاعتراف بالذنب، والفرق بين واضح بين هذا وذاك... فالندم في حق التائب هو الذي يصحبه الحياء من الله أشد من حياءه من والده، والله أعلم.

الشرط الثالث: أن يعزم على أن لا يعود إلى الذنب أبداً: وهذا يعنى ألا ينطوي القلب - لحظة التوبة - على الإصرار على الذنب، ولا ينافي ذلك وقوعه في الذنب بعد ذلك، لأن المطلوب هو النية الصادقة والعزم الأكيد لحظة التوبة على عدم العود إلى الذنب أبداً.

قال النووي بعد ذكره هذه الشروط الثلاث: «فإن فقد أحد هذه الثلاثة لم تصح توبته».

قلت: هذه الشروط الثلاث لا بد منها في كل ذنب سواء كان بين العبد وبين ربه أو بين العبد وبين أحد من الناس، ولكن هناك شرط آخر يزداد في التوبة من حقوق الناس وهو:

الشرط الرابع: إذا كان الذنب يتعلق بحق آدمي أن يبرأ من حق صاحبه:

وإنما يكون الإبراء من هذا الحق بحسبه وذلك يحتاج إلى تفصيل على النحو

الآتي^(١):

١- الحقوق في الأموال: فإنه عليه رده إلى صاحبه إن وجدته -أعني صاحب المال-

فإن لم يجده أعطاه للورثة فإن لم يعرف له ورثة تصدق بالنيابة عنه أي يقول: «اللهم هذه صدقة عن فلان». وقد يكون التحلل عن طريق طلب العفو من صاحب المال بعد إخباره بهاله عنده من الحق.

٢- الحقوق في الأبدان: والمراد من ذلك أن يكون قد جرح إنساناً أو ضربه أو ما

أشبه ذلك من أنواع الأذى البدني، ويكون التحلل من ذلك: إما أن يمكن صاحب الحق من أن يقتص منه بقدر ما أساء إليه، وإما أن يدفع له مالا في مقابل ذلك وهو ما يسمى بالأرّش عند الفقهاء، فإن لم يتمكن من لقاء صاحب الحق تصدق عنه ودعا له بخير.

٣- الحقوق في الأعراض: وهذه تعني أن يقع الإنسان في الغيبة أو النميمة أو القذف

لبعض الناس ثم يتوب إلى الله تعالى فيكون رد هذه الحقوق لأصحابها بطريقتين:

الطريق الأول: أن يعلم أن إخبار المغتاب -مثلا- لا يغضبه ولا يؤدي إلى غمه أو

إلقاء الشحنة بين الصدور، ففي هذه الحالة يجب عليه أن يخبرهم ويطلب العفو عنه.

الطريق الثاني: أن يخشى من إيغار الصدور أو إثارة الشحنة ففي هذه الحالة لا

يخبرهم بل يدعو لهم ويتوب فيما بينه وبين الله وأن يثنى على من ذمهم في المجالس التي ذمهم فيها، ومصلحة عدم الإخبار أكبر من مصلحة الإخبار بما كان منه.

٤- المظالم العامة: وذلك كأن يكون صحفياً بث سموه وأكاذيبه بين الناس أو

كان مغنياً أو مغنية أو ممثلاً أو ممثلة ملأوا الدنيا بالأفلام الخليعة والمسلسلات والأفلام التي تنافي القيم والأخلاق بل وأحياناً تنافي العقيدة، ومن المظالم العامة ما ينشره المبتدع

(١) الطريق إلى التوبة للشيخ آل محمد.

من بدعته بين الناس أو كاتباً أو أديباً زين الرذيلة للناس بقلمه ونحو ذلك من المظالم العامة.

فهؤلاء يجب عليهم أن يتوبوا إلى الله وأن يندموا على ما فعلوه وأن يعلنوا توبتهم وبراءتهم مما كان منهم أيام فسقهم وفجورهم لئلا يتأسى الناس بهم، فيما سبق من حياتهم، كما عليهم أن يكثرُوا من الطاعات ونوافل الخيرات ليتداركوا ما فاتهم أيام غفلتهم. كل هذه المظالم تدخل في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات».

الشرط الخامس: أن تكون التوبة قبل الغرغرة:

والمراد بالغرغرة: وصول روحه إلى الحلقوم، ومن وصل إلى هذه الحال فمعناه أنه قد عاين الموت، ودليل هذا الشرط قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ نفى سبحانه أن يدخل في حكم التائبين من حضره الموت وصار في حين اليأس، كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، لأن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع لأنها حال زوال التكليف، وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجمهور المفسرين.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله عَزَّجَلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١).

ومن هذا الحديث وهذه الآية قبله نقول: يجب على الإنسان أن يعجل التوبة لأنه لا يدري متى ينزل به الموت، وقد يموت فجأة وما أكثر الموت فجأة في هذا الزمان فكم هم

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

الذين ماتوا في حوادث السيارات وكم هم الذين ماتوا بالسكتة القلبية وأسباب خفية، المهم لا يعلم الإنسان متى يموت فعليه أن يعجل التوبة.

الشرط السادس: أن تكون التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها:

يدل على هذا الشرط ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه». وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١).

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا حَرِيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، عن صفوان بن عسال قال: (سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢)).

قال القرطبي: «قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل ممن حضره الموت، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». أي تبلغ روحه رأس حلقة، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار، فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله» اهـ.

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه الدارقطني والدارمي والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الشرط السابع: الإخلاص لله في توبته:

وهذا معلوم من أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال الصالحة إلا ما كان خالصاً لوجهه عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١). ولهذا من تاب لأجل الوصول إلى قلوب الناس وعلو المنزلة عندهم ولم يكن في خاطره قبح الذنب ولا سخط الرب فهذا لا تقبل توبته، وقد تقدم كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا عند الحديث حول التوبة النصوح ولأن الإخلاص معلوم لا حاجة إلى الإطالة في الحديث عنه.

تنبيه: وأخيراً أقول إذا اجتمعت هذه الشروط السبعة في التائب فإن توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى كما أخبر بذلك عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥]. وهذا القبول للتوبة إنما هو من كرم الله على العباد وإلا فإن الله تعالى لا يجب عليه شيء وإنما هذا وعد منه جَلَّ وَعَلَا وهو لا يخلف الميعاد.

قال النووي: «لا يجب على الله تعالى قبول التوبة إذا وجدت بشروطها عقلاً عند أهل السنة لكنه سبحانه يقبلها تکرماً منه وفضلاً، وقد عرفنا قبولها بالشرع والإجماع، ثم توبة الكافر من الكفر مقطوع بقبولها وما سواها من أنواع التوبة هل مقطوع به أم مظنون؟ فيه خلاف لأهل السنة، اختار إمام الحرمين أنه مظنون وهو الأصح»^(٢).

قلت: ولعلمهم ذهبوا إلى أن القبول مظنون به لئلا يأمن الإنسان من مكر الله والله

أعلم.

(١) متفق عليه.

(٢) دليل الفالحين (١/١٠٠).

: B

سأذكر هنا بعض النصوص الدالة على فضل التوبة إلى الله تعالى:

١- الله تعالى يفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدة الفرح»^(١).

٢- الله تعالى يحب التوابين:

لما كانت التوبة من أهم مقامات الدين وأعلىها منزلة أخبرنا الله تعالى أنه يحب التوابين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].
وألقت نظر أخي القارئ الكريم إلى صيغة التوابين فإنها جاءت بصيغة المبالغة التي تدل على حصول التوبة منهم بكثرة، وذلك لأنه لا يخلو الإنسان من وقوع في الذنب فإذا كان كلما أذنب تاب سمي توابًا وبهذا ينال محبة الله تعالى.

٣- التوبة دليل على الإيمان:

وذلك لأن المنافق لا يأبه بذنوبه ولا يهمه تاب أو لم يتب، ولكن المؤمن يتألم ويأسف إذا وقع في ذنب فيسارع إلى التوبة، يدل على هذا المعنى ما ورد عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته، يجول ثم يرجع إلى آخيته وإن المؤمن يسهو ثم يرجع فأطعموا طعامكم الأتقياء أولو معروفكم المؤمنين»^(٢).

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه.

الآخية: هي العود الذي تشد به الدابة، والمراد من الحديث أن الإيمان بالنسبة للمؤمن كالأخية للدابة، فكما أن الآخية ترد الدابة كلما ابتعد عنها، فكذلك المؤمن يرده الإيمان كلما أذنب يتوب.

٤- التوبة سبب الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبين.. جعلنا الله منهم آمين» اهـ.

٥- حصول مقامات في الدين لم تكن تحصل للعبد لولا التوبة:

قال ابن القيم: «ومن موجبات التوبة الصحيحة: كَسْرَةُ خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا بحب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تَكْسُرُ القلب بين يدي الله تعالى كَسْرَةً قد أحاطت به من جميع جهاته وألقتة بين يدي ربه طريقاً ذليلاً خاشعاً». فليس شيء أحب إلى الله من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والإنطراح بين يديه والاستسلام له، فله ما أحلى قوله في هذه الحال: «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتي، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير وليس لي سواك سيد، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبتة ورجم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلك لك قلبه».

٦- التوبة تكفر السيئات وتكون سبباً في دخول الجنة:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨].

قال القرطبي: كأنه قيل: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار « وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن التوبة سبب في تكفير السيئات منها ما رواه أبو داود عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من قال استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاثا غفر له وإن كان فر من الزحف»، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه، فقام قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»^(١).



(١) رواه أبو داود والترمذي.

المبحث الثالث

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

!è رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فقصة توبة كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصة طويلة مشهورة رواها البخاري ومسلم وغيرهما، وسأذكر هنا مقتطفات هي محل الشاهد من القصة في الموضوع، ومن أرادها مطولة فليراجعها في رياض الصالحين - للنووي. قال كعب: دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فجعل يأتيه من تخلف فيحلفون له ويعتذرون إليه ويقبل علانيتهم، ويكُلُّ سرائرهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فدخلت المسجد فإذا هو جالس، فلما رأني تبسّم تبسّم المغضب، فجئت فجلست بين يديه، فقال: «ألم تكن ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى يا نبي الله، فقال: «فما خلصك؟» فقلت: والله لو بين يدي أحدٍ من الناس غيرك جلستُ لخرجتُ من سخطه عليّ بعذر، ولقد أوتيت جدلاً، ولكن قد علمت يا نبي الله إني إن أخبرتك اليوم بقول تجد عليّ - أي تغضب عليّ - فيه، وهو حق، فإني أرجو فيه عقي الله، وإن حدثتك اليوم حديثاً ترضى عليّ فيه وهو كذب أو شك الله أن يُطلعك عليّ، والله يا نبي الله ما كنت قط أيسر ولا أخفُّ حاداً - أي حالاً - مني حين تخلفت عنك، قال: «أما هذا فقد صدقكم الله فقم حتى يقضي الله فيك».

ثم ذكر كعب أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى الناس عن الكلام معه، حتى مضت أربعون ليلة ثم نهاه عن إتيان زوجته حتى انتهت عشرة أيام بعد الأربعين ثم أنزل الله توبته، ولتكمل القصة مع كعب حيث يقول: حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس عن كلامنا صليت على ظهر بيت لنا صلاة الفجر، ثم جلست وأنا في المنزلة التي قال الله عَزَّوَجَلَّ قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت إذ سمعتُ نداءً من ذروة سلع - قمة جبل بالمدينة اسمه سلع - : «أبشر يا كعب بن مالك»،

فخررت ساجداً، وعرفت أن الله قد جاء بالفرج... فانطلقت إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، فقال: «أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، قلت: يا نبي الله أمن عندك أم من عند الله؟ قال: «بل هو من عند الله»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فقلت: يا نبي الله، إن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً وأن أنخلع من مالي إلى الله وإلى رسوله، فقال: «أمسك بعض مالك فهو خير لك».

ع

ذكر الواقدي بسنده عن محمد بن إبراهيم التميمي قال: «لما رأى طليحة أن الناس يقتلون ويؤسرون - يعنى من أتباعه على أيدي جيش خالد - أعد فرسه وهياً امرأته فوثب على فرسه وحمل امرأته فنجاهما، وقال: من استطاع منكم أن يفعل كما فعلت فليفعل، ثم هرب حتى قدم الشام فأقام عند بني جفنة الغسانيين، حتى فتح الله أجنادين وتوفى أبو بكر».

ثم قدم مكة في خلافة عمر بن الخطاب محرماً، فلما رآه عمر قال: يا طليحة لا أحبك بعد قتلك الرجلين الصالحين: عكاشة وثابت بن أقرم - قتلا في المعركة التي كانت ضد المرتدين - قال: يا أمير المؤمنين، رجلان أكرمهما الله بيدي ولم يهني بأيديهما، وما كل البيوت بنيت على الحب ولكن صفحة جميلة، فإن الناس يتصافحون على الشنان - أي يتصافحون رغم ما في قلوبهم من البغض لبعضهم - وأسلم إسلاماً صحيحاً، وقال في توبته مما جناه من ادعاء النبوة وقتل الصحابة:

ندمت على ما كان من قتل ثابت	وعكاشة الغنمي ثم ابن معبد
وأعظم من هاتين عندي مصيبة	رجوعي عن الإسلام فعل التعمد
وتركي بلادي والحوادث جمّة	طريداً وقدما كنت غير مطرد

فهل يقبل الصديق أنى مراجع
وإني من بعد الضلالة شاهد
بأن اله الناس ربي وأنني
ذليل وإن الدين دين محمد
ومعط بما أحدثت من حدث يدي
شهادة حق لست فيها بملحد

!ê · · · · · رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال الزهري: وكان أبو لبابة ممن تخلف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية ثم قال: والله لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى كاد يخر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل: له قد تيب عليك، قال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يخلني بيده، قال: فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله، إن من توبتي أهجر دار قومي التي أصبت فيها هذا الذنب، وأن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «يجزيك الثلث يا أبا لبابة».

وقد ذكرت بعض كتب السيرة أن الذي حمل أبا لبابة على فعل هذا بنفسه هو ما كان منه في شأن بنى قريظة من اليهود حيث استشاروه هل ينزلون على حكم سعد بن عباد أم لا؟ فقال: نعم وأشار إلى حلقة يعني الذبح ثم قال: «فندمت واسترجعت».

!ë · · · · · رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

سُئِلَ مالك بن دينار عن سبب توبته فقال: كنت شرطيّاً، وكنت منهمكاً في شرب الخمر، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة، ووقعت مني أحسن موقع فولدت لي بنتاً، فشغفت بها فلما دبّت على الأرض ازداد حبي لها وألفتني وألفتها، فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إليّ وجاذبتني عليه وهرقته على ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت فأكمدني حزنها. فلما كانت لية النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة بت ثملاً من الخمر ولم أصل فيها العشاء، فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت ونفخ في الصور وبعثت القبور،

وحشرت الخلائق، وانا معهم، فسمعت حسًا من ورائي فلتفت فإذا بتنينٍ أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعاً نحوى فمررت بين يديه هاربًا فرعًا مرعوبًا، فمررت في طريقي على شيخ نقي الثوب، طيب الرائحة، فسلمت عليه فرد عليّ السلام، فقلت: أيها الشيخ أجري من هذا التنين، أبارك الله، فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني، وما أقدر عليه، ولكن مرّ وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه.

فوليت هاربًا على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها وكدت أهوى فيها من فرع التنين، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها فاطمأنت إلى قوله ورجعت ورجع التنين في طلبي، فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ أسألك أن تجبرني من هذا التنين فلم لا تفعل، فبكى الشيخ وقال: إني ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك، قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة وفيه كوى محرمة، وستور معلقة، على كل خوذة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر، مفصلة باليواقيت، مكوكية بالدر على كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربا والتنين من ورائي، حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور، وافتحوا المصاريع وأشرفوا لعل لهذا البائس فيكم وديعة، فأشرف علي من تلك المخمرات أطفال بوجوه كالأقمار؛ وقرب التنين مني فتحيرت في أمري، فصاح بعض الأطفال: ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه - فأشرفوا فوجا بعد فوج وإذا أنا بابتني التي ماتت قد أشرفت علي معهم فلما رأوني بكت، وقالت: أبى والله، ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم، حتى مثلت بين يدي، فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلقت بها، ومدت يدها إلى التنين فولى هاربًا.

ثم جلست وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي وقالت: يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فبكيت، وقلت: يا بنية،

وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبتى نحن أعرف به منكم، فقلت: فأخبريني عن التين الذي أراد أن يهلكني، قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي، قالت: ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت: يا بنية، وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة نتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم، قال مالك: فانتبهت فزعا وأصبحت فأرقت المسكر وكسرت الآنية وتبت إلى الله عَزَّجَلَّ، وهذا كان سبب توبتي .

!i رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ذكر بن حجر في التهذيب سبب توبة الفضيل فقال: قال الفضل بن موسى: «كان الفضيل بن عياض شاطراً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦]، فلما سمع بذلك قال: بلى يا رب قد آن، فرجع مما أراد من الجارية، فأواه الليل إلى خربة، فإذا قوم مسافرون فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، ففكرت، قلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين يخافونني ها هنا، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع: اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

وهناك روايات أخرى في توبته قريبة من هذا، ذكرها ابن قدامة في كتاب التوايين.

!i رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قال محمد بن الصلت: سمعت بشر الحافي وقد سُئِلَ: ما كان بدء أمرك لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي؟ قال: هذا من فضل الله، وما أقول لكم، كنت رجلاً عياراً - العيار كثير الحركة، ذكى - صاحب عصبية، فجزت يوماً - مررت - فإذا أنا بقراطس

في الطريق فرفعته فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فمسحته وجعلته في جيبي، وكان عندي درهمان، ما كنت أملك غيرهما، فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غالية - نوع من الطيب - ومسحته في القرطاس، فنمت تلك الليل، فرأيت في المنام كأن قائلًا يقول: يا بشر بن الحارث، رفعت أسمنًا عن الطريق وطيبته لأطيبين اسمك في الدنيا والآخرة، ثم كان ما كان.

ورواية أخرى تقول: إن بشرًا كان في زمن لهوه في داره وعنده رفقائه، يشربون ويضطربون فمر بهم رجل صالح فدق الباب فخرجت الجارية فقال: صاحب هذه الدار حر أم عبد؟ فقالت: بل حر، فقال: صدقت لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب.

فسمع بشر الحوار الذي دار بينهما، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولى الرجل، فسألها عن الناحية التي ذهب إليها، فأشارت إلى ناحية فتبعه بشر حتى لحقه، فقال: سيدي أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم، قال: أعد علي الكلام فأعاده عليه، فمرغ بشر خديه على الأرض وقال: بل عبد، عبد، ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عرف بالحفاء.

وقيل له ذات يوم: لم لا تلبس نعلًا؟ قال: لأني ما صالحت مولاي إلا وأنا حاف، فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات.





الصفة العاشرة:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

البعء عن كل باطل



الْمَقَرَّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: فهذه الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ تشير إلى الصفة العاشرة من صفات عباد الرحمن وهي صفة في غاية الأهمية وذلك لأنه - كما سيأتي - المراد من الزور كل باطل لا يرضاه الله تعالى فعباد الرحمن هم أبعد الناس عن مجالس الزور وتكمن أهمية هذه الصفة في كون شهود الزور فيه إضاعة للدين والمروءة والوقت، ولهذا سأتحدث حول هذه الصفة من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: حول أقوال المفسرين في الآية.

المبحث الثاني: في التحذير من شهود المنكرات.

المبحث الثالث: في التحذير من شهادة الزور والكذب.

المبحث الرابع: في أقوال السلف في ذم الكذب وأهله.



المبحث الأول

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

قال البقاعي: ولما وصف عباده سبحانه بأنهم تحلوا بأصول الفضائل، وتحلوا عن أمهات الرذائل، ورغب في التوبة، لأن الإنسان لعجزه لا ينفك عن النقص، وكان قد مدحهم بعد الأولى من صفاتهم بالحلم عن الجهل مدحهم قبل الأخرى من أمداحهم وعقب تركهم الزنا بالإعراض أصلاً عن اللغو الذي هو أعظم مقدمات الزنا فقال: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ﴾ أي يحضرون انحرافاً مع الهوى كما تفعل النار التي الشيطان فيها ﴿ الزُّورَ ﴾ أي القول المنحرف عن الصدق كذباً كان أو مقارباً له فضلاً عن أن يتفوهوا به ويقروا عليه.

وقال الطبري: اختلف أهل التأويل في معنى الزور الذي وصف الله به هؤلاء القوم بأنهم لا يشهدونه، فقال بعضهم: معناه الشرك بالله، وقال آخرون: بل عُني به الغناء، وقال آخرون: هو قول الكذب.

وقال أبو جعفر: وأصل الزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صنعته حتى يُحِيلَ إلى من يسمعه أو يره أنه خلاف ما هو به، والشرك قد يدخل في ذلك لأنه محسّن لأهله حتى قد ظنوا أنه حق وهو باطل ويدخل فيه الغناء لأنه أيضاً مما يحسنه ترجيع الصوت حتى يستحلى سامعه سماعه، والكذب أيضاً قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه حتى يظن صاحبه أنه حق، فكل ذلك يدخل في معنى الزور.

قال الطبري: «إذا كان ذلك كذلك فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: الذين لا يشهدون شيئاً من الباطل لا شركاً ولا غناء ولا كذباً ولا غيره، وكل ما لزمه

اسم الزور، لأن الله عم من وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور فلا ينبغي أن يُحصَّ من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر يعني آية أو حديثاً - أو عقل».

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه، والزور كل باطل زور وزخرف وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد، وبه فسّر الضحاك وابن زيد وابن عباس وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين.

وقال عكرمة: لعب كان في الجاهلية يسمى بالزور، وقال مجاهد: الغناء وقاله محمد ابن الحنفية أيضاً.

وروي عن ابن جرير ومجاهد أن الزور هو الكذب، وقال علي ابن أبي طلحة ومحمد بن علي: المعنى: لا يشهدون بالزور من الشهادة لا من المشاهدة.

قال القرطبي: كان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخن وجهه ويحلق رأسه، ويطوف به في الأسواق، وقال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبداً وإن تاب وحسنت حاله، فأمره إلى الله. أهـ.

قال الميداني: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾: فعل (شهد يشهد شهوداً) يأتي بمعنى حضر، يقال: شهد الجمعة إذا حضرها فهو شاهد، وهم شهود أي حضور، وشهد المشاهد أي حضرها.

وفعل (شهد يشهد شهادة) يأتي بمعنى الإخبار بأنه يعلم بأنَّ الواقع هو ما يقدمه في شهادته من خبر.

الزور: الباطل، والكذب، وشهادة الباطل، ولعل أصله من الازورار، وهو العدول عن الشيء، والميل عنه، والكذب والباطل وشهادة الباطل كلها مائلة ومزورة عن صراط الحق والصدق.

فعلى المعنى الأول: للفعل شهد بمعنى حضر: يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ إن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يحضرون الباطل كمجالس أهل الشرك والضلال التي يكون فيها أمور باطلة وأكاذيب ومعاصي، فهم ينزهون أنفسهم عن حضورها ومشاهدتها ولو لم يشاركوا فيها، لأن مجرد شهودها معصية.

وعلى المعنى الآخر: للفعل شهد بمعنى أخبر بأنه يعلم بأن الواقع هو ما يقدمه في شهادته من خبر، يكون المراد: أن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يخبرون في شهادتهم إلا بما يعلمون، فلا يشهدون بالباطل ولا بالكذب مدعين أنه الحق الذي يعلمونه. اهـ.

قال الألويسي: يجوز أن يراد بالزور ما يعم كل شيء باطل مائل عن جهة الحق، من الشرك والكذب والغناء والنياحة ونحوها، فكأنه قيل: لا يشهدون مجالس الباطل لما في ذلك من الإشعار بالرضا به، وأيضاً من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. اهـ.



المبحث الثاني

سأبين في هذا المبحث ما ورد من آيات وأحاديث تحث المؤمن على الابتعاد عن أماكن المنكرات لأن الأصل في المؤمن أن يكون على العكس من ذلك أعني أنه يرتاد أماكن الخيرات من شهود لصلاة الجماعة وخطب الجمعة وحلقات العلم وزيارة الإخوان وصلة الأرحام وما إلى ذلك من أعمال الخير التي تزيد في إيمانه وتقربه من ربه جَلَّ وَعَلَا.

وأكتفي هنا في بيان خطورة الجلوس مع أصحاب المنكرات وأهل الباطل وإن لم يفعل مثل فعلهم بآية واحدة وبضعة أحاديث:

أما الآية فهي قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

قال السعدي: قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهي بعضهم بعضاً، فيشترك في ذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن المنكر مع قدرته.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله تعالى وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجباً للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت يعتبر معصية، وإن لم يباشرها فإنه كما يجب اجتناب المعصية يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: أن ذلك يجري العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظيم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد

ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرّون على ما كانوا يقدرّون عليه أولاً.

ومنها: أن مجرد السكوت يعتبر معصية، وإن لم يباشرها فإنه كما يجب اجتناب المعصية يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: أن ذلك يجري العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يُردعوا عنها فيزداد الشر، وتعمم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرّون على ما كانوا يقدرّون عليه أولاً.

ومنها: أنه بترك الإنكار للمنكر يندرس العلم ويكثر الجهل حتى يُظن أنها ليست بمعصية وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالاً، وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً.

ومنها: أن بالسكوت على معصية العاصين ربما تزينت المعصية في صدور الناس واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاقتداء بإضرابه وبني جنسه.

قلت: ولهذا وُصف عباد الرحمن في الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لأن شهود الزور أو المنكر يعني تشجيع الفاعلين على استمراره فضلاً عن التفكير في التوبة منه، ومن المنكرات التي انتشرت في هذا الزمان بسبب سكوت الصالحين عن إنكارها، ومن ذلك أكل الربا وإقامة الحفلات الراقصة هنا وهناك بأسباب وبغير أسباب وانتشار الغناء في سائر البلدان بغير نكير حتى أصبح الذي يُنكره هو الذي يُنكر عليه بدلاً من أن يسمع له ونسأل الله أن يُلطف بنا وبالمسلمين.

وأما الأحاديث فمنها:

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي هَتَّهْمٌ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَتَّهَمُوا فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارِبُوهُمْ فَضْرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ قَالَ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ» (١).

٢- عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ يُقَالُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ» (٢).

٣- عَنْ الْعُرْسِ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا عَمِلْتَ الْخَطِيئَةَ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكْرَهَهَا وَقَالَ مَرَّةً أَنْكَرَهَا كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا» (٣).

٤- عَنْ جَرِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ فَلَا يُغَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا» (٤).

ففي هذه الأحاديث وغيرها تدل على أن المؤمن لا يرضى أن يرى شيئاً من المعاصي بل إنه يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من أن يصاب بما يصاب به أهل

(١) رواه أحمد والترمذي، وقوله: تأطروهم أي تحملوهم عليه.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

المعاصي من موت القلوب والاستخفاف بأوامر الله، ولعله من المعلوم أن الذنب تكرر في الناس خَفَّ وقعه على القلوب فلا يكادون يستنكروه كما مر في الأحاديث.

إذن من هنا نقول عباد الرحمن لا يشهدون أماكن المنكرات فضلاً عن الوقوع

فيها.



المبحث الثالث

وبناء على بعض المفسرين من أن المراد من الآية هو قول الزور سأذكر هنا بعض النصوص الدالة على خطورة قول الزور وعلى شهادة الزور والمراد به الكذب، فمن ذلك ما يلي:

أولاً: قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال القرطبي: هذه الآية تضمنت الوعيد على الشهادة بالزور، وينبغي للحاكم إذا اعثر على الشاهد بالزور أن يغره - أي يعاقبه عقوبة تزجره وتزجر أمثاله إما إما بالسجن أو الغرامة أو الجلد - وينادي عليه ليعرف لثلا يغير شهادته أحد.

قال الخازن في تفسيره: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يعني الكذب والبهتان، وقال ابن عباس: «هي شهادة الزور»، ورؤي عن أيمن بن خريم قال: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام خطيباً فقال: «أيها الناس عدلت شهادة الزور الإشراك بالله» ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (١).

قال الشنقيطي في أضواء البيان: قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أمر في هذه الآية الكريمة باجتناّب قول الزور وهو الكذب والباطل كقولهم: إن الله حرم البحيرة والسائبة ونحو ذلك، وكل قول مائل عن الحق فهو زور، لأن أصل المادة هي الزور من الازورار بمعنى الميل والاعوجاج وقوله تعالى هنا: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ صيغة

(١) أخرجه الترمذي وأبو داود.

عامه بَيِّنٌ في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه كقوله تعالى في الكفار الذي كذبوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آيَاتُكَ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ط فَقَدِ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤].

: B

عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر -ثلاثًا- الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ أَلَا وشهادة الزور وقول الزور» وكان متكئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (١).

وعن خُريم بن فاتك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح فلما انصرف قام قائمًا فقال: «عدلت شهادة الزور الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ثلاث مرات» (٢)، ثم قرأ: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [الحج: ٣٠-٣١].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لن تزول قدم شاهد الزور حتى يوجب الله له النار» (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل، فليتبوأ مقعده من النار» (٤).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكبائر أو سُئِلَ عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس وعقوق الوالدين»، فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور، أو قال شهادة الزور» (٥).

(١) رواه الشيخان والترمذي.

(٢) رواه أبو داود واللفظ له ورواه الترمذي.

(٣) رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٤) رواه أحمد.

(٥) متفق عليه.

وقفه مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إلا وشهادة الزور وقول الزور»:

قال ابن حجر وهو يشرح الحديث الأول من هذه المجموعة: «ألا وقول الزور وشهادة الزور»: ثلاث مرات، «قال ابن دقيق العيد: اهتمامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشهادة الزور يحتمل لأنها أسهل وقوعاً على الناس والتهاون بها أكثر، ومفسدتها أيسر وقوعاً، لأن الشرك ينبو عنه المسلم والعقوق ينبو عنه الطبع، وأما قول الزور فإن الحوامل - الدوافع - عليه كثيرة فحسن الاهتمام بها، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها، وأما عطف الشهادة على القول فينبغي أن يكون تأكيداً للشهادة لأننا لو حملناه على الإطلاق لزم أن تكون الكذبة الواحدة مطلقاً كبيرة وليس كذلك لأن مراتب الكذب متفاوتة بحسب تفاوت مفاصده.

قال ابن حجر: وضابط الزور: وصف الشيء على خلاف ما هو به، وقد يضاف إلى القول فيشمل الكذب والباطل، وقد يضاف إلى الشهادة - شهادة الزور - فيختص بها، وقد يضاف إلى الفعل ومنه حديث: «إلا لابي ثوبي زور»، ومنه تسمية الشعر الموصول زوراً.

: B

معلوم لدى كل مسلم أن الله تعالى حرم الكذب وجعله من الكبائر، ومن عدها في الكبائر الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ، وذلك لما ورد في الكتاب والسنة من ذم الكذب والكذابين ولما كان في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ إشارة إلى أن عباد الرحمن منزهون عن الكذب بل وعن شهود مجالس الكذابين أحببت أن أذكر هنا بعض ما ورد من الأحاديث في التحذير من الكذب في الأقوال، فأقول واسأل الله العون والقبول.

١- الكذب سبب في عذاب القبر: جاء في صحيح البخاري عن سمرة بن جنب - في

منام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حديث طويل، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فأتينا - هو والملك

اللذان كان معه في الرؤيا- على رجل مضطجع لقفاه وآخر قائم عليه بكلوب من حديد يشرشر شذقه إلى قفاه وعيناه إلى قفاه، ثم يذهب إلى الجانب الآخر فيفعل مثل ما فعل في الجانب الأول، فما يرجع حتى يصبح مثل ما كان فيفعل به كذلك إلى يوم القيامة، فقلت لهما: من هذا؟ فقالا: إنه كان يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق».

٢- الكذب ينافي الإيمان: عن صفوان بن سليم قال: قيل: يا رسول الله، أيكون المؤمن جبناً؟ قال: «نعم»، قيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»، قيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا»^(١).

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يطبع المؤمن على كل شيء ليست الخيانة والكذب»، وفي رواية عند البزار وأبي يعلى: «يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب»^(٢).

٣- الكذب من علامات النفاق العملي: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ثلاث من كنَّ فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وحج واعتمر، وقال إني مسلم: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»^(٣).

وعن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٤).

٤- الكذب من أكبر أنواع الخيانة: عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب»^(٥).

(١) رواه مالك في الموطأ مراسلاً.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أبو يعلى.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه أحمد وعند أبي داود بلفظ: «... وأنت له كاذب».

٥- **الكذب أبغض خُلُق للنبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن عائشة قالت: «ما كان خلق أبغض إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكذب ما اطلع على أحد من ذاك بشيء فيخرج من قبله حتى يعلم أنه قد أحدث توبة»^(١).

٦- **الكذب على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤدي إلى النار وهو أقبح الكذب:**
عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليّ فليلج النار»^(٢).

٧- **الكذب يمحق بركة التجارة:** عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما كذبا محقت بركة بيعهما»^(٣).

٨- **الملك الكذاب لا ينظر الله إليه يوم القيامة وله عذاب أليم:** عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»^(٤).



(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم بلفظ: «... فيخرج من نفسه حتى يجدد توبة».

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

المبحث الرابع

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

١- قال عمر بن الخطاب: «لأن يضعني الصدق وقلماً يضع أحب إليّ من أن يرفعني الكذب وقلماً يرفع».

٢- قال علي بن أبي طالب: «إذا حدثتكم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا تُخَرِّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة».

٣- دعاء سعد بن أبي وقاص على رجل كذب عليه:

عن جابر بن سحرة قال: «شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعزله وولى عليهم عمارة، وأرسل مع سعد رجلاً يسأل عنه في مساجد الكوفة، فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجداً إلا سأل عنه، ويشنون عليه معروفًا، حتى دخل مسجداً لبني عبس فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة، قال أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية، قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياءً وسمعة، فأطل عمره، طل فقره، وعرضه للفتن»، قال الراوي: «كان بعد ذلك إذا سئل يقول شيخ كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد، قال عبد الملك: فأنا رأيت بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمز هنا»^(١).

٤- قال مطرق بن عبد الله العمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما يسرني أني كذبت كذبة وأن لي الدنيا وما فيها.

٥- عن أصيغ بن خليل قال سمعت الغازي يقول: والله ما كذبت كذبة قط منذ اغتسلت ولولا عمر بن عبد العزيز قاله ما قتلته.

٦- قال محمد بن يونس الكديمي: سمعت عبد الله بن داود يقول: ما كذبت قط إلا مرة واحدة، قال لي أبي: قرأت على المعلم؟ قلت: نعم وما كنت قرأت عليه، قلت: وهذا فيما يبدو أيام صباه.

٧- أختتم هذا المبحث بهذه القصة: جاء في بعض كتب التاريخ أن الملك حسين ميرزاي ملك خراسان أرسله ابنه الأمير حسين أبي ورد إلى السلطان يعقوب ميرزا بالعراق، وأرسل معه هدايا كثيرة ومعها عدة كتب ومنها كتاب كان ألف حديثاً وكان مرغوباً إلا أن صاحب المكتبة أعطاه خطأ كتاب آخر في حجمه، ولم يتأكد الأمير حسين فأخذ الكتاب معه ودخل مع مجموع الهدايا على السلطان يعقوب، فأحسن السلطان استقباله وسؤاله عن حاله وقال له: لقد عاينت الكثير لطول السفر، فقال له الأمير حسين: لقد كان معي على الطريق رفيق يؤنسني ويدفع الملل عني وهو كتاب كذا - للكتاب الذي ظهر حديثاً - وقد أرسله لك أبي هدية، فأمر السلطان وهو في أشد الاشتياق إلى الكتاب بالإتيان به فأرسل الأمير من يُحضر الكتاب، فلما جاءوا به إذا هو كتاب آخر - حيث وضعه صاحب المكتبة خطأ - وافتضح الأمير حسين في كذبه حيث قال بأني كنت مانوساً بمطالعة الكتاب في الطريق فقال له السلطان: أما تستحي من مثل هذا الكذب، فخرج الأمير حسين ولم يجر جواباً، وخرج من البلاط خجلاً وعاد بلا توقف إلى خراسان، ولم ينتظر جواب الرسالة من السلطان، وقال: وددت حيث افتضح أمري وأنكشف كذبي لو مت في مكاني ولم يكن ما كان.

قلت: فانظر أخي الكريم على هذه الأحاديث والآثار التي تبين مفسد الكذب في الدين والدنيا والآخرة، فلو لم يكن من مفسده سوى أنه ينافي الإيمان كما سبق في الحديث لكان حرياً بالموءمن أن يتجنبه محافظة على إيمانه من الزوال والله أعلم.



الصفة الحادية عشر:

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

تنزيه النفس عن اللغو
قولاً واستماعاً



المَقَرَّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين وبعد:

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، فيه بيان للصفة الحادية عشر من صفات عباد الرحمن الذين هم أفضل الأتقياء والآية تبين أن من خصالهم أنهم يتنزهون عن اللغو قولاً واستماعاً واللغو يندرج تحته كثير من ساقط القول وسيء الكلام كالغيبة والنميمة وبعض أنواع الغناء واللهو، فعباد الرحمن أبعد الناس عن ذلك صيانة لدينهم من أن يصيبه عيب أو تشويه، خوفاً من ربهم أن يراهم في مكان لا يرضاه، وحفاظاً لأوقاتهم من أن تضيع فيما لا فائدة فيه، ولبيان هذه الخصلة من هذه الآية الكريمة سأتحديث في أربعة مباحث:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في الآية الكريمة.

المبحث الثاني: الابتعاد عن الساقط من الأقوال والأفعال.

المبحث الثالث: نبذه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الرابع: أهمية حفظ الوقت.



المبحث الأول

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

قال القرطبي: «﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ واللغو هو كل سقط من أقوال أو فعل، فيدخل فيه الغناء، واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين، وذكر النساء وغير ذلك من المنكرات وقال الحسن البصري: اللغو المعاصي كلها، وهذا القول جامع.

قوله: ﴿كِرَامًا﴾ معناه معرضين منكرين لا يرضونه، ولا ييأثون عليه، ولا يجالسون أهله أي مروا مر الكرام الذين لا يدخلون في الباطل يقال: تكرم فلان عما يشينه أي تنزهه وأكرم نفسه، وروي أن ابن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب إليه، فبلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك فقال: «لقد أصبح ابن مسعود وأمسي كريماً» وقيل: المرور باللغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر» اهـ.

والحديث المذكور عن ابن مسعود باللفظ الوارد في تفسير ابن كثير لا تفسير القرطبي.

قال ابن عاشور: واللغو: الكلام العبث والسفه الذي لا خير فيه، ومعنى المرور بأصحابه اللاغين في حال لغوهم، فجعل المرور بنفس اللغو للإشارة إلى أن أصحاب اللغو متلبسون به وقت المرور.

ومعنى ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ إنهم يمرون وهم في حال كرامة أي غير متلبسين بالمشاركة في اللغو فيه، فإن السفهاء إذا مروا بأصحاب اللغو وقفوا عليهم وشاركوهم في لغوهم فإذا فعلوا ذلك كانوا في غير حال كرامة.

والكرامة: النزاهة ومحاسن الخلال، وضدها اللؤم والسفالة وأصل الكرامة أنها نفاسة الشيء في نوعه قال تعالى: ﴿أَبْلَغْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]. وهذا ثناء على المؤمنين بترفعهم عما كان عليه أهل الجاهلية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِعِبَا وَكُهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي إِلَّاهِ لِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال الخطيب الشربيني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر إن تعلق بهم أمر أو نهي سواء كان ذلك بالإشارة أو العبارة على حسب ما يرون نافعا، فإن لم يتعلق بهم ذلك كانوا معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، ومن الإعراض عن اللغو الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به، وعن الحسن: لم تشقههم المعاصي وقيل: إذا سمعوا من الكفار الأذى أعرضوا عنه. اهـ.

وقال الميداني: وعباد الرحمن لم يسمحوا لأوقاتهم الثمينة التي هي رأس ما لهم في حياتهم بأن تضيع في اللغو سدى ولا يشتغلون بما لا يعينهم عملاً بوصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (١) اهـ.

مما سبق ذكره من أقوال المفسرين يمكننا أن نقول: إن عباد الرحمن موصوفون

بثلاثة أشياء بسبب إعراضهم عن اللغو:

(١) رواه مالك وأحمد وابن ماجه وإسناده صحيح.

١- الابتعاد عن سماع أو مشاهدة أو قول الساقط من الأقوال والأفعال، ويندرج تحت ذلك ما كان معصية أو مسقطاً للمروءة وأن لم يكن حراماً وسيأتي بيانه في المبحث الثاني.

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان ذلك في إمكانهم وإلا انصرفوا راشدين دون إثارة الفتن والغلاغل، وسيأتي بيانه.

٣- الحرص على الانتفاع من الوقت وصرفه فيما فيه فائدة إما دينية أو دنيوية، ولم يخسر من خسر في دينه أو دنياه إلا بسبب إضاعة الأوقات، وسيأتي بيانه بتوسع إن شاء الله وبناء عليه سأذكر ثلاثة مباحث أشرح فيها هذه الفوائد الثلاثة المأخوذة من أقوال المفسرين، وأسأل الله أن يعينني على ذلك فأقول ومن الله أرجو القبول:



المبحث الثاني

هذا المبحث يعني بخطورة اللسان وأثره في حياة الإنسان بل أثره في الإيمان والكفران، فهو كما قيل: «سلاح ذو حدين»، فيه يكمن أن يرقى الإنسان اعلي درجات الجنان وبه يدخل أعلى الجنان وبه يمكن أن يسقط في أسفل دركات النيران، ومن هنا أقول يدخل في الآية الكريمة ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ كل كلام لا يرضاه الشرع فكان لا بد من بيان ما حرم من الكلام، وسأقتصر على ذكر أكثر ما يفرط فيه الكثير من المسلمين ويتهاونون فيه من الكلام أو الاستماع إليه وهي خمسة أشياء: الغيبة والنميمة والكذب والاستهزاء والغناء.

.....

(أ) تعريف الغيبة شرعاً: وهي ذكر أخاك بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصاً في بدنه أو نسبه أو ثوبه أو في دينه أو جميع ما يتعلق به ولنذكر بعض الأمثلة:

فذكر البدن كأن تقول هو أعور أو أعرج أو طويل طولاً فارعاً أو يمشي بطيئاً أو هو بطين أو قصير أو ما شابه ذلك.

وذكر النسب أن يقال أبوه هندي أو أمه هندية أو هو عبد يعني به من سلالة العبيد، أو يقال أبوه قصاباً، أو كناًفاً أو عاملاً من عمال البلدية أو تقول أبوه أمي جاهل. وذكر الدين أن تقول فلان صلاته خفيفة لا يكاد يحسن الركوع والسجود أو تقول: هو من أهل السكر والعردة - إن لم يكن معروفاً بذلك - أو تقول فلان لا دين له، أو بناته متبرجات أو أولاده لا يصلون أو نحو ذلك.

وذكر ثوبه كأن تقول هو مسبل أو ثيابه قديمة أو هو لا يحسن اختيار القماش المناسب أو لون ثوبه غير مناسب أو لا يحسن لف العمامة أو ما شابه ذلك.

وكذلك ذكر أشياء أخرى تتعلق به ويعتبر هذا من العرض أيضًا كأن تقول سيارته كثيرة الأعطال، أو لا يحسن القيادة أو تقول فلان سيئ الخلق مع موظفيه أو سيئ الخلق مع أولاده وزوجته أو تقول: فلان ما رأيت أجبن منه، أو تقول: هذا غبي ما يفهم شيء أو ما شابه ذلك مما يكرهه المسلم بلغه المسلم أن قيل فيه كذا وكذا مما سبق ذكره وهذه أمثلة وإلا فالواقع أكثر من ذلك بكثير.

(ب) حكم الغيبة: قال القرطبي: لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ. اهـ.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ مَا عَزَا الْأَسْلَمِيَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالزُّنَا، فَرَجَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَمِعَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَدَعِهِ نَفْسَهُ حَتَّى رُجِمَ رَجَمَ الْكَلْبِ، فَسَكَتَ عَنْهُمَا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً حَتَّى مَرَّ بِجَيْفَةٍ حَمَارٍ شَائِلٍ بِرِجْلِهِ - أَيْ انْتَفَخَ حَتَّى ارْتَفَعَتْ رِجْلُهُ - فَقَالَ: «أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟»، فَقَالَا: نَحْنُ ذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «انْزِلَا فِكَلَا مِنْ جَيْفَةِ هَذَا الْحَمَارِ»، فَقَالَا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ يَأْكُلُ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: «فَمَا نَلْتَمَا مِنْ عَرَضٍ أَخْيَكُمَا أَشَدَّ مِنَ الْأَكْلِ مِنْهُ، وَالَّذِي نَفْسُهُ بِيَدِهِ إِنَّهُ الْآنَ لَنُضِي أَنْهَارَ الْجَنَّةِ يَنْعَمَسُ فِيهَا»^(١).

هناك أحاديث كثيرة تحذر المؤمنين من الوقوع في أعراض الناس سوى الحديث السابق، وسأذكر هنا بعضاً منها:

١- عرض المسلم في الحرمة كالبلد الحرام: ورد في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي خُطْبَةٍ يَوْمَ النَّحْرِ بِمَنِيِّ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وذكره القرطبي في تفسيره.

حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت»^(١)، قال ابن كثير: «ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك».

٢- الغيبة أعظم إنَّما من أكل الربا: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الربا نيف وسبعون باباً، أهونها باباً من الربا مثل من أتى أمه في الإسلام، ودرهم من الربا أشدُّ من خمس وثلاثين زنية، وأشدُّ الربا وأرْبَى الربا وأخبث الربا انتهاك عرض المسلم وانتهاك حرمة»، ذكره المنذري في الترغيب والترهيب وعزاه لابن أبي الدنيا والبيهقي والطبراني.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه»^(٢).

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «تدرون أربى الربا عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]^(٣).

٤- الغيبة سبب في تلوّث الجو والبحر من عفونتها: عن جابر قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فارتفعت ريح منتنة فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»^(٤)، وفي رواية: «إن ناساً من المنافقين اغتابوا أناساً من المسلمين فلذلك بعثت هذه الريح»، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) متفق عليه.

(٢) قال المنذري: رواه البزار بإسنادين أحدهما قوي.

(٣) رواه أبو يعلى ورواه رواة الصحيح.

(٤) رواه أحمد في مسنده.

حسبك من صفة كذا وكذا، تعني قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(١)، وجاء في رواية الترمذي: فقلت: يا رسول الله، إن صفة، وقالت بيدها هكذا كأنها تعني قصيرة، قال ملا علي قاري في شرح «لو مزجت بماء البحر لمزجته»: «والمعنى أن هذه الغيبة لو كانت مما يمزج بالبحر لغيرته عن حاله مع كثرته وغزارته» اهـ.

٥- الغيبة سبب في خسران العبد لحسناته وضياعها منه يوم القيامة: لا شك أن العبد أحوج ما يكون إلى حسناته يوم القيامة، ولكنه قد يخسر حسناته التي اكتسبها بسبب أكله للحوم الناس والوقوع في أعراضهم، ورد في ذلك حديثان هما: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مِنَ الْمَفْلَسِ؟» قَالُوا: الْمَفْلَسُ فِينَا مَنْ لَا دَرَاهِمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ؟ فَقَالَ: «الْمَفْلَسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَنْقُضِيَ مَا عَلَيْهِ، أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طَرِحَ فِي النَّارِ»^(٢).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيُؤْتَى كِتَابَهُ مَنْشُورًا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ فَايْنَ حَسَنَاتِي كَذَا وَكَذَا، عَمَلْتَهَا لَيْسَتْ فِي صَحِيفَتِي؟ فَيَقُولُ: مَحِيَتْ بِأَغْتِيَابِكَ النَّاسَ»^(٣).

تلك بعض الأحاديث التي تحذر تحذيرًا شديدًا من الغيبة ولكن مع علم المسلمين بأن الغيبة محرمة إلا أن هناك تهاونًا شديدًا فأصبحت أعراض الناس كلاً مباحًا، ومن لم ينتبه إلى لسانه بعد سماعه أو قراءته هذه الآيات والأحاديث فليراجع إسلامه وإيمانه.

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

(٣) رواه المنذري في الترغيب والترهيب وعزاه للأصبهاني وهو في معنى الحديث السابق.

!i :

سأذكرها هنا بعضاً من أسباب وقوع المسلم في اغتياب أخيه المسلم حتى يحاول اجتنابها حرصاً على حسناته من الضياع، ومن تلك الأسباب ما يلي:

١- أن يتشفي من غيظ يكتمه في صدره تجاه من يغتابه وسواء كان غيظه لدنيا أو لدين، فتجده كلما وجد فرصة للوقوع في أخيه هذا ذكره معاييبه ليشفي ما في صدره من الغيظ.

٢- مجاملة الناس في المجالس إذ من الناس من لا يجب أن يقطع الحديث الدائر في المجلس ولو كان وقوعاً في أعراض الناس فتجده يساعدهم بذكر ما لا يعلمون من عيوب فلان أو فلان.

٣- الحسد وهذا من أكثر الأسباب انتشاراً وذلك لكثرة الحسد في الناس إلا من رحم ربك، فلا يزال الحاسد يذكر المحسود بأسوأ ما يعلمه عنه بل قد يخرج ذلك إلى البهتان وهو أن يصفه بما هو منه براء، ولهذا على المسلم إذا أراد أن يذكر أخاه المسلم فليتأمل في الدافع له للكلام، فان وجده عن حسد سكت عنه وليذكر أخاه بخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً كبتاً للحسد ومحاربة لنفسه الأمانة بالسوء.

٤- أن يغتاب فلاناً من الناس ليرفع نفسه عليه وغالباً من يكون ذلك بين الموظفين في إدارة واحدة أو أصحاب المهنة الواحدة فتجد على سبيل المثال: المدرس يغتاب مدرساً آخر، ليظهر أنه أفضل منه أو كذلك الطبيب يغتاب طبيباً آخر، وقد يكون في قرارة نفسه يعلم أنه أفضل منه وأكثر منه خبرة في مجاله، ومن هنا عليك أخي الموظف أن تحذر الوقوع في أعراض زملائك، وتذكر أن ذلك لن يزيد في رزقك ولن ينقصه، بل قد ينقصه لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أن الرجل ليحرم الرزق من الذنب يصيبه»، والغيبة من كبائر الذنوب كما سبق بيانه.

٥- ومن الناس من يغتاب إخوانه بحجة بيان حاله ولا يقصد الغيبة وهذا من جهله لأن الأخبار بحال فلان إذا كان مما فيه منقصة في دينه أو عرضه فلا شك أنها غيبة، وقد يظن ظان أن الخبر إذا كان حقيقياً فإنه لا يدخل في الغيبة، وقد ورد في الحديث ما يصحح هذا الاعتقاد فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكر أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته» (١).

٦- وقد تظهر الغيبة بصور متعددة يظن أصحابها أنها ليست غيبة أو هكذا يريدون أعني يخرجونها من أفواههم فيظن السامع أنها ليست غيبة وهو في نفسه يريد إلحاق العيب بإخوانه: فمن ذلك: يبدأ كلامه بقول والله فلان هذا مسكين، لا يحسن تربية أولاده مثلاً أو لا يحسن أن يؤدي عمله أو في حاجة إلى من يعلمه، أو لا يعرف كيف يتعامل في السوق، وهكذا يذكر عيباً أو جملة من العيوب بعد قوله فلان هذا مسكين.

أن يبدأ كلامه بقوله: «إن فلاناً هذا شأنه عجيب»، أو يبدأ كلامه بأي صيغة تدل على التعجب ثم يسرد جملة من عيوب فلان فيظن السامع أنه يتعجب وفي الواقع هو مغتاب وليس متعجباً.

أن يبدأ كلامه بذكر المنكرات الواقعة في محل عمله أو حيه أو لدي بعض أقاربه ثم يذكر بعض الناس بأسمائهم وقد يضيف إلى المنكر أشياء أخرى، فيقول: لا بد أن ننكر هذا المنكر على فلان وهو في قرارة نفسه يعلم أنه لن يقدر على ذلك، فيكون قد وقع في اغتياب إخوانه بقصد أو بغير قصد.

أن يتحدث عن المشاهير من الحكام والوزراء والأثرياء وأحياناً العلماء ويظن أن ذكر منكرات هؤلاء جائز أو يظن أن ذكر عيوبهم نوع من الأخبار الجديدة التي يتحف

بها الجلوس وما علم المسكين أن هذا كله من الغيبة المحرمة، وللأسف الشديد استوي في الوقوع في هذا الصالح وغيره من المسلمين.

(أ) ما يباح من الغيبة: هناك ستة أحوال أباح العلماء فيها أن يتكلم الإنسان فيها في عرض أخيه، والضابط في ذلك أن تكون هناك مصلحة شرعية بحسب ما سيأتي بيانه، فإن وافق كلامك أخي الكريم هذه الأحوال جازت لك الغيبة وإلا فهي حرام:

١- التظلم: وهو أن يذهب المظلوم إلى القاضي أو أي شخص آخر يعلم انه سينصفه من ظلمه، فيقول ظلمني فلان بكذا وكذا، ولا يجوز له أن يزيد الكلام على ما وقع به من ظلم، فقد ترى من الناس من يتجاوز حد الظلم الواقع عليه ويذكر أشياء أخرى عن الظالم فيقول وهو كما فعل معي كذا، قد فعل مع فلان وفلان أشد من هذا... وهذا لا يجوز.

٢- الاستعانة على تغيير المنكر: فإذا علم أن هناك من يقدر على تغيير المنكر الذي وقع فيه فلان فيجوز أن يذهب إليه ويحكي له ما رأي من ذلك المنكر، وها هنا لا بد من هذا الشرط وهو أن يحكي لمن يقدر على تغيير المنكر فقط، ولا يجوز له أن يذيع ذلك بين جميع الناس.

٣- الاستفتاء: والمقصود بهذا أن يذهب إلى واحد من أهل العلم ويحكي له ما كان بينه وبين فلان من الناس كزوجة أو ولد أو جار ثم يسأل عن الحكم الشرعي، وأيضاً لا يتعدى بكلامه موضع السؤال، وإذا كان في إمكانه أن يحكي المسألة دون تحديد الأسماء فهو أفضل فيقول: «ما تقول في رجل كان منه كذا وكذا»، أي يجعل المسألة وكأنها افتراضية وليست واقعة.

٤- تحذير المسلمين من الشر ونصحهم: وهذا غالباً ما يكون في حال المشاورة وذلك بأن يأتيك إنسان ويقول لك: لو خطب فلان ابنتي فماذا ترى؟ فهنا يجب عليك أن

تذكر ما تعرف في الخاطب من العيوب الخلقية والدينية ولا يجوز لك كتبها لان المستشار مؤتمن، فإذا كتمت فقد خنت وهذا ما لا يحل لك.

وهناك حالة أخرى وهي التحذير من شر إنسان تعلم مثلاً أن فلاناً من الناس يريد أن يشترك مع آخر في تجارة وأنت تعلم أن هذا الآخر كذوب أو لا يتورع عن أكل أموال الناس بالباطل فيجوز أن تأتي إلى الشريك وتقول له لا تدخل في هذه الشركة لأن فلانا هذا فيه كذا وكذا، وعليك أن تبحث عن شريك آخر.

٥- التعريف: وهذا في حالة ما لو كان الشخص لا يعرف إلا بعيب فيه مثلاً نقول رأيت فلاناً الأعمش أو الأعور أو الأعمى، وإذا كان في إمكانك أن تعرفه للجالسين بغير ذكر هذه العيوب فهو أفضل.

٦- غيبة المجاهر بفسقه أو ببدعته: قال القرطبي: «ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، فإن في الخبر من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»، فالغيبة إذن في المرء الذي يستر نفسه، ورؤي عن الحسن أنه قال: «ثلاثة ليست لهم حرمة: صاحب الهوى والفاسق المعلن والإمام الجائر»، وعنه أيضاً: «ليس لأهل البدع غيبة» اهـ.

إذن هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم الحسن البصري لا غيبة لهم وهم الإمام الجائر وصاحب الهوى - ولعله يقصد المبتدع لأن أهل البدع كانوا يسمون أهل الأهواء - والفاسق المعلن، ولكن هذا الأخير قال فيه العلماء لا يذكر إلا بما جاهر به، فعلى سبيل المثال إذا كان يجاهر بالتدخين أو شرب الخمر، فلا يجوز أن يذكر بغير ذلك والله أعلم.

فائدة: قال القرطبي: «قال الحسن: الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله: الغيبة والإفك والبهتان، فأما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه، وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه، وأما البهتان فأن تقول فيه ليس ما فيه» اهـ.

:

(أ) **تعريف النميمة شرعاً:** تطلق النميمة غالباً على نقل الكلام من إنسان لآخر فمثلاً: يأتيك إنسان ويقول لك: قال فيك فلان كذا وكذا، وقال بعض العلماء: حقيقة النميمة كشف ما يكره كشفه من أسرار الناس سواء كان في الأموال أو في الأعراض أو الأعمال حتى لو رآه يدفن ما لاً لنفسه فذكره فهو نميمة.

(ب) **ما ورد من الأحاديث الشريفة في التحذير من النميمة:**

أولاً: المنام لا يدخل الجنة: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ»، وفي رواية: «قتات»^(١).

وقال ابن حجر في شرحه: «(لا يدخل الجنة) أي في وهلة كما في نظائره، قوله (قتات) هو المنام؛ وقيل الفرق بين القتات والنمام أن النمام الذي يحضر فينقلها، والقتات الذي يسمع من حديث لا يعلم به ثم ينقل ما سمعه» اهـ.

ثانياً: النميمة من أعظم أسباب عذاب القبر نعوذ بالله منه: عن ابن عباس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يَعْذَبَانِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا يَعْذَبَانِ، وَمَا يَعْذَبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ، أَمَا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»^(٢)، ذكر ابن حجر عدة أقوال في معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بلى إنه كبير» وأقرها إلى الصواب كما رجحه أهل العلم أن يقال: ليس الذنب الذي يعذبان فيه كبير في مشقة الاحتراز منه، وهو عند الله تعالى كبير كقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وقيل المعنى: «إن هذا العمل أعني النميمة وترك الاستتار من البول - ليس بكبير في الصورة لأن تعاطي ذلك يدل على الدناءة والحقارة وهو كبير الذنب» اهـ.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري واللفظ له، ومسلم وغيرهما.

ومن هذا الحديث يعلم أن الوقوع في النسيمة من أسباب عذاب القبر، وقد جاء في حديث آخر ما يدل على صراحة فعن أبي تزره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إلا إن الكذب يسود الوجه والنسيمة من عذاب القبر»^(١).

ثالثاً: النمامون من شرار الخلق عند الله تعالى:

عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المتشاورون بالنسيمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراءة العنت»^(٢).

قلت: وقد ذكر العلماء قصة تدل على خطورة النسيمة وأنها فعلاً تؤدي إلى التفريق بين الأحبة بل العداوة التي قد تصل إلى درجة الاقتتال بين الناس، والقصة كما ذكرها غير واحد من أهل العلم: «باع رجل عبداً وقال للمشتري ما فيه من عيب إلا النسيمة قال المشتري قد رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجته مولاه: إن سيدي لا يحبك وهو يريد أن يسري عليك - يعني يريد أن يشتري أمةً ليطأها - فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فلما كان الليل تناوم الزوج وجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد أن تقتله، فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين».

(ج) كيف تتصرف مع النمام الذي ينقل إليك كلام الناس فيك:

لقد ذكر الغزالي في الإحياء التصرف الشرعي مع النمام حتى لا يعود إلى هذا القول الشنيع وحتى يتوب؛ وملخص ذلك في ست نقاط:

(١) رواه أبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه.

(٢) قال المنذرى: رواه أحمد عن شهر عن عبد الرحمن وبقيته إسناده محتج به في الصحيح، ورواه أبو بكر بن أبي شيبة، وابن الدنيا في كتاب الصمت عن أبي هريرة مرفوعاً وحديث عبد الرحمن - يعني ابن غنم - أصح وقد قيل: إن له صحة.

١- أن لا تصدقه لأن النمام فاسق والفاسق مردود الشهادة ﴿يَتَأَيَّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ﴾ [الحجرات:٦].

٢- أن تنهاه عن نقل الكلام إليك مرة أخرى، وتنصحه وتبين له قبح هذا الفعل الشنيع، وتذكر له الحديث السابق: «لا يدخل الجنة نمام».

٣- أن تبغضه في الله تعالى وتخبّره بأنك تبغضه على نميمته حتى يتوب إلى الله تعالى.

٤- أن تحسن الظن بأخيك الغائب الذي نقل إليك هذا النمام ما قاله عنك.

٥- أن لا تفكر في البحث عن صحة ما نقله إليك النمام لأن ذلك يدخل في التجسس وهو حرام فلا تعالج حراماً بحرام قال تعالى: ﴿وَلَا يَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢].

٦- أن لا تنقل ما قاله لك النمام فتكون قد أصبحت نماماً مثله ووقعت فيما نهيت عنه.

(د) أقوال السلف في ذم النميمة والنمامين: كان سليمان بن عبد الملك جالساً

وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت في وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، ثم قال للرجل: اذهب بسلام.

قلت: لقد نجا هذا الرجل من بطش سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين بسبب فقه الإمام الزهري وهو من أئمة الحديث وكاد أن يهلك بسبب النمام.

وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجلٍ شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ﴾ [الحجرات:٦]، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٍ

مَشَاءَ بَنِمِيمٍ ﴿[القلم: ١١]، وَإِنْ شئتَ عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود أبداً.

قال يحيى بن أكرم: «النمام شر من الساحر، ويعمل النمام في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر»، وقال الشافعي: من نَمَّ لك نَمَّ عليك. وقال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قول السعاية - يعني النميمة - شر من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقول إجازة، فاتقوا الساعي - النمام - فلو كان صادقاً في قوله وكان لثيماً في صدقه، حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة.

وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتيم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك، لأنه لم يقابلك بشتيمك. وقد ذكر أن حكيمًا زاره بعض إخوانه، فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة، وأتيت بثلاث جنایات بغضت إليّ أخي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمانة.

وقيل: إن عمل النمام أضر من عمل الشيطان لأن عمل الشيطان بالخيال والوسوسة وعمل النمام بالمواجهة والمعينة، وروى عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً سعي إليه برجل فقال له: يا هذا نحن نسألك عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أفلناك قال: أقلني يا أمير المؤمنين، وهذا قريب من موقف عمر بن عبد العزيز.

وهو من أكابر الذنوب وفواحش العيوب.

١- تعريفه شرعاً: مخالفة القول للواقع ولما في ضمير المتكلم وهذا يعني أن من قال قولاً مخالفاً لما يعتقد به ضميره فهو كذب وإن كان مطابقاً للواقع، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ

إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿ [المنافقون: ١]، فالمنافقون اخبروا عن حقيقة صادقة وهي أن محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن الله كذبهم لأن هذا القول الصادق هم لا يعتقدون صحته.

وقيل الكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع، وليس الإخبار مقصوراً على القول، بل قد يكون بالفعل كالإشارة باليد أو هز الرأس وقد يكون بالسكون.

٢- بعض ما ورد من الأحاديث في التحذير من الكذب: لقد مر معنا في الصفة العاشرة ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢]، شيء من ذلك، ولكن ما سأذكره فيه زيادات.

(أ) الكذب من علامات النفاق: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر) (١). وفي رواية في الصحيحين وغيرهما: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اتّمن خان وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر».

وقال ابن حجر نقلاً عن الإحياء في شرح الحديث الأول: «ووجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث أنها منبهة على ما عداها، إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث: القول، والفعل، والنية، فنبه على فساد القول بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالقول لان خلف الوعد لا يقدر إلا إذا كان العزم عليه مقارناً للوعد، أما لو كان عازماً ثم عرض له مانع أو بدا له رأي فهذا لم توجد منه صورة النفاق».

والنفاق لغة: مخالفة الباطن للظاهر، فان كان في الاعتقاد فهو نفاق الكفر وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والشرك وتتفاوت مراتبه.

(١) رواه البخاري ومسلم، وزاد في روايته: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم».

قال المازرى في شرحه على مسلم: وفي تسمية المنافق ثلاثة أقوال:

الأول: أنه من النفق في الأرض أي السرب فيها، لأنه يستتر بنفاقه كما يستتر الداخل في السرب.

الثاني: من النافقاء وهي إحدى جحري اليربوع، لأنه له جحرين يقال لأحدهما النافقاء وللآخر القاصعاء؛ فإذا دخل عليه من إحداها خرج من الأخرى، وكذا المنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي دخل فيه.

الثالث: وقيل تشبه المنافق باليربوع لكن من وجه آخر، هو أن اليربوع يخرق الأرض من أسفل حتى إذا قارب وجهها رفق التراب فإذا رابه شيء دفع التراب برأسه، وخرج فظاهر جحره التراب وباطنه حفرة، وكذا المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر. قال القاضي عياض في شرح الحديث: «والأظهر في الحديث حملة على التشبيه أي كان شبه منافق لتخلقه بأخلاقهم - أي أخلاق المنافقين، ويكون معنى خالصاً أي أنه خالص في هذه الخصال لا في النفاق حقيقة، ويكون نفاقه مع من حدثه، فكذب عليه، أو اتتمنه فخانه أو وعده فأخلفه أو عاهدته فغدر به وليس مع الناس عموماً».

(ب) الكذب ينافي الإيمان: عن صفوان بن سليم قال: قيل: يا رسول الله، أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم»، قيل: «أيكون بخيلاً؟» قال: «نعم»، قيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا» رواه مالك مرسلًا، وقال ابن عبد البر: حديث حسن مرسل، وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الكذب مجانب الإيمان»^(١).

قال أبو عمر في الاستذكار في شرح الحديث الأول: «ومعناه لا يكون المؤمن كذاباً، والكذب في لسان العرب من غلب عليه الكذب، ومن شأنه الكذب فيما أبيض له وفي ما لم يبيض له، وهو أكثر من الكاذب لأن الكاذب يكون لمرة واحدة، والكذاب لا يكون إلا للمبالغة والتكرار وليست هذه صفة المؤمن».

(١) رواه البيهقي في الشعب وقال: «الصحيح أنه موقوف»، يعني من كلام أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ حَدِيثًا بسنده عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «ما كان شيء أبغض إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكذب، وما اطلع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أحد بشيء من الكذب وإن قل فتحرّج له من نفسه حتى يحدث توبة» اهـ. والحديث رواه الحاكم وصححه.

(ج) الوعيد الشديد لمن يكذب لأجل أن يضحك الناس: عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ويل له، ويل له»^(١).

قال في تحفة الأخوذي: «ويل أي هلاك عظيم وود عميق»، قلت أي واد عميق في النار كما دل عليه الحديث الآخر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يري بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار»^(٢)، وإذا كان هذا لا يري بها بأساً بلغت به ما بلغت في النار فكيف بالذي يعلم أنه يكذب ليضحك الناس.

(د) الكذب يؤدي إلى الفجور والإكثار منه يجعل صاحبه مكتوباً عند الله في الكذابين: عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٣).

قال ابن حجر في شرح قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حتى يكتب عند الله كذاباً» المراد بالكتابة الحكم عليه بذلك وإظهاره للمخلوقين من الملائة الأعلى ولللقاء ذلك في قلوب

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، ورواه أبو داود والنسائي وغيرهم.

(٢) رواه الترمذي وحسنه الحاكم وابن ماجه.

(٣) رواه الشيخان.

أهل الأرض، وقد ذكره مالك بلاغاً عن ابن مسعود وزاد فيه زيادة مفيدة ولفظه: «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب فينكت في قلبه نكته سوداء حتى يسود قلبه فيكتب عند الله من الكذابين» اهـ.

قلت: ولعل ما مضى ذكره من الأحاديث أن يكون زاجراً لعامة المؤمنين عن الكذب، وأولى منهم من يظهرون بمظهر الالتزام والله اعلم.

٣- بعض مظاهر الكذب في مجتمعات المسلمين: لقد ذكر الشيخ محمد الحمد

حفظه الله وجزاه خيراً في رسالة له تحدث فيها عن (الكذب. مظاهره. علاجه) ذكر عشرين مظهرًا من مظاهر الكذب وأنا أذكر هنا أهمها بتصرف يسير:

١- الكذب على الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وهذا يقع في أحد أمرين: إما في الفتوى بغير علم، وإما في ذكر أحاديث مكذوبة على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو شديدة الضعف ولهذا على المسلم أن يحذر من كلا النوعين.

أما الأول: فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

[النحل: ١١٦].

وأما الثاني: فلقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من

النار»^(١).

وهذا النوع من الكذب لا يقع فيه عامة الناس بل وللأسف الشديد يقع فيه بعض طلبة العلم، ولهم أقول: أما لكم في علماء الأمة أسوة لقد كانوا لا يتحرجون من قول: لا أدري إذا كان أحدهم لا يدري، وعلى سبيل المثال الإمام مالك جاءه رجل من المغرب

(١) متفق عليه.

ومعه ثمان وأربعون مسألة فأجابه عن اثني عشرة مسألة فقط وقال في البقية: لا أدري، وأنت تعلم من هو مالك فأين أنت منه.....! فالخلاص من هذا الداء هو لا أدري ولو كان فيها إحراج لك أو للسائل، فهذا أولى من دخول النار.

لقد تبرأ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن يكذب في بيعه وشرائه فقال: «من غش فليس مني»^(١)، وأخبر أن الكذب يمحق بركة الرزق فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اليمين الكاذبة منفضة للسلعة ممحقة للكسب»^(٢)، فعلى التاجر الذي يريد البركة في رزقه أن يتجنب الكذب عند إخباره بالأسعار، والغش عند امتداحه لسلعة، وليتذكر أن الرزق مكتوب فلا زيادة فيه ولا نقصان.

٤- الكذب لإضحاك السامعين وتشويقهم:

وهذا النوع يقع ممن اشتهر بالظرافة في المجالس، فتجده إذا أراد أن يحكي حادثة، وإن كانت هي حقيقية إلا انه يزيد فيها بعض الأشياء حتى يزيد من غرابتها، وهذا النوع من الكذب مذموم وصاحبه يخشى عليه الهلاك كما سبق ذكره في الأحاديث النبوية في البند السابق.

٥- الكذب للتخلص من المواقف المحرجة:

وقد يخطئ الإنسان في حق بعض من يتعامل معهم كالوالدين أو الجهات الرسمية كالمدسة أو الجامعة أو مكان عمله، وهنا بدلاً من الاعتراف بالخطأ يلجأ إلى الكذب، ويظن ذلك جائز وليس الأمر كذلك إلا أن يكون فيه هلاكه، ولا أظن أن الأمر يصل إلى ذلك ولكن الأمر لا يتعدى الخوف من الإحراج، ولعله لو صدق لارتفع في نظر من

(١) رواه مسلم

(٢) متفق عليه.

أخطأ بحقهم، ولهذا أقول: ماذا لو اكتشفوا كذبك أهو أشد أم الصدق الذي يصحبه نوع إخراج يزول سريعاً؟

وقد جاء في صحيح مسلم أن ابن شهاب قال: «ولم أسمع يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها»، في عدا هذه لا يجوز فيها الكذب.

وأكثر كذب الأولاد على والديهم أو الآباء والأمهات على أولادهم لا يدخل في هذه الثلاث، ومن هنا ينشأ الناشئ على الكذب حتى أصبح عند بعض الشباب كأنه مباح وليس أسهل عنده من الكذب، وذلك لما رآه في أسرته والله المستعان.

٦- الكذب في دعوى المحبة والصدقة:

وهذا أكثر ما يكون بين من جمعهم مصالح دنيوية في الوظائف وغيرها فتجد كل واحد يسمع الآخر من عبارات الحب والصدقة ما يظن معها أنه لن يتركه ولن يتخلى عنه لا في السراء ولا في الضراء وهو في الواقع إنما يقول ما يقول ليصل إلى بعض مصالحه وغالبا ما يكون العيار أثقل إذا كان الكلام بين موظف ومدير وإذا تغير الحال انقلبت عبارات الثناء والود إلى ذم وشتم بل أحياناً يقول له في وجهه كلاما ويقول من ورائه كلاما آخر؛ إذن أخي الكريم لا تخبر إلا بما تعلم من نفسك أنك صادق فيه، ولا ريب أن الأحاسيس لا تكذب وإنما الألفة هي التي تكذب، ولقد أحسن الشاعر حين قال:

فسري كإعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلى مثل ضوء نهاري

٧- الكذب على المخالفين لتشويه صورتهم:

إذا خالفك أحد الرأي فإن نفسك تتطلع إلى البحث عما يعيبه ويشوه صورته لدي الناس فإن لم تجد أمرتك بالكذب، وهذا من أقبح الظلم فيأياك ثم إياك أن تطيع نفسك في

هذه الأفكار، ومن الناس من لا يكف عن الكذب على أعدائه أو مخالفه في الرأي وهو بهذا يكون قد أضاع دينه وأذهب مروءته.

والكلام هنا في العداوات التي تنشأ بين المسلمين لأمر دنيوية تافهة وللأسف الشديد، أما عداوة الكفار فلا شك أن الكذب جائز لان الحرب خدعة، ولكن أصبح واقع بعض المسلمين - وللأسف الشديد - يصدق مع الكافر ما لا يصدق مع أخيه المسلم وخصوصاً في المنافسة على الوظائف وغيرها.

٨- الكذب بحذف بعض الحقيقة من الكلام:

المذموم من حذف بعض الحقائق فيما لو كان الحذف لغير مصلحة عامة أو ضرورية، فتجد من الناس من يحضر واقعة بعينها فإذا طلب منه ذكرها حذف ما لا مصلحة له فيه ولو كان في حذفه إضرار بالغير، فهذا كذب مذموم، بل قد يدخل في شهادة الزور إذا كان فيه إضاعة للحقوق.

ويزداد هذا النوع من الكذب بين المتحاسدين، لأن كل واحد يريد أن يشفي ما في نفسه تجاه الآخر ولو كان ذلك على حساب دينه والوقوع في كبيرة بل مجموعة من الكبائر كالكذب والغيبة والنميمة فنسأل الله أن يعافينا والمسلمين من داء الحسد فإنه يجر إلى كثير من الذنوب والخطايا.

فائدة: صدق اللهجة يعد من الفضائل بل من الواجبات الشرعية التي يجب الالتزام بها في كل حال وعند كل مقال، ولكن إذا وقع الإنسان في حال لا يليق معه التصريح بأمر واقع ولم يكن بد أن يقول في ذلك شيئاً، ففي هذه الحالة يفسح له أن يأخذ بالمعاريض، والمعاريض: هي ألفاظ محتملة لمعنيين، يفهم منها السامع معنى، ويريد المتكلم منها معنى آخر.

يقول الشيخ محمد الحمد: «فهذه الحالة - يعني الأخذ بالمعاريض - لا تخرج المرء من أهل الصدق ولا تلحقه بزمرة الكذابين، وهذا ما يفعله الذين أشربوا صدق اللهجة متي عرفوا أن في القول الصريح حرجاً أو خطراً».

قلت: ولكن ينبغي ألا يتخذ ذلك ديدناً بل يكون في نطاق الضرورة، والله أعلم.

الرابع: الاستهزاء والسخرية بالمسلم: لقد شاع بين بعض المسلمين وخصوصاً

فئة الشباب الاستهزاء والسخرية بالآخرين ويأخذ ذلك صوراً عديدة: بالكلام حيث يسمع أخاه المسلم من الكلمات ما يدل على احتقاره له واستهزاء به، وفي بعض الأحيان يخرج ذلك مخرج المزح، بالإشارة بالعين أو الحاجب دون أن يشعر الشخص المعنى، ومن صور الاستهزاء أن يتحدث معه أخوه المسلم فلا يجيبه بل قد ينصرف عنه قبل أن يكمل حديثه، وهكذا نجد ذلك في مجتمعات الشباب وغيرهم، وما علم هؤلاء أن الشرع الحنيف ينهى عن ذلك. ومن النصوص الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

قال السعدي في تفسيرها: «وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض أن ﴿لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٍ مِنْ قَوْمٍ﴾ بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام ولا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، وهو الغالب في الواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحل بكل خلق ذميم، متحل من كل خلق كريم، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١) اهـ. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم»^(٢)، «وفسره مالك إذ قال ذلك معجباً بنفسه مزدرياً بغيره، فهو أشد هلاكاً منهم لأنه لا يدري سائر الله في خلقه».

(١) الحديث رواه مسلم وغيره.

(٢) رواه مالك ومسلم وأبو داود، قال في الترغيب والترهيب.

والمقصود من الغناء المحرم هنا هو الغناء المتعارف عليه اليوم وهو الذي يشتمل على الكلام الفاحش والمصحوب بآلات العزف والموسيقي وهو الذي أصبح باسم الفن من الأمور المسلم بها بل أصبح جزءاً من حياة أكثر المسلمين فلا يلتفتون إلى من ينهاتهم عنه وسأذكرها هنا كلام الأئمة الأربعة في تحريمهم له، ولكن قبل ذلك أقول هناك كثير من الناس يعتقدون أن الغناء بصورته الحالية من النوع المباح من الغناء، ويستندون في ذلك إلى فتوى للدكتور يوسف القرضاوي في إباحة الغناء، وفي الواقع أن الدكتور يوسف القرضاوي بريء من ذلك حيث أوضح بكلام لا لبس فيه أن الغناء الحالي لا يختلف اثنان في تحريمه، وإليك نص كلامه في آخر كتاب له في هذا الموضوع وهو بعنوان: (فقه الغناء والموسيقى في ضوء القرآن والسنة) حيث قال في المقدمة: «ولقد أشاع بعض الناس عني أنني أبيع الغناء بإطلاق وهذا محض افتراء، وما قلت ذلك قط لا مشافهة ولا تحريراً..... وبهذا أعلن من أول الأمر أن الغناء بصورته التي يُقدّم بها اليوم في معظم التلفزيونات العربية والقنوات الفضائية بما يصحبه من رقص وخلاعة وصور مثيرة لفتيات مائلات مميلات، كاسيات عاريات أو عاريات غير كاسيات، أصبحت ملازمة للأغنية الحديثة... الغناء بهذه الصورة قد غدا في عداد المحرمات بيقين، لا لذاته، ولكن لما يصحبه من هذه المثيرات والمضلات، فقد تحول الغناء من شيء يُسمع إلى شيء يُرى، وبعبارة أخرى: تحول الغناء من غناء إلى رقص خليع» اهـ.

قال الدكتور وهبة الزحيلي في (الفقه الإسلامي وأدلته): «يحرّم في المشهور من المذاهب الأربعة استعمال الآلات التي تطرب كالعود والطنبور والمعزفة والطبل والمزمار والرباب وغيرها من ضرب الأوتار والنايات والمزامير كلها، فمن أدام استماعها ردت

شهادته لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخمر والخنزير والخز والمعازف»^(١). وعند ابن ماجه: «ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها؛ يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنزير».

واستدلوا على تحريم المعازف من القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان:٦]، قال ابن عباس: إنها الملاهي. وبالمعقول: هو أن هذه الآلات تطرب وتدعو إلى الصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، وإي إتلاف المال فحرمت كالخمر». اهـ.

قلت: والواقع أن كل من أستهوى استماع الغناء غالباً ما يترك ذكر الله تعالى بل لا يكاد يؤدي الصلوات الخمس وبالأخص إذا كان ممن يسمون بالفنانين والفنانات مطربي الشعوب، بل إن بعض هؤلاء يدمن شرب الخمر ولا يكاد يلتزم بشيء من شرع الله تعالى والعجيب أن الناس يعلمون حال هؤلاء الذين يستمعون إليهم بل ويفتخرون بذلك... هذا حال أكثر الشباب إلا من رحم ربك وإنا لله وإنا إليه راجعون.

.

* سئل مالك عن الغناء وعمّا يرخص فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال: «إنما يفعله الفسّاق عندنا».

وسأله سائل مرة عن الغناء فقال له: «إذا كان يوم القيامة فجئ بالحق والباطل ففي أيهما يكون الغناء؟ فقال: في الباطل، قال: «الباطل في الجنة أو في النار؟ قال: في النار، قال مالك: اذهب فقد أفتيت نفسك».

وورد هذا الأثر أيضاً عن ابن عباس والقاسم بن محمد أحد الفقهاء السبعة.

* قال الشافعي: «خرجت من بغداد وخلفت ورائي شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغير، يصدون به الناس عن القرآن».

قال ابن القيم معلقاً على قول الشافعي: «فإذا كان هذا قوله في التغير وتعليقه: أنه يصد عن القرآن، وهو - التغير - شعرٌ يزهد في الدنيا يغني به المغني، فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع - جلد - أو مخدة على توقيع غنائه، فليت شعري ما يقول في سماع شيء آخر التغير عنده كتفله في بحر، قد اشتمل على كل مفسدة وجمع كل محرم» بتصرف.

* سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الغناء فذكر كلام الإمام مالك السابق وسمع أحمد غناء من بيت فطرق عليهم الباب ونهاهم، وقال: «إذا سمع الإنسان غناء من بيت ينبغي أن ينهاهم، فإذا انتهوا فالحمد لله، وإلا فليجمع الجيران عليهم وليهول».

وسئل عمّن يموت ويترك صبيّاً وجارية مغنية - مملوكة - فاحتاج الصبي اليتيم إلى بيع الجارية، وهي تباع مغنية بثلاثين ألف دينار، وتباع ساذجة - دون وصفها بالغناء - بعشرين ديناراً، فقال: «لا تباع إلا ساذجة».

* وقال عبد الله بن الإمام أحمد: «سألت أبي عن الغناء؟ فقال: الغناء ينبت النفاق في القلب، لا يعجبني، ثم ذكر قول مالك: إنها يفعلها الفساق عندنا».

وأما مذهب أبي حنيفة فيقول أبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة: «إذا سمعت الغناء من بيت فإني أدخل عليهم بدون استئذان لأن تغيير المنكر وأجب إذا ظهر؛ وهذا الصوت قد ظهر إلى الخارج وأنا قاضي القضاة»، يعني أنه وأجب عليه التغير باليد إذ هو أعلي سلطة في البلد.

قال ابن القيم في الإغاثة: «مذهب أبي حنيفة في ذلك من أشد المذاهب وقوله فيه أغلظ الأقوال، وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهي كلها كالمزمار والدف، حتى الضرب بالقضيب، وصرحوا بأنه معصية توجب الفسق وترد به الشهادة» اهـ.

للغناء مفسد كثيرة وعلى وجه الخصوص في حق من أكثر منه وجعله ديناً له، وسأكتفي هنا بذكر ثلاثة مفسد فقط وهي:

الأولى: الغناء يصد القلب عن ذكر الله وينبت النفاق في القلب:

من الواقع والمشاهدة أنه قل ما تجد من اشتغل بالغناء استماعاً وجمعاً لأشروطه أن يكون من الذاكرين لله تعالى، وهذا إنما هو نتيجة طبيعية لفساد القلب بسبب الغناء، وقد ثبت عن الضحاك أنه قال: «الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب»، وقد يزداد هذا الفساد حتى يصل إلى درجة النفاق وفي ذلك يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البصل».

قلت: وقد رأينا من الشباب من يمر بالمسجد أثناء صلاة الإمام وهو رافعاً صوت مسجل سيارته بالأغاني الماجنة، ولا يبالي، فهل يا تري هناك عداءً للإسلام وأهله أشد من هذا وقد تجد سائق السيارة اسمه محمد أو عبد الله، ولكن هذا حاله مع ذكر الله ومع الذاكرين والسبب إنما هو الغناء الذي ملأ عليه جوانح قلبه.

الثانية: الغناء يدفع إلى الزنا:

ما من شيء يثير الشهوة أكثر من الغناء الذي يسمى اليوم بالغناء العاطفي، حيث يجعل جل تفكير الشباب في الفتيات الغانيات الجميلات ويجعل جل تفكير الشابة في الشاب الذي أعطى شيئاً من الجمال والوسامة، ولهذا قال الفضيل بن عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغناء رقية الزنا»، وقال ابن القيم: «من طرق أهله إلى سماع رقية الزنا - أي الغناء - فهو أعلم بالإثم الذي يستحقه».

قلت: بل الأمر أشد من كونه يدفع إلى التفكير بالزنا لأنه قد يدفع إلى تطبيق ذلك عملياً، ولهذا قال بعض الصالحين: «لو حبلت المرأة بغير جماع لحبلت من سماع الغناء»،

ولعل الغناء هو السبب الرئيسي في تفشي الزنا بين الشباب وعلى وجه الخصوص الطلاب والطالبات في المدارس والجامعات المختلطة.

يقول ابن حجر الهيتمي: «وأما من يغلب عليه هوى محرم كعشق أمرد: أو أجنبية فهذا يبيجه السماع - أي الغناء - إلى السعي في الحرام وما أدى إلى الحرام حرام» اهـ.

الثالثة: الغناء يؤدي إلى نزول البليات وتسلط الأعداء على الأمة:

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا فَعَلْتَ أُمَّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خِصْلَةً حَلَّ بِهَا الْبَلَاءُ: إِذَا كَانَ الْمَغْنَمُ دَوْلًا، وَالْأَمَانَةُ مَغْنَمًا، وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ، وَعَقَّ أُمَّهُ، وَبَرَّ صَدِيقَهُ وَجَفَا أَبَاهُ، ارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْدَلَهُمْ، وَأَكْرَمُ الرَّجُلِ مَخَافَةُ شَرِّهِ، وَلبَسَ الْحَرِيرَ، وَاتَّخَذَتِ الْقِيْنَاتُ وَالْمَعَارِزُ، وَلَعَنَ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْلَهَا، فَلْيَتَرَقَّبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ أَوْ خَسْفًا أَوْ مَسْخًا» (١).

وعن عمران بن حصين أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ» فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «إِذَا ظَهَرَتِ الْقِيْنَاتُ وَالْمَعَارِزُ وَشَرِبَتِ الْخُمُورُ»، قوله: «القيينات» أي الإماء المغنيات ومفردها قينة، وقوله: «المعارز» قال في القاموس: «المعارز والملاهي كالعود والطنبور، الواحد عزف أو معزف كمنبر ومكنسة» اهـ.

والحديث السابق ذكره ابن حجر الهيتمي في (كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع) وقال: «رواه عبد بن حميد واللفظ له وابن ماجه مختصراً، ومدار مسانيدهما على عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف، وصح من طرق خلافاً لما وهم فيه ابن حزم، فقد علقه البخاري ووصله الإسماعيلي وأحمد وابن ماجه وأبو نعيم وأبو داود بأسانيد صحيحة لا مطعن فيها، وصححه جماعة آخرون من الأئمة كما قال بعض الحفاظ أنه

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه عن علي بن أبي طالب إلا من هذا الوجه.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف» وهذا صريح ظاهر في تحريم جميع آلات اللهو المطربة» اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والذي شاهدنا وعرفناه بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله العدو عليهم وبلوا بالجدب والقحط وولاة السوء»، قلت: وإذا نظرت في حال العالم الإسلامي لا يكاد يخلو بيت من بيوت المسلمين إلا قليلاً إلا وفيه غناء عبر الإذاعات أو الفضائيات، وقل ما يخلو بيت من عاشق للغناء مشتغل به..... ولهذا سلط الله علينا الأعداء من كل حدب وصوب ثم إن هذا الغناء اللعين شغل الأمة عن تدبر القرآن الكريم فضلاً عن تلاوته أو حفظه والله المستعان.



المبحث الثالث

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدر الإمكان لدى عباد الرحمن: تقدم أن من صفات عباد الرحمن أنهم ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ ومعنى كونهم كراماً أنهم يnehون عن المنكر الذي يمرون به وهذا حيث كان في استطاعتهم النهي عن ذلك المنكر، ولهذا كان لا بد من بيان بعض الأحكام المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولما كان الكلام حول هذه القضية طويل بل وطويل جداً وقد ألفت فيها المؤلفات كان لا بد من الاختصار على أهم ما يجب أن يعلم، وذلك من خلال النقاط الآتية:

B :

واجب بالإجماع، ونقل الإجماع النووي وابن عطية والجويني ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

قال العلماء: فلعنهم الله من أجل ترك الأمر والنهي وهل يلعن الإنسان إلا على ترك الواجب.

ويدل على الوجوب أيضاً عددًا من الأحاديث النبوية الشريفة أكتفي بذكر حديثين فقط:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ أُولَ مَا دَخَلَ النَّقْصَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقِي الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا أَتَقَى اللَّهَ وَدَعَى مَا تَصْنَعُ بِهِ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِّ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ لُعِنَ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ [المائدة: ٧٨]، إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَسِقُوكَ ﴾ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « كلا، والله لتأمرنَّ بالمعروف وتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يد الظالم ولتأطرنَّه على الحق أطراً» (١).

وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» (٢)، ولا يستحق قوم العقاب إلا على ترك واجب، فدل هذا الحديث والذي قبله على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واختلف العلماء في هذا الواجب: هل هو عيني أم كفائي على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عيني واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وجعلوا (من) في قوله (منكم) بيانية، واستدلوا بقوله أيضاً: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ويقال في هذا القول ها هنا احتمالات:

الأول: إذا كان المراد به أن كل أحد يجب عليه مطاردة المنكرات والتصدي لها أينما كانت فهذا تكليف بها لا يطاق.

الثاني: إذا كان المراد من الوجوب أن ينهي عن المنكر الذي تقع عيناه عليه، على حد قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده» الخ... فهذا لا بأس به.

القول الثاني: ذهب جمهور العلماء كابن حجر والقرطبي وابن كثير وابن تيمية وغيرهم من المفسرين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب كفائي، إذا قام به

(١) رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

البعض سقط عن الباقيين، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ قال القرطبي: ومن في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ للتبعيض معناه أن الأمرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كل الناس علماء، وقيل (من) لبيان الجنس، والمعنى كونوا كلكم كذلك.

قلت: القول الأول أصح، فانه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب كفائي.

القول الثالث: ذهب الإمام أحمد وابن القيم وابن حزم وجمع من العلماء إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على قدر الاستطاعة، قال الخلال: «سئل الإمام أحمد: هل يجب عليّ الأمر والنهي؟ قال: نعم إلا أن يخاف السلطان، يخاف سيفه وعصاه»، ودليل هذا القول ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

قلت: ولا شك أن من الاستطاعة أن يأمر الرجل بالمعروف وينهى عن المنكر في بيته، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فُؤَا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته»، وبناءً عليه يجب على الرجل إلا يترك بتناً ولا ولدًا ولا زوجة إلا ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، أقول هذا الواجب، ولكن للأسف المشاهد في بيوت المسلمين مليئة بالمنكرات والآباء لا يحاسبون أحدًا في الأسرة على المنكرات الشرعية الواقعة منهم، فهل هذا مما يرضى الله، اللهم لا، أين هؤلاء من صفات عباد الرحمن.

: B

لا بد فيمن ينهي عن المنكر أن تتوافر فيه شروط ذكرها أهل العلم وقد اتفقوا على بعضها واختلفوا في البعض الآخر وإليك بياناتها باختصار:

الأول: أن يكون مسلماً: لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع ولاية، ولا ولاية للكافر على المسلم لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ولأن الكافر كله منكر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

والثاني: أن يكون مكلفاً: ويقصد أن يكون بالغاً عاقلاً ودليل ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يكبر، وعن المجنون حتى يفيق»، ولكن إذا أمر الصبي بالمعروف أو نهى عن المنكر أجر على ذلك.

الثالث: القدرة: فإن كان غير قادر على الأمر ولا النهي لأي سبب من الأسباب سقط عنه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، لكن إذا قدر على الأمر أو النهي عن البعض وعجز عن البعض فإنه يجب عليه قدر استطاعته لقول ابن رجب في القاعدة الثامنة من قواعده: «من قدر على بعض العبادة وعجز عن باقيها: هل يلزمه الإتيان بما قدر عليه منها أم لا؟»، ثم ذكر أربعة أقسام لتوضيح هذه القاعدة، والذي يهمنا هنا هو القسم الرابع حيث قال: «ما هو جزء من العبادة وهو عبادة مشروعة في نفسه فيجب عليه فعله عند تعذر فعل الجميع بغير خلاف» اهـ.

وهذا يعني أن من قدر على النهي عن بعض المنكرات دون البعض وجب عليه ذلك.. والله أعلم.

الرابع: الإخلاص: مما هو معلوم أن الله تعالى اشترط لقبول العمل الصالح الإخلاص كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي من أجل الأعمال الصالحة فيتأكد فيها الإخلاص وذلك لأن الأمر أو النهي قد يداخله شيء من العجب فيحبط بذلك عمله.

الخامس: العلم: المقصود بما يشترط من العلم هنا هو أن يكون عالماً بما يأمر عالماً بما ينهى، قال النووي: «إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوهما فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد ولم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء». اهـ من شرح مسلم.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، قال أهل التفسير ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ أي على علم ويقين.

تنبيه: هناك أشياء أخرى قد يظن البعض أنها من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي ليست كذلك فوجب التنبيه عليها:

١- العدالة: قال القرطبي: «وليس من شرط الناهي أن يكون عدلاً عند أهل السنة، خلافاً للمبتدعة حيث تقول: لا يغيره - أي المنكر - إلا العدل، وهذا ساقط، فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس. فإن تشبثوا - أي القائلين باشتراط العدالة - بقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]، ونحوه.

قيل لهم: إنما وقع الدم هنا على ارتكاب ما نهى عنه، لا على نهيه عن المنكر، ولا شك في أن النهى عنه مما يأتيه أقبح ممن لا يأتيه ولذلك، يدور في جهنم كما يدور الحمار في الرحى» اهـ.

ولتوضيح كلام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ أَقُول: المؤمن مطالب حيال الأمر والنهى

بشيئين:

أحدهما: أن يفعل ما أمره الله به ويترك ما نهاه الله عنه.

ثانيهما: أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فإذا قَصَّر في فعل المأمور وترك المنهي لم يجز له أن يضيف إلى هذا التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبناءً عليه قال الحسن البصري عندما سئل عن هذه المسألة (ود الشيطان لو ظفر بهذه) يعنى أن يترك المؤمن النهى عن المنكر بحجة أنه عنده بعض المخالفات الشرعية.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «لو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه، ويكمل الذي خلق له من عبادة ربه، إذا لتواكل الناس الخير إذا لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض».

٢- إذن الحاكم: قال بعض العلماء يشترط إذن الإمام في الأمر والنهى وقال

بعضهم بل لا يشترط ذلك، والحقيقة في المسألة تفصيل كما ذكر ذلك ابن مفلح وابن الجوزي وخلاصة ذلك أن يقال: - إذا كان الأمر بالمعروف والنهي يحتاج إلى قوة وضرب وحبس ونحوه فلا بد من إذن الحاكم، لأن هذه الأحكام من اختصاصات الحاكم وليس لغيره أن يأمر وينهى بيده.

- وإذا كان النهى باللسان والوعظ والتذكير فهذا لا يحتاج إلى إذن، وكذا إذا كان

الرجل يأمر وينهى في بيته ولو بيده فإنه لا يحتاج إذن والله أعلم.

٣- الذكورية: لا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذكورة أي أن المرأة لها الحق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل هي مكلفة كالرجل سواءً بسواء ولكن يجب أن يكون من الرجال وليس لها أن تأمر أو تنهى من هو أجنبي عليها أمرها ونهيها لبنات جنسها وكذلك محارمها، ومما يدل على تكليف المرأة بالأمر والنهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. قال ابن النحاس: «وفي ذكره تعالى المؤمنات هنا دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأجب على النساء كوجوبه على الرجال حيث وجدت الاستطاعة».

وينبغي أن تنتبه المرأة هنا إلى أن قيامها بشئون بيتها وتربية أبنائها مقدم على قيامها بالدعوة إلى الله تعالى، وكما ذكرنا أن اشتغالها بالدعوة إنما يكون بعيداً عن الرجال الأجانب لئلا تعرض نفسها ولا غيرها إلى الفتنة والله أعلم.

: B

لقد وردت نصوص عديدة من الكتاب والسنة تدل على عظيم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الدين، وعظيم أجر وثواب من يقوم بهذا العمل الهام العظيم وأكتفي هنا بذكر بعض الآيات والأحاديث الدالة على ذلك فأقول ومن الله أرجو العون القبول:

١- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهَا: «هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي لا أحد أحسن قولاً: أي كلاماً وطريقة وحالة ممن دعا إلى الله بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين

والمعرضين ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها والحث عليها، وتحسينها معها أمكن والزجر عما نهى الله عنه، وتقييده بكل طريق يوجب تركه» اهـ.

٢- قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾» الخ.

قلت: فمن أراد أن يتصف بصفات أهل الإيمان ويتبرأ من صفات أهل النفاق والخسران فعليه أن يكون من أهل الأمر والنهي مع إخلاص النية وطهارة الطوية.

٣- قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال ابن كثير (ينجز تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، فقال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال البخاري - بسنده- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام» وهكذا قال ابن عباس ومجاهد- وغيرهم.

وفي المسند عن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «خير الناس أقرابهم وأتقاهم لله وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم»^(١)، قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سبباً في هلاكهم» اهـ.

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم عن ابن عباس.

قال ابن عاشور في تفسيرها: (.. فمعنى ﴿ كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ وجدتم على حالة الأخيرة بحصول أسبابها ووسائلها، لأنهم اتصفوا بالإيمان، والدعوة للإسلام، وإقامته على وجهه، والذب عنه» اهـ.

قلت: ومن يتأمل هذه الآيات الثلاث يعلم الأهمية الكبرى لهذه العبادة في حياة الأمة، ويعلم كذلك المنزلة الرفيعة لمن يتشرف بالقيام بها.

وأما الأحاديث فمنها:

١- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١).

جاء في شرح مسلم ما نصه: «وسواء كان ذلك الهدي علمًا أو أدبًا أو عبادة أو غير ذلك، وسواء كان الهدي هو أول من أبدأ به أو كان مسبق به»، انتهى المقصود منه.

٢- عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»^(٢).

في هذا الحديث بيان لما قد يؤدي إلى هلاك الأمة ألا وهو كثرة المعاصي ﴿ فَأَهْلَكْنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ولا سبيل إلى النجاة من هذا الهلاك إلا بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الناس حين وقوع المعصية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: فاعلوا المعصية

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) رواه البخاري والترمذي.

والراضون بها وإن لم يفعلوها، ثم الكارهون لها الناهون عنها الساعون في إزالتها، وإذا فقد هذا الصنف استحقت الأمة الهلاك وتسليط الأعداء والله أعلم.

٣- عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تودع منهم»^(١).

٤- عن زيد بن ثابت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «نَضَّرَ اللَّهُ أُمَّرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفِقْهِهِ»^(٢)، أثبت هذا الحديث هنا لأنه يحث على الأمر بالمعروف إذ فيه تبليغ لكلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس، والذي يعمل بهذا الحديث له أجران:

الأول: امتثال أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تبليغ حديثه، وهذا فيه من الأجر ما ذكر في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَضَّرَ اللَّهُ أُمَّرَأً»، ولا شك أن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستجاب.

الثاني: إذا حصلت الاستجابة لما بلغه المسلم لإخوانه من العمل بما سمعوه منه من الأحاديث النبوية الشريفة حصل الأمر والنهي وكثرة الثواب، ويدل على هذا الحديث السابق: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه».

قال العلماء في معنى قوله: «نَضَّرَ اللَّهُ أُمَّرَأً» المقصود منه: الدعاء بالحسنى المادي والمعنوي، وذلك بأن يحسن الله وجه الإنسان الذي يبلغ دين الله، وأن يزينه - أي المسلم - بالحسن المعنوي، وبذلك يكون من الفائزين السعداء في الدنيا والآخرة.

وهذا التنضير قد يكون في الدنيا بحسن السمعة وطيب الذكر وخالص الشئ، وقد يستمر الذكر الحسن بعد موت الإنسان لقرون متطاولة كما هو حال المحدثين والفقهاء

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه أحمد والحاكم وغيرهما.

والمفسرين الذين لا يزال الناس يقرءون كتبهم ويترحمون عليهم كل ما ذكرهم ذاكراً، ومن أولئك الذين خلد الله ذكرهم الأئمة الأربعة وأصحاب الكتب الستة والقراء السبعة وغيرهم كثير.

كما أن التنضير يكون في الآخرة بالفوز بالجنة والنظر إلى وجه الله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

٥- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل عليّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعرفت في وجهه أن قد حضره شيء، فتوضأ وما كلم أحداً، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول، فقعد على المنبر وحمد الله وأثنى عليه، وقال: «يا أيها الناس، إن الله يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم، وتسالوني فلا أعطيكم وتستنصروني فلا أنصركم» فما زاد عليهن حتى نزل^(١)، ولعل هذا الحديث يبين السبب في كثرة دعاء المسلمين اليوم بالنصر ولا يرون نصراً، وذلك لترك الأمر بالمعروف والنهي أحياناً حتى في نطاق الأسرة فضلاً عن غيرها والله المستعان.



(١) رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

المبحث الرابع

لقد مر معنا عند ذكر خلاصة أقوال المفسرين أن عباد الرحمن لا يضيعون شيئاً من أوقاتهم في غير فائدة فضلاً عن أن يضيع في المشاركة في لغو الكلام أو محرمته، من هنا كان لا بد من بيان أهمية الوقت وأهمية المحافظة عليه من أن يضيع في غير فائدة وهذا يحتاجه كل مؤمن عرف الطريق على إلى الله وفي المقدمة عباد الرحمن، وإليك شيئاً مما يتعلق بالوقت عبر النقاط التالية:

B : :

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۗ ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ووجه الدلالة في الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر تسخير الشمس والقمر والليل والنهار في جملة ما ذكره من جلائل النعم وذلك على سبيل الامتنان حيث قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۗ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، مما يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره، وذكره ويحثهم على ذلك ويرغبهم في سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار، كما أن نعمة الله تتكرر عليهم في جميع الأوقات» اهـ.

وقد أقسم الله تعالى في كتابه بعدد من الأوقات ليبين عظيم فضلها وأهميتها ومن

ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قال الرازي: «أقسم الله تعالى بالعصر، الذي هو من الزمن - يعني على وجه العموم - لما فيه من الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم والغني والفقر، ولأن العمر لا يقوم بشيء نفاسة وعلاء». اهـ.

وقد ذكر القرطبي عدة أقوال في المراد من العصر المقسم به هنا: ف قيل الدهر وهذا قول ابن عباس، وقيل هو آخر ساعة من ساعات النهار، أي وقت صلاة العصر إلى مغيب الشمس، وهذا قول قتادة. وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ١ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فيها هنا أقسم الله تعالى بالنهار والليل كما بينه القرطبي في تفسيره وإليك ما قاله ملخصاً:

«أقسم بالضحى والمراد به النهار لقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فقابله بالليل وفي سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ١٧ ﴿أَوْ أَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢]، معناه سكن، يقال ليلة ساجية أي ساكنة.

يقول الراجز:

يا حبذا القمراء والليل ساج وطرق مثل ملاء النساج

وقال الضحاك: سجا: غطي كل شيء، قال الأصمعي: سجو الليل تغطيته النهار، مثلما يسجي الرجل الثوب» اهـ.

وكما أقسم الله تعالى بالعصر والضحى والليل أقسم كذلك بالفجر وأقسم ببعض الأيام من السنة فقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ١ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الفجر: ١-٢].

ولعله تبين لك أيها القارئ الكريم من خلال هذه الآيات عظمة الوقت وأهميته إذ الرب جَلَّ جَلَالُهُ لا يقسم إلا بشيء عظيم لينبه عبادة إلى عظمة ذلك الشيء والله أعلم.

: B

لقد وردت عدت أحاديث تبين أهمية الوقت في حياة المسلم وأكتفي هنا بذكر ثلاثة أحاديث فقط فيها النفع والفائدة:

١- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١)، في هذا الحديث إشارة إلى فائدة عظيمة ينبغي أن يلتفت إليها المؤمن ألا وهي: أن الكثرة الكاثرة من الناس تضيع الأوقات والسنوات دون فائدة في دنيا أو دين، وأن القلة هم الذين يعمرن أوقاتهم بما يعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم، فيا ترى أنت من أي الفريقين..... ولا شك أن عباد الرحمن من أولئك القليل لأنهم لا يرضون الغبن لأنفسهم، والغبن هنا بمعنى دفع الثمن في مقابل الأمر الحقيق، فالوقت هو ائتمن ما لديهم فلا يمكن أن ينفقوه في لعب أو هو أو حتى كلام لا يرجي منه النفع في دين أو دنيا.

٢- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مَنْسِيًّا أَوْ غِنًى مَطْغِيًّا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُنْفِذًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهَزًا، أَوْ الدَّجَالَ فَشَرَّ غَائِبٍ يَنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ»^(٢).

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرها هنا كل مسلم أن يبادر باغتنام الأوقات قبل حصول واحد من هذه الآفات التي يتقلب فيها الإنسان وهذا مما يدل على أهمية اغتنام الفرص في الحياة بالأعمال الصالحة وما يقرب إلى الله تعالى والله أعلم.

٣- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْذِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى امْرِئٍ آخَرَ عَمْرَهُ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِينَ سَنَةً»^(٣)، ومعنى «أعذر الله إليه»: أي أزال عذره ولم

(١) رواه البخاري والترمذي وغيرهما.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٣) رواه البخاري.

يترك له موضعاً للاعتذار إذ أمهله الله طول هذه المدة المديدة من العمر، وهذا كله يعني أن من بلغ الستين أو قبلها بقليل ولم يلتفت إلى إصلاح حاله مع الله تعالى ولم يرجع إلى تحكيم شريعته في حياته فإنه قد استحق العذاب وذلك لشدة تفريطه وإهماله وعدم اعتباره طوال هذه السنوات والله أعلم.

: B

لقد ذكر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ آثارًا كثيرة في حرص السلف والعلماء الذين جاءوا من بعدهم في الاهتمام بالوقت وعدم التفريط في شيء منه مهما قل، وسأذكر هنا طرفاً من تلك الآثار، وهي من كتابه (قيمة الزمن عند العلماء) مع العلم بأنني علقت على بعض تلك الآثار:

١- نقل عن عامر بن عبد قيس أحد التابعين الزهاد: أن رجلاً قال له كلمني، فقال له عامر: أمسك الشمس، يعني أوقف لي الشمس عن المسير حتى أكلمك، يعني لا وقت للسوالف.

٢- وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمس، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي».

٣- وقال الخليفة للزاهد عمر بن عبد العزيز: «إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما».

٤- وقال عبد الرحمن بن مهدي عن شيخه حماد بن سلمة: «لو قيل لحما بن سلمة إنك تموت غداً ما قدر أن يزيد في العمل شيئاً»، وأقول: ليس هناك تعبير عن شدة الاجتهاد في العمل الصالح بأوضح من هذا، ولهذا ورد أن حماداً هذا مات وهو في الصلاة رحمة الله.

٥- وأما أبو يوسف صاحب أبي حنيفة فأمره كان عجباً في الحرص على الوقت فاستمع إلى حادثين من أخباره:

الأولى: كان أبو يوسف شديد الملازمة لأبي حنيفة لا يكاد يفارقه حتى في يوم العيد قال رَحِمَهُ اللهُ: مات ابنُ لي، فلم أحضر جهازَه ولا دفنه، وتركته على جيراني وأقربائي، مخافة أن يفوتني من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عني.

ولعل في هذا الخبر عبرة لطلبة العلم في عصرنا الحاضر حيث عرف عنهم كثرة الاعتذار عن الدروس أو المحاضرات - إذا كان في الجامعة - وعرف عنهم ما هو أسوأ من ذلك وهو إضاعة الوقت في السوالف والجلوس في المطاعم لتناول الطعام أو الشاي ولا يدري أحدهم كم مضى من الوقت وهو جالس يتحدث مع إخوانه بزعم الأخوة في الله، ولهذا قلما يفلح طالب علم كان هذا دأبه والله المستعان.

الثانية: قال تلميذه القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي: «مرض أبو يوسف فأتيته أعوده، فوجدته مغمي عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم، ما تقول في مسألة؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟ قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو به ناج.... ثم قال: يا إبراهيم: أيما أفضل في رمي الجمار، أن يرميها ماشياً أو راكباً؟ قلت: راكباً، قال أخطأت، قلت: ماشياً، قال: أخطأت، قلت: قل فيها يرضى الله عنك، قال: أما ما كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشياً وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكباً، ثم قمت من عنده فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات رحمة الله عليه» اهـ.

إحداهما: الحرص الشديد على الوقت مهما كان حال الإنسان... فهذا أبو يوسف رَحِمَهُ اللهُ كان قد أفاق من الإغماء لتوه فلم ينتظر حتى تتحسن حاله بل بدأ بالمناقشة العلمية

مع تلميذه، وإنا نشكوا إلى الله حالنا إذ أصبح أحدنا يعجز عن الاستفادة من الوقت وهو في تمام الصحة والعافية، فنسأل الله تعالى ألا يكون ذلك دليل على الخذلان.

الثانية: إخلاص أبي يوسف في تعليمه للعلم أو مناقشته للمسائل الفقهية وذلك أوضح من قوله: «لعله ينجو به ناج»، وبهذا الإخلاص أبقى الله ذكرهم وعلمهم إلى يومنا هذا، وقد مات أبو يوسف سنة ١٨٢هـ، فأين هذا من الذين يناقشون المسائل لإظهار علمهم وإبداء جهل غيرهم والله المستعان.

٦- جاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض في ترجمة الفقيه المالكي المحدث الإمام محمد بن سحنون القيرواني ما يلي: «قال المالكي: كان لمحمد بن سحنون سرية - أي جارية مملوكة - يقال لها: أم مرام، فكان عندها يوماً، وقد شغل في تأليف كتاب إلى الليل، فحضر الطعام، فاستأذنته فقال لها: أنا مشغول الساعة، فلما طال عليها - أي الانتظار - جعلت تلقمه الطعام حتى أتي عليه - أي أكله كله - وتمادي على ما هو فيه إلى أن أذن لصلاة الصبح، فقال: شغلنا عنك الليلة يا أم مرام، هات ما عندك، فقالت: قد - والله يا سيدي - ألقمته لك، فقال: ما شعرت بذلك».

قلت: لقد أصبح للطعام عندنا شأن عظيم ابتداءً من شرائه وإلى وضعه في المائدة والجلوس لتناوله والحديث قبله وبعده، وبهذا ضاعت الأعمار.

٧- جاء في كتاب (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء) في ترجمة الفخر الرازي: «حكى لنا القاضي شمس الدين الخوئي عن الشيخ الفخر الرازي أنه قال: والله إنني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز».

قلت: هذه القصة وإن كانت شبيهة بسابقتها إلا أنني أردت أن أقول بإيرادها أن ما كان من ابن سحنون ليس هو شيء غريب شاذ بل كان ذلك مشتركاً بين أهل العلم الحريصين على اغتنام سائر الأوقات في تحصيل العلم أو تعليمه.

٨- وأختم هذه الآثار المباركة بما كان من شأن ابن جرير الطبري الفقيه المفسر المؤرخ المشهور، فإليك مقتطفات من ترجمته:

حَدَّثَ عَلِي بن عبيد الله اللغوي عن القاضي أبي عمر السمسار وأبي القاسم بن عقيل الوراق: أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة فقالوا: هذا مما تفتنى فيه الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، وأملاه على طلابه في سبع سنين.

ثم قال لهم: أتنشطون لتاريخ العالم، من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا كم قدره؟ فذكر نحو ما ذكر في تفسيره فأجابوه بمثل ذلك فقال: إنا لله، ماتت الهمم، فاختصره في نحو مما اختصر التفسير وفرغ من تصنيفه ومن عرضه-أي قراءته-عليه يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاث مائة.

قال الخطيب: «وقد سمعت السمسمي يحكي أن ابن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة» ويعني ما بين تصنيف وتحصيل.

قال أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ: وقد ولد ابن جرير سنة ٢٢٤، وتوفي سنة ٣١٠ هـ فعاش ٨٦ سنة، وإذا طرحنا منها سنَّة قبل البلوغ وقدرناها بأربع عشرة سنة، يكون قد بقي ابن جرير ثنتين وسبعين سنة يكتب كل يوم ١٤ ورقة، فإذا حسبنا أيام الاثنتين وسبعين سنة وجعلنا لكل يوم ١٤ ورقة تصنيفاً، وكان مجموع ما صنفه الإمام ابن جرير نحو ٣٥١ ألف.

وقد اعتبروا كلاً من تاريخه و(تفسيره) نحو ثلاثة آلاف ورقة فيكون الكتابات مجموعها نحو سبعة آلاف ورقة أو ثمانية آلاف ورقة، فاحسب الباقي من أوراق مصنفته وهو ٣٥١ ألف ورقة» اهـ مختصراً.

قلت: واليوم لا يكاد طالب العلم يتمكن من مجرد الإطلاع على تفسير ابن جرير كاملاً أو تاريخ ابن جرير كاملاً، ولهذا أقول أهيب بنفسي وبطلاب العلم المقصرين أمثالي أن يرجعوا إلى كتاب ابن عدة لينظروا كيف كانت همم العلماء في التعلم والتعليم والتأليف لعلنا نبلغ عشر معشار ما كانوا عليه والله أعلم.



أرجو أن أكون قد وفقت في بيان صفة (تنزيه النفس عن اللغو قولاً واستماعاً) من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ إذ تلك من أعظم صفات عباد الرحمن وبالتزامهم بها يتم لهم التمكن من تحصيل بقية الصفات، إذ شملت هذه الخصلة كما سبق على: البعد عن كل باطل مبعد عن الحق شاغل للوقت بغير فائدة، إذ الوقت هو رأس المال أو قل هو المظروف الذي توضع بداخله الأعمال - حسننها وسيئها - فإذا أراد المؤمن أن يكون من عباد الرحمن فلينظر بم يملأ مظروفه هذا، ولا شك أنه سيجد أن من أول ما يجب أن يوضع في ذلك المظروف هي صفات عباد الرحمن ما تقدم شرحه منها وما سيأتي بإذن الله تعالى. والله أعلم.



الصفة الثانية عشرة:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾

التأثر بآيات القرآن



المَقَرَّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فمع بيان الصفة الثانية عشرة من صفات عباد الرحمن ألا وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣].

ويمكن أن نسمي هذه الصفة: التأثر بآيات القرآن الكريم عندما يذكر بها عباد الرحمن، وهم يتأثرون بالقرآن عند تلاوته وعند سماعه، ويصل بهم التأثر لدرجة السجود لعظمة الله وكبريائه، وليس ذلك إلا نتيجة لرقه قلوبهم وخشوعهم عند سماع القرآن العظيم.

وفي الآية إشارة إلى أن عباد الرحمن باينوا صفات عباد الأوثان وأهل النفاق والكفران لأن هؤلاء لا يتأثرون بكلام الله تعالى أبداً.

ومن هنا سيكون الكلام حول هذه الآية ضمن خمسة مباحث:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في الآية الكريمة.

المبحث الثاني: في بيان أهمية تدبر القرآن وكيفته وفوائده.

المبحث الثالث: أقسام الناس عند تذكيرهم بآيات الله تعالى.

المبحث الرابع: في ذكر صور من تأثر السلف وبكائهم عند قراءة القرآن.

المبحث الخامس: في ذكر صور من استجابة السلف للعمل بالقرآن الكريم.



المبحث الأول

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

قال الخطيب رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا ﴾ أي ذكرهم غيرهم كائنًا من كان لأنهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله، ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي الذي وفقهم ليذكروا إحسانه إليهم في حسن تربيته لهم بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة ﴿ لَمْ يَخْرُؤْا ﴾ أي لم يسقطوا ﴿ عَلَيْهَا صُمًّا ﴾ أي غير واعين لها ﴿ وَعُمْيَانًا ﴾ أي غير مبصرين بما فيها، كمن لا يسمع ولا يبصر، بل خروا سامعين بأذان واعية وبعيون راعية، فالمراد بالنفي نفي الحال ﴿ صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ دون الفعل وهو الخرور كما تقول لا يلقاني زيد إلا مسلمًا، فالمراد نفي السلام دون اللقاء. اهـ. بتصرف.

وقال الشنقيطي: «ولا يخفى أن هذه الآية الكريمة دالتين: دلالة بالمنطوق ودلالة بالمفهوم، فقد دلت بمنطوقها على أن من صفات عباد الرحمن إنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها، أي لم يبكوا عليها في حال كونهم صمًا عن سماع ما فيها من الحق وعميانًا عن أبصاره، بل هم يكون عليها سامعين ما فيها من الحق مبصرين له.

وهذا المعنى دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُبِيتَ عَلَيْهِمْ عَائِنُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢]، ومعلوم أن من تليت عليه آيات هذا القرآن، فزادته إيمانًا انه لم يخر عليها أصم أعمى كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٣٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِنَانًا مُتَشَبِّهًا مَّثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد دلت الآية المذكورة أيضًا بمفهومها: أن الكفرة المخالفين لعباد الرحمن الموصوفين في هذه الآيات إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صمًا وعميانًا أي لا يسمعون ما فيها من الحق، ولا يبصرون حتى كأنهم لا يسمعوها أصلًا.

وهذا المعنى الذي دلت عليه الآية الكريمة بمفهومها جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب الله تعالى كقوله في سورة لقمان: ﴿ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّطَ بَعْضُهَا عَلَىٰ إِلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧] وغيرها من الآيات.

وقال الميداني: من صفات عباد الرحمن أنهم أهل حضور مع ربهم في عباداتهم له، فمن خلافتهم الدائمة التي تتكرر في حياتهم أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم تذكروا وتدبروا، وخروا له سجدًا، يسبحون بحمده وهم لا يستكبرون، وحينما يخرون عند التذكير بآيات الله فهم يخرون تعظيمًا لها واحترامًا يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿١٥﴾
تَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ [السجدة: ١٥-١٦].

ثم قال رحمه الله: «ونلاحظ روائع البيان القرآني من آية السجدة وآية الفرقان ما يلي: أن الذي في الفرقان نفي عن عباد الرحمن صفة الخرور الشكلي الذي لا يفارقه حضور فكري وقلبي لدي تذكيرهم بآيات ربهم، وهذا المنفي عنهم وهو من صفات أهل الغفلة والمرائين والمنافقين.

وأن الذي في السجدة قد حصر كمال الإيمان في الذين إذا ذكروا بآيات الله خروا سجدًا وسبحوا بحمد ربهم غير مستكبرين، فاثبت الخرور والسجود والتسبيح بحمد الله لذوى الإيمان الكامل بآيات الله وهذه صفات أهل الحضور الفكري والقلبي لدى تذكيرهم بآيات الله» اهد بتصرف.

أولاً: من صفات عباد الرحمن حسن الإصغاء لآيات الله القرآنية حينما تتلى عليهم ويتتبع من ذلك خشوع القلب وزيادة الأيمان وقوة التأثر بالقرآن.

ثانياً: أن الكافر أو المنافق إذا سمع آيات الله تعالى اعرض عنها أو إذا كان منافقاً تظاهر بالخشوع وهو ليس كذلك.

ثالثاً: من نتائج حسن الإصغاء والخشوع عند تلاوة القرآن أو الاستماع إليه-لدي عبد الرحمن أن يسارعوا في طاعة الله تعالى، وهذا يعني أن يكون القرآن الكريم هو منهج حياتهم وهو الذي يحكم تصرفاتهم، وهذا بعكس سماع المنافقين والكافرين للقرآن حيث لا يغير شيئاً في حياتهم.



المبحث الثاني

إن الكلام حول تدبر القرآن له علاقة وطيدة بالآية التي نحن بصددتها: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الفرقان: ٧٣]؛ لأن التذكير لا يحصل إلا من فهم القرآن وتدبره، ولا يكون التأثير به إلا من أصحاب القلوب الحية التي تأثرت بالقرآن الكريم.

ومن هنا سوف أتحدث في هذا المبحث حول ثلاثة أمور هامة: ألا وهي بيان ما ورد من النصوص وآثار السلف حول أهمية تدبر القرآن ثم بيان كيفية الوصول إلى التدبر ثم فوائد التدبر:

أولاً: أهمية تدبر القرآن الكريم: لقد وردت آيات كريمة من كتاب الله تعالى تحث على تدبر القرآن الكريم وفي نفس الوقت تدم من لا يتدبره، كما وردت أحاديث نبوية تبين كيف يتدبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن الكريم كما وردت آثار عن السلف وتوضح مدى اهتمامهم بالقرآن وبفهمه وتدبره، وسوف أقصر على ذكر شيء منها في الصفحات القليلة الآتية، فأقول ومن الله أرجو العون وأسأله القبول:

(أ) ذكر بعض الآيات القرآنية التي تحدث على التدبر: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي بل على قلوب أقفال أقفلها الله عزَّجَلَّ فهم لا يعقلون ففي حديث مرفوع أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن عليها أقفالاً كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها»، فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتجاج القلب وخلوه عن الإيمان، أي لا يدخل قلوبهم إيمان ولا يخرج منها الكفر، لأن الله طبع على قلوبهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

قال السعدي: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ ﴾ فيه خير كثير وعلم غزير فيه كل هدي من ضلالة وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، قوله: ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أي هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته. فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها فانه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكرة فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره.

وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بهذا هذا المقصود» اهـ.

(ب) بعض ما ورد من الأحاديث في الحث على تدبر القرآن الكريم:

١- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر السماء فقال: ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآيات إلى آخر سورة آل عمران، ثم قام فتوضأ واستن -استعمل السواك- فصلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى الصبح»^(١).

٢- عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فبكت وقالت: «كل أمره كان عجباً أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عَزَّجَلْ»، قالت: فقلت يا رسول الله، إني أحب قربك وإني أحب أن تعبد الله ربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى

حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ هذه الليلة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»، الحديث ذكره ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى ابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن مردويه وابن حبان في صحيحه.

٣- وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صليت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلى بها في ركعة، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ»^(١).

(ج) جملة من الآثار التي توضح اهتمام السلف بتدبر القرآن الكريم:

جاء في الاستيعاب لابن عبد البر: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وكان أميراً على الكوفة - يكلفه أن يسأل الشعراء من قبله، هل ما زالوا يقولون الشعر أم امتنعوا عنه؟ فجمع أبو موسى الشعراء، وفيهم لبيد بن ربيعة - صاحب المعلقة - فقال لهم: هل لازتم تقولون الشعر؟ فقال لبيد: «والله ما كنت لأقول الشعر بعد أن أكرمني الله بسورة البقرة»، وقيل: إن لبيد لم يقل شعراً بعد إسلامه إلا بيتاً واحداً وهو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سر بالاً

وقال الحسن: «قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ

حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الورعة، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء»^(١).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: «لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح فإذا زلزلت، والقارعة لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأفكر، أحب إلى من أن أهدد القرآن هذا- أي أقرأه بسرعة - أو قال انشره نشرًا».

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «إنما أنزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً» قيل: كيف العمل به؟ قال: «ليحلوا حلاله ويحرموا حرامه ويأتمروا بأمره ويتتبعوا عن نواهيها، ويقفوا عند عجائبه».

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «كثر الحث في كتاب الله على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفي أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما» اهـ.

: B . . . :

لقد ذكر الإمام الغزالي في إحيائه بعضاً من الآداب التي من التزام بها كانت له عوناً بإذن الله على تفهم القرآن وتدبره، وإلا فإنها لا تزال هناك عوائق تحول بين العبد وبين تدبره لكلام العلي الحكيم، ومن هنا كان من الضروري جداً ذكر هذه الآداب حتى يرزق

العبد نعمة التدبر، وما سأذكر هنا مختصر من الأحياء بشيء من التصرف، فأقول ومن الله أرجو القبول:

١- التعظيم لكلام الله العلي الحكيم: يجب أن يلتفت القارئ للقرآن الكريم إلى

عظمة هذا الكلام وعلوه، ثم إلى فضل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجه إفهام خلقه فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى إفهام خلقه؟ ولولا استتار الله جلالة الكلام بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا كرسي، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

٢- التعظيم للمتكلم: يجب على القارئ للقرآن الكريم قبل شروعه في القراءة

أن يحضر في قلبه عظمة للمتكلم جَلَّ جَلَالُهُ ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر بل هو كلام العلي الكبير، وهو القائل: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً، فكذلك معناه - أي القرآن حكم الله عَزَّجَلَّ بأنه محجوب عن القلب - أي قلب القارئ - إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس، ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير.

وكما لا يصلح لمس جلد المصحف عن كل يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ويقول هو كلام ربي هو كلام ربي، فمن تعظيم المتكلم ينتج تعظيم الكلام ولن تحضر عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله.

٣- حضور القلب وترك حديث النفس:

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يَنْحَيَّ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي بجهد واجتهاد، وأخذه بالجد يعني أن يكون متجرداً له عن قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره، وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن هل تحدثك نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحب إلي من القرآن حتى أحدث نفسي به؟

وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه حاضراً عندها أعادها ثانية.

وهذه الصفة إنها هي نتيجة لما قبلها من تعظيم الكلام والمتكلم، لأن الذي يتلوه ويستبشر به ويستأنس به لا يغفل عنه، ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له فكيف يطلب الأُنس في غيره.

٤- التدبر: وهو شيء آخر وراء حضور القلب، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره، والمقصود من القراءة هو التدبر.

ولذلك سن لنا من الترتيل لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن، قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها».

وإذا لم يتكمن من التدبر إلا بترديد فليردد، وقد وردت آثار عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن بعض السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أنهم كانوا يرددون آيات من كتاب الله.

ومن ذلك ما روى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام ليلة بآية يرددتها حتى أصبح وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وقام تميم الداري ليلة يردد قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقام سعيد بن جبير ليلة يردد قوله تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال بعض السلف: «لي في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد». وهذه الأخيرة هي ختمة التدبر والتفسير للقرآن الكريم.

٥- التخلي عن موانع الفهم:

أن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم وهي أربعة:

(أ) أن يكون الهمُّ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها فيأتي الشيطان ليصرفهم عن فهم معاني القرآن فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف يخيل إليهم انه لم يخرج من مخرجه، فهنا القارئ فكره مقصوراً على مخارج الحروف فأنى له أن يفكر في معانيه.

(ب) أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة.

فهذا شخص قد قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفاً على مسموعه وقد لا يكون حقاً فيكون مانعاً من الفهم والتدبر للحق الذي أمرنا به.

(ج) أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلي في الجملة بهوي في الدنيا مطاع، فان ذلك يسبب ظلمة القلب وصدئه، وكلما كانت الشهوات أشد تراكمت كانت معاني الكلام أشد احتجاجاً، وكذلك بالعكس كلما تخفف العبد أثقال الدنيا تجلى المعنى فيه ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا عَظَّمْتَ أُمَّتِي الدُّنْيَا وَالِدِرْهَمَ، نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَإِذَا تَرَكَوْا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ حَرَمُوا بَرَكَةَ الْوَحْيِ».

قال الفضيل: «يعني حرموا فهم القرآن».

وقد شرط الله عَزَّجَلَّ لفهم القرآن والتذكير والاعتبار بما فيه الإنابة قال تعالى: ﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق:٨]، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ [غافر:١٣].

(د) من الموانع للفهم أن يكون القارئ قد قرأ تفسيرًا ظاهرًا واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي وأن مَنْ فسر القرآن برأيه فقد تَبَوَّأَ مقعده من النار فهذا أيضًا من الحجب العظيمة.

٦- التخصيص: وهو أن يقدر القارئ انه هو المقصود بكل خطاب في القرآن فان سمع أمرًا أو نهياً، وان سمع وعدا ووعيدا فكذلك، فإن فعل ذلك قرأ القرآن قراءة العبد المأمور

: B

لتدبر القرآن فوائد عظيمة وكثيرة وما سأذكره هنا هو غيض من فيض وقليل من كثير:

١- تدبر القرآن: مفتاح للعلوم والمعارف وبه يستنتج كل خير ويستخرج منه جميع المعارف ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨].

٢- تدبر القرآن: يُثَبِّتُ الإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ وَيَشِيدُ بِنْيَانِهِ وَيُوطِدُ أَرْكَانَهُ ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالَّذِينَ نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولَهُ ﴾ [النساء:١٣٦] الآية.

٣- تدبر القرآن: يعرفك بالله عَزَّجَلَّ بأسمائه وصفاته وأفعاله وبما يحبه تعالى وما يرضيه وما يغضبه، والصراط الموصل إليه.

٤- **تدبر القرآن:** يريك طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتبهم وحركاتهم، وكذا أهل السعادة وأهل الشقاوة، ولا شك أن هذا من أهم ما ينبغي على المسلم أن يهتم به، ولا يُعفى من ذلك العامة فضلاً عن الخاصة.

فلا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بسلوك طريق الجنة والتخلق بأخلاق أهلها وكذلك اجتناب طريق النار وأهلها.

٥- يطلُّ المتدبر للقرآن على أحوال الأمم الماضية وأيام الله فيهم، من نجى منهم ومن أهلك ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٨٣]، ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ [يوسف: ١١١].

٦- **تدبر القرآن:** يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً ويوافق بعضها بعضاً، فيرى الحكم والقصة والأخبار فيه في عدة مواضع كلها متوافقة متصادقة، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند الحكيم العليم ولا شك أن كل مؤمن يصدق بأن القرآن لا تناقض فيه ولا تعارض بين أحكامه، ولكن المتدبر يرى ذلك عن قرب بتدبره لآياته فيكون يقينه أعظم وعلمه أشد والله أعلم.

٧- **التدبر:** يعرف الإنسان بمسالك الشيطان في الإغواء وقبل ذلك يعرفه بعداوة الشيطان للإنسان، فيتخذ عدواً ومن ثم يأخذ حذره منه ومن اتباع خطوات الشيطان، وبذلك يحفظه الله تعالى من الشقاء في الدنيا والآخرة، لأن الشيطان هو السبب في كل شقاء يصيب الإنسان في الدنيا والآخرة.



المبحث الثالث

لقد ذكر الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه معارج التفكير أقسام الناس عند تذكيرهم بآيات الله تعالى وذلك في تفسيره هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَعُمِيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، فرأيت أن أثبتها هنا وذلك لما فيها من الفائدة وليحذر المؤمن من أن يدخل في أحد الأقسام التي لم تنتفع بالقرآن الكريم، وليس نقلي لها من الكتاب بنصها المذكور بل بشيء من التصرف وإضافة بعض الأمور الهامة، فأقول ومن الله أرجو العون والقبول: الناس عند تذكيرهم بآيات الله المتلوة أو المنظورة ينقسمون إلى ستة أقسام:

القسم الأول: قسم يعرض عنها مباشرة دون أن يعطيها من نفسه عاطفة ولا

فكرًا ولا سمعًا ولا بصيرًا:

هذا القسم من الناس قد جعل في نفسه حاجزًا منيعًا عن آيات الله تعالى فهو لا يريد سماعها أصلاً، وذلك الحاجز أو الحاجب لأنه منشغل بأهوائه وشهواته وملذاته، فهو يخشى أن تمنعه تلك الآيات فهذا يسارع بالإعراض عن سماع الآيات وإذا سمعها لا يعطيها شيئاً من فكره أو عقله، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]. فهؤلاء قد جعل الله على قلوبهم أكنة فلا ينتفعون بالآيات المتلوة التي يذكرون بها،

قال السعدي: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي أعطية محكمة تمنعه أن يفقه

الآيات وان سمعها، فليس في إمكانه الفقه الذي يصل إلى القلب، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

أي صمماً يمنعهم من وصول الآيات ومن سماعها على وجه الانتفاع وان كانوا بهذه الحالة فليس هدايتهم سبيل».

القسم الثاني: قسم يذكر بآيات الله فيسمعها ويتفكر فيها وقد ينتفع بها،

لكن تغلبه بعد ذلك شهواته وأهواء نفسه فيعرض عنها:

وهذا القسم من الناس يصطرع في داخله الفكر والهوى، والضمير الرشيد والشهوات الجانحات، ثم تكون أهواؤه وشهواته بعد مرحلة صراع قد تطول وقد تقصر هي الغالبة، فتخضع إرادته للهوى فيكون الإعراض عن آيات الله والانهاك في الشهوات.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا القسم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقَمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

قال الطاهر ابن عاشور: «قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية: تَمَّتْ للاستفهام الإنكاري، أي لا أحد اظلم منه لأنه ظلم نفسه بحرمانها من التأمل فيما نفعه، وظلم الآيات بتعطيل الانتفاع بها وظلم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتكذيبه والإعراض عنه، وظلم حق ربه إذ لم يمثل ما أراد منه» اهـ بتصرف.

قال الميداني: إن هذا القسم من الناس قسم مجرم كالقسم الأول، إلا أن احتمال أرجي من إصلاح القسم الأول، ولذلك جاء في بيان حال القسم الأول قول الله: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، ولم يأت مثل هذا الوصف في بيان القسم الثاني.

القسم الثالث: قسم منافق يذكر بآيات ربه فيشارك المؤمنين في مظهر

الاستجابة لها:

فيخر ساجداً سجود الجسد فقط، ولكنه في قلبه كافراً فأذنه صماء وعينه عمياء عما يدعو إليه التذكير، وحاله كحال القسمين السابقين في عدم الانتفاع بالآيات وفي عدم

التذكير بها قال تعالى في المنافقين: ﴿يُخٰدِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخٰدِعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿يُخٰدِعُونَ اللَّهَ﴾ أي يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء كما قال تعالى: ﴿يُرٰءَوْنَ لِلنَّاسِ﴾ وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تخادع الله فإن من يخادع الله، يخدعه الله، ونفسه يخدع لو يشعر»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يخادع الله؟ قال: «تعمل بما أمرك الله به، وتطلب غيره».

ومن كلامهم: «من خدع الله فإنه لا يُخَدَعُ وإنما يخدع نفسه، وهذا صحيح لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن» اهد بتصرف.

فالمقصود أن هذا القسم من الناس يتظاهر بالتأثر بآيات الله وهو في باطنه مكذب بها وغير متأثر بها وهو شر الناس عافانا الله والمسلمين من جميع الأمراض القلبية والبدنية.

القسم الرابع: قسم مرء من المؤمنين:

والفرق بين هذا القسم والقسم السابق، أن هذا مؤمن بالله مصدق بآياته، ولكنه حال سماعها لم يتأثر ولم يرد وجه الله بسجوده عند سماع الآيات ولكن خشي من القيل والقال، بينما القسم السابق من المنافقين فهم لم يؤمنوا بآيات الله أصلاً ويشترك الاثنان في عدم حصول الأجر، فذاك حبط أجره بنفاقه وهذا بريائه. ثم إن من المرئيين من يخلص تارة ويرائي أخرى بحسب ما في قلبه من إيمان بالله تعالى، فعلى العموم قد يتأثر أحياناً.

القسم الخامس: قسم غافل من المؤمنين:

وهذا يسجد سجود عادة لا عبادة، ففكره وقلبه منصرف إلى ما هو مشغول به من أمور الدنيا، ولكن هؤلاء لهم من الأجر بقدر حضورهم في ذلك السجود أو عند سماع تلك الآيات، هم ليسوا من عباد الرحمن الذين سبق ذكرهم لنقص عملهم، ولأنهم لم يصلوا إلى الغاية المرجوة من التأثر بآيات الله تعالى.

وهذا القسم قد لا يكون في عمله متخذاً المنهاج الإلهي في كل صغيرة وكبيرة من أمره لنقصان حضوره كما ذكرنا بل يطيع تارة وتغلب عليه الغفلة تارة أخرى لأنهم ﴿ خَاطَؤُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢].

القسم السادس: قسم حاضر القلب والفكر ويسجد سجود المتدبر لآيات الله

تعالى:

وهذا القسم منهم مؤمنون في درجة الأتقياء وآخرون في درجة الأبرار المحسنين وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٥-١٦] الآية.

فانظر كيف بين مخافتهم من ربهم جَلَّ وَعَلَا حيث اتبع السجود وبذكر قيامهم في ظلام الليل يدعون ربهم خوفاً وطمعاً فهو لاء هم المعنيون في آية الفرقان التي نحن بصدد بيانها والله أعلم.



المبحث الرابع

إن من نتائج التدبر للقرآن التأثر والبكاء عند تلاوة القرآن أو عند استماعه، وقد كان هذا هو حال السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إِذْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَبْكُونَ عِنْدَ الاسْتِمَاعِ إِلَى الْقُرْآنِ أَوْ عِنْدَمَا يَتْلُونَهُ بِالسُّنْتِهِمْ لَيْسَ كَحَالِنَا الْيَوْمَ، نَشْكُو إِلَى اللَّهِ حَالِنَا وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَغْيِرَهُ إِلَى الْحَالِ الَّذِي يَرْضِيهِ.

وأكثر الناس إلا من رحم الله تمر عليه الشهور ولا يتذكر أنه بكى يوماً من الأيام عند سماعه لكلام الله تعالى، ومن هنا كانت الضرورة ملحة لذكر شيء من بكاء السلف عند سماعهم للقرآن ويشتمل هذا المبحث على أمرين هامين:

لقد امتدح الله عَزَّجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْبُكَاءِ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ أَوْ تِلَاوَتِهِ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنْ كِتَابِهِ: فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، جاء في سبب نزولها انه لما قدم جعفر من الحبشة هو وأصحابه ومعهم سبعون رجلاً بعثهم النجاشي وفدًا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيهم بحيرا الراهب وابر أهلية وإدريس واشرف وتمام وذو وائمن واتباعهم، فقرأ عليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةَ يَسَ إِلَى آخِرِهَا فَبَكَوْا حِينَ سَمِعُوا الْقُرْآنَ آمَنُوا، وَقَالُوا: مَا أَشْبَهَ هَذَا بَمَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَى عِيسَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ وَيَخْرُونُ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدحهم، وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يصل إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل.

في مسند الدرامي عن التميمي قال: «من أوتى من العلم ما لم يبكه لخليق ألا يكون أوتي علماً، لأن الله نعت العلماء ثم تلا هذه الآية» اهـ.

وقد ورد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا» (١).

ومن هنا قال النووي: «البكاء مستحب مع القراءة وعندها طريقة - أي كيفية تحصيله - بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك فإن لم يحضره حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من أعظم المصائب».

إن الآثار الواردة عنهم في ذلك كثيرة وسأقتصر على شيء يسير منها لعل الله يجعله سبباً في أن ينتبه المسلم إلى فقدانه لهذا الأثر العظيم من آثار القرآن على القلوب.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ذكر القرطبي في تفسيره أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمع قارئاً يقرأ سورة المدثر فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَفَرُوا فِي الْأَنْفُورِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر: ٨-١٠]، استند إلى جدار وظل يبكي فلما انصرف إلى بيته مرض شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه.

وذكر الإمام أحمد في الزهد: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يمر بالآية في ورده فتحققه العبرة فيبكي حتى يسقط ويلزم بيته إلى اليوم واليومين حتى يعاد يحسبونه مريضاً.

(١) رواه ابن ماجه عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عن عبد الله بن أبي ملكية قال صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى مكة، وكان يصلي ركعتين - أي يقصر الفريضة - فإذا نزل قام شطر الليل، ويرتل القرآن، يقرأ حرفاً وحرفاً ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب) ذكره البيهقي في الشعب.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عن نافع مولى ابن عمر قال: «كان ابن عمر يصلي بالليل فيمر بالآية فيها ذكر الجنة فيقف عندها يدعو الله تعالى ويسأله الجنة وربما بكى، ويمر بالآية فيها ذكر الناس فيقف ويتعوذ بالله ويدعو وربما بكى، وكان إذا مر بهذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن تَحْسَبَ قُلُوبُهُمْ لِيُذَكَّرَ اللَّهُ﴾ [الحديد: ١٦]، بكى وقال: بلى يا رب، بلى يا رب».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يذكر أصحاب التراجم أن القاسم بن محمد بن أبي بكر مر بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي تقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٧-٢٨]، جعلت ترددها وهي تبكي وتقول: رب من علي وقني عذاب السموم.

وذكر الإمام أحمد في الزهد أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت إذا قرأت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، تبكي حتى تبل خمارها.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال حماد بن سلمة: قرأ ثابت البناني: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، وهو يصلي بالليل، فجعل يردددها وينتحب.

قال جعفر بن سليمان: بكى ثابت حتى كادت عينه تذهب، فنهاه الكحال عن البكاء، فقال ثابت: ما خيرهما إذا لم يبكيها، وأبى أن يعالج عينيه.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جاء في سير أعلام النبلاء: بينما محمد بن المنكدر ذات ليلة قائم يصلى إذ استبكى فكثر بكاؤه حتى فزع أهله، وسألوه فاستعجم عليهم وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى صاحبه أبي حازم، فجاء إليه فقال: ما الذي أبكاك؟ قال: مرت بي آية ﴿ وَبَدَأَ هُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] فبكى أبو حازم معه فأشدد بكاؤهما.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال أشهب بن عبد العزيز: خرجت ذات ليلة بعد ما رقد الناس لحاجة فمررت بمنزل مالك بن أنس فإذا هو قائم يصلى، فلما فرغ من قراءة الفاتحة، ابتداء ﴿ أَلْهَنَكُمْ أَتْكَأْتُ ﴾ حتى بلغ ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ فبكى بكاء طويلاً، ثم جعل يرددّها ويبكى، وشغلني ما اسمع من كثرة بكائه عن التوجه إلى حاجتي، ولم أزل قائماً وهو يرددّها ويبكى حتى طلع الفجر.



المبحث الخامس

لقد ذكرت في المبحث الأول في خلاصة أقوال المفسرين حول الآية الكريمة أن القرآن يصبح منهج حياة لعباد الرحمن الذين تأثروا به ﴿لَمْ يَخْرُؤْا﴾ عند سماعه ﴿صُمَّا وَعُمِيَانَا﴾؛ ومن أفضل ما يستدل به على ذلك أعني الناحية العملية النظر في حياة الصحابة الذين ضربوا لنا أروع الأمثلة في الاستجابة لكلام الله تعالى والقيام بتطبيقه في كل صغيرة وكبيرة من شؤون حياتهم ولهذا سأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة الدالة على ذلك:

أولاً: عمل الصحابة بقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾:

قال القرطبي: في تفسيره: «عن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عم لي، ومعني شيء من الماء، وأنا أقول إن كان له رمتق سقيته، فإذا أنا به - على قيد الحياة - فقلت: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا برجل يقول آه... آه، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه فإذا هو هشام ابن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار نعم فسمع رجل آخر يقول آه... آه، فأشار هشام انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، ورجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات».

وعن أنس قال: أهديت لرجل من الصحابة رأس شاة وكان مجهوداً - أي شديد الفقر - فوجه به إلى جار له، فتداوله سبعة أبيات ثم عاد للأول فنزلت ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثانياً: حرص الصحابة على العمل بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا

أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية.

روى الإمام أحمد وابن جرير - واللفظ له - عن محمد بن ثابت بن قيس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ﴿قعد ثابت - يعني أباه - في الطريق يبكي، فمر به عاصم بن عدي فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية: أتخوف أن تكون نزلت فيّ، وأنا صيّت، رفيع الصوت، قال فمضى عاصم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومضى ثابت إلى امرأته، فقال لها: إذا دخلت بيت فرشي - غرفة نومي - فشدي عليّ الضبة بمسمار ففعلت قال: لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: وأخبر عاصم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبره، فقال: «ادعه لي»، فجاء إلى المكان الذي تركه فيه فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفراش، فخرجا فأتيا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: «ما يبكيك يا ثابت؟» فقال: أنا صيّت وأتخوف هذه الآية، فقال: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة»، فقال: رضيت ببشرى الله وبشرى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وجاء عند أحمد: «قال أنس فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة»، واستشهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم اليمامة.

وأخرج البزار في مسنده عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ﴿قلت: «يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار»، أي يكلمه كأنه يقول له سرّاً، وهكذا جاءت الرواية عن عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تفسير ابن كثير.

ثالثاً: عمل الصحابة بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿المائدة: ٩٠﴾.

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «بينما كنت أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجانة، ومعاذ بن جبل وسهل بن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من الخمر،

إذ سمعت مناديا ينادي: أَلَا إِنَّ الْخُمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ قَالَ: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سلمة ثم خرجنا إلى المسجد»^(١).

رابعاً: عمل الصحابيَّات بآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

عن صفية بنت شيبة قالت: «بينما نحن عند عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ذكرت نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة: إن لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشدُّ تصديقاً لكتاب الله إيماناً بالتنزيل، لما نزل قول الله تعالى ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾. انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله فيها، يتلو الرجل على زوجته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معتجرات كان رؤوسهن الغربان»^(٢).



(١) رواه ابن جرير الطبري.

(٢) رواه أبو داود.

الصفة الثالثة عشرة:

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا
مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾

الدعاء بصلاح الأزواج والذرية



الْمَقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين أصلى وأسلم على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: ففي قوله تعالى - حكاية عن عباد الرحمن أو إخبارًا بما يجب عليهم أن يدعوا ربهم به-: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ثلاث دعوات هي أكبر همهم: الأولي: صلاح الذرية والأزواج، والثانية: الإمامة في الدين، والثالثة: الرسوخ في صفة التقوى، لأنه لا ينال الإمامة في الدين إلا من رسخ في التقوى.

وبناءً عليه أقول تضمنت الآية هذه الخصال الثلاث وكل واحدة منها تحتاج إلى بحث مستقل وهو ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وأما ما يتعلق بسؤال عباد الرحمن ربهم أن يصلح لهم أزواجهم وذرياتهم فسوف أتناوله في ثلاث مباحث:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في الآية الكريمة.

المبحث الثاني: فضل تربية الأولاد وأهميتها.

المبحث الثالث: صفات المربي الناجح.



المبحث الأول

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ *Q* *fi*

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ الخ الآية يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلاهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة.

وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: «أن يُرِيَ اللهُ العبدَ المسلمَ من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله... لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدًا، أو والدًا، أو أخًا، أو حميمًا مطيعًا لله عَزَّجَلَّ».

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن جبير بن نصير قال: جلسنا إلى المقداد ابن الأسود يومًا فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لو دنا لو أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرًا، ثم أقبل إليه فقال: «ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضًا غيبة الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقوام أكبرهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيئوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم، لقد بعث الله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أشرف حال بعث عليها نبيًا من الأنبياء في فترة جاهلية، ما يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده، إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرًا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإنها التي

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه» (١) أهـ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ الآية قال الضحاك: «أي مطيعين لك»، وفيه جواز الدعاء بالولد كما في دعاء ذكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وهذا نحو قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه». وذلك أن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قرت عينه بأهله وعياله حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر - أي عقل - وحوطة - أي احتياط في أمرها - وكانت عنده ذرية محافظون على الطاعة معاونون له على وظائف الدين والدنيا لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده، فتسكن عينه عن الملاحظة، ولا تمتد عينه إلى ما ترى، فذلك حين قرأ العيون، وسكون النفس.

وقرة العين يحتمل أن تكون من القرار ويحتمل أن تكون من القر - وهو الأشهر - والقر هو البرد، لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد، وأيضاً فان دمع السرور بارد ودمع الحزن سخن، فمن هذا يقال: أقر الله عينك، أي أسخن الله عين العدو؛ وقال الشاعر:

فكم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها اليوم ساكب (٢)

قال الميداني رَحِمَهُ اللهُ: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ الآية.

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يتمنون أن تكون أزواجهم وذرياتهم من أهل الإيمان والتقوى والعمل الصالح، حتى تكون أسرهم معينة لهم على مرضاة الله ونشر الدين، أسوة حسنة بين الناس وبذلك تكون قررة أعين لهم في الدنيا وفي الآخرة.

(١) باختصار من تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير القرطبي - سورة الفرقان.

ولذلك يحرصون على اختيار الزوجات الصالحات وعلى مجاهدتهن حتى يكن قدوة حسنة للزوجات، ويحرصون على تربية ذرية صالحة يقدمونها لمجتمعاتهم أمثلة فاضلة وأسوة حسنة.

فالزوجة الملائمة الصالحة هي خير متاع الدنيا، روى مسلم عن عبد الله ابن عمرو ابن العاص أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة». ثم إنه من أعظم سعادة الدنيا الذرية الصالحة النجبية الرشيدة ولهذا سأل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ واستجاب الله له فقال: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصفات: ١٠٠-١٠١] (١) اهـ.

يُؤْخَذُ مِنْ أَقْوَالِ الْمُفْسِّرِينَ مَا يَأْتِي:

- ١- أن عباد الرحمن يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء للوصول إلى غاياتهم وقضاء مآربهم مع بذل الأسباب، لأن من أراد الذرية الصالحة لا بد له من الزوجة الصالحة.
- ٢- أن عباد الرحمن جعلوا أكبر همهم طاعة الله تعالى ابتداءً من إصلاح نفوسهم مروراً بإصلاح ذرياتهم وزوجاتهم وانتهاء بكل مسلم وغيره، ولهذا يسعون في تعليم الناس وإرشادهم.
- ٣- لا سعادة ولا هناء في الحياة الدنيا إلا بالدين والالتزام بأوامر الشرع لأن عباد الرحمن سألوا الله قررة العين ولا تكون إلا بصلاح الذرية والزوجات، فرجع الأمر إلى أن السعادة في الدين لا غيره.
- ٤- هذه الآية مكية قبل أن تفرض على المسلمين الفرائض وهذا يعني أن المسلم يجب عليه أن يهتم اهتماماً بالغاً بذريته ولا تفر عينه حتى يراهم صالحين طائعين خشية أن يكونوا من أهل النار كما أشار إلى ذلك قول المقداد بن الأسود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) بتصرف من معارج التفكير.

المبحث الثاني

إن تربية الأولاد على الفضيلة والهدى والصلاح يعتبر من أعظم مهمات الأب المسلم في هذه الحياة، وهي - التربية - لعظيم خطرها احتاج عباد الرحمن أن يسألوا ربهم ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فالأمر يحتاج إلى دعاء، وبجانب الدعاء لا بد من العلم والعمل لنصل إلى المطلوب من الإحسان إلى الأولاد وتأديبهم ومن هنا أحببت أن أبين فضل التربية وأهميتها في دين الله تعالى ويتضح ذلك من خمس نقاط على النحو الآتي:

أولاً: قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْأَ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦]. قال ابن كثير في تفسيرها: عن ابن عباس ﴿ فَوْأَ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ يقول اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار) وقال قتادة: «تأمرهم به، وتساعدهم عليه، فإذا رأيت معصية لله قذعتهم عنها وزجرتهم عنها».

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها»، وأخذ به الفقهاء، وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعاصي وترك المنكر والله الموفق» اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قال شيخنا - يعني ابن تيمية - وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي وأمره الذي أوجبه الله عليه: فهو عاص، ولا ولاية له عليه، بل كل من لم يقيم بالواجب في ولايته فلا ولاية له» اهـ.

وذكر حادثة شهدها شيخ الإسلام ابن تيمية أمام القاضي يقول: «تنازع أبوان صبيًا عند بعض الحكام فخيره بينهما، فاختر أباه، فقالت له أمه: أسأله لأي شيء يختار أباه؟ فسأله: فقال: أمني تبعثني إلى الكتاب كل يوم، والفقير - يعني المحفظ - يضربني وأبي يتركني ألعب مع الصبيان، ففضى به للأُم، وقال أنتِ أحقُّ به» اهـ.

ثانيًا: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: 7].

وإنما كانت هذه الآية مما يدل على أهمية التربية وفضلها لأن الله تعالى ذكر قبلها: ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۗ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ... ﴾ الآية فذكرها هنا ما أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ مِنَ التَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ عَقِبَ بِتَرْبِيَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ التَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَرْبِيَةِ جِيلٍ صَالِحٍ، وَتَبْدَأُ هَذِهِ التَّرْبِيَةُ الصَّالِحَةِ مِنْذَ أَيَّامِ الرِّضَاعَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾.

يذكر الذهبي في ترجمة أبي المعالي الجويني - وكذا السبكي في طبقات الشافعية - وكان الإمام أبو المعالي إذا تكلم صوته كالرعد القاصف، ويسترسل في الكلام كال موج الهادر وعلمه كالبحر الواسع، وبينما هو ذات يوم في مجلسه فبدأ الحديث فتلجلج وانقطع الكلام، فسكت وبكى ثم قال: «أنا أعرف سبب هذه اللجلجة، قيل: ما سببها؟ قال: المصّة، قيل: وما خبر المصّة: قال حدثني أبي أنني حين كنت رضيعًا انشغلت أُمِّي عَنِّي بِبَعْضِ أُمُورِ الْبَيْتِ، فَبَكَيْتُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَدَخَلَتْ أُمَّةٌ لِحَارِنَا، فَرَأْتَنِي أَبْكِي فَحَمَلْتَنِي وَالْقَمْتَنِي ثَدِيهَا فَرَضَعْتُ مِنْهُ، فَدَخَلَ أَبِي فَخَطَفَنِي مِنْهَا وَقَالَ: أَنْتِ أُمَّةٌ لِحَارِنَا وَلَا يَجِلُّ لِبَنِكَ لَابْنِي إِلَّا بِأَذْنِهِ، وَلَا أَطْعَمُ ابْنِي إِلَّا حَلَالًا ثُمَّ وَضَعُ إِصْبَعَهُ فِي فَمِي فَتَقِيَّاتُ كُلِّ مَا شَرِبْتَ إِلَّا مَصَّةً، فَهَذِهِ الْمَصَّةُ سَبَبُ اللَّجْلَجَةِ».

فهذه القصة تبين ما في قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ فلا بد أن تبدأ التربية من سن الرضاع فلا ترضع الأم ولدها إلا من لبنها الحلال وهذا ينبني على أن تأكل الأم من الحلال حتى ترضع طفلها لبنًا حلالًا.

ثالثًا: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ... ﴾ [لقمان: ١٣-١٩]، لقد سمي الله تعالى هذه السورة باسم لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه كان رجلًا حكيمًا، ووضع في وصاياه أسس التربية الصالحة، مما يبين فضل التربية وأهميتها، ولقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يعتبر النموذج الأمثل في إسداء النصائح النافعة للأولاد، وسأذكر نصائحه مجملة من كلام السعدي في تفسيره للآيات (١٣-١٩) من سورة لقمان قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الوصايا التي وصى بها لقمان ابنه تجمع أمهات الحِكم وتستلزم ما لم يذكر منها، فأمره بأصل الدين وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك وبين له الموجب لتركه.

وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكر الله وشكر الوالدين، وأمره بمراقبة الله، وخوف القدوم عليه، وأنه تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن الأشر والبطر والمرح وأمره بالسكون في الحركات والأصوات ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمره بإقامة الصلاة وبالصبر اللذين يسهل لهما كل أمر، كما قال تعالى: ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥].

فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصًا بالحكمة مشهورًا بها، ولهذا من منه الله على عباده أن قص عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوة حسنة» اهـ.

قلت: لو أن الآباء تدبروا هذه الوصايا من لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وفهموها حق الفهم ثم أوصوا بها أبناءهم قبل أن يشتد عودهم لأن الولد إنما يقبل النصيح ما دام في زمن الصبي

حيث يستمع إلى أبيه بكل شوق ومحبة فحينها لا تزال نصائح والده تعلق بأذنه وعقله لا تكاد تفارقه وبهذا يكون الانتفاع إن شاء الله تعالى.

رابعاً: جملة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على تربية الأولاد والاهتمام بشأنهم وبيان فضيلة ذلك:

١- روى أهل السنن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيرفع في الجنة درجات فيقول يا رب بم رفعتني هذا ولم يبلغني إياه عملي، فيقال: باستغفار ولدك لك»، وفي رواية: «يأتي الرجل يوم القيامة فيجد في ميزانه أمثال الجبال من الحسنات، فيقول: يا رب بم هذا؟ ولم يبلغه عملي، فيقال: باستغفار ولدك لك؟ فانظر أخي الأب المربي: ما لك عند الرحمن الرحيم في مقابل تربيته الناجحة لولدك ألا يستحق رفع الدرجات في الجنة الصبر على تأديب الأولاد وتعليمهم وإرشادهم إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة، وقد تبلغ درجة في الجنة ما كنت لتصل إليها لولا أن رزقك الله أولاداً فأحسن تربيتهم وأديت دورك تجاههم على الوجه الذي يرضى ربك جَلَّ وَعَلَا.

٢- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

٣- وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»^(٢).

قلت: هذا الحديث جاء في تعظيم إثم من يضيع التربية البدنية وذلك بتضييع قوتهم فكيف بالذي يضيع تربيتهم الروحية، ويا للأسف لقد كثرت في هذا الزمان اهتمام الآباء بتوفير الطعام والشراب واللباس ولكن ضيعوا الدين والأدب من حياة أبنائهم، وبهذا

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والنسائي وغيرهما.

أصبحت حياة الأسر في جحيم لا يطاق، وذلك لقلّة الاهتمام بدين الأولاد، فلا يكاد الأب يسأل أبنائه عن صلاتهم أو حفظ كلام الله تعالى أو القيم التي يجب أن يتخلقوا بها بينما يشتد السؤال عن مذاكرة الدروس المدرسية أو الجامعية إلى درجة العقاب والثواب، فهل يا ترى هذا الأب حفظ أم ضيع؟

وأيضاً بعض الآباء الملتزمين يظنون أنه بمجرد اختيار اسم ولده، ثم إذا كبر دفعه إلى الخلوة أو مركز تحفيظ وانتهت مهمته إلى هذا الحد، ثم لا يسأل عن أدبه وخلقه، وهذا أيضاً تقصير كبير، بل لا بد من المتابعة المستمرة في التربية إلى سن البلوغ وبعدها تكون الصداقة وحسن الصحبة والرفق في التأديب والإرشاد.

ويدل على ما نبهنا عليه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلُ كُلِّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرَعَاهُ حِفْظَ أَمِّ ضَيْعٍ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(١)، وورد في البخاري ومسلم من حديث ابن عمران أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا».

٤- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ ابْتَلَى مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ مِنْ شَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٢).

وعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كُنَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يُوَدَّبُهُنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ وَيَكْفُلُهُنَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنْ كَانَتْ اثْنَيْنِ؟ قَالَ: «وَأِنْ كَانَتْ اثْنَيْنِ»، قَالَ فَرَأَى بَعْضُ الْقَوْمِ أَنَّ لَوْ قَالَ وَاحِدَةً لِقَالَ لَوْاحِدَةً^(٣).

(١) رواه ابن حبان في صحيحه من حديث الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه أحمد بإسناد جيد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبِرَ عَلَى لَأْوَائِهِنَّ وَضَرَائِهِنَّ وَسَرَائِهِنَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ إِيَّاهُنَّ»، فَقَالَ رَجُلٌ: «وَإِثْنَانِ يَا رَسُولَ؟ قَالَ: «وَإِثْنَانِ»، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَوَاحِدَةً، قَالَ: «وَوَاحِدَةً»^(١).

في هذه الأحاديث يخص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تربية البنات بمزيد من الاهتمام وما ذلك إلا لأنهم كانوا في الجاهلية يقتلونهن وهنَّ أحياء بل كانوا يرون من العيب والعار أن يرزق الرجل بنت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

قال ابن حجر في شرح قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فأحسن إليهن» وشرط الإحسان أن يوافق الشرع لا ما خالفه، والظاهر أن الثواب المذكور إنما يحصل لفاعله إذا استمر إلى أن يحصل استغناؤهن عنه بزواج.

وفي الحديث تأكيد حق البنات لما فيهن من الضعف غالباً من القيام بمصالح أنفسهن، بخلاف الذكور لما فيهم من قوة البدن وجزالة الرأي وإمكان التصرف في الأمور المحتاج إليها في أكثر الأحوال.

قال النووي تبعاً لابن بطال: «إنما الابتلاء - في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من ابتلي من هذه البنات»؛ لأن الناس يكرهون البنات، فجاء الشرع بزجرهم عن ذلك، وورغب في إبقائهن وترك قتلهن بما ذكر من الثواب الموعود به لمن أحسن إليهن وجاهد نفسه في الصبر عليهن»^(٢) اهـ.



(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) من الفتح (٣٩/١٢) بتصرف.

المبحث الثالث

لما كانت التربية بتلك الأهمية في الإسلام كما أسلفنا لم يكن في وسع كل أحد أن ينجح في تربية أولاده، ومن ثم كان لا بد من معرفة المربي الناجح (أبا كان أو أمًا).

وهذه الصفات استخلصها من كتاب: (كيف تربي ولدك) للأخت الفاضلة ليلي بنت عبد الرحمن أثابها الله، وكتاب (مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة) للأخ الفاضل: عدنان باحاراث أثابه الله على ما قدم في كتابه الرائع، وليعلم القارئ أن نقلى من هذين الكتابين فيه نوع تصرف وشيء من الزيادات:

العلم هو عدة المربي في العملية التربوية إذ لا بد لمن أراد أن يخرج للبشرية إنسانًا صالحًا نافعًا للأمة أن يكون عنده من العلم ما يمكنه من القيام بتلك التربية المنشودة، وليس المطلوب أن يكون عالمًا بالكتاب والسنة وكل ما يتعلق بهما بل المطلوب كما حدده العلماء (القدر الذي يتوقف عليه معرفة العبادة التي يريد أداءها أو المعاملة التي يريد القيام بها) فيجب عليه أن يتعلم العبادات وما يتعلق بها، والمقصود بالمعاملات أبواب النكاح والبيوع ونحوها، لكن هذا العلم متوقف على ما يحتاجه من هذه المعاملات.

وقبل هذا كله ينبغي أن يتعلم المربي ما تصح به عقيدته والبعد عن البدع والخرافات التي تقدح في العقيدة.

ولو نظر المتأمل في أحوال الناس لوجد أن جل الأخطار العقدية والتعبدية إنها ورثوها عن آبائهم وأمهاتهم، ويظلون عليها إلى أن يقبض الله لهم من يعلمهم الخير ويرشدهم إليه من العلماء والدعاء، أو يموتون على جهلهم.

ومن محاذير جهل المربي أنه يحول بين أبنائه وبين الحق بجهله، وقد يعاديه لمخالفته إياه، كمن ينهى ولده عن طلب العلم أو عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، ويحوّل حياة الولد إلى جحيم بسبب قيامه بأمر الله.

ومن العلم الذي يحتاجه المربي: أساليب التربية الإسلامية ويدرس عالم الطفولة، لأن لكل مرحلة قدرات واستعدادات نفسية وجسدية وعلى حسب تلك القدرات يختار المربي الوسائل المناسبة العقيدة والقيم وحماية الفطرة السليمة، ولذا نجد اختلاف الوسائل التربوية بين الأطفال إذا اختلفت أعمارهم، بل إن الاتفاق في العمر لا يعني تطابق الوسائل التربوية إذ قد تختلف باختلاف الطبائع واختلاف البيئة أيضًا له دور كبير في هذا المجال.

ومما ينبغي أن يتعلمه المربي: أن يعرف ما في عصره من مذاهب هدامة، وتيارات فكرية منحرفة، فيعرف ما ينتشر بين الشباب والمراهقين من المخالفات الشرعية كالتدخين والمخدرات والشذوذ الجنسي في بعض الدول، ليكون أقدر على مواجهتها وتربية الأبناء على الآداب الشرعية.

. . .

قال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، قال رَحِمَهُ اللهُ: يعظم تعالى شأن الأمانة التي أئتمن الله عليها المكلفين، التي هي امثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية وأنه تعالى عرضها على السموات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحميم وأنك إن قمت بها وأديتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقم بها ولم تؤديها فعليك العقاب ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، فانقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

منافقون: قائمون بها ظاهراً وباطناً، ومشركون: تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون: قائمون بها ظاهراً وباطناً. إنما نقلت هذا الكلام في تفسير الآية ليعلم المربي أن من جملة الأمانة التي كلفه الله بها تربية أولاده تربية صالحة ومن مظاهر الأمانة أن يكون المربي حريصاً على أداء العبادة آمراً بها أولاده، ملتزماً بالشرع في شكله الظاهر وفي الباطن، يسلك في حياته سلوكاً حسناً وخلقاً فاضلاً مع القريب والبعيد في كل مكان، لأن خلقه هذا حرصاً منه على حمل الأمانة بمعناها الشامل.

· · ·

تعتبر القدوة من أهم الوسائل التربوية أن لم تكن أهمها على الإطلاق، وذلك لوجود تلك الغريزة الفطرية في الطفل ألا وهي غريزة المحاكاة والتقليد وهي تدفع الطفل دفعاً نحو تقليد الوالدين.

ويبدأ التقليد عند الأطفال عادة منذ السنة الثانية تقريباً، ويبلغ التقليد غايته في سن الخامسة أو السادسة ويستمر معتدلاً حتى الطفولة المتأخرة، ولا شك أن هذا التقليد دليل على محبة الأولاد لأبائهم وليس نابغاً من خوف وخشية.

وبناء على هذا يكون تعوُّدُ الأطفال على فعل الخير بالقدوة الصالحة في أول الأمر هو المنهج الصحيح للتربية الإسلامية، إذ إن العقيدة الإسلامية لا يكفي أن تكون في قلب المسلم دون أن يكون لها واقع عملي يترجم عنها في السلوك الإسلامي الصحيح في جميع مجالات الحياة فالطفل في حوالي السنة السادسة من عمره تقريباً يمكن أن يحدد مدي التزام أهله بالتوجيهات التي يأمرونه بها، فالتلقين لا يثمر مع الولد وإن استعملت معه

جميع أنواع ووسائل التربية إن لم توجد القدوة الصالحة التي تكون بمثابة ترجمة عملية للمعاني المجردة.

وقد تنبه السلف الصالح رضوان الله عليهم إلى هذا الأمر وأهميته، فهذا عمرو ابن عتبة ينبه معلم ولده لهذا الأمر فيقول: «ليكون أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقيح عندهم ما تركت»، فالأطفال لا يدركون المعاني المجردة بسهولة، ولا يقتنعون بها بمجرد سماعها من المربي بل لا بد من المثال الواقعي المشاهد.

.

يكاد يجمع التربويون على أن الحب والعطف والحنان من أهم أساسيات ودعائم التربية، فإن الحب يتمثل في الحنو على الولد وتقبيله واحتضانه وإظهار محبته، والعطف عليه والطفل وإن كان صغيراً ضعيف الإدراك قليل الفهم إلا أنه يعي البسمة الحانية، ويدرك الغضب.

وقد استفاضت السنة المطهرة بروايات عديدة تظهر أهمية هذا الجانب في التربية والتوجيه ومن ذلك:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا»^(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢).

(١) رواه الحاكم بسند صحيح.

(٢) أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَهُ يَقْبَلُ صَبِيَانَهُ فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»^(١).

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْبَلُ الْحَسْنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَلَاعِبُهُمَا، وَدَخَلَ عَلَيْهِ عَمْرُ فَرَأَهُ جَائِئًا عَلَى رِكْبَتَيْهِ وَقَدْ ارْتَحَلَهُ الْحَسْنَ وَالْحُسَيْنَ، أَي رَكَبَا عَلَى ظَهْرِهِ، فَقَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نَعَمَ الْجَمَلُ جَمَلَكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَنَعَمَ الْفَارِسَانُ هُمَا».

قال باحارث: «لا بد للأب المسلم أن ينتهجه - إظهار الحب - مقتدياً برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيفيض على أولاده من حبه وحنانه ولا يبخل عليهم بذلك، خاصة وأن هذه القضية فطرية في قلوب الآباء فليس في إظهارها تكلف بل إن التكلف في كتمانها».

والحكمة وضع الشيء في موضعه أو بمعنى آخر: تحكيم العقل وضبط الانفعال، وهذا المعنى خاص بمقام التربية، ولكن لا يكفي أن يكون الأب قادرًا على ضبط الانفعال واتباع الأساليب التربوية فحسب، بل لا بد من استقرار منهج تربوي واضح يكون متفقًا عليه بين الأب والأم والجد والجددة، وبين البيت والمدرسة والشارع والمسجد وغيرها من الأماكن التي يرتادها الولد، لئلا يحصل تناقض بينها فيؤدي ذلك إلى تعرض الطفل على مشاكل نفسية.

وعلى هذا ينبغي أن يتعاون الوالدان على تنفيذ الأسلوب التربوي المناسب، وإذا حدث أن أمر الأب ولده بأمر لا تراه الأم مناسبًا فعليها ألا تعترض على الأب ولا تسفه رأيه بحضرة الولد بل تطيع وتنقاد ثم يتم الحوار معه فيما بعد سرًا دون أن يشعر الولد بشيء غير طبيعي.

(١) أخرجه الترمذي بسند صحيح.

لعل فيما سبق ذكره من صفتي الأمانة والقدوة دليلاً واضحاً على ضرورة صلاح الأب، وليس المقصود هنا بيان الصلاح لذاتها ولكن لبيان أثرها في التربية الصالحة، إذ لصلاح الآباء أثر كبير في استقامة الأولاد في حياة آبائهم وبعد ماتهم ودليل ذلك قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] جاءت هذه الآية في قصة موسى مع الخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عندما رفعوا جدار اليتيمين.

قال القرطبي في تفسيره: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾: ظاهر اللفظ أنه والدهما الأدنى أي الأب الأقرب - وقيل هو الأب السابع قاله جعفر بن محمد، وقيل هو الأب السابع قاله جعفر بن محمد، وقيل العاشر: فحفظا - أي اليتيمين - فيه، ففيه ما يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده، وإن بعدوا عنه - أي كانوا من أحفاده - وقد روي أن الله تعالى يحفظ الصالح في سبعة من ذريته، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

قال السعدي: وهو يذكر فوائد قصة موسى مع الخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «ومنها أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته».

ومن هنا كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحرصون على إصلاح النفس وزيادة أعمال الخير حتى يدخلوا في زمرة الصالحين، ورد عن سعيد ابن المسبب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِابْنَتِهِ (إِنِّي لَا أَزِيدُ فِي صَلَاتِي رَجَاءً أَنْ أُحْفَظَ فِيكَ ثُمَّ يَقْرَأُ) ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

ولعل صلاح الأبناء بسبب صلاح الآباء مما هو معروف من قديم الزمان فالناظر في سير سلفنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجد كيف أن الأبناء يصلحون بسبب صلاح آبائهم، وإن وجد ما يخالف هذه القاعدة لدى بعض الدعاة والصالحين في هذا الزمان فليس ذلك بحجة على

أنه هو الغالب، ثم إن هذه الشبهة أدت ببعض الناس إلى التشكيك في صدق وإخلاص أولئك الدعاة الذين انحرف أبناؤهم عن الجادة.

ونحن نردُّ على هؤلاء بأن نقول لهم اذكروا موقف ابن نوح من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقد أبى أن يركب في السفينة وآثر الكفر والغرق على الإيمان والنجاة، فهل قصر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في تربيته ودعوته الجواب حتمًا لا؛ ولهذا نقول إن هؤلاء الذين يشككون في صلاح بعض الدعاة الذين انحرف أبناؤهم ليس لهم حجة في ذلك وهم يعلمون ذلك ولكنهم يلتمسون العيب والنقص أو يريدون بذلك الصد عن سبيل الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

• • • • •

جاءت الشريعة الإسلامية المباركة بالأمر بالعدل بين الأولاد والتسوية بينهم وذلك تفاديًا للتحاسد والتحاقد بينهم، فقد يحقدون أحيانًا على أبيهم نفسه، والأب مأمور بترك الأسباب التي تثير العقوق في نفس ولده.

والعدل يتأكد على وجه الخصوص في العطايا المادية كأن يهب أحد أولاده مالا أو عقارا دون الآخرين، فقد ورد في الحديث النهي عن التفريق بين الأولاد في الهبة والعطية ومن ذلك.

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ - أُمُّ النُّعْمَانِ - لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَى - بَشِيرٌ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي هَذَا مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ (١).

قال ابن حجر في الفتح: لمسلم - أي في صحيح مسلم - : «لا تشهدني على جور»، وفي رواية: «اعدلوا بين أولادكم في النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر».

ثم بين العدل بين الأولاد وفي العطية فقال [بتصرف]:

ذهب طاووس وأحمد والثوري وإسحاق وبه قال بعض المالكية أن العدل بين الأولاد واجب، ودليلهم على ذلك رواية مسلم: «لا تشهدني على جور»، وفي بعض الروايات: «لا أشهد إلا على الحق».

وذهب الجمهور إلى أن التسوية مستحبة فإن فضل بعضهم على بعض كره ذلك، واستدلوا على ذلك أدلة من أهمها أن التسوية لو كانت واجبة لما أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإشهاد غيره حيث قال له: «أشهد على هذا غيري»، إلا أن هذا استدلال ضعيف لوجود رواية أخرى: «إني لا أشهد إلا على الحق» اهـ.

لقد ذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبعد من الحث على العدل في العطية إلى الحث على التسوية بينهم حتى في القبل حيث ورد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في مجلس ومعه رجل فجاء ابن الرجل فأخذه فقبله ووضع حجره، ولما جاءت بنته أجلسها إلى جنبه، فقال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ألا سويت بينهما»، وفي رواية: «فما عدلت بينهما»^(١). ولا يعني العدل تطابق أساليب المعاملة بين الجميع إذ لا بد أن يتميز الصغير والطفل والعاجز والمريض على عكسهم، وذلك لحاجة أولئك للعناية.

وكذلك الولد الذي يغيب عن الوالدين بعض أيام الأسبوع للدراسة أو العمل أو العلاج ولا بد أن يبين الوالدان لبقية الأولاد سبب تميز المعاملة بلطف وإشفاق، وفي الغالب أن بقية الإخوة يتسامحون في مثل التفريق.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل.

وأخيراً يجب أن ينتبه الوالدان إلى أن هناك أشياء تثير في نفوس الأولاد التحاسد والتباغض، ومن ذلك: عقد المقارنات بينهم، فيمدح هذا ويذم ذاك سواء في مجال الدراسة أو مجال حسن التصرف وحسن الخلق، أو يقارن بينهم في البر وعدمه ويزداد الأمر سوءاً إذا كانت تلك المقارنات في حضور الأقارب والأصدقاء والله أعلم.

. : .

يميل الأولاد-خاصة بعد الثامنة- إلى الجلوس والحديث إلى آبائهم ويحلمون أن يكونوا على شاكلتهم، ويرغبون في السماع إلى توجيهاتهم.

فينبغي للأب المسلم أن يستغل هذه الفرصة فيخاطبه ويوجهه التوجيه الصحيح المثمر، ولا ينبغي الانشغال عن الأولاد بالكلية بأي أمر كان، فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رغم انشغاله بأمور المسلمين والجهاد وسياسة الدولة، لم يمنعه ذلك من مخالطة الأولاد، إذ كثيراً ما يدخل عليه الصحابة فيجدوه مع الحسين، وربما جلس لهما عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كالفرس يمتطيان ظهره الشريف، وربما صلى وهو يحمل أحد أولاده أو بناته - أعني أحفاده - فهذا شأنه مع الصغار.

وأما الأطفال المميزون فقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمازحهم بما يعقلون فيقول لأحدهم: «يا ذا الأذنين»، وربما قال لأحدهم: «يا أبا عمير ما فعل النغير»، وربما مج في وجه أحدهم الماء يمازحه بذلك، وهؤلاء لم ينسوا تلك المواقف منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طيلة حياته.

فالأب المسلم مدعو للاقتداء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المجال التربوي الهام، فإن لم يتمكن من مخالطتهم دائماً خصص لذلك وقتاً معيناً في اليوم والليلة يجلس فيه مع أولاده يتحدث إليهم ويتبسط معهم ويدخل عليهم السرور مستعملاً في ذلك الكلمات الجميلة، والنظرات المشفقة الحانية والعناق والقبل، حتى وأن بلغ سن التمييز فلا مانع

من ذلك ولو في مشهد من الناس لكن شريطة أن لا يكون مستنكراً عرفاً، فإن كان العرف يستنكر تقبيل الولد بعد سن التمييز فعلى الأب أن يجعل ذلك خاصاً بالبيت.

تنبيه: هذه المخالطة التي أشرنا إليها تقتضي وجود الأب في البيت وعدم غيابه فترة طويلة بعيداً عن أولاده، فان اقتضت الضرورة السفر مثلاً لسنوات قد تطول فيها هنا يجب عليه أن يلاحظ أمرين هامين:

الأول: أن تكون الأم صاحبة شخصية قوية مطاعة من قبل الأولاد فإن انتفت هذه الصفة في الأم فإن تربية الأولاد ستصبح غير مضمونة النتائج إذ قد ينحرف الأولاد لعدم طاعتهم لأهمهم.

الثاني: أن يكثر من الاتصال تلفونياً ويسأل عنهم ويصدر توجيهاته لهم وكأنه موجود معهم، فلعل هذا أن يعوض الغياب البدني، ولا ينسي أن يعدهم بالهدايا التي يجونها عند عودته.... والله أعلم.

• • •

الدعاء واللجوء إلى الله تعالى له دور كبير في إصلاح الأولاد واستقامتهم على دين الله تعالى، والدعاء أكرم شيء على الله تعالى ومن المعروف أن دعوة الوالد لولده مستجابة، ولذا حذر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوالدين من الدعاء على أولادهم فقد توافق ساعة إجابة.

وقد كان الأنبياء يدعون لأولادهم، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول في دعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وهذا ذكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]. لهذا لا ينبغي للوالدين أبداً أن يتركا الدعاء أو أن يقصرا فيه، قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ومما ينبغي الحذر منه اللعن أو الدعاء بشر عند الغضب، وهذا يحصل كثيراً من الأمهات، تجد إحداهن إذا سخطت على ولدها قالت: لعنك الله؛ أو لا وفقك الله وغير ذلك، نقول لهذه الأم أرأيت لو لعنه الله، ما هو موقفك وإذا لم يوفقه الله فهذا يعني تدمير دنياه وأخرته، وهل ترضى أم شيئاً من هذا لولدها، وقد نُقِلَ عن ابن المبارك أنه جاءه رجل يشكو إليه عقوق ولده، فسأله ابن المبارك:

هل دعوت عليه أم لا؟ فأجاب قد دعوت عليه، فقال له: (أنت أفسدته).

وبناء عليه أقول للوالدين اللذين تعود لسانهم على الدعاء على الأولاد أن يستبدلوا كلمات اللعن والشتم والدعاء بالشر بالخير، فيقول مثلاً بدلاً من (الله يلعنك) (الله يصلحك) (الله يهديك) (الله يعطيك الجنة) وغير ذلك، وهما برحمتها للأولاد يسهل عليهما استبدال الشر بالخير وكلمات السب بالدعاء الصالح.

الحزم قوام التربية، والحازم هو الذي يضع الأمور في مواضعها، فلا يتساهل في حالة تستوجب الشدة ولا يتشدد في حالة تستوجب اللين والرفق.

وضابط الحزم: أن يلزم الأب ولده بما يحفظ دينه وعقله وبدنه وماله، وأن يحول بينه وبين ما يضره في دينه ودنياه.

وعليه أن يلزمه بالتقاليد الاجتماعية المرعية في بلده ما لم تعارض الشرع، ومثال التقاليد المرعية: ما هو معلوم في كيفية استقبال الضيف والقيام على خدمته، فيجب على الأب أن يلزم الولد بذلك بعد تعليمه برفق.. ومن الملاحظ في هذه الآونة الأخيرة أن تذهب لزيارة بعض الناس فتجد رب الأسرة هو الذي يقوم بخدمة الضيوف وأولاده يلعبون أو متشاغلون عن الضيوف... هذا من التقصير في التربية لأنه يعود الولد على الفوضوية في العلاقات الاجتماعية فيما بعد.

ويجب على الأب أن يحزم كل الحزم في تعويد الأولاد على الصلاة وعلى الآداب الشرعية والأخلاق الإسلامية كالصدق والأمانة ولا يتساهل في شيء من ذلك، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «فإنك إن رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه، ولم يمكنك تأديبه، فيبلغ -الولد- جاهلاً فقيراً».

ومن مظاهر الحزم كذلك عدم تلبية جميع طلبات الولد، لأن بعضها ترف مفسد، كما ينبغي أن لا ينقاد المربي للطفل إذا بكى أو غضب ليدرك الطفل أن الغضب والصياح لا يساعده على تحقيق رغباته، وليعلم أن الطلب أقرب إلى الإجابة إذا كان بهدوء وأدب واحترام.

ومن أهم ما يجب أن يحزم فيه الوالدان: النظام المنزلي فيحافظ على أوقات النوم والأكل والخروج والرجوع إلى البيت، لأنه بهذا يسهل ضبط أخلاق الأولاد، وبعض الأولاد يأكل متي يشاء وينام متي يشاء ويتسبب في السهر ومضيعة أوقات الأسرة، كما يؤدي عدم ضبط وقت الأكل إلى إدخال الطعام على الطعام، وهذه الفوضوية تتسبب في تفكك الروابط واستهلاك الجهود والأوقات، وتنمي عدم الانضباط في النفوس، فيجب ضبط هذه الأمور خوفاً من المحاذير المذكورة.



مما ابتلى به كثيراً من المربين: الحزم في الأمور الدنيوية دون الدينية، فعلى سبيل المثال تجد هذا المربي يضرب الولد ويسخط عليه إذا قصر في واجباته المدرسية، ولا يحرك ساكناً إذا رآه قصر في الصلاة أو تلاوة القرآن الكريم أو أحل بأدب من آداب الشرع، وهذا الحزم في الأمور المدرسية وإن كان مطلوباً إلا أنه يجب ألا يزيد في حده ومقداره على الحزم في الأمور الدينية، لأن الولد متى عرف ذلك من أبيه تربي على حب الدنيا وإهمال الدين وذلك كسر لا يمكن جبره، ومصيبة لا يكمن تداركها إذا كبر الولد عليها والله أعلم.



الصفة الرابعة عشر:

﴿أَجْعَلْنَا لِلْمُنْقِينَ إِمَامًا﴾

التقوى



الْمَقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ويعد: فمع الصفة الرابعة عشرة من صفات عباد الرحمن وهذه الصفة جاءت ضمن السؤال الثاني الذي ورد في دعاء عباد الرحمن لربهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الفرقان: ٧٤]، فبعد أن سألوا ربهم أن يصلح لهم الذرية والزوجات، سألوا أن يجعلهم أئمة للمتقين، ولا يمكن أن يصبحوا أئمة للمتقين إلا إذا حققوا التقوى في حياتهم، ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾، متضمناً لصفتين من صفات عباد الرحمن هما: التقوى، والإمامة في الدين.

ومن هنا كان لابد من بيان صفة التقوى وما يتعلق بها في ستة مباحث:

المبحث الأول: أقوال المفسرين حول قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

المبحث الثاني: تعريف التقوى وبيان فضلها وأهميتها.

المبحث الثالث: مراتب التقوى ومقاماتها.

المبحث الرابع: ثمرات التقوى في الدنيا والآخرة.

المبحث الخامس: الأسباب المعينة على تقوى الله تعالى.

المبحث السادس: صفات المتقين.



المبحث الأول

﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي قدوة يقتدي بنا في الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقيا قدوة، وهذا هو قصد الداعي.

قال ابن القيم: وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التي لا تتم الإمامة إلا بها.

قال السعدي: ومعلوم أن الدعاء ببلوغ شي دعاء بها لا يتم إلا به، وهذه الدرجة درجة الإمامة في الدين ولا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِثَابِتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قلت: يضاف إلى ما ذكره السعدي من الأخذ بأسباب الوصول إلى الإمامة: سبب هام أشارت إليه ألا وهو الوصول إلى درجة التقوى وهذا ما أشار إليه ابن القيم كما مضى قريباً.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فيه قولان: أحدهما: اجعلنا أئمة يقتدي بنا، وهذا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الثاني: اجعلنا مؤتمين بالمتقين مقتدين بهم، قاله مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ، وعلى هذا يكون الكلام من المقلوب، فيكون المعنى: واجعل المتقين لنا إماماً.

قال ابن عاشور: سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله للإيمان أن يجعلهم قدوة يقتدي بهم المتقون، وهذا يقتضى أنهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجات العظيمة من التقوى، فإن القدوة يجب أن يكون بالغاً أقصى غاية العمل الذي يرغب المهتمون به الكمال فيه.

من الواضح أن أكثر المفسرين انصب اهتمامهم على الكلام على كلمة ﴿إِمَامًا﴾ في الآية الكريمة ولم يتكلموا على التقوى في قوله: ﴿لِلْمُنْفِقِينَ﴾ والسبب في هذا هو أن التقوى قد تكرر ذكرها كثيرًا في القرآن قبل هذه الآية.

ثم إن عباد الرحمن هم في درجة أعلى من درجة التقوى ولهذا لم يكن المقصود من الدعاء هو تحصيل درجة التقوى كلا بل المقصود أن يقتدي بهم الأتقياء، فإذا كان هذا هو مطلوبهم فإنه يعني أن التقوى بالنسبة لهم مرحلة قد انتهوا منها، ولهذا السبب أيضًا لم أجد من المفسرين من عد التقوى من صفات (عباد الرحمن) بل يجعلون هذه الآية تحتوي على خصلة واحدة وهي (الإمامة في الدين).

ولكنني جعلت هذه الخصلة من خصال عباد الرحمن لأننا في عصر غاب فيه معنى التقوى إلا من القلة من الناس، ولا شك أن التقوى من أعظم ما ينبغي أن يتصف به أهل الإيمان للوصول إلى الدرجات العلى في الآخرة والأولى ولهذا فصلت القول فيها من خلال المباحث التالية:



المبحث الثاني

: B : B

أما في اللغة: فالتقوى مأخوذة من مادة (وقى) التي تدل على حفظ شيء بغيره، قال الراغب ما خلاصته: «الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، وهي بهذا المعنى مصدر مثل الوقاء، ويقال: وقيت الشيء أقيه ووقاية ووقاء، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]».

أما في الشرع: فقد وردت عبارات كثيرة عن أهل العلم في تعريف التقوى اجتزئ بعضها هنا.

سئل طلق بن حبيب فقيل له: صف لنا التقوى؟ فقال العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله.

قال ابن القيم: هي العمل بطاعة الله. إيماناً واحتساباً أمراً ونهياً فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعدته، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهاي وخوفاً من وعيده.

وقال ابن رجب: أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معصيته.

التقوى في القرآن الكريم: وردت التقوى في القرآن الكريم على خمسة معان هي:

١- **الخوف والخشية:** كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ

السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

٢- **العبادة:** كما في قوله: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

٣- **ترك المعصية:** قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] أي لا تعصوه، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ﴾ [النور: ٥٢].

٤- **التوحيد:** كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمَّحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣] أي التوحيد.

٥- **الإخلاص:** كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبِرَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، التقوى يختلف محلها باختلاف ما أضيفت إليه: التقوى تعني اتقاء سخط الله وغضبه إذا أضيفت إلى الله كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وتعني اتقاء زمن العذاب كما في قوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وتعني اتقاء مكان العذاب وهي النار كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

ثانياً: بيان أهمية التقوى وفضلها: لقد وردت نصوص عديدة من الآيات والأحاديث في بيان فضل التقوى وأهميتها، سأذكر طرفاً منها فيما يلي:

١- التقوى هي وصية الله للأولين والآخرين كما أنها وصيته لهذه الأمة:

أما وصية الله للأولين والآخرين بالتقوى فقد ورد في آية واحدة من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، ويدخل فيه وصية الله لهذه الأمة بالتقوى وذلك لقوله: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾.

وأما وصية الله لهذه الأمة بالتقوى فقد جاءت في آيات كثيرة المتأمل فيها يجد أنها تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: الوصية بالتقوى مطلقاً ويكون في هذه الحالة المراد أن يعمل الإنسان بالتقوى في جميع أمورهِ، ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

الثاني: أن تأتي الوصية بالتقوى مقرونة بأمر الله أي أن يكون المقصود تقوى الله في فعل ذلك الأمر أو تقوى الله في ترك ذلك النهي، ومن الأمر قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. فليس المطلوب من المسلم في هذه الآية التقوى بل أن يتقى الله في الصدق وفي صحبة الصادقين، ولكن الله جل شأنه قدم التذكير بالتقوى زيادة في الاهتمام بالمأموره وهو الصدق في جميع الأحوال وصحبة الصادقين.

ومن النهي قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ففي هذه الآية جاءت الوصية بالتقوى لا على سبيل الإطلاق وإنما تقوى الله في ترك الربا وهذا فيه بيان خطورة الربا في الدنيا والآخرة. وهكذا تجد أن الله تعالى من رحمته بهذه الأمة أكثر من إيصائها بالتقوى ونوع هذه الوصية فأطلقها تارة وقيدها بالأمر تارة وقيدها بالنهي تارة أخرى.

٢- التقوى هي وصية الأنبياء لأقوامهم وهي وصية النبي ﷺ لهذه

الأمة:

أما وصية الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأقوامهم فقد ورد في آيات عديدة منها ما ورد في سورة الشعراء على السنة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب حيث قال كل واحد منهم لقومه: ﴿أَلَا نَنْقُوتُ﴾ واكتفى هنا بما ورد في هذه السورة عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال تعالى:

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿الشعراء: ١٠٥-١٠٨﴾، فتأمل أخي الكريم إلى تكرار الوصية من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه بالتقوى ﴿ أَلَا نَنْفُونَ ﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾، فهذا أن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذه الوصية وضرورة الالتزام بها، وهكذا بنفس هذه العبارات وردت الآيات عن الأنبياء الآخرين الذين سبق ذكرهم.

وأما وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه الأمة فقد صدرت منه في مواقف مختلفة، وأوصى بها الأمة جماعات وأفراداً وأكتفي هنا بذكر بعض تلك المواقف:

(أ) عن العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعظَنَا موعظةً بليغةً ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعيشر منكم بعدي فسيروا اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين والراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وإن كل بدعة ضلالة» (١).

١- وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب في حجة الوداع فقال: «اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا ذكاه أموالكم أطيعوا أمراءكم تدخلوا جنة ربكم» (٢).

ففي هذين الحديثين جاءت الوصية من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتقوى للأمة عامة، فيدخل كل فرد من أفراد الأمة أبتداءً من الصحابة سأكتفي هنا بذكر بعضها.

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

٢- عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَحْمِلُهَا وَخَالَقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ»^(١). وكذا جاءت الرواية عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أراد أن يبعثه إلى اليمن.

٣- وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي، فَقَالَ لَهُ أَبُو سَعِيدٍ: سَأَلْتَنِي عَمَّا سَأَلْتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبْلِ، فَقَالَ: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ»^(٢).

٤- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ فَأَوْصِنِي، قَالَ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٣)؛ أَيِ التَّكْبِيرِ عِنْدَ الْمَرْتَفَعَاتِ.

٥- وهكذا نجد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَعَهَّدُ أَصْحَابَهُ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ فِي مَخْتَلَفِ الْمَوَاقِفِ وَالْأَوْقَاتِ وَمِنْ أَعْظَمِ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ -أَعْنِي فِي الْإِهْتِمَامِ بِالتَّقْوَى- مَا وَرَدَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ اعْقِلْ مَا أَقُولُ لَكَ بَعْدَ»، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ اعْقِلْ مَا أَقُولُ لَكَ بَعْدَ»، وَهَكَذَا حَتَّى مَضَتْ سِتَّةَ أَيَّامٍ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ السَّابِعَ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّكَ وَعِلَانِيَّتِهِ»^(٤).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

من المعلوم لدي كل مسلم أن كل من مات أبوه وترك له وصية فإنه يسعى جاهداً في تنفيذها، ومن المشاهد أنه يستوي في ذلك البر والفاجر، وما ذلك إلا لاحترامه وتوقيره لوالده، ومن هنا نقول: أيهما أعظم قدرًا عندك وأولى بأن تنفذ وصيته أبوك أم سيدنا

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

(٢) قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى ورجال أحمد ثقات.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) رواه أحمد في المسند.

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بلا شك أن الجواب أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم قدرًا وأحب إلى قلب كل مؤمن من أبويه، وحتى لا تكون المحبة وذاك التوقير والاحترام دعوى بلا برهان يجب أن تسعى جاهدا في تطبيق وصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتقوى وعلى وجه الأخص وصيته لأبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيتها»، فمن جعل هذه الوصية بين عينيه، نال السعادة كلها في الدنيا والآخرة، وإنما الموفق هو الله.

٣- التقوى هي الوصية التي كان السلف يوصون بها من استوصاهم:

أوصى عمر بن الخطاب ابنه عبد الله بن عمر: «أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه ومن شكره زاده واجعل التقوى نصب عينك وجلاء قلبك».

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة خطب في الناس وقال: «أوصيكم بتقوى الله عَزَّجَلَّ فَإِنْ تَقَوَّى اللهُ خَلْفَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَليْسَ مِنْ تَقَوَّى اللهُ خَلْفَ».

كتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّجَلَّ التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل جعلنا الله وإياك من القليل».

قال رجل ليونس بن عبيد: أوصني؟ قال: «أوصيك بتقوى الله والإحسان فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

وكتب رجل من السلف إلى أخيه فقال: «أوصيك بالتقوى فإنها خير زاد في الآخرة والأولى واجعلها إلى كل خير سبيلا ومن كل شر مهربك فقد توكل الله لأهلها بالنجاة مما يحدرون والرزق من حيث لا يحتسبون».

وكتب ابن السامك الواعظ لرجل: «أما بعد أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك نهار، وخف

الله القدر قربه منك وقدرته عليك واعلم انك ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرک وليكثر منه وجلک.... والسلام».

وقال الثوري لابن أبي ذئب: «إن اتقيت الله كفاك الناس وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئاً».

وقال أبو العتاهية:

إذا المرء لم يلبس لباساً من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسي
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

٤- أهل التقوى هم أكرم الناس عند الله عزَّجَلَّ:

أنه ما من أحد إلا ويسعى لرفعة نفسه والعمل على تحصيل ما يشرفها ويكون سببا في حصول كرامتها عند الله، وقد اتخذ الناس للوصول إلى تلك الغاية طرق متنوعة، فمنهم من ظن ذلك في النسب ومنهم من ظن ذلك في المال وكثرة العقار، ومنهم من ظن ذلك في الجاه وغير ذلك كثير، ولكن الله تعالى حسم الأمر وبين الحكم فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد ذكر ابن كثير في سبب نزولها ما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نزلت في ثابت بن قيس وقوله في الرجل الذي أبى أن يفسح له في المجلس ابن فلانة؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من المذاكر فلانه»، فقال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال: «انظر في وجوه القوم» فنظر، فقال: «ما رأيت يا ثابت؟» فقال رأيت أبيض وأحمر وأسود، فقال: «فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى».

وذكر القرطبي في رواية أخرى في سبب نزولها هي أبلغ من الأولى وهي أيضاً عن ابن عباس حيث قال: «لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلائاً حتى علا على سطح الكعبة فأذَّن، فقال عتَّاب بن أسيد بن أبي العيص: أحمد الله الذي قبض أبي حتى لا

يرى هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً. وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا، فأنزل الله هذه الآية.

قال القرطبي: زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى أي أن الجميع من آدم وحواء، والفضل بالتقوى.

قال القاشاني: «معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ﴾ لا كرامة بالنسب لتساوي الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى، والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالأنساب لا للتفاخر، فإنه أي ذلك التفاخر، من الرذائل، والكرامة لا تكون إلا باجتنب الرذائل الذي هو أصل التقوى، ثم كلما كانت التقوى أزيد كان صاحبها أكرم عند الله وأجل قدرًا».

وقد رَسَخ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المعنى في أحاديث كثيرة أذكر طرفاً منها:
 ١ - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن بني الله ابن بني الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟»، قالوا: نعم، قال: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(١).

وعن ابن عمر قال: طاف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، ثم إنه خطب على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل ثم قال: «يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها

فالناس رجلان: رجل بُرِّتَقِيَّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ فَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِنْ اللَّهُ عَزَّجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ^(١)، وَرَوَى بِلَفْظٍ: «قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْآبَاءِ، مَوْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ»، مَعْنَى قَوْلِهِ عُيْبَةَ، بَضْمُ الْعَيْنِ وَالْبَاءِ وَالْيَاءِ الْمَشْدُودَتَيْنِ: الْمُرَادُ بِهِ الْكَبِيرُ، لِأَنَّ الْمَتَكَبِّرَ ذُو تَكَلُّفٍ وَتَعَبِيَّةٍ، خِلَافَ مَنْ يَسْتَرْسِلُ عَلَى سَجِيئَتِهِ وَعَنْ حَبِيبِ بْنِ خِرَاشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْمُسْلِمُونَ أَخُوَةٌ لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(٢).

٥- الْأَتْقِيَاءُ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْحَقِيقَةِ:

إِذَا كَانَ أَهْلُ التَّقْوَى هُمْ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فَإِنَّ أَهْلَ التَّقْوَى هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، وَنَعْنِي بِهِمُ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِمْ وَبَاطِنِهِ، وَلَوْ لَمْ تَحْصُلْ لَهُمْ كَرَامَاتٌ أَوْ أُمُورٌ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ، عَلَى مَا يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ الْعَامَّةِ مِنْ أَنَّ الْوَلِيَّ لَا يَبْدُ لَهُ مِنْ كَرَامَةٍ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَتْقِيَاءَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ آيَاتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

الآية الأولى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٦٣)
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢-٦٣].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهَا: «يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، كَمَا فَسَّرَهُمْ رَبَّهُمْ، فَكُلٌّ مِنْ كَانَ تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا» اهـ.

قَالَ الْقَاسِمِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ جَمْعُ وُلِيٍّ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ ضِدُّ الْعَدُوِّ، بِمَعْنَى الْمَحَبِّ، وَتَحْتَمَلُ هُنَا مَعْنِيَانِ.

أحدهما: أَوْلِيَاؤُهُ: الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ بِالطَّاعَةِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فَتَكُونُ الْوَلَايَةُ هُنَا مِنْ اسْمِ الْفَاعِلِ.

(١) الْحَدِيثُ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِهَذَا اللَّفْظِ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مُخْتَصَرًا.

(٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ.

الثاني: أولياؤه: الذين يتولاهم بالإكرام، وذلك كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فيكون من اسم المفعول وكلا المعنيين متلازمان، أي لا يحصل أحدهما إلا بوجود الآخر. والله أعلم.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي بكل ما جاء من عند الله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. أي يخافون ربهم، فيفعلون أو امره ويجتنبون مناهيه، من الشرك والكفر والفواحش، وكأنه قيل: من أولئك وما سبب فوزهم بذلك الإكرام؟. فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]. قال الشيخ الشنقيطي في الأضواء ذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية أنه ولي المتقين وهم الذين يمثلون أمره ويجتنبون نهييه، وذكر في موضع آخر أن المتقين أولياؤه، فهو وليهم، وهم أولياؤه لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان، وهو يواليهم بالرحمة والجزاء وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. اهـ. من الأضواء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعنى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] هو الكرم الذاتي، وهو أفضل من الكرم الفعلي الذي هو السخاء، كما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء، وبين السادتين من التفاوت مثل ما بين الدنيا والآخرة) هذا يبين لك ما بين الكرمين من تفاوت الفضيلة والكرم الذاتي من قولك (فلان عليّ كريم) وقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»^(١).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک والطبرانی في الكبير وغيرهما.

قال الأندلسي: «كريم قوم هو السيد النسيب الذي يرفع لعظم قدره ونزاهته عن الرذائل ومنه كرائم الملك وهن الوجيهات المرفعات الأقدار عنده ليس ذلك بأنهن يعطين الملك شيئاً لكن لعظم أقدارهن عنده، ومنه قولهم: من كرم عليه ما يطلب هان عليه ما يبذل.

وكذلك المتقي الذي ترك الذنوب ظاهراً وباطناً كرم عند الله لسلامته من ذنبيات الأفعال لأن الذنب تجريح في فاعله والتجريح مسقط للقدر عند المجرح والمعدل فافهم». اهـ.

قلت: لقد أحسن وأجاد أبو محمد الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ فِي بيان ما معنى كون التقي كريم عند الله تعالى، ولعل كلامه هذا يكون سبباً في رفع هممة المؤمن للوصول إلى هذا المقام الرفيع، وأنا سأذكرها هنا مثلاً من واقع الناس اليوم لعل الله ينفع به ألا وهو أن الموظف إذا كان ملفه نظيفاً في الوزارة التي يعمل بها -مثلاً- فإنه يحرص على ذلك ولا يرضى لنفسه أن تقع فيها يشينها عند مسؤوليه لأنه قد وصل إلى مقام (الموظف المثالي)، وهكذا يجب أن يكون المؤمن التقي الذي لم يرتكب الكبائر أن يحرص على إرضاء الله تعالى والله المثل الأعلى.

الخلاصة: التقوى هي أعلى مقامات الدين وأهمها على الإطلاق بل هي المقصد الأعلى من وجود الإنسان لأن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، فبيّن في هذه الآية أن الغاية من وجود الإنس والجن عبادة الله، ولكنه جَلَّ وَعَلَا بين في سورة البقرة أن الغاية من العبادة حصول التقوى فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، هذا ما أفاده الشيخ عطية محمد سالم رَحِمَهُ اللهُ فِي تنمة الأضواء.



المبحث الثالث

B :

ذكر البيضاوي في أول تفسيره لسورة البقرة أن التقوى على ثلاث مراتب، سأذكرها هنا بشيء من التصرف فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:

المرتبة الأولى: التوقي من العذاب المخلد في النار وذلك بالتبري من الشرك، وهذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦] وهي كلمة التوحيد.

أصحاب هذه المرتبة تحصلوا على توحيد الله جَلَّ وَعَلَا ولكنهم عندهم تفريط في أداء الواجبات والوقوع في المحرمات، وفي الحقيقة هؤلاء على خطر جسيم لأنهم لا يأمنون من عدم الثبات على الإسلام عند الموت، وإذا ماتوا على الإيثار فهم لا يأمنون من دخول النار عقابا لهم على تفريطهم في جنب الله، ومن هنا أمثال هؤلاء لا حظ لهم في اسم التقوى على الإطلاق، ولا يدخلون في قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾، وما شاكلها من الآيات التي تشيد بأهل التقوى من درجاتهم.

المرتبة الثانية: أن يتنزه المؤمن عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عن بعض أهل العلم، وهذه المرتبة هي التي يراد بها التقوى عند الإطلاق، وهؤلاء - أعني أصحاب هذه المرتبة - هم الذين أدوا الواجبات ونوافل الطاعات، وتركوا المحرمات وابتعدوا عن المكروهات والشبهات، وهم الذين يدخلون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾. وهم الموعودون بثمار التقوى في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

المرتبة الثالثة: أن يتنزه عما يشغل قلبه عن الله تعالى ويتبتل إليه، أي ينقطع إليه وإلى عبادته عن كل شيء، وأهل هذه المرتبة هم الذين أدوا الواجبات واجتهدوا في نوافل الخيرات وابتعدوا عن المحرمات وسائر الشبهات والمكروهات كأهل المرتبة السابقة، وزادوا عليهم بالابتعاد عن فضول المباحات التي تشغلهم عن ذكر الله تعالى، وهؤلاء أقل من القليل، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقد ورد في تفسيرها عن ابن مسعود: «أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى»، وهذه الدرجة كما ذكرت من أعلى الدرجات وأصعبها ولهذا ورد أن الصحابة سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد نزول هذه الآية فقالوا: يا رسول الله ومن يقوى على هذا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وعلى العموم أهل هذه المرتبة لهم الخيرات وأعلى الدرجات في الدنيا والآخرة، فنسأل الله أن يرزقنا التقوى ظاهرا وباطنا وأن لا يجرمنا الأجر والثوبة إنه جواد كريم.

ثانياً: مقامات التقوى: ولم أر من نبه على مقامات التقوى إلا العلامة أبا محمد المالكي في كتابه (شعب الإيمان) والمراد هنا بالمقامات مراتب الإسلام الثلاثة الواردة في حديث جبريل وهي الإسلام والإيمان والإحسان وإليك مقامات التقوى من كلام أبي محمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

مع شرح عبارته بعون الله تعالى لأنه أشار إشارة فقط إلى التقوى في كل مقام دون إسهاب.

أولاً: التقوى في مقام الإسلام: هنا يعني بها حفظ الجوارح عن المنهيات وعن نقص الطاعات وتركها، وهذا معناه إلا يخل العبد بشيء مما أوجبه الله عليه من الأمور الظاهرة، فيكون وقته مشغول بفعل الطاعات على اختلاف أنواعها من واجبات ومسئونات ومستحبات، ويلاحظ في هذا المقام أن الأعمال كلها ظاهرة، لأن مقام الإسلام إنما

هو مقام الظاهر كما في حديث جبريل الإسلام: «أن تشهد أن لا اله إلا الله وأن محمد رسول الله وتقيم الصلاة»، فهذه كلها ظاهرة.

وبناء عليه فمن أخل بشيء من طاعة الله أو وقع في شيء مما حرمه الله تعالى عليه فإنه يكون قد أخل بالتقوى في مقام الإسلام ومن لم يقدر على ضبط جوارحه فأنى له أن يضبط خواطره المهلكة.

: B :

أي اتقاء الآخرة وشدائدها وأهوالها كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَيَّامًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وهي أيضاً اتقاء النفس وخواطرها الداعية إلى ما حرم الله تعالى وإلى الصفات المهلكة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ وهي أيضاً اتقاء الشيطان في وساوسه وأنواع خطراته التي يدعو بها العبد إلى مخالفة أمر ربه.

فالتقوى في مقام الإيمان - إذن - تشتمل على ثلاثة أشياء كلها غيبية لا تشهد وهي: اليوم الآخر، والنفس والشيطان.

فاتقاء اليوم الآخر: يعني أن العبد لا يقع في معصية لا ظاهرة ولا باطنة، فيتقى الله في خلواته كما يتقيه في جلواته.

واتقاء النفس: الحذر من وساوسها المستمرة والمتكررة إلى هوى أو شهوة يكون فيها هلاك العبد.

واتقاء الشيطان: يكون كذلك بالحذر من الاستجابة إلى وساوسه التي تزين للعبد المعصية، وتلبسها ثوب الطاعة أحياناً وثوب المصلحة أحياناً، فالتقوى يحذر من تلك الوسوس كلها.

قال أبو محمد المالكي رَحِمَهُ اللهُ: «والتقوى في مقام الإحسان: تقوى الله وحده وهو حقيقة التقوى لأن تقوى ما سواه من المخلوقات مجاز، وتقواه هو الحقيقة».

كانه رَحِمَهُ اللهُ يشير بهذا الكلام إلى أن المقام السابق الذي فيه تقوى النفس وتقوى الشيطان ليس مقصودًا لذاته وإنما المقصود به غيره أي الوصول إلى تقوى الله تعالى، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى تقوى الله في مقام الإحسان إلا إذا عبر المرحلتين السابقتين وجاهد نفسه، حتى يصبح همه الله وحده، وهذا المقام يقابل من مراتب التقوى السابقة المرتبة الثالثة حيث قال البيضاوي - كما سبق ذكره: «أن يتنزه عما يشغل قلبه عن الله».

إذن التقوى في مقام الإحسان وهو أجل مقامات التقوى بأعلى مراتبها، وهذا مقام لا يرتقي إليه إلا الصديقين كما ذكره أبو محمد رَحِمَهُ اللهُ، فنسأل الله أن يبلغنا أعلى مراتب المتقين. آمين.



المبحث الرابع

لقد كتب بعض العلماء حول ثمرات التقوى فذكروا لها ثمرات عديدة في الدنيا والآخرة، وسأحاول هنا تسطير أهم تلك الثمرات وذلك من خلال هذين القسمين مع شيء من التوسع.

قبل الشروع في بيان ثمرات التقوى في الدنيا أنبه إلى أن الأعمال الصالحة - وعلى رأسها التقوى - له ثواب في الدنيا كما أن لها ثواب في الآخرة - وهذا على خلاف ما يظنه البعض أن ثواب الأعمال الصالحة فقط مقتصر على الثواب الآخروي، وما سأذكره هنا من ثمرات التقوى في الدنيا وهو جزء من الثواب الدنيوي ثم جزاؤه في الآخرة أعظم، وأن الآن أوان الشروع في المقصود.

١- المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب:

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

قال أهل التفسير: نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أن المشركين أسروا ابنه فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشكا إليه الفاقة، وقال: إن العدو أسر ابني وجزعت الأم، فما تأمري؟ فقال نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتق الله واصبر، وأمرك وإياها أن تكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله»، فعاد إلى بيته وذكر لامرأته ما أمرهما به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: نعم ما أمرنا به فجعلنا يقولان: لا حول ولا قوة إلا بالله، فغفل العدو عن ابنه، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاه، فنزلت هذه الآية.

قال الربيع بن خثيم: يجعل الله له مخرجًا مما ضاق على الناس، وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة وقال قتادة: «أي من شبهات الأمور والكره عند الموت»، هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، وأما معنى ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي من حيث لا يأمل ولا يرجو وروى ابن أبي حاتم بسنده - كما عند ابن كثير - عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها».

٢- السهولة واليسر في كل الأمور:

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]. قال ابن كثير: «أي يسهل له أمره ويسره عليه ويجعل له فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلاً».

وقال سيد قطب: «واليسر في الأمر غاية ما يرجوه الإنسان وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبده من عباده فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيق، فهو يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره» اهـ.

٣- نصره الله للمتقين وتأييده لهم وذلك لأنه أخبر أنه معهم:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]، قال السعدي: ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي بالعون والنصر والتأييد والتوفيق، ومن كان الله معه حصلت له السعادة الأبدية» اهـ.

ولا شك أن المؤمن في حاجة إلى هذا النصر والتأييد وخصوصًا عندما يكثر الأعداء من الكفار والمنافقين، ومهما كانت الأسباب التي يملكها المؤمن في محاربة هؤلاء الأعداء فأنها لن تنفع شيئًا ولن ترد عنه كيدًا ما لم يجمع بين الأسباب وبين تقوى الله تعالى ولهذا كان عمر بن الخطاب يوصي الجيوش الغازية في سبيل الله قائلًا: «ليكن خوفكم من

ذنوبكم أشد من خوفكم من عدوكم»، ولا شك أن هذا من فقه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالسنن الإلهية، فإن من ارتكب المعاصي فقد فارق التقوى ومن فارق التقوى فقد تحلت عنه معية الله تعالى وتحلى عنه النصر والتأييد من قبل الله جَلَّ جَلَالُهُ.

ومن هنا أقول: لقد ظلت الأمة الإسلامية في معاداتها للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين أرض المسجد الأقصى، ومضى على تلك العداوة أكثر من نصف قرن ولا تزال الأمة تتلقى الهزائم من حفنة من اليهود لا يتجاوز عددهم خمسة ملايين في مقابل أضعاف الملايين في الدول الإسلامية، وما من سبب لاستمرار الاحتلال وتوالي الهزائم إلا المعاصي التي تعج بها الدول الإسلامية ابتداء من إقصاء الشريعة الإسلامية من القوانين ومرورا بما يُعَرَّض في الإعلام من فسوق وانحلال وتدمير للدين والخلق والعادات الطيبة النافعة من نفوس المشاهدين الكرام.

وتكملة لكلام عمر السابق: «فإنكم إن عصيتم الله استويتم أنتم وعدوكم في المعصية فكانت لهم الغلبة عليهم»، هذا هو واقع الأمة اليوم حيث غلبنا الأعداء بسبب معاصينا، فهل من توبة؟ ثم إن الله تعالى قد ذكر معيته للمتقين في آية أخرى فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فالآية تبين أن معية الله مع المتقين سواء كانوا أفراداً أو جماعات فعلى العبد أن يتقى الله ولو رأى المعصية من جميع الخلق فانه سيحصل له النصر والتأييد من الله تعالى». ولهذا بدأ صلاح الدين الأيوبي في حروبه مع الصليبيين لم يلتفت إلى حال الأمة بل اتقى الله تعالى واستعان به فأعانه وانتصر بتأييد الله له.

٤- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

هذه الثمرة من ثمرات التقوى لا بد لها من شيء آخر حتى تتم للأمة الإسلامية ألا وهو الصبر لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا

بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

[آل عمران: ١٢٠].

إن المحارب مهما فعل من احتياطات للوصول إلى النصر فقد تخفى عليه مكائده عدوه، فببلاغته من جهة لا يعلمها ولهذا أمر الله المؤمنين بالتزام الصبر والتقوى، ووعدهم بإبطال كيد الأعداء وتعتبر هذه الثمرة من ثمار التقوى مكملة للثمرة السابقة فتلك في النصر على الأعداء وهذه في إبطال كيد الأعداء، ولا بد من التقوى في كلا الأمرين.

وهذا الحفظ من الأعداء يشمل التقى المفرد ويشمل الجماعة من الأتقياء ويشمل الأمة جمعاء، فلا نصر ولا حفظ من كيد الأعداء إلا تتقى الأمة - في جملتها - الله تعالى في سائر أمورها.

ولعل المتابع لأحوال الأمة الإسلامية مع الأعداء يجد أن الأعداء خدعوهم عشرات المرات في السياسة والاقتصاد وغيرهما، فالعدو يكسب في كل جولة من الجولات في الحرب وفي السلم ولم تسلم الأمة من كيد الأعداء وذلك يرجع إلى انعدام التقوى في شتى المجالات وها هنا اذكر فقط بعض المعاصي التي هي من الكبائر التي يستحق صاحبها اللعن ومع ذلك لا تكاد تخلو منها مدينة من المدن في العالم الإسلامي: كالربا وشرب الخمر والزنا، عافانا الله وإياكم من ذلك، فما لم تحرّم الدول الإسلامية هذه الكبائر - وغيرها فإنها ستظل في قبضة الأعداء، وستظل مستضعفة لا يؤبه لها في المجتمعات الدولية حتى تتقي الله تعالى في سائر أمورها.

٥- كثرة البركات من السماء والأرض على أهل التقوى:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، قال السعدي: ذكر - تعالى أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً، صدقته الأعمال واستعملوا تقوى

الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك جميع ما حرم الله لفتح عليهم بركات من السماء، مآبه يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿فَأَخَذْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلايا، ونزع البركات وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم وإلا فلو أخذهم بجميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من (دابة) اهـ.

وينبغي أن نلاحظ أن الآية عبرت عن السعة بالبركات لا بالكثرة في الأموال أو الأرزاق إذ البركة هي التي بها ينتفع العبد فكم من صاحب أموال طائلة هو بها شقي، لأنه ليس من أهل التقوى وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، ولم يقل أن قلة الرزق أو المال هو سبب الضنك والضييق، وهذا على خلاف ما يهتم أكثر العامة اليوم إذ يظنون أن قلة الأموال والأرزاق هما السبب في الشقاء وليس الأمر كذلك والله أعلم.

٦- حفظ الذرية الضعاف بعناية الله لهم من ثمرات التقوى:

ما من أحد من الناس إلا وهو يجب أن يسلم أولاده من بعد موته من الذل والهوان ومن الفقر والضياع، وذلك الأمر إنما هو فطرة فطر الله الناس عليها، ولكن من الناس من يسلك طرقا يحسب أن فيها إسعاد ذريته من بعده وهي في الحقيقة سبب في شقائه وشقائهم، ولخطورة هذا الأمر أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى سلوك السبل المؤدية إلى حفظ ذريته من بعده فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَفًا حَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

قال القاسمي: «في الآية أشار إلى الآباء الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقوى في سائر شئونهم حتى تحفظ أبنائهم وتغاث بالعناية منه تعالى، ويكون في إشعارها تهديد بضياع أولادهم أن فقدوا تقوى الله تعالى، وفي الآية أشار إلى أن تقوى الأصول - الآباء

والأجداد تحفظ الفروع - أي الأبناء والأحفاد - وان الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فإن الغلامين حفظا ببركة صلاح أبيهما في أنفسهما ومالهما».

لقد فهم الصالحون والأتقياء من هذه الآية الكريمة أنها السبب الأول في حفظ الذرية بعد وفاتهم ولهذا استعملوا التقوى في حياتهم ومن أولئك الإمام العادل عمر ابن عبد العزيز وإليك هذا الخبر:

قال سفيان: سألت عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ما آخر ما تكلم به أبوك عند موته؟ قال كنا أغليمة فجئنا إليه كالمسلمين عليه والمودعون له، فقبل له: تركت ولدك هؤلاء وليس لهم مال، ولم تولهم لأحد، قال: ما كنت لأعطيهم شيئاً ليس لهم، وما كنت لأخذ منهم حقاً هو لهم، إن ولتي فيهم الله الذي يتولى الصالحين، إنما هؤلاء أحد رجلين: رجل أطاع الله ورجل ترك أمر الله وضيعه فما أنا بالذي أعينه على معصية الله».

وكلام عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوضح بجلاء مدى ثقته بالله تعالى أنه سيحفظ ذريته من بعده، ولقد ترك اثني عشر ذكراً وستة نسوة ولقد روى أن أبناءه جميعاً أغناهم الله من بعدهم ومن عجائب الأمور أن أبناء عبد الملك كانوا يستقرضون من أبناء عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- البشرية بالرؤيا الصالحة:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

قال ابن كثير: «قال الإمام أحمد - بسنده - عن أبي الدرداء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له».

قال ابن كثير: وهكذا روى عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة ابن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة.

وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، إلى قوله: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ وفي حديث البراء: «أن المؤمن إذا حضر الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء».

٨- من ثمرات التقوى تيسير العلم:

أن طالب العلم المخلص في طلبه إذا أراد أن يؤتبه الله فهما وان يبارك له في وقته فلا يضيع وقت منه بلا فائدة فعليه أن يتقى الله تعالى ظاهره وباطنه، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قال القرطبي هذا وعد من الله بأن من اتقاه علمه أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقي إليه.

وقال الطاهر بن عاشور: في عطفه - العلم في قوله يعلمكم - على الأمر بالتقوى إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم.

أقول: العكس بالعكس فمن ترك التقوى حرم من العلم النافع والعياذ بالله، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

قال السعدي: أي يتكبرون على عبادة الله وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة حرمه الله خيرًا كثيرًا، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينفع به بل ربما انقلبت عليه الحقائق واستحسن القبيح» اهـ.

٩- إطلاق نور البصيرة:

وهذه ثمرة زائدة على تيسير العلم، فالعلم شيء والبصيرة شيء آخر، فإذا كان العلم نور فالبصيرة نور زائد على العلم، والدليل على هذه الثمرة قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، قال العلامة محمد رشيد رضا: «الفرقان في اللغة: هو الصبح الذي يفرق بين الليل والنهار، ويسمى القرآن فرقانًا لأنه كالصبح يفرق بين الحق والباطل، وتقوى الله في الأمور كلها تعطى صاحبها نورًا يفرق بين دقائق الشبهات التي لا يعلمها كثير من الناس وهي تفيده علما خاصا لم يكن ليهتدي إليه لولاها - أي التقوى - وهذا العلم هو غير العلم الذي يتوقف على التلقين كالشرع أصوله وفروعه وهو ما لا تتحقق التقوى بدونه لأنه عبارة عن العمل فعلاً وتركاً بعلم» اهـ.

وقال مالك للشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أول لقاء بينهما: «إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية».

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنَ مِّن رَّحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ﴾ [الحديد: ٢٨]، قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ﴾ يعني هذى يتبصر به من العمى والجهالة، وهذه الآية كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

قال ابن القيم: «وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو النور، وأن مشيهم بغير النور غير مجد عنهم ولا نافع لهم، بل ضرره

أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشي في الناس ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشى على الصراط إذا مشت بأهل النور أقدامهم».

١٠- محبة الله وملائكته والمؤمنين للأتقياء من أعظم ثمرات التقوى:

أما الدليل على محبة الله لعباده المتقين فقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وأما محبة الملائكة والمؤمنين لعباد الله المتقين فقد ورد ذلك في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أحب الله تعالى العبد نادي جبريل: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّهُ، فيحبه جبريل فينادي في أهل السماء: أن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض».

قال النووي: «وسبب حبه إياه كونه مطيعاً لمولاه محباً له» اهـ. قال ابن علان: «المراد بالقبول الحب في قلوب أهل الدين والخير له والرضا به وأستطابة ذكره في حال غيبته كما أجرى الله تعالى عادته بذلك في حق الصالحين من سلف هذه الأمة ومشاهير الأئمة».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

[مريم: ٩٦].

قال ابن كثير: «ينجبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات وهي الأعمال التي ترضي الله لمتابعتها للشريعة المحمدية، يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، اهـ. ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ الحديث السابق وأحاديث أخرى ثم قال: «ذكر لنا هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم» اهـ.

قلت: وأهل التقوى هم أولى من يدخل في هذه الآية الكريمة وفي الحديث الذي قبلها، وإنما تعني من يأتي بالتقوى على وجهها من أداء الواجبات وترك المحرمات والله أعلم.

١١- من ثمرات التقوى أنها سبب في النجاة من عذاب الدنيا:

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾ [النمل: ٥٣]، جاءت هذه الآية بعد أن أخبر الله تعالى عن إهلاك قوم صالح، قال ابن عاشور: «وفي تأخير جملة ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾ عن جملة ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، طمأنة لقلوب المؤمنين بان الله ينجيهم مما توعد به المشركين، كما نجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من ثمود وهم صالح ومن آمن معه، وقيل: كان الذين آمنوا مع صالح أربعة آلاف، فلما أراد الله إهلاك ثمود أوحى الله إلى صالح أن يخرج هو ومن معه فخرجوا ونزلوا في موضع الرس، فكان أصحاب الرس من ذرياتهم وقيل انزلوا شاطئ اليمن وبنوا مدينة حضر موت، وكلها أخبار غير موثوق بها» اهـ.

قلت: وقد أخبرنا الله تعالى في الذكر الحكيم أن كل من يعرض عن كلامه فلا يعمل به فسوف يعيش معيشة ضنكاً كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا نِينَكُم مِّمِّي هُدَى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَاى فَلَآ يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وذكر ابن الجوزي في مكان المعيشة الضنك أنه على ثلاثة أقوال: الدنيا، القبر، جهنم، ولا نجاة من هذه الثلاث إلا بالتقوى، والمراد بالضنك ضيق المعيشة وشدتها عافانا الله والمسلمين من ذلك.

ثم أنه قد تقدم في الثمرة الأولى من ثمار التقوى أن يجعل للمتقي مخرجاً من ضيق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فأية العمل التي معنا فيها وعد من الله بإنجاء المتقين عند نزول العذاب العام والله أعلم.

١٢- من ثمرات التقوى قبول الأعمال الصالحة:

قبول العمل وإن كانت لا تظهر إلا في الآخرة إلا أن لقبول العمل علامات هنا في الدنيا ومن ثم جعلنا الله من ثمرات الدنيا، وذلك حتى يجاهد العبد على تقوى الله تعالى. أما الدليل على أن التقوى سبب في قبول الأعمال الصالحة فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

قال ابن كثير: «ومعنى قوله: ﴿يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. أي ممن اتقى الله في فعله ذلك»، قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الدرداء أنه قال: «لأن استيقن أن الله تقبل لي صلاة واحدة أحب ألي من الدنيا وما فيها، أن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾».

قال القرطبي: قال ابن عطية: «المراد بالتقوى هنا اتقاء الشرك بإجماع أهل السنة، فمن اتقاه وهو موحد فأعماله التي تصدق فيها نيته مقبولة وأما المتقي الشرك والمعاصي فله الدرجة العليا من القبول والختم بالرحمة، علم ذلك بإخبار الله تعالى لا أن ذلك يجب على الله تعالى عقلاً» اهـ.

قال ابن رجب: «ولهذا كانت هذه الآية يشتد منها خوف السلف على نفوسهم، وخافوا أن لا يكونوا من المتقين الذين يتقبل الله منهم. وأما كون التقوى علامة على قبول العمل فلان العبد إذا وفق للأعمال الصالحة والثبات عليها دل ذلك على أن عمله مقبولاً»، قال ابن رجب: «إن الله تعالى إذا تقبل عمل عبده وفقه لعمل صالح بعده كما قال بعضهم ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فمن عمل حسنة ثم اتبعها حسنة بعدها كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى، كما أن من عمل حسنة ثم أتبعها سيئة كان ذلك علامة رد الحسنة وعدم قبولها».

وقال في موضع آخر: «من عمل طاعة من الطاعات وفرغ منها فعلامة قبولها أن يصلها بطاعة أخرى، وعلامة ردها أن تعقب تلك الطاعة بمعصية ما أحسن الحسنة بعد

السيئة تحوها، وأحسن منها الحسنة بعد الحسنة تتلوها، وما أقبح السيئة بعد الحسنة تحقها - أي تحو أثرها» اهـ.

لقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ما للمتقين عند ربهم من الفوز الكبير والنعيم المقيم وما نجوا منه من العذاب الأليم وسوف أجمل هذه الثمرات الأخروية في النقاط الآتية:

أولاً: تكفير السيئات والنجاة من عذاب النار: أما تكفير السيئات فقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥]، وأما النجاة من النار ففي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّتًا﴾.

قال ابن كثير: «عن عمرو قال: أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس: الورد: الدخول فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. وردوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨] أوردوها أم لا؟ - يعني أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي انه لن يبقى أحد من الناس إلا وسيدخل النار - ثم قال ابن عباس لنافع: أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل تخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، فضحك نافع» اهـ.

وأخرج الإمام أحمد سنده عن سليمان بن مره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (صمتا - يعني أذنيه - إن لم أكن سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إنَّ للنار ضجيجا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا وينذر الظالمين فيها جثتاً»^(١) اهـ.

ثانياً: عز الفوقية في الآخرة خاص بالمتقين: قال تعالى: ﴿رُئِيَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

قال ابن عاشور في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ﴾: «أريد من الذين اتقوا المؤمنون الذين سخر منهم الذين كفروا، لأن أولئك المؤمنين كانوا متقين ولكنه لم يقل (والذين آمنوا فوقهم) لقصد التنبيه على مزية التقوى وكونها سبب عظيم في هذه الفوقية على عادة القرآن في انتهاز فرص الهدى والإرشاد ليفيد فضل المؤمنين على الكافرين، وبينه المؤمنين على وجوب التقوى لتكون سبباً في تفوقهم على الذين كفروا يوم القيامة، وأما المؤمنون غير المتقين فليس من غرض القرآن أن يعبأ بذكر حالهم ليكونوا دوماً بين شدة الخوف وقليل الرجاء.

والفوقية هنا فوقية تشريف وهي مجاز في تناهى الفضل والسيادة كما استعبر تحت لحالة المفعول والمسخر والمملوك وقيدت بيوم القيامة تنصيصاً على دوامها، لأن ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية». اهـ.

قلت: بل هذه الفوقية فوقية حقيقية كما ذكر ذلك أهل التفسير، قال الخازن: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. لأن الأتقياء في عليين والكفار والمنافقين في أسفل سافلين». اهـ.

B

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قال أهل التفسير في الآية الأولى: «أي نورثها للمتقين، ونجعلها منزلهم الدائم الذي لا يظعنون عنه، ولا يبعثون عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ الآية».

قال تعالى متحدثاً عن أهل الجنة: ﴿وَتُودُوا أَنْ تَتَكَّمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار برحمة الله واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمة الله، بل من أعلى أنواع رحمته وقال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ يَبْعَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٢].

قال ابن كثير: «ثم قيل لهم - أي لأهل الجنة - على وجه التفضيل والامتنان ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم فانه لا يُدْخَلُ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، ولكن برحمة الله وفضله وإنما الدرجات يُنَالُ تَفَاوُتُهَا بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، وقال ابن أبي حاتم - بسنده - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة فيقول: لو أن الله هداني لكنت من المتقين، وكل أهل الجنة منزله من النار فيقول: وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله فيكون له شكراً»، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من أحد إلا له منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالكاfer يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. اهـ.

رابعاً: الأتقياء لا يحشرون إلى الجنة سيرا على الأقدام بل يحشرون إليها

ركبانا: مكرمين معززين جعلنا الله منهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

قال القرطبي: «في الكلام حذف أي إلى جنة الرحمن ودار كرامته، كقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ وكما في الخبر: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله».

والوفد اسم للوافدين، قال الجوهري: «يقال: وفد فلان على الأمر أي ورد رسولاً فهو وافد».

وقال علي: لما نزلت هذه الآية قلت يا رسول الله، إني رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفداً إلا ركباناً، قال يا علي، إذا كان المنصرف من بين يدي الله تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض، رحالها وأزمتها الذهب، على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا، فيلبس كل مؤمن حلة ثم تسير بهم مراكبهم فتهوى بهم النوق حتى تنتهي بهم إلى الجنة، فتلتقاهم الملائكة ﴿سَلِّمُ عَلَيْكُمْ طِبُّهُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَلِيدِينَ﴾.

قال القرطبي: وهذا الخبر ينص على أنهم لا يركبون ولا يلبسون إلا من الموقف، وأما إذا خرجوا من القبور فمشاة حفاة عراة عُزْلاً إلى الموقف بدليل حديث ابن عباس قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة عُزْلاً»^(١)، قال ابن عباس ركباناً يؤتون بنوق من الجنة عليها رحائل من الذهب وروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها.

وقال علي: «ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوق رحالها من ذهب ونجب سروجها يواقيت، إن هموا بها سارت وإن حركوها طارت»، وقيل: «إنما قال (وفداً) لأن من شأن الوفود عند العرب أن يقدموا بالشبارات ويتظرون الجوائز، فالمتقون ينتظرون العطاء والثواب»^(٢) اهـ.

قال الشنقيطي في أضواء البيان: «ذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين كانوا يتقونه في دار الدنيا بامثال أمره واجتناب نهيهم يحشرون إليه يوم القيامة في حال

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) من القرطبي (١١/١٥١).

كونه وفدًا، الوفد على التحقيق جمع وافد كصاحب وصاحب، راكب وركب... والوفد من يأتي إلى الملك مثلًا إلى أمر له شأن، وجمهور المفسرين على أن معنى قوله وفد أي ركبًا، وبعضهم يقول: يحشرون ركبانا على صور من أعمالهم الصالحة في الدنيا في غاية الحسن وطيب الرائحة» اهـ.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١) يَتَعَبَّدُونَ لَكَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿ [الزخرف: ٦٧-٦٨]، قال ابن كثير: عن علي رضي الله عنه ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ قال: «خليلان مؤمنان وخليلان كافران فتوفي أحد المؤمنين وبُشِّرَ بالجنة فذكر خليله فقال: اللهم إن فلانًا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهايني عن الشر وينبئني أني ملائكتك اللهم فلا تضله من بعدى حتى تراه ما أريتني وترضى عنه كما رضيت عني»، فيقال له: اذهب، فلو تعلم ماله عندي لضحكت كثيرًا وبكيت قليلًا»، قال: ثم يموت الآخر فتجمع أرواحهما فيقال: ليشن أحداكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل؛ وإذا مات أحد الكافرين، وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: «اللهم إن خليلي فلانًا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ويأمرني بالشر وينهايني عن الخير، ويخبرني أني لست ملائكتك، اللهم فلا تهده بعدى حتى تراه مثل ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي»، قال: «فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال ليشن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بشس الأخ وبشس الصاحب وبشس الخليل»^(١).

قال تعالى: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾

[ص: ٤٩-٥٠].

قال الخطيب الشربيني: ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي مرجع، لما شوق سبحانه إلى هذا الجزاء بينه بقوله تعالى: جنات عدن أي أقامه في سرور وطيب عيش ثم إنه تعالى وصف أهل الجنة بأشياء:

أولها: قوله تعالى: ﴿ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ أي أن الملائكة يفتحون لهم أبواب الجنة ويحيونهم بالسلام كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِنِينَ فِيهَا ﴾ وقد ذكر في آيات أخرى كيفية ذلك الاتكاء فقال تعالى: ﴿ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِنُونَ ﴾ قال تعالى: ﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦].

ثالثها: قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ أي شراب كثير، فيدعون فيها بألوان الفاكهة وألوان الشراب.

رابعاً: لما بين المسكن والمأكول والمشروب ذكر أمر المنكوح تنميماً للنعمة بقوله سبحانه: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْأَطْرَافِ أَنْزَابٌ ﴾ أي حابسات الطرف أي العين على أزواجهن، ومعنى ﴿ أَنْزَابٌ ﴾: أي أسنانهن وأحده وهي بنات ثلاث وثلاثين سنة، وأتراب جمع ترب. اهـ.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧٣]: «وهذا إخبار عن حال السعداء حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة

﴿ زُمْرًا ﴾ أي جماعة بعد جماعة، المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم والعلماء مع أقرانهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي وصلوا أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط المستقيم على قنطرة بين الجنة والنار، فأقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول فيقصدون آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم أجمعين كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله عَزَّجَلَّ أن يأتي لفصل القضاء ليظهر شرف محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر البشر في المواطن كلها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا أول شفيع في الجنة»، وفي لفظ لمسلم: «أنا أول من يقرع باب الجنة».

وعن أنس أيضًا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أتي باب الجنة يوم القيامة أستفتح، فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، قال: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»^(١).

ثم ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في سعة أبواب الجنة أكتفي بذكر حديث واحد وهو ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله تعالى: يا محمد أدخل من لا حساب عليهم من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس في سائر الأبواب، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما عضادتي الباب كما بين مكة وهجر» وفي رواية: «مكة وبصرى»، وفي رواية لمسلم: «ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم هو كظيظ من الزحام».



المبحث الخامس

لاشك أن كل من عرف التقوى وقدرها وثمارها تمنى أن يكون من المتقين فنطرح ها هنا سؤالاً: كيف يمكن الوصول إلى تحصيل التقوى؟ يجيب عن ذلك الحجة أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ (منهاج العابدين).

من أراد أن يتقي الله تعالى فليراع الأعضاء الخمسة، فإنهن الأصول وهي: العين والأذن واللسان والقلب والبطن، فيحرص عليها بالصيانة لها من كل ما يخاف منه ضرراً في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال وأما كيف تصون هذه الأعضاء الخمسة من المعاصي فإن ذلك يتم بخمسة أمور ذكرها بعض العلماء أذكرها هنا بإيجاز:

B : عَزَّجَلَّ:

لأن من أحب الله أطاعه بل تلذذ بطاعته وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وإن يحب المرء لا يحبه إلا لله وإن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فيؤخذ من الآية والحديث أن العبد إذا أحب الله تعالى سهلت عليه متابعة حبيبه سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبمتابعته ينال حب الله تعالى، ومن أحبه الله رفعه إلى درجة الأتقياء وذلك بإعانتته على فعل الطاعات وترك المحرمات، يدل على ذلك الحديث القدسي الشهير: «من أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألتني لَأُعْطِيَنَّهُ وَلئن استعاذ بي لأُعِيذَنَّهُ».

ومن أراد أن يحب الله تعالى فعليه أن يتأمل في نعمة الله التي أنعم بها عليه وإحسانه الذي أسداه إليه، وقد قيل الإنسان أسير الإحسان، وقد أحسن الشاعر بقوله:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحساناً

فإن كان هذا في شأن إحسان إنسان ضعيف وإحسانه ليس بباق فكيف بالذي أحسن إليك منذ أن كنت جنيناً في بطن أمك أفلا يأسرك بإحسانه إليك بأن تحبه وتؤثره على غيره الجواب نعم، والكلام على محبة الله طويل جداً ولكن ليس هذا مقامه بل المقصود الإشارة فقط، ومن أراد المزيد فليراجع ما كتب العلماء في كتب الأخلاق والسلوك والتربية.

B : · · · عَزَّجَلَّ:

المقصود بالمراقبة أن تشعر نفسك بأن الله تعالى مطلع على سرّك وعلى علانيتك، فالله تعالى لا تخفي عليه خافيه ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ٦ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿ [طه: ٦-٧].

وأنت لا شك تؤمن بأن الله سميع بصير عليم خبير فهو يسمع كل كلماتك ويرى كل حركاتك وسكناتك ويعلم كل شيء من أمرك لا تخفي عليه خافية، فمن استحضر هذه المعاني صعب عليه أن يقع في معصية الله تعالى.

حاول أعرابي أن يراود جارية عن نفسها فقالت ألا تستحي، فقال: والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت: فأين مكوكبها.

ومر عبد الله بن عمر براع فطلب منه شاه فقال: هي لسيدي وليس لي فيها شيء، فقال له ابن عمر وأراد أن يختبره، قل له أكلها الذئب؟ قال الراعي: فأين الله؟ فذهب ابن عمر إلى سيده واشتراه وأعتقه، ووهب الغنم التي كان يرعاها وقال له: «تقوى الله نجتك من العبودية في الدنيا وأرجو أن تنجيك من عذاب الله في الآخرة».

فالمقصود أن مراقبة الله تعالى من أعظم الأسباب المعينة على تقوى الله تعالى وما سبق من الصالحين والزهاد إلا بسبب مراقبتهم لرب العباد، والمراقبة أيضاً مما ينبغي أن يفرد بالبحث وقد كتب حولها عدد من علماء السلوك والأخلاق.

B

أن الإنسان إذا كان عاقلاً فانه يسعى في هذه الحياة الدنيا إلى ما فيه نفعه ويتعد مما فيه ضرر عليه وان المعاصي والمحرمات لم يجرمها الله علينا إلا لما فيها من أضرار وشرور.

فعلى سبيل المثال حرم الله علينا الزنا لما فيه من خلط للأنساب وضياع للأولاد ولما فيه من فقر وما يتسبب فيه من أمراض خطيرة كالإيدز والزهري وغيرهما، فالعقل يتعد عن الزنا خوفاً على نفسه من هذه الأضرار كلها وإذا عقله يهديه إلى البعد عن المعاصي خوفاً من الأضرار الدنيوية فإن الإيثار يرشده إلى الابتعاد عنها خوفاً من العقبة السيئة يوم القيامة.

ومن هنا كان من الأسباب المعينة على الوصول إلى درجة المتقين أن يطلع الإنسان على أضرار المعاصي الدنيوية والأخرية فلعل ذلك أن يكون سبباً في كف جماح نفسه ورد هواه عن معصية مولاه.

وليس هذا مجال ذكر أضرار المعاصي، لأن المقصود هو التنبية إلى أهمية معرفة ذلك حتى تكون من عباد الله المتقين والله وحده هو الموفق جَلَّ جَلَالُهُ.

B

وقد أرشدنا الله تعالى إلى مغالبة الهوى في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قال ابن عاشور: «المراد بـ ﴿أَهْوَىٰ﴾ ما تهواه النفس وهو ما ترغب فيه قوي النفس الشهوية والغضبية مما يخالف الحق والنفع الكامل، وشاع الهوى في المرغوب الذميم». اهـ.

قال القرطبي: ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾: «أي زجرها عن المعاصي والمحارم».

وقال سهل: ترك الهوى مفتاح الجنة لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾.

قال عبد الله بن مسعود: «أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق، فنعوذ بالله من ذلك الزمان» اهـ.

قال سهل في تفسيره: «لا يسلم من الهوى إلا نبي وبعض الصديقين وليس كلهم، وإنما يسلم من الهوى من الزم نفسه الأدب، وليس يصفو الأدب إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجمعين وبعض الصديقين وكذلك الأخلاق، وخرج ابن السماك يوماً إلى أصحابه وقد اجتمعوا فقال لهم: قد كثرت عظاتي لكم، تريدون دوائي لكم، قالوا: نعم، قال: خالفوا أهواءكم». اهـ.

قال بعض أهل العلم في بيان كيفية محاربة الهوى: «إذا همت نفسك بالمعصية فذكرها بالله فإذا لم ترجع فذكرها بأخلاق الرجال فإذا لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا علم الناس بها، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة انقلبت إلى حيوان».

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، قال النووي في شرحه: «يعني أن الشخص يجب عليه أن يعرض عمله على الكتاب والسنة، ويخاف هواه ويتبع ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]» اهـ. شرح الأربعين النووي.

: B

لقد أخبرنا الله تعالى بعداوة الشيطان فقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

فالشيطان غايته ومقصده من الإنسان أن يجعله من أصحاب السعير ومن هنا وجبت عداوته، وكل عدو لا يمكنك أن تنتصر عليه إلا إذا عرفت ما هي أساليبه في الحرب وما هي الأسلحة التي يمكنك القضاء عليه بها أو يمكن هو أن يقضى عليك بها، وقد بين الله تعالى أن كيد الشيطان إنما هو تزيين المعصية للإنسان عن طريق الوسوسة، فهو لا يملك شيئاً غير التزيين والوسوسة قال تعالى حاكياً قول الشيطان: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، وعندما يدخل الشيطان وأتباعه ومن كان يطيعه في وساوسه تلك نار جهنم، والعياذ بالله، يتبرأ الشيطان من أولئك الأتباع كما حكي ذلك ربنا في سورة إبراهيم ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

إذن ما دام هذا هو سلاحه: التزيين والوسوسة، وجب على المؤمن أن يعرف السلاح الذي به يدفع سلاح الشيطان وكيد مكره وقد بين الله تعالى لنا في ذلك في كتابه، كما بينه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته واذكر ذلك في النقاط الآتية:

١- الاستعاذة ومعناها قول الإنسان أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وذلك عندما يجد نفسه ما يدعوه إلى المعصية فهذا غالبا ما يكون من وساوس الشيطان، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا يَزْنَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ومعنى استعذ بالله أي احتمي بحماه والتجئ إليه سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى فهو القادر على أبعاد الشيطان عنك، قال بعض المفسرين في ختام الآية ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. ليس هنا السمع العام بل سمع الإجابة أي فالله تعالى يستجيب لك عندما تحتمي بحماه من الشيطان الرجيم.

وفي صحيح البخاري عن سليمان بن صرد قال: كنت جالسًا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجلان يستبان، فاحدهما احمر وجهه، وانتفخت أوداجه فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد».

٢- قراءة سورتي العلق والناس وهما المعوذتان ويكون بهما عن طريق المواظبة على قرأتها كل صباح ومساء ووقت النوم إذ هما من الأوراد الصباحية والمسائية، وقد ورد في الحديث عن عبد الله بن خبيب قال: كنت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدنوت منه فقال: «قل»، قلت: ما أقول: قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «ما تعوذ المتعوذون بأفضل منهما»^(١).

وإذا أضيف إليهما قراءة الإخلاص فإن ذلك خير كثير وذلك لما ورد في الحديث: «من قالها - هذه السور الثلاث - ثلاث مرات حين يصبح وحين يمسي كفته من كل شيء»^(٢).

٣- قراءة آية الكرسي: وهذه الآية لها فضل عظيم ولهذا على كل مسلم أن يحرص على حفظها، والتعوذ بها يكون أيضًا بقراءتها في الصباح والمساء كما جاء في الحديث: «من قالها حين يصبح أجير من الجن حتى يمسي ومن قالها حين يمسي أجير من الجن حتى يصبح»^(٣).

وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: وكلني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آت يحثو من الطعام فأخذه فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر الحديث إلى أن قال له هذا السارق: إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه

(١) أخرجه النسائي.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٣) أخرجه الحاكم والطبراني وإسناده جيد.

لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صدقك وهو كذوب، ذاك الشيطان».

الأول: ليست هذه الثلاث فقط هي التي بها يستعيز الإنسان بها من شر الشيطان بل هناك أشياء أُخْرَ كثيرة، وذلك بقراءة سورة البقرة كاملة، وكذلك الآيتين الأخيرتين منها، والتهليل بصيغة لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد وهو على كل شيء قدير) مائة مرة أو عشر مرات، صباحًا ومساءً، كما جاء في الأحاديث.

ومما يحفظ من الشيطان الإكثار من ذكر الله تعالى على كل حال فإن الشيطان إنما يسلط على الإنسان حال غفلته الشديدة فلذلك ينبغي التخفيف من فضول الطعام والنام وسائر المباحات لأنها هي السبب الأساس في شدة الغفلة عن الله تعالى، حمانا الله وإياك من كيد الشيطان ونفخه وإضلاله ووساوسه.

الثاني: ما سبق ذكره من وساوس الشيطان وكيده كان على سبيل الأجمال وإلا فتضليله يطول جدًا حتى إنه أُلْفِت فيه مؤلفات ومن ذلك كتاب إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان لابن القيم، ولكن لا بد لنا من الإشارة إلى شيء من الطرق التي يسلكها الشيطان في إضلال العبد أو إبعاده قليلًا أو كثيرًا عن العبادة، يقول ابن مفلح رَحِمَهُ اللهُ: «إن الشيطان يقف للمؤمنين في سبع عقبات عقبه الكفر، فإن سلم منها، فالبدعة فإن سلم منها، فعقبة الكبائر فإن سلم منها فعمل المباحات وليشغله بها عن الطاعات، فإن سلم من ذلك كله شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم العبد من ذلك أيضًا، وقف له في العقبة السابعة وهذه لا يسلم منها مؤمن لان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يسلم منها: وهي تسليط الأعداء والفجرة على المؤمن بأنواع الأذى» اهـ. ولا شك أن كلام ابن مفلح هذا يحتاج إلى تفصيل كثير ولكن قد يكون بمثابة الإشارة الضوئية ليفهم المؤمن عداوة الشيطان له، والله أعلم.

المبحث السادس

مما لا شك فيه أن كل من يسمع بمنزلة التقوى وما لأهلها من الكرامة في الدنيا والآخرة يتمنى أن يكون منهم ويسلك السبل التي تعين إلى الوصول إلى التقوى - على حسب ما سبق في المبحث الخامس - ولكي يسهل عليك ذلك فإنه لا بد من معرفة صفات المتقين كما هي مذكورة في القرآن الكريم، ومن ثم أحببت أن أذكر أهم تلك الصفات حتى يعلم العبد هل هو من المتقين أم لا؟.

فأقول ومن الله أرجو العون والقبول: من أهم صفات المتقين ما يلي:

الصفة الأولى: الإيمان بالغيب: وردت هذه الصفة في أول سورة البقرة فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ [البقرة: ٢-٣] الخ ولتوضيح هذه الصفة أقول:

: B

قال القرطبي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون، والإيمان في اللغة: التصديق، وفي التنزيل: وما أنت بمؤمن لنا، أي بمصدق لنا، وبتعدي بالباء واللام كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]، ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ [يونس: ٨٣].

أما المراد من الغيب فقد رجح القرطبي أن المراد هو ما ورد في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنْ تُوْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُوْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

والغيب في حقيقته هو كل ما غاب عنك، قال الراغب: «الغيب: مصدر، غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، يقال: غاب عني كذا، قال تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، واستعمل في كل غائب عن الحاسة وعمَّا يغيب عن علم

الإنسان قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾، والغيب في قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ وما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنما يُعلم بخبر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وعدم الإيثار به يوقع الإنسان في الإلحاد»^(١).

تنبيه: يقول تعالى في الآية التي معنا: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ هكذا جاءت بالمضارع مما يدل على استمرارهم، فإيمانهم بالغيب حاضر لا يغيب عنهم ولا يفقدونه في لحظة من اللحظات.

: : : : : B

إن الله تعالى قد أثبت لنفسه علم الغيب والشهادة في آيات كثيرة ولكن ما ورد في علمه تعالى بالغيب وتمدحه به جَلَّ جَلَالُهُ أكثر، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النحل: ٧٧]، وغيرها من الآيات.

وقد بسط العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ القول حول اختصاص الله تعالى بعلم الغيب في كتابه (العذب النمير) وسأذكر هنا خلاصته قوله، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ الآية.

ذكر بعض أهل العلم أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءه بدوي فقال له: إني تركت امرأتي حبل، وتركت قومي في جذب، فأخبرني عما في بطن امرأتي، أذكرًا هو أم أنثى؟ وأخبرني عن الوقت الذي يأتي فيه الغيث لقومي ثم قال له: لو عرفت الوقت الذي وُلِدْتُ فيه، فأخبرني عن الوقت الذي أموت فيه، فأنزل الله تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾. ومفتاح الغيب في هذه الآية هي المذكورة

في أخريات سورة لقمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

قلت: يشير إلى الحديث الذي رواه أحمد عن بريده قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى آخر الآية.

ثم قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد بَيَّنَّ جَلَّ وَعَلَا فِي آيَةٍ عَامَةٍ أَنَّ الْغَيْبَ كُلَّهُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وأعظم الخلق هم الملائكة والرسول لا يعلمون الغيب.

أما الملائكة فإنهم كما قال الله لهم: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، أجابوا بأن قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ومعنى قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله.

وأما الرسول عليهم الصلاة والسلام: فهم مع ما أعطاهم الله من المكانة العالية والمنزلة الرفيعة فإنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله عَزَّجَلَّ.

فهذا سيدهم وخاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره الله بقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وبقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ولما رميت زوجته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأعظم فرية، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدري أحق ما قالوا في زوجته أم كذب؟ وقال

لها: «يا عائشة إن كنت أئمت بدنن فتوبي، وإن كنت بريئة فسيبرئك الله»، ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى أخبره عالم الغيب والشهادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾، هذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ...﴾ الآية. ولم يعلم بحال ولده فسأل الله له النجاة.

وهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول أته الملائكة فلم يعلم أنه ملائكة فتعب في ذبح العجل وسلخه وتعبت زوجته في طباخته فلما قدمه إليهم وأبو أن يأكلوا كما أخبر الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لقد خاف منهم وما دري أنهم ملائكة حتى ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

ولما جاءت الملائكة إلى لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يعلم أنهم ملائكة وخاف عليهم من قومه وساءه أن يأتي هؤلاء الشباب المرء إلى قريته لما يعلم من حال قومه، وقال لهم: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فقالت له الملائكة: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

وهذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بكى واشتد حزنه على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه لا يعلم ما حاله وقد كان يوسف في مصر وأصبح ملكاً عليهم، وكم بين الشام ومصر إنها مسافة قصيرة، ولو علم يعقوب بحال يوسف لما بكى عليه قال تعالى: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

وهذا نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي سخر له ربه الريح عدوها شهر ورواحها شهر لم يعلم بقصة بلقيس وما حالها حتى جاءه الهدهد وأخبره بالخبر ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَحِجَّتِكَ مِنْ سَبِيلِ بَنِي يَمِينٍ﴾ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

تنبيه: إن الله تعالى يطلع من شاء من الرسل على ما شاء من الغيب وذلك لأنهم مكلفون بتبليغ رسالاته قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولِي فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدَّ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ۝﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

قال القرطبي: ﴿إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولِي﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ومنها الإخبار عن بعض الغائبات وفي التنزيل: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

قلت: ومن هذا إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأشياء كثيرة وقعت بعده، ومن ذلك إخباره عن الفتنة التي وقعت بين الصحابة، وإخباره عن ادعاء النبوة، وأشرط الساعة وغير ذلك.

: B : ﴿﴾ . . . ﴿﴾ :

قال القرطبي: «قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، وليس المنجم - ومن ضاهاه - ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر الطير ممن ارتضاه من رسول فيطلع على ما شاء من غيبه بل هو كافر بالله مفقر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه.

وقد قال بعض المنجمين لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في معركة النهروان لا تسر إلى العدو في ساعة كذا ولكن سر إليهم في ساعة كذا، فإنك إن سرت في الساعة التي أمرت بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كان لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منجم ولا لنا من بعده، ثم قال للمنجم: «من يصدقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ

من دون الله ندًا أو ضدًا، اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا ضير إلا ضيرك» ثم خالف قول المنجم وسار في الساعة التي نهاه عنها وقال للناس: «يا أيها الناس، إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر والكافر في النار»، ثم سار ولقي العدو وانتصر عليه، ثم قال: «لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظهرنا، لقال قائل ساروا في الساعة التي أمر بها المنجم»^(١).

تنبيه: لا يجوز تصديق ما يكتب على صفحات الجرائد تحت عنوان (حظك اليوم) وما في معناها من العبارات لأن هذا يدخل في باب تصديق الكاهن، وقد جاء في أعلام السنة المنشورة: «الكهان من الطواغيت وهم أولياء الشياطين الذين يوحون إليهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وينزلون عليهم ويلقون إليهم الكلمة من السمع فيكذبون معها مائة كذبة كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ الشَّيَاطِينَ﴾ [٣١] نَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

ثم قال: ومن ذلك الخطُّ بالأرض الذي يسمونه ضرب الرمل، وكذا الطرق بالحصى ونحوه».

هذه الصفة وردت في سورة البقرة بعد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِيمُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ويلاحظ في هذه الصفة أن الله تعالى ﴿يُقِيمُونَ﴾ قال ولم يقل (يصلون)، ولذلك لأن الفرق كبير بين من يصلي ومن يقيم الصلاة كما سيأتي.

قال البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: «أي يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها، من أقام العود إذا قومه أي عدله - أو معناه أنهم يواظبون عليها، من قامت السوق إذا نفقت

- أي كانت السلعة رائجة فيها فإنه إذا حوفظ عليها كانت كالنافق - الرائج الذي يرغب فيه وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه أو يتشمرون لأدائها من غير فتور ولا توان من قولهم: قام بالأمر أقامه إذا جد فيه وتجلد، وضده قعد عن الأمر وتقاعد» اهـ.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ لم يقل يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة بإقامة الصلاة إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً بإقامة روحها وهو حضور القلب فيها وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه هي الصلاة التي قال الله فيها: ﴿ إِنَّكَ الصَّكُورَةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها» اهـ.

ويامكاننا القول بأن هناك عدة فروق بين أداء الصلاة وإقامة الصلاة، ومن ذلك:

١- يكفي في الأداء أن يؤدي الإنسان الصلاة ولو كانت ناقصة الأركان والواجبات، ولا يكفي ذلك في إقامة الصلاة.

٢- قد يعتبر مؤدياً للصلاة من لم يخشع فيها، وليس الأمر كذلك في حق مَنْ يقيم الصلاة، لأنه لا يمتدح بإقامة الصلاة إلا من خشع قلبه فيها.

٣- قد يؤدي المسلم الصلاة بعد خروج وقتها ويعتبر بهذا أسقط الفرض الذي عليه، ولكن ليس هو ممن يقيم الصلاة ولا يستحق المدح على أدائه للصلاة، لأن مقيمي الصلاة يحرصون على أوقاتها.

٤- هناك من يصلي أحياناً ويترك أحياناً فأياً صلاة صلاها يقال له قد أداها، ولكنه ليس ممن يقيمون الصلاة، لأن اسم إقامة الصلاة لا يطلق إلا على من واظب عليها.

بناءً على ما سبق ذكره قسم بعض العلماء الناس في شأن الصلاة إلى خمسة أقسام

الأول: الظالم لنفسه وهذا هو المفرط فيها لأنه ينتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها، وهذا معاقب على هذه الصلاة لشدة تقصيره فيها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ولكنه قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوسوس والأفكار، فقل خشوعه فيها، فهذا محاسب فليس له أجر على صلاته إلا بقدر حضور قلبه فيها.

الثالث: مَنْ يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ثم يجاهد نفسه في دفع الوسوس والأفكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه الشيطان لئلا يسرق صلاته، فهذا في صلاة وجهاد، فهذا مكفر عنه لمجاهدته لعدوه.

الرابع: مَنْ إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه في مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع منها شيء بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وقد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهذا مثاب على صلاته هذه.

الخامس: مَنْ إذا قام إلى الصلاة كان كالسابق وهو مع هذا قد أخذ قلبه ووضع بين يدي ربه ناظرًا بقلبه إليه مراقبًا له، ممتلئًا من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوسوس والخطرات وارتفعت، فهو مشغول بربه عَزَّجَلَّ قرير العين به، فهذا مقرب من ربه له نصيب ممن جعلت قره عينه في الصلاة، فمن قره عينه بالصلاة في الدنيا قره عينه بربه في الآخرة بل وفي الدنيا أيضًا، لأن الله سيعينه وينصره.

لأنه قد علم مما سبق أن أهل التقوى هم أهل القسم الخامس من أقسام الناس في الصلاة، فهم الذين قره عيونهم بالصلاة ولا بد لهذه الصلاة المقامة من ثمرات أذكر منها:

١- إنها مطردة للداء من الجسد فكم من فشلت العقاقير الطبية في علاج أمراضهم فلما توجهوا إلى الله تعالى بالصلاة برئت عللهم وشفيت أمراضهم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لعل هذه الحركات من قيام وركوع وسجود تحليل للمواد وتقوية للجسد فالصلاة من أكبر الأدوية».

قلت: وفي الخشوع في الصلاة من القوة النفسية ما يعين المريض على إعادة توازنه ولعله أن يبكي في دعائه في الصلاة فيستجيب الله له فيشفى.

٢- إنها سبب في رفع الدرجات يوم القيامة في جنة عرضها السموات والأرض قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ بِهَا دَرَجَةً».

٣- وأهل إقامة الصلاة هم المحظوظون بالتمكن من السجود يوم القيامة عندما يمتاز المؤمنون عن المنافقين، فمن سجد في الدنيا وحافظ على الصلاة، وسجد لله رغبة ورهبة سجد يوم القيامة وإلا أصبح ظهره يوم القيامة طبقة واحدة كلما أراد السجود خر على قفاه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذُلُّهُمْ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

٤- من أعظم ثمرات الصلاة الموصوفة بالإقامة والخشوع أنها سبب في أن يذكر الله صاحبها عنده في الملا الأعلى قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ذكر ابن القيم أربعة أقوال في تفسيرها الناس فيها أن المعنى أنكم إذا ذكرتموه فكان ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له.

لا شك أن من أقام الفريضة على الصفة التي ذكرنا أنه سوف يتطلع إلى إطالة مناجاة الله تعالى وذلك عن طريق أداء النوافل، والنوافل على نوعين.

(أ) **نوافل مقيدة:** بالصلوات الخمس وهي ما تسمى بالسنن الرواتب القبلية والبعدية، وهذه شرعت لجبر ما كان من نقص في وأهل التقوى هم من أحرص الناس على أدائها كما سيأتي بيانه.

(ب) **نوافل مطلقة:** وهذه ليست مقيدة بوقت، ومن أفضلها صلاة الليل، والله تعالى قد وصف المتقين بأنهم من أحرص الناس على قيام الليل، قال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَأَخْذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رَبُّهُمْ رِئُومًا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٧]، فهذا حال المتقين في الليل أنهم يطيلون فيه القيام بين يدي الله الملك وقد سبق الكلام على قيام الليل في الصفة الثالثة من صفات عباد الرحمن عند قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ وتأمل معي موافقة هذه الآية.. الآية السابقة ﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا ﴾ ﴿ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

وقد قلت سابقاً إنَّ المتقين هم أحرص الناس على السنن الرواتب بناءً على ما ذكره الله هنا من حرصهم على قيام الليل، وقيام الليل أقل مرتبة من السنن الرواتب، كما حقق ذلك ابن رجب رَحْمَةُ اللَّهِ، فمن كان حريصاً على الأدنى كان حرصه على الأعلى أشد أعلم.

هذه الصفة من الصفات الواردة في أول سورة البقرة: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِفُونَ ﴾ [البقرة: ٣]. وقد سبق الكلام على الإنفاق ضمن هذا الكتاب عند الكلام على الصفة الخامسة من صفات عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ

يَقْرُؤُوا وَكَانَ بَيْنَكَ ذَلِكَ قَوَامًا ❁، ولهذا أكتفي هنا بذكر ما قال السعدي في تفسير آية البقرة.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: «يدخل فيه: النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، ونحو ذلك، ويدخل فيه النفقات المستحبة في جميع طرق الخير.

ولم يذكر المنفق عليهم، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله تعالى.

وأتى بـ (مِنْ) الدالة على التبعض لينبههم إلى أنه لم يُردْ منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، وهم مع ذلك منفقون بهذا الإنفاق.

وفي قوله تعالى: ﴿رَزَقْنَهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديهم ليست حاصلة بقوتكم، ولا هي ملكاً لكم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم وأنعم به عليكم»^(١). اهـ.



الأول: جاء التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ إشارة إلى أن إنفاقهم مستمر، لا يتوقف، فالمتقي ينفق على أهله وعلى المساكين وغيرهم قدر استطاعته، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبه، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»^(٢).

الثاني: وردت آيات أُخْرَى في وصف المتقين بالإنفاق عدا ما ذكرنا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ❁ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، وفي هذه

(١) تفسير السعدي (ص ٣٠).

(٢) رواه مسلم.

الآية دلالة على أن الأنفاق هو ديدنهم في جميع الأحوال إن أيسروا أو اعسروا، وورد أيضاً وصف المتقين بالأنفاق في سورة الذاريات في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ وغير ذلك من الآيات.

تقدم في الصفة الأولى من صفات المتقين: الإيمان بالغيب وقد ذكرنا أنه يشمل الأيمان بأركان الأيمان الستة المعروفة، ولكن ذكر الله تعالى لنا أن من صفات المتقين ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وهذا بعد قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال أهل التفسير: وقد خص الله تعالى الإيمان الآخرة بالذكر بعد العموم لأنه -أي اليوم الآخر- أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل، وقد ورد الأيمان باليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ الآية.

ومما ينبغي أن يعلم أن الله تعالى وصف إيمان المتقين باليوم الآخر بوصفين ينبغي الوقوف عندهما:

أحدهما: اليقين: حيث قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بين العلامة ابن عاشور هذا الوصف بقوله: «واليقين هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال أو بعد شك سابق، ولا يكون شك إلا في أمر ذي نظر، فيكون اليقين -أخص من الأيمان ومن العلم، وقيل اليقين: هو العلم -الذي لا يقبل الاحتمال.

فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بعبارة الإيقان، لأن هذه المادة تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طرق الاستدلال، لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المعارف كان الإيمان بها جديراً بعبارة الإيقان. بناءً على أنه أخص من الإيمان» اهـ.

وسياتي بيان فائدة هذا اليقين عند الكلام على الصفة الخامسة عشر (الإمامة في الدين).

ثانيهما: الإشفاق: وهذا الوصف جاء في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]، قال تعالى: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٧-١٨]، ولم يحصل منهم هذا الإشفاق إلا بسبب اليقين الذي وصلوا إليه فأصبحت الآخرة في حسهم كأنها رأى عين».

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ الْإِسْفَاقِ ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾: «أي خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف» اهـ.

وقال ابن عاشور: «الإشفاق: توقع المكروه وهو ضد الرجاء، وهذا التوقع متفاوت عند المتسائلين بحسب تفاوت ما يوجبه من التقصير في أداء حق التكليف أو من العصيان» اهـ.

وهذا الخوف يورثهم أمناً يوم القيامة فيكونوا من أهل الجنة برحمة الله تعالى، فإذا أدخلوا الجنة تذكروا إشفاقهم هذا كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧].

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَأَنَّ الْمَسْئُولَ عَنْهُمْ يَقُولُ لِلسَّائِلِ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي في دار الدنيا ﴿أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله، ونحن بين أهلنا أحياء فمن الله علينا أي أكرمنا، وتفضل علينا بسبب الخوف منه في دار الدنيا فهدانا ووقفنا في الدنيا ووقانا في الآخرة من عذاب السموم».

الفاء في قوله: ﴿فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ تدل على أن علة ذلك هي الخوف من عذاب الله في دار الدنيا سبب السلامة في الآخرة يفهم منه أن من لم يخف من عذاب الله في الدنيا

لم ينج منه في الآخرة، وقد ذكر الله تعالى أن السرور في الدنيا وعدم الخوف منه تعالى سبب العذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٣] (١) اهـ.

إن أهل التقوى الذين وصفهم الله بأنهم من الساعة مشفقون لهم علامات بها يعرفون وخلالها يتصفون: اذكر منها:

١- قصر الأمل: قال الحسن البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل) قال القرطبي معلقاً: وصدق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني، وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يطلب صاحبه برهان، كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على السابقة).
وقال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَخُوفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعَ الْهُوَى وَطُولَ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعَ الْهُوَى فَيَصِدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولَ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ».
وفي الأثر: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا.

وعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه انه قال: ما نمت يوماً قط فحدثت نفسي أنى استيقظ منه.

وقال أبو زرعة الشامي لإبراهيم بن نسيط: «لأقولنّ لك قولاً ما قلته لأحد سواك، ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة فحدثت نفسي أن أرجع إليه».

وعن سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ثلاثة أعجبتني ثم أضحكتني، مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك مل فيه ولا يدري اساخط رب العالمين عليه أم راضي عنه».

وثلاثة أحزنتني حتى أبكتني: فراق محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحزبه والأحبة، وهول المطلع، والوقوف بين يدي ربي، لا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار».

وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم كثيرة جداً ولكن نقلت ها هنا بعضها خشية الإطالة:

٢- الاستعداد للموت قبل نزوله: وهذه نتيجة حتمية لليقين بالآخرة ولقصر الأمل، ومن هنا كان السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يستعدون للموت قبل نزوله، وقصصهم وأقوالهم في ذلك كثير لا تحصى، واليك بعضاً منها: قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ارتحلت الآخرة مقبلة، وارتحلت الدنيا مدبرة، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل».

وقال أيضاً -وهو يصف الصحابة-: رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم أر شيئاً يشبههم، كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب الماعز، قد باتوا سجداً وقياماً، يراو حون بين جباهم وأقدامهم، فإذا اصبحوا تهادوا كما يמיד الشجر يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع، فوالله لكأني بالقوم باتوا غافلين القيام وذلك السجود والبكاء، وفي نهارهم يعملون بأسباب الدنيا أو يجاهدون في سبيل الله أو تعليم الناس أمور دينهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم وحشرنا في زمرتهم.

قيل لإبراهيم بن عيسى البشكري: كيف أصبحت؟ فقال: «أصبحت في أجل منقوص وعمل محفوظ والموت في رقابنا والقيامة من ورائنا ولا ندرى ما يفعله الله بنا».

وعن سلمة بن بشير أن أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكى في مرضه فقيل: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي لبعث سفري، وقلة زادي، وأنى أصبحت في صعود مهبطة على جنة أو نار فلا أدري أيتها يسلك بي».

وقال الحسن البصري: «حقيقٌ على من كان الموت موعده، والقبر مورده، والحساب مشهده أن يطول بكاؤه وحزنه».

وعن عبد الواحد بن صفوان قال: «كنا مع الحسن في جنازة فقال: رحم الله امرءاً عمل لمثل هذا اليوم، إنكم اليوم تقدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور، فاغتنموا الصحة والفراغ قبل يوم الفرزة والحساب».

٣- الخوف من العواقب الوخيمة للمعاصي والسيئات: إن من أعظم علامات الإشفاق من الآخرة أن يكون العبد خائفاً من ذنوبه ومعاصيه من أن يعاقب بها فتكون سبباً في هلاكه.

ولهذا قال أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، وإن كنا لننعتها على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات»، أي من الكبائر، وقال بلال بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت».

وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً في النار»^(١).

قال ابن القيم وهو يعلق على كلام أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ها هنا نكتة رقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسي، وسبحان الله كم أهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزال من نعمة؟ وكم جلبت من نقمة؟» اهـ.

عن جبر بن نفير قال: لما فتحت قبرص فرق أهلها فبكى بعضهم إلى بعض رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي فقلت يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام أهله؟ قال: «ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عَزَّوَجَلَّ - إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى».

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة.

وينبغي أن يذكر في هذا المقام أن السيئات لها عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، وقد ذكر العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي (الداء والدواء) كثيرًا من المصائب والبلايا التي تنتج عن المعاصي في الدنيا والآخرة، ويكفي هنا قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ لِّلْسِيئَةِ ظِلْمَةَ فِي الْوَجْهِ وَوَحْشَةً فِي الْقَلْبِ وَضَعْفًا فِي الْبَدَنِ وَبِغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ».

ويكفي المؤمن زجرًا عن السيئة علمه بأن الله تعالى يراه ﴿الَّذِي يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾، ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِرَّ وَخَفَى﴾.

٤- الدعاء والتضرع إلى الله أن ينجيه من عذاب الآخرة: هذه العلامة وردت

في قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيْ آهِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ لَّهِ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي نتفرغ إليه فاستجاب لنا واعطانا سؤالنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ وقد ورد في هذا المقام حديث رواه الحافظ أبو بكر البزار بسنده - عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ.. الْجَنَّةَ اشْتَاقُوا إِلَى الْإِخْوَانِ فَيَجِيءُ سَرِيرٌ هَذَا حَتَّى يَحَاضِيَ سَرِيرَ هَذَا، فَيَتَحَدَّثَانِ فَيَتَكَيَّ هَذَا وَيَتَكَيَّ هَذَا فَيَتَحَدَّثَانِ بِمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: يَا فُلَانُ تَدْرِي أَيُّ يَوْمٍ غَضِرَ لَنَا؟ يَوْمَ كُنَّا فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَكُنَّا فِغَضِرَ لَنَا».

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنْ لَّهِ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

فقالت: «اللهم منَّ علينا وقنا عذاب السموم انك أنت البر الرحيم»، قيل للأعشى أحد الرواة - في الصلاة؟ قال: نعم. اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ هذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال لرغبة ورهبة، والمعنى: أنا كنا من قبل نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي - من العذاب وغيره، فإن الله يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد الطلب والسؤال» اهـ.

قلت: وأكثر أهل التفسير على ما ذهب إليه ابن كثير من الدعاء هنا سؤال الله تعالى أن يغفر لهم وأن ينجيهم من العذاب. والله أعلم.



هذه الصفة جاءت في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، وتقدم الكلام على الأنفاق في الصفة الثالثة، وأما بقية الآية فهي تتحدث عن كظم الغيظ) والمراد من الغيظ هو أشد حالات الغضب، قال السعدي: ﴿وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ﴾ أي إذا حصل لهم من الغيظ من غير أذية توجب غيظهم، وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول أو الفعل، هؤلاء لا يعلمون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في قلوبهم من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم بمثله» اهـ.

ولذلك يروى أن خادمة لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا غاظتها يوماً، فقالت: «لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (١).

وروى أحمد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من قبح جهنم، إلا إن عمل الجنة حزن بربوة ثلاثاً. أن عمل النار سهل بشهوة، والسعيد من وقى الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد الله إلا ملأ الله جوفه إيماناً»^(١).

وروى أبو داود عن رجل من الصحابة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ملأ الله جوفه أمنأ وإيماناً»، وروى أحمد عن أنس بن مالك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من كظم غيظ وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور العين شاء».

تلك هي مرتبة أولى في معاملة المتقين للخلائق ألا وهي كظم الغيظ، وكم نحن في حاجة إلى التعامل بها لتلافي كثيراً من المشاكل التي تنتج عن الغضب، وكم من الناس كادت حياته أن تذهب سدى بسبب عدم كظمه لغيظه أو بسبب مجاراته لغضبه. وأما في المرتبة الثانية فهي أعلى من كظم الغيظ ألا وهي أن تعفو عمن أساء إليك، وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذا ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

وإنما كان العفو أعلى منزلة لأنه يقتضي المسامحة وعدم مؤاخذه المسيء وقد وردت أحاديث كثيرة تبين ما للعافين عن الناس من الأجر والمثوبة ومن ذلك:

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من سره أن يسرع له البنيان وترفع له الدرجات، فليعف عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه»^(٢). وعن ابن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا كان يوم القيامة ناد منادٍ يقول: أين العافون

(١) قال ابن كثير: «انفرد به أحمد وإسناده حسن، وليس فيهم مجروح ومتمنه حسن».

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

عن الناس، هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم وحق على كل امرئ مسلم عفا أن يدخل الجنة»^(١).

وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعُ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ عِزًّا».

وهذا الحديث يصحح مفهوماً خاطئاً رسخ في أذهان بعض المسلمين وهو أن الذي يعفوا إنسان ضعيف أو جبان أو مسكين لا يستطيع رد السيئة بمثلها أو لا يستطيع أن يأخذ حقه - هكذا يقولون - ومن هنا انتشرت ثقافة العنف والانتقام بين الغالبية العظمى من المسلمين وبخاصة الشباب بينما هذا الحديث يبيّن عكس هذه المعاني تماماً، ونحن نعلم يقيناً أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى فهو هنا يبين لنا أن الذي يعفو عن المسيئين إليه فسوف يعزه الله تعالى وهذه العزة قد تكون في الدنيا وقد تكون في الآخرة، والدليل على أنها في الآخرة أيضاً ما جاء في الحديث الآخر: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حُسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء»^(٢). ولا شك أن من لم يعف عن المسيء لا يعتبر من أصحاب الخلق الحسن.

والعفو عن الناس من أخلاق الأنبياء فهذا سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعفو عن أهل مكة يوم أن دخلها فاتحاً، لقد عفا عن قوم آذوه أشد الإيذاء وحاربوه ما يقرب من عشرين سنة، ومع ذلك يقول لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم تأتي مرتبة الإحسان وهي أعلى من كظم الغيظ والعفو لأن المحسن لا يكتفي بالعفو بل يحسن إلى من أساء إليه، وهذا هو الخلق الذي وصف به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكتب السابقة.

(١) رواه ابن مردويه كما ذكره ابن كثير.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وفي هذا المقام يروى الغزالي هذه القصة: «أن ميمون بن مهران جاءته جارية له بطعام حار فسقط الإناء من يدها فأصاب ميموناً منه شيء، فقال لها مغضباً: أحرقتني، فأجابته: يا معلم الخير، ومؤدب الناس، ارجع إلى ما قال الله تعالى، فقال: وماذا قال الله تعالى؟ قالت: لقد قال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال: كظمت غيظي، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال عفوت عنك، قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال: أنت حرة لوجه الله».

والإحسان كما عرفه العلماء: «هو إيصال النفع الديني والدينيوي إلى الناس، ودفع الشر الديني والدينيوي عنهم»، ويدخل في ذلك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهل وتذكير الغافل، والصدقة وإسداء المعروف وغير ذلك من أنواع الإحسان، ويرحم الله القائل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

وأخيراً: هذه المراتب الثلاث لا يمكن أن يتخلق بها إلا من جعل الدار الآخرة نصب عينيه، وهضم حق نفسه، واخلص لله نيته، وهو مع هذا في حاجة إلى تدريب وترويض لهذه النفس لعلها أن تطاوعه في هذه الأخلاق الكريمة... والله المستعان.

.....

هذه الصفة تدل على خوف المتقين من رب العالمين، وإذا كان الواحد منا يسارع بطلب السماح إن أساء إلى إنسان يعظم في عينه، أفلا يكون الله أعظم في نفوسنا من كل عظيم، وبدون وقوع العظمة لله في القلب لا يمكن أن يعظم الذنب، ولن تكون هناك مسارعة إلى الاستغفار ما دام المذنب ولا يتلفت في حق من أذنب.

أن الله تعالى قد مدح المتقين بأنهم يسارعون إلى الاستغفار وصور حالهم في آيتين من كتابه العظيم:

الأولى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ وَإِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٣٥: عمران]، هذه الآية معطوفة على الصفات السابقة ابتداء من قوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيمِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً...﴾ الخ. قال ابن كثير في تفسيرها: «إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار».

وقال القرطبي: الفاحشة تطلق على كل معصية، وقد كثر اختصاصها بالزنا حتى فسر جابر بن عبد الله والسدي هذه الآية بالزنا ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أو بمعنى الواو، والمراد ما دون الكبائر.

وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أي بالخوف من عقابه والحياء منه، قال الضحاك: «ذكروا العرض الأكبر على الله تعالى».

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي طلبوا الغفران لذنوبهم، وكل دعاء فيه هذا المعنى أو لفظه فهو استغفار، وروى الترمذي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من قال: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف».

١- عن ابن عباس: قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

٢- عن شداد بن أوس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت،

أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في النهار فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»^(١).

٣- عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك لو بلغت ذنوبك عن السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»^(٢).

٤- عن الزبير بن العوام أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أحب أن تسره صحيفته فليكثر من الاستغفار»^(٣).

٥- وعن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور -الوضوء- ثم يقوم فيصلّي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً...﴾ الخ.

الاستغفار المطلوب: قال القرطبي: قال علماءنا: الاستغفار المطلوب هو الذي يجل عقدة الإصرار، ويثبت معناه في الجنان، لا التلفظ باللسان، فأما من قال بلسانه: استغفر الله وقلبه مصر على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لا حقه بالكبائر.

وروى عن الحسن البصري أنه قال: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار، قال القرطبي: هذا بقوله في زمانه فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الرجل مكبباً على الظلم حريصاً

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

(٣) قال المنذري: رواه البيهقي بإسناد لا بأس به.

عليه، لا يقلع عنه، والسبحة في يده زاعمًا أنه يستغفر الله من ذنبه، وذلك استهزاء واستخفاف».

قلت: هذا زمان القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فكيف بهذا الزمان الذي غاب فيه الاستغفار عن السنة الصالحين إلا من رحمهم الله فضلًا عن الظالمين ويا ليتنا نستغفر بألسنتنا، لأن اللسان قد يكون سببًا في تنبيه القلب فيورث توبة إنابة.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ

لقد كان السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حريصين كل الحرص على الاستغفار لما علموه من فضل الاستغفار من أحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل ولما علموه في كتاب الله من ترغيب في الاستغفار، وإليك طائفة من أقوالهم في هذا الشأن، وكلها مأخوذة من سير أعلام النبلاء للذهبي:

يقول رباح القبسى: «لي نيف وأربعون ذنبًا، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة»، قلت فيكون قد استغفر أربعمائة ألف مرة من هذه الأربعين ذنبًا، سأل رجل ابن الجوزي: أيهما أفضل أسبح أم استغفر؟ قال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من إلى البخور. هذه إشارة لطيفة إلى حاجة السائل بل وكل مسلم إلى الاستغفار، ولكن هذا لا يعني أن يترك التسبيح لأن التسبيح أيضًا من مكفرات الذنوب.

قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كان لنا أمانان من العذاب، وذهب أحدهما وهو كون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي بين أظهرنا وهو قد مات. وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكننا».

قلت: يشير أبو موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال الفضيل رَحِمَهُ اللهُ: «استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين»، وهذا كقول الحسن البصري ونسب إلى رابعة العدوية أيضًا: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار».

عن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: «اللهم إنَّ استغفاري مع إصراري لؤم، وإنَّ ترك الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إليَّ بالنعيم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وثقَّ وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين».

قال القرطبي: قال ابن صبيح: شكَا رجل إلى الحسن الجدوبة، فقال له: استغفر الله، وشكَا آخر إليه الفقر، فقال له استغفر الله، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدًا، فقال له: استغفر الله، وشكَا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله، قال ابن صبيح: فقلنا له في ذلك، أي كيف وجهتهم جميعًا إلى الاستغفار مع اختلاف حوائجهم، فقال الحسن: ما قلت من عندي شيئًا أن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

سُئِلَ سهل التستري عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال: «أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة: إقبال على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه».

الآية الثانية: في وصف حال المتقين عند الوقوع في الذنب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «ولما كان العبد لا بد من أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطًا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بالذنب، ومسه طائف من الشيطان فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب، تذكر من أي باب أتى؟ ومن أي مدخل دخل عليه، وتذكر ما أوجب عليه من لوازم الإيمان

فأبصر واستغفر الله تعالى واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيّرًا، وقد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما أخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب لا يزالون يمدونهم في الغي ذنبًا بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، أي لا يكفون عن ذلك فالشياطين لا تقتصر عنهم بالإغواء لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها، وهم يقصرون عن فعل الشر^(١) اهـ.

• • • رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا • • •

قال القرطبي: قال عصام بن المطلق: دخلت المدينة فرأيت الحسن بن علي بن أبي طالب - فأعجبني سمته وحسن روائه، فأثار مني الحسد ما كان يجنه - أي يستره - صدري لأبيه من البغض، فقلت: أنت ابن أبي طالب، قال نعم فبالغت في شتمه وشتم أبيه، فنظر إلي نظرة عاطف رءوف، ثم قال أعود بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿١١١﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿ [الأعراف: ١٩٩-٢٠١].

ثم قال لي: «خفض عليك - هون عليك - استغفر الله لي ولك، إنك لو استعنتنا أعناك، ولو استرفدتنا أرفدناك، ولو أسترشدتنا أرشدناك»، فتوسم في الندم على ما فرط مني، فقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين أمن أهل الشام أنت؟ قلت: نعم، قال: «شنشه نعرفها من أحزم حياك الله وبياك، وعافاك وأداك - قواك وأعانك - انبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك تجدنا عند أفضل ظنك إن شاء الله»،

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٤٢٠).

قال عصام: فضاقت على الأرض بما رحبت وددت لو أنها ساخت بي، ثم سللت لو أذاً، وما على وجه الأرض أحدٌ أحبُّ إليّ منه ومن أبيه» (١).

.....

١- أمان من العذاب: قال أبو موسى الأشعري: «كان لنا أمانان - أي من العذاب - ذهب أحدهما وهو كون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيننا، وقد توفي، وبقي الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا»، قلت: يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وهذا كله تقدم قبل قليل.

٢- سبب في دخول الجنة: والدليل حديث سيد الاستغفار المتقدم، كما انه سبب في سرور العبد يوم القيامة بصحيفته لحديث الزبير بن العوام السابق.

٣- سبب نزول الرحمة: هذا مما ذكره الله من قول صالح: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالاستغفار فيه انكسار القلب بين يدي الرب وهو سبب الرحمة.

الصفة السابعة: عدم الإصرار على المعاصي والذنوب: إن المتقين إنما تقع منهم المعصية على حين غفلة - كما هو واضح من الصفة السابقة - ولذا لا تقع منهم المعصية على وجه الإصرار أبداً يدل ذلك على سرعة رجوعهم وتوبتهم إلى الله تعالى.

وهذه الصفة - أعني عدم الإصرار - وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال ابن كثير: «﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ولم يستمروا على المعصية ولم يصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه».

وعدم الإصرار يعني أن يجدد المذنب التوبة والاستغفار ولو تكرر منه الذنب يدل ذلك على قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال فيه ابن كثير: «وهم يعلمون أن من تاب تاب الله عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الإصرار: هو الاستقرار على المخالفة والعزم على المعادة، وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير وهذا من عقوبة الذنب أنه يوجب ذنباً أكبر منه، ثم الذنب الثاني كذلك ثم الثالث كذلك يستحكم الهلاك. فالإصرار على المعصية معصية أخرى، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها وطمثانية إليها، وذلك علامة الهلاك»^(٢) اهـ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «قال سهل بن عبد الله: الجاهل ميت - والناسي نائم - والعاصي سكران - والمصر هالك - والإصرار هو التسويف - والتسويف أن يقول: أتوب غداً، وهذه دعوى النفس، كيف يتوب غداً، وغداً لا يملكه» (٤ / ٢١١).

إذا خطورة الإصرار تكمن في أن الذنب سيصبح جزء من حياة الإنسان كالطعام والشراب لا يملك أن يتخلى عنه وهذا مما يؤدي إلى سؤ الخاتمة حيث إنه قد يأتيه الموت وهو يفعل ذلك الذنب الذي ألفه، ومن وصل به الحال إلى الإصرار صعبت عليه التوبة أكثر من غيره.

ومن أعظم الأسباب التي تؤدي إلى إصرار بعض المذنبين على الذنب هو البحث عن ما يبرر لهم الوقوع فيه، فنجد أحدهم يأكل الربا ولا يعترف بأنه وقع في كبيرة من

(١) رواه أبو داود والترمذي، وحسنه ابن كثير في تفسيره.

(٢) الضوء المنير (٢ / ٩٩).

الكبائر بل يبرر ذلك بأنه محتاج أو انه فعله من باب الضرورة فإن لمثل هذا أن يحل عقدة الإصرار وأن يتوب إلى الله الواحد الغفار.

ومن أعظم المصائب التي تحل بالعبد عدم اعترافه بالذنب وهذا من احب الناس إلى عدوه الشيطان إذ لا يمكن للشيطان أن يبلغ منه ما فعله هو بنفسه، نعوذ بالله من الخذلان، ومن تلاعب الشيطان.

• • • • •

قال القرطبي: قال علماءنا: الباعث على التوبة وحل عقدة الإصرار إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفار، وما ذكره سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار وتهود به العاصين، ودوام على ذلك حتى قوى خوفه ورجاؤه، فدعا الله رغباً ورهباً، والرغبة والرغبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف العقاب ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب.

وقيل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلهي - عن طريق الإلهام - ينبه به من أراد سعادته لقبح الذنوب وضررها، إذ هي سموم مهلكة» (٤ / ٢١١).

قلت: ذكر القرطبي ها هنا طريقان للبعد عن الذنوب وحل عقدة الإصرار:

أحدهما: تدبر القرآن الكريم، والثاني: تنبيه إلهي لمن أراد الله سعادته. والطريق الأول بيد كل إنسان ولكن أين المتدبرون اليوم لكتاب الله والناظرون في آياته وعبر عظاته، ولعله من شقاء الإنسان أن لا ينظر في كتاب الله نظر تدبر إذ لو عمل بوصية القرطبي لا نحلته عنه عقدة الإصرار.

وأما الطريق الثاني فهو قد لا يحصل إلا للقللة من الناس، ولعل بعض من يقرأ هذا الحل لمشكلة الإصرار يقول أنا انتظر الإلهام الإلهي وأقول هذا خداع للنفس واتباع الهوى لأن الذي كلفنا الله به هو تدبر القرآن، والعمل به، وبذلك تكون النجاة، ولهذا

ذكر القرطبي الطريق الثاني بصيغة التضعيف ألا تراه قال: وقيل: «أن الباعث... الخ»، إذن لا يحل عقدة الإصرار إلا النظر في القرآن الكريم، وثمة طريق آخر لعله ينفع ألا وهو النظر في عاقبة الذنب في الدنيا والآخرة والتفكر في ذلك زمناً طويلاً وليس تفكيراً عابراً لأن العابر لا يجدي شيئاً والله أعلم.

إن هذه الصفات التي سبق تفصيلها هي ما تيسر لي الكلام عليه وبحته من كلام أهل العلم بما يليق بحجم هذا الكتاب وإلا فصفت المتقين كثيرة في كتاب الله وسأحاول هنا عدها كلها ابتداءً مما ورد في أوائل سورة البقرة، وسأجعل أمام كل صفة آية أو آيتين غالباً كدليل عليها، وسوف أقصر على موضع الدليل من الآية وعلى القارئ الرجوع إلى سورة ورقم الآية إذا أحب أن يقرأ الآية بتامها:

١- **الإيمان بالغيب:** ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٢-٣].

٢- **إقامة الصلاة:** ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

٣- **مما رزقناهم ينفقون وإيتاء الزكاة:** ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿ وَعَاتُوا

الرِّزْقَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ﴿ وَعَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ .. ﴾ الخ.

٤- **الإيمان بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم:** وهو القرآن والإيمان بما أنزل على

الأنبياء السابقين أي جميع الكتب السماوية: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة: ٤]، ﴿ وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مِنَ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، الشاهد ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ قوله اسم جنس يشمل الكتب.

٥- **اليقين بالآخرة:** ﴿ وَإِلَى الْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤] الآية السابقة ﴿ مَنْ ءَامَنَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية.

﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ .

٦- **الإيمان بالله:** ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ وكذلك هو داخل في الإيمان بالغيب على قول أهل التفسير في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ .

٧- **الإيمان بالملائكة:** ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٨- **الإيمان بالأنبياء كلهم دون تفریق:** في الآية السابقة ﴿وَالنَّبِيِّنَ﴾ .

٩- **الوفاء بالعهد:** ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

١٠- **الصبر في جميع الأحوال:** ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكذلك في آل عمران ﴿الصَّابِرِينَ﴾ .

١١- **الصدق:** ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

١٢- **الخوف من النار والإشفاق من عذابها:** ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْنَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٥-٢٦].

١٣- **القنوت:** وهو الطاعة لله مع الخضوع له جَلَّ وَعَلَا وردت في قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ﴾ [آل عمران: ١٧].

١٤- **الاستغفار:** وردت في عدة آيات: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

١٥- **قيام الليل:** ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

١٦- **عدم الإصرار على الذنب:** في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقد سبق شرح هذه الصفة قبل قليل.

١٧- **كظم الغيظ والعفو عن المسيء:** ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي سَرَآءٍ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَظْمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴿﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

١٨- **خشية الله بالغيب:** قوله تعالى: ﴿وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴿﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴿﴾ [ق: ٣٣].

١٩- **الأوبة:** وهي الرجوع إلى الله تعالى في جميع الأوقات بذكره وحبه والاستعانة به وخوفه ورجائه قال تعالى: ﴿وَأَزَلِمَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿﴾ [ق: ٣١-٣٢].

٢٠- **حفظ أوامر الله وعدم تضييعها:** وهذه وردت في الآية السابقة: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿﴾ [ق: ٣٢].

٢١- **الإجابة إلى الله تعالى:** قال ابن القيم: وحقيقة الإنابة: عكوف القلب على طاعة الله ومحبه الإقبال عليه، ورد ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿﴾ [ق: ٣٣]، والمقصود أنه يبقي على هذا الحال إلى الموت.

٢٢- **كثرة الدعاء بالنجاة من النار:** ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿﴾ [الطور: ٢٨].

٢٣- **الإحسان:** المراد به الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى خلق الله وهو يشمل الصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم ونحو ذلك، وردت هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿﴾ [الذاريات: ١٥-١٦].



الصفة الخامسة عشر:

﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

الإمامة في الدين



المَقَرَّمَة

الحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

ويعد: ففي قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، بيان لصفتين من صفات عباد الرحمن: أولهما: التقوى وهذه قد مضى الكلام عليها وهي الصفة الرابعة عشر.

الثانية هي الإمامة في الدين، وهي محل بحثنا في الصفة الخامسة عشر.

ومن خلال ما تقدم حول صفة التقوى نعلم أنه لا يمكن لأحد أن يكون إماماً في الدين مالم يكن من المتقين، ولهذا لا بد لمن علّت همته وتطلع إلى هذه الرتبة العالية أن يتحقق من الرسوخ في صفة التقوى.

ولكن للأسف الشديد ظهر في الآونة الأخيرة من يتصدر ويجعل قوله وفعله حجة في الدين وهو يعلم من نفسه يقيناً أنه ليس من أهل التقوى، ولكنها شهوة الرئاسة والوجاهة، فنسأل العافية.

ومن هنا رأيت أن أتحدث عن صفة الإمامة في الدين في أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في الآية الكريمة.

المبحث الثاني: في بيان معنى الإمامة في الدين وفضلها وأهميتها.

المبحث الثالث: صفات المرشح لان يكون إماماً للمتقين.

والمبحث الرابع: اهتمام الناس بأعمال الداعية المقتدى به.



المبحث الأول

﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي قدوة يقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي مقتديا قدوة، وهذا هو قصد الداعي، وفي الموطأ: «إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم»، وكان ابن عمر يقول: «اللهم اجعلنا من أئمة المتقين».

وكان القشيري يقول: «الإمامة بالدعاء لا بالدعوى»، يعني بتوفيق الله وتيسيره ومنتته لا بما يدعيه كل أحد لنفسه.

قال ابن عباس: واجعلنا أئمة هدى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وقال مكحول: «اجعلنا أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون» اهـ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي وقتادة والربيع بن أنس: أئمة يقتدى بنا في الخير، وقال غيرهم: معنى الآية: هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم يُنتفع به من بعده، أو صدقة جارية».

قلت: الفرق بين القول الأول والثاني: أن الأول المراد منه أن يكون عباد الرحمن أهلاً للإقتداء بهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وأما القول الثاني فالمراد منه أن

يصبحوها هم دعاة بأقوالهم وأفعالهم وبهذا يكون جل همهم تعليم الجاهل، وإرشاد الضال وتبليغ دين الله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والفرق بين حب الرئاسة وحب الإمامة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يُحِبُّ أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممثلين أو امره مجتنبين نواهيهم، فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله فهو يحب الإمامة في الدين.

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً وفي قلوبهم مهيباً، واليهم حبيباً، وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتمروا به ويقتفوا أثر الرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه، لأنه داع إلى الله يجب أن يطاع ويعبد ويوحد، فهو يجب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه» اهـ.

وقال الميداني رَحِمَهُ اللهُ: «إن مطلب الإمامة مطلب لا يكفي للوصول إليه أن يكون الإنسان من المتقين فقط، فإمام المتقين لا بد أن يكون من الأبرار أو من المحسنين، لأن مرتبة الإمامة مرتبة خطيرة، إنها وظيفة من وظائف الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام» اهـ بتصرف.

وقال السعدي: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ولما كان غاية كمال الإنسان أن يكون مطيعاً لله وأن يكون قريناً للمطيعين سألوا ربهم أعلى المراتب وأجلها وهي: الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين وذلك أن يجعلهم علماء ربانيين راسخين في العلم، مجتهدين في تعلمه وتعليمه والدعوة إليه، وأن يكون علمهم صحيحاً بحيث أن من اقتدى بهم فهو من المتقين، وأن يرزقهم من الأعمال الظاهرة والباطنة ما يصيرون به أئمة المتقين.

وجماع ذلك الصبر على محبوبات الله، وثبات النفس على ذلك والإيقان بآيات الله،
وتمام العلم بها، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا
بِعَايِنَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

فالخاص إنهم سألوا ربهم أن يكونوا كاملين مكملين لغيرهم هادين مهتدين،
وهذه أعلى الحالات، فلذلك أعد الله لهم غرف الجنان ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ
بِمَا صَبَرُوا ﴾ الآيات (١).

.....

من خلال أقوال المفسرين يمكننا أن نستخلص المراد من الآية الكريمة في النقاط
الآتية:

١- عباد الرحمن أصحاب هممة عالية فهم لم يقفوا عند صلاح أنفسهم بل علت
همتهم لإصلاح غيرهم ولهذا سألوا ربهم أن يجعلهم أئمة للمتقين، ومن هنا تعلم فضيلة
الإمامة في الدين.

٢- الوصول إلى مرتبة الإمامة في الدين لا بد له من إيمان راسخ يصل إلى درجة
اليقين، ولا بد له من صبر على فعل الواجبات وترك المحرمات وصبر على ما قدر الله
عليه مما يكره من البليات، فبالصبر واليقين يصل المؤمن إلى الإمامة في الدين، صبر يقهر
به الشهوات، ويقين يدحض به الشبهات.

٣- لا بد من وجود أئمة يقتدى بهم في الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان،
ولهذا كان لا بد من توارث العلم والعمل معاً من العلماء العاملين والدعاة المخلصين،

(١) نقلاً من: المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٣٣)، بواسطة إتحاف أهل الإيثار بصفات عباد الرحمن
(ص ١٤٥).

فنسأل الله أن لا تخلوا هذه الأمة منهم في هذا العصر، خصوصاً بعد ما كثرت الأهواء وفتحت أبواب الشهوات والملذات على مصراعيها، وقل الناصحون وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٤- ضرورة الدعاء للوصول إلى أفضل المراتب في الدنيا من محبوبات الله تعالى، وأعلى الدرجات في الآخرة، إذ لا بد من الدعاء وبدونه يضيع سعي الساعين وعمل العاملين ويرحم الله القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتي فأول ما يجني عليه اجتهاده



المبحث الثاني

: B B :

(أ) **الإمامة لغة:** مأخوذة من الأمّ وهو القصد، قال في لسان العرب: أمّ القوم، وأمّ بهم تقدمهم، وهي الإمامة.

والإمام: كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين، قال الجوهري: «الإمام الذي يقتدى به وجمعه أئمة» اهـ.

وقال المازني: «وإمام كل شيء: قيّمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين وسيدنا محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام الأئمة، والخليفة: إمام الرعية، وإمام الجيش قائدهم» اهـ. وذكر معانٍ آخر تركتها خشية الإطالة.

(ب) **الإمامة شرعاً:** تطلق على ثلاثة معانٍ:

١- **الإمامة الكبرى:** وهي رئاسة الدولة ويسمى بالخليفة، وبالسلطان وغير ذلك، قال الكفوي: «عبارة عن رئاسة عامة تتضمن حفظ مصالح العباد».

٢- **الإمامة الصغرى:** وهي الإمامة في الصلاة، ومما جاء في فضلها عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ عَلَى كَثْبَانِ الْمَسْكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَبْدٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ، وَرَجُلٌ يَنَادِي بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ»^(١).

٣- وتطلق الإمامة على العالم المقتدى به فيقال الإمام فلان إذا كان عالماً مقتدى به، قال الكفوي: «وقال بعضهم الإمام من يؤتم به أي يقتدي، سواء كان إنساناً يُقتدى بقوله وفعله، ذكراً كان أو أنثى أو كتاباً أو غيرهما» اهـ.

(١) رواه الترمذي وحسنه.

وهذا المعنى الأخير هو محل بحثنا وبه تكون الإمامة في الدين وعليه انصبَّ كلام أهل التفسير السابق في الآية التي نحن بصددِها، ونريد بها القدوة والأسوة كما مر معك قريباً.

(ج) الإمام في القرآن على خمسة معان:

١- إمام يعني قائد في الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، يعني قائداً في الخير يقتدي بمثالك وبسنتك، وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يعني قادة في الخير يقتدي بنا.

٢- إمام يعني كتاب بني آدم كقوله تعالى في الإسراء: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]. إذ هناك من يقول أن المراد هم الرسل صلى الله عليهم.

٣- إمام يعني اللوح المحفوظ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، يعني في كتاب هو اللوح المحفوظ.

٤- إمام يعني التوراة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، يعني التوراة إماماً يقتدي به ورحمة لمن آمن به.

٥- إمام يعني الطريق الواضح، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيَهُمَا لِيَامِيرِ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]، يعني الطريق الواضح.

: B

والمقصود هنا بيان فضل من كان قدوة للناس في علمه وعمله ودعوته وهو الذي يصح أن يطلق عليه الإمام القدوة، وجاء في ذلك آيات وأحاديث أذكر منها ما يأتي: أما الآيات:

فمنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال الشيرازي: «دلت الآية على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة:

أولها الدعوة إلى الله تعالى، ثانيها: العمل الصالح، ثالثها: أن يكون من المسلمين. ولا شك أن الموصوف بتلك الخصال هو أشرف الناس وأفضلهم، وكمال الدرجة فيها ليس إلا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». اهـ.

وقال ابن كثير: «قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي هو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره، لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه بل يأتمر بالخير، ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَى» اهـ.

وقال السعدي: ثم قال تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي مع دعوته الخلق إلى الله بادر بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يرضي ربه ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة تمامًا للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم، وتكميل غيرهم وحصلت لهم الورثة التامة من الأنبياء^(١)، اهـ واقتصرت على لمحل المقصود منه.

قلت: إذن تمام الصديقية والإمامة في الدين أن يكون الداعية هو أول المبادرين إلى العمل الصالح وابتعد الناس عن الذنوب والآثام وقد جاء ذلك موضحاً في آيات أخر منها: قوله تعالى حكاية شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

قال ابن عاشور: ومعنى ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ﴾ عن جميع المفسرين من التابعين فمن بعدهم: ما أريد مما نهيتكم عنه أن أمنعكم أفعالاً وأنا أفعالها، أي لم أكن لأنهاكم عن شيء أنا أفعله.

وفي هذا تنبيه لهم على ما في النهي من المصلحة وعلى أن شأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس كشأن الجبارة الذين ينهون عن أعمال وهم يأتونها، لان مثل ذلك ينبىء بعدم النصح فيما يأمرون وينهون، إذ لو كانوا يريدون النصح والخير في ذلك لاختاروه لأنفسهم وإلى هذا المعنى يرمي التوبيخ في قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وجملة ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ بيان لجملة ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَّا إِلَى مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ ﴾ كأنه قال: ما أريد أن أخالفكم أريد الإصلاح.

ولما بين لهم حقيقة عمله، كان في بيانه ما يجد الثناء على نفسه أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله تعالى: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ فسمى إرادته الإصلاح توفيقاً وجعله من الله لا يحصل لي في وقت إلا بالله أي بإرادته وهدية. اهـ^(١).

وأما الأحاديث الدالة على فضل الإمامة في الدين وأهميتها:

لقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المثل الأعلى في كل خلق كريم وعمل صالح، ولهذا كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أسرع الناس إلى ما يأمر به ومن أبعدهم الناس عما ينهى عنه، ومن هنا ساد ذكر مواقف عملية في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى يتأسى به عباد الرحمن في الأمر والنهي، حينها سيكون لهم الأثر البالغ والقول النافع في دعوتهم إلى الله تعالى.

١- رغبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ضيافة المحتاج قبل طلبها من أصحابه:

روى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أني لمجهود، فأرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك

بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهنّ مثل ذلك: «لا والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء»، فقال: «من يضيف هذا الليلة، رحمه الله»، فقام رجل من الأنصار، فقال: «أنا يا رسول الله»، فانطلق به إلى رحلة -أي منزله- فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا؛ إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج واريه أنا نأكل، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «قد عجب الله من صنيعكم بضيفكما الليلة».

قلت: والشاهد من هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأ أولاً بالبحث في بيوته عن طعام يكرم بهذا الضيف المجهول الذي اشتد به الحاجة، فلما لم يجد شيئاً في بيوت أزواجه طلب من أصحابه أكرام ضيفه، والمقصود أن هذا عمل صالح فأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغتنمه فلما عجز طلب العون من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٢- ابتدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإبطال دم حفيد عمه وربا عمه عندما أراد إبطال دماء الجاهلية ورباها: روى مسلم عن جابر - في حديث حجة الوداع - قال: فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطن الوادي، فخطب الناس، وقال: «إن دمائكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وأن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة ابن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هزيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس عبد المطلب فإنه موضوع كله».

قال في شرح صحيح مسلم (ابن ربيعة بن الحارث) اسمه: إياس بن ربيعة قُتِلَ وهو طفل في حرب كانت بين بني سعد وبني ليث، وإنما بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوضع بأهل بيته لأنه لأنه أمكن في قلوب الناس.

وقوله: (ربا عباس) يعني الزائد على رأس المال، ويعني بالوضع الرد والإبطال) اهـ. فهذا يبين لك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأ هنا بأهل بيته في إبطال ما كان من شان الجاهلية.

٣- ابتدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برد ما كان له ولبني هاشم من سبي هوازن عند حث الصحابة وأثر ذلك عليهم: جاء وفد هوازن تائبين وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترغيب المسلمين في رد سبيهم، فبدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برد ما كان له ولبني هاشم ثم رغب المسلمين في رد ما لديهم من سبيهم. روى البخاري عن مروان ومسور بن مخرمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك - أي يعطيه بطيب نفس - فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظه - أي يعطى السبي بعض - حتى نعطيه إياه من أول ما يفضئ الله علينا فليفعل»، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. وفي رواية أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لو فد هوازن: «أما الذي لبني هاشم فهو لكم، وسوف اكلم لكم المسلمين، فكلموهم وأظهروا إسلامكم».

فلما صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهجرة، قاموا فتكلم خطبائهم فابلغوا، ورجعوا المسلمين في رد سبيهم، ثم قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين فرغوا، فشفع لهم، وحض المسلمين عليه، قال: «قد رددت الذي لبني هاشم عليهم».

ونلاحظ أن هذا الأمر كان من الأمور المستحبة وليس واجبا ولكن مع ذلك حثهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفعله قبل قوله، وذلك لأن الفعل ابغ من القول كما قال النووي: «وهو أمكن في النفس».

تنبيه: لقد وردت آثار كثيرة على شاكلة هذه الثلاثة الآثار تبين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان هو المسارع لفعل ما يأمر به، ومن بين ذلك ما كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند بناء المسجد النبوي الشريف أول قدومه المدينة، وكذلك ما كان منه في حفر الخندق، حيث كان يحفر مع أصحابه وينشد قائلاً:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر لآنصار والمهاجرة
وكان الصحابة يجيبونه بقولهم:
نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً



المبحث الثالث

B

ما من شك أن الإمامة في الدين مرتبة جليلة كما سبق بيانه من خلال الآيات والأحاديث، وليس كل مؤمن مؤهلاً لأن يرتقي إلى هذه المرتبة، ومن ثم كان لا بد من بيان الصفات التي بها يرتقي المؤمن إلى أن يصبح قدوة لغيره في الدين. وهذه الصفات مأخوذة من بعض الآيات القرآنية التي امتدحت الدعاة إلى الله والأمينين بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة ومن الآيات التي امتدحت المؤمنين بصورة عامة، وسوف اقتصر على ذكر أهمها في هذا المبحث أن شاء الله، فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:

وهي مأخوذة من قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال السعدي: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم ويهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي انزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين:

أحدهما: أئمة يهدون بأمر الله، وثانيهما: وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول ارفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين وإنما نالوا هذه الدرجة العالية: «لما صبروا على التعليم والتعلم، والدعوة إلى الله تعالى والأذى في سبيله وكفوا نفوسهم عن جماحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات» اهـ.

قال ابن القيم: «ومن المعلوم أن أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحق وأولى بهذا الوصف من أصحاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهم أكمل يقيناً وأعظم صبراً من جميع الأمم،

فهم أولى بمنصب هذه الإمامة، وهذا أمر ثابت بلا شك بشهادة الله ولهم وثنائه عليهم، وشهادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بأنهم خير القرون وإنهم خيرة الله وصفوته» اهـ.

قلت: من هنا يعلم أن الوصف المذكور في الآية وإن كان مذكوراً في بنى إسرائيل إلا أنه يعتبر من القواعد العامة لكل من أراد الوصول إلى درجة الإمامة في الدين، وسأذكر الكلام على الصبر بتمامه في الصفة السادسة عشر من صفات عباد الرحمن من هذا الكتاب إن شاء الله.

ودليل هذه الصفة ما تقدم في الآية السابقة ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ وَكَانُوا بِأَيْتِنَا يُوقِنُونَ ﴿ قال القاسمي: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي - على العمل به - الكتاب - والاعتصام بأوامره ﴿وَكَانُوا بِأَيْتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي يصدقون أشد التصديق وأبلغه، والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناكه - يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هدى لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية.

ويؤخذ من فحوى الآية أن بنى إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفقدوا الاستيعاب لحقيقة الإيمان، فغيروا وبدلوا سُلِبُوا ذلك المقام، أدبيل عليهم انتقاماً منهم، وتلك سنته تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ففي طي هذا الترغيب ترهيب وأي ترهيب» اهـ.

ولما كانت هذه الصفة من أهم الصفات المؤمن المرشح لان يكون للمتقين إماما أحببت أن أزيدها وضوحاً من خلال النقاط الآتية:

: B :

(أ) اليقين لغة: مصدر قولهم يقن التي تدل على زوال الشك، قال ابن منظور: «اليقين هو العلم وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر، يقال من ذلك: أيقن يوقن إيقاناً فهو موقن».

واليقين: نقيض الشك والعلم نقيض الجهل، نقول: علمته يقيناً - أي علماً لا شك فيه - وربما عبروا عن اليقين بالظن والعكس.

(ب) اليقين اصطلاحاً: وردت عن أهل العلم عدة عبارات في شرح معنى اليقين إليك بعضها:

قال الكفوي: اليقين هو أن تعلم الشيء ولا تتخيل خلافه؛ وقال في موضع آخر: اليقين: هو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول، ولا يتغير في القلب.

قال ابن القيم: متي وصل اليقين إلى القلب امتلاً نوراً وإشراقاً وانتفى عنه كل ريب وسخط، وهم وغم، فامتلاً محبة لله وخوفاً منه رضا به وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

ثانياً: فضل اليقين وأهميته: لقد وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية تبين فضل اليقين وفضل أهله وأهميته في الدنيا والآخرة، أشار ابن القيم أهل التفسير إلى فضل أهل اليقين، ولهذا سأذكر شيئاً من كلامهم في النقاط الآتية:

١- أهل اليقين هم المنتفعون بالآيات والبراهين:

قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما ذكر أمر الفريقين أهل الكفر والإيمان - بين أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور.

فمنها: عود النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها أنه قدر الأقوات فيها قواماً للحيوانات، ومنها: سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم

المكذبة، والمقنونون هم العارفون المحققون وحادانية ربهم وصدق نبوة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصهم الله تعالى بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها.

قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قيل التقدير: وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للموقنين.

وقال قتادة: «المعنى من سار في الأرض رأى آيات وعبراً ومن تفكر في نفسه علم أنه خَلِقَ ليعبد الله» اهـ.

٢- أهل اليقين هم أهل الفلاح والهدى ومن دون جميع الناس:

ولا أظن أن هناك شيئاً أهم وأفضل من أن يكون على الإنسان هدي في الدنيا وهو من الفلاح في الآخرة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: «أن الله تعالى مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم انه تعالى لا يمدح المرء بان يتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال، وإدخال المؤمنين الجنة وإدخال الكافرين النار».

قال السعدي: ﴿﴿أُولَئِكَ﴾﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي على هدي عظيم، لأن التنكير للتعظيم، أي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة وهل الهداية في الحقيقة إلا هدايتهم، وما سواها مما خالفها فهي ضلالة.

وأتي بـ﴿عَلَى﴾ في هذا الموضع الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي: بـ﴿فِي﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى مرتفع به، وصاحب الضلالة منغمس فيه محتقر.

ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهوب، حصر الفلاح فيهم لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسارة التي تفضي سالكها إلى الهلاك» اهـ.

٣- أهل اليقين هم أهل الراحة والطمأنينة في الدنيا:

والمراد بذلك طمأنينة القلب وراحته وسعادته، وهل يركض أهل الدنيا إلا للوصول إلى تلك الطمأنينة وهاتيك السعادة، ولكن كما قال أحد الصالحين: «طلب القوم الراحة ولكنهم أخطئوا الطريق».

فأهل اليقين هم الذين عرفوا الطريق إلى راحة الدنيا وسعادة الآخرة يدل ذلك على ما ورد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَرْضِينَ أَحَدًا بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَا تَحْمَدُنَ أَحَدًا عَلَى فَضْلِ اللَّهِ، وَلَا تَذْمَنَ أَحَدًا مَا لَمْ يُوْتِكَ اللَّهُ، فَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَسُوقُهُ إِلَيْكَ حَرَصَ حَرِيصٍ، وَلَا يَرِدُهُ عَنْكَ كِرَاهِيَةَ كَارِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ بَعْدَ لَهْ وَقَسَطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ وَالرِّضَا وَالْيَقِينَ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي أَشْكَ وَالسَّخَطَ»^(١)، ولعل هذا الحديث يشرح ما يخالج التقوى في مسألة الرزق إذ من كان شاكاً ساخطاً ازداد جرياً وراء الاستكثار من المال ولكن دون جدوى، وكل من كان راضياً ومتيقناً بقسمة الله تعالى للأرزاق أراح نفسه من الهم والحزن وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن هنا يتبين أخي القاري الكريم أن اليقين هو السبب الأول في اطمئنان القلب وراحته، والله أعلم.

٤- اليقين من أعظم شعب الإيمان:

لقد أورد العلامة أبي محمد الأندلسي المالكي اليقين في كتاب (شعب الإيمان) فقال: «وأما كون اليقين من شعب الإيمان فيين - أي ظاهر - لأن الإيمان لا يثبت إلا به فإنه حقيقة الإيمان وأساسه».

(١) رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية، وذكره ابن القيم في مدارج السالكين.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي هريرة: «أذهب بنعلي هاتين فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»^(١). فذكر يقين القلب في الإيمان.

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإيمان على أربعة دعائم: الصبر واليقين والعدل والجهاد». قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اليقين الإيمان كله؛ لأن بثباته يثبت الإيمان، وبزواله يزول الإيمان كله وبه يطمئن القلب ويسكن» اهـ.

قلت: يؤخذ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن غير المستيقن بـ«لا إله إلا الله» ليس له حظ في الجنة، ومن هنا جعل العلماء من شروط لا إله إلا الله اليقين، واستدلوا على قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، والشاهد من الآية ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.

والريب: هو الشك، وهو ضد اليقين، فنفي الله تعالى عنهم الشك واثبت لهم بمفهوم المخالفة تمام اليقين.

B :

لليقين فوائد كثيرة وسأذكر منها هنا ما يتعلق بما نحن بصدده من بيان صفات المرشحين للإمامة في الدين.

١- قوة الإيمان وزيادته: ما من شك أن أعظم ما يتمناه المؤمن هو قوة الإيمان وزيادته وثباته، قال ابن القيم في المدارج قال بعضهم: «رأيت الجنة حقيقة، قيل له: كيف ذلك؟ قال: رأيتها بعيني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورؤيتي لهما بعيني أثر ما عندي من رؤيتي لهما بعيني، فإن بصري قد يطغي ويزيغ بخلاف بصره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، وتقدم قول ابن مسعود: «اليقين الإيمان كله».

(١) أخرجه مسلم.

قلت: ونحن في هذه العصور المتأخرة في أشد الحاجة إلى زيادة الإيمان وقوته وثباته وذلك لمواجهة الطغيان الذي ظهر في مظاهر متنوعة: فقد حصل طغيان في ملذات الأكل والشرب، وطغيان في تبرج النساء وظهورهن بما يستميل قلب المؤمن قبل المرتاب، وطغيان في حب الوجاهة والظهور والاشتهار حتى نسي الكثير منا الإخلاص في الأعمال.

كل هذه الأنواع من الطغيان وغيرها لا يكاد يخلو منه مكان إلا قليلاً وذلك لانتشار الفضائيات وتهافت الناس على اقتنائها إلا من رحم ربك، ولست أفتى بالحرمة ولكن انبه إلى أن الله تعالى قد جعل فيها إقامة الحجّة على كل مؤمن حيث ظهرت القنوات الإسلامية التي تبث الدروس العلمية والمحاضرات القيمة دون الحاجة إلى الوقوع فيما حرم الله تعالى.

أعود إلى حاجة عباد الرحمن إلى زيادة الإيمان وذلك لأنهم محل نظر الناس فما لم يكن عندهم اليقين الذي به يدفعون الشبهات والشهوات فشلوا في رد الناس إلى دين الله تعالى، فكان علمهم وبالاعليهم والله تعالى اعلم.

٢- قصر الأمل والزهد في الدنيا:

من قوى يقينه بالله والدار الآخرة كان جل همه العمل لأخرفته، والأخذ من الدنيا بقدر حاجته منها وبقائه فيها، قال ذو النون المصري: «اليقين يدعو إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، وهي تورث النظر في العواقب».

وبحصول الزهد وقصر الأمل يتفرغ القلب والبدن إلى عبادة الله تعالى ودعوة الخلق إلى الله تعالى، وإلا فبالله عليك قل لي ما الذي يجعل أكثر الناس مفرط في عبادة ربه والذب عن دينه؟ أليس هو العمل للدنيا والاستكثار منها وانشغال القلب بها؟ بلى ليس هناك سبب غير هذا، ومن هنا من عظم يقينه بأنه لا شك راجع إلى ربه وهو محاسب

بالمباحات والم لذات التي قد علم يقيناً إنها فانية، ﴿ تِلْكَ أَدَارُ الْأَخْرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

ثم ما أحوج الداعية إلى أن يزهد فيما في أيدي الناس، لأنَّ الناس لا شيء أحب إليهم من المال فإذا علموا طمع الداعية فيما في أيديهم أبغضوه لأنه قد شاركهم في محبوبهم «ازهد في الدنيا يحبك الناس وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»، هذه وصية حبيبك سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هو عند ابن ماجه من حديث سهل.

وأمر أخير هو أن غير الزاهد يتهب النهى عن المنكر في بعض المواقف خوفاً على مطامعه أن تفسد أو تفوت عليه، ولهذا كان لابد من اليقين ليتجنب هذه المزالق الخطيرة.

٣- من أعظم فوائد اليقين الأنس بالقران الكريم:

قال ابن القيم: «ومن قوي يقينه: حصل له من الإنس بالقرآن ما لا يحصل للضعيف- أي ضعيف اليقين - كما أن الأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس وكل عاصي مستوحش، فالسالك إذا كان محباً صادقاً طالباً لله، عاملاً على مرضاته، كان غداؤه بالسمع القرآني والذي كان غذاء سادات العارفين من هذه الأمة وابرها قلوبا وأصحها أحوالاً وهم الصحابة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ)». اهـ.

قلت: وإذا نظرنا إلى حال المتصدرين للدعوة وجدنا البعض منهم إن لم يكن أكثرهم قد شغلوا بأشياء هي في الحقيقة سبب في ظلمة القلب وطمس نوره، ومن ذلك تتبع أخطاء العلماء وزلاتهم والرد عليها، وأحياناً يصل الحال ببعضهم في الرد إلى حد التفكير أو على أقل تقدير الانتقال من النقد العلمي إلى الطعن في الأعراض والولوج في سلامة النيات، وكل هذا من نتائج عدم الفهم السليم للمهمة التي اضطلعوا للقيام بها والله المستعان.

ثم إن الأنس بالقرآن يدل على حب هذا المؤمن لكلام الله تعالى لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

ولكن للقارئ أن يسأل سؤالاً: ما علاقة اليقين بالأنس بالقرآن؟ أجيبه: بأن أهل اليقين - كما تقدم ذكره - هم أهل الانتفاع بالآيات وذلك ليقينهم بالله تعالى، ولا أدل على صفات الله تعالى وأسمائه وأفعاله، وما يرضاه وما يكرهه من القرآن، ومن ثم كانوا أهم أهل الانتفاع بالقرآن للوصول إلى معرفة ما سبق ذكره مما يتعلق بأسماء الله وصفاته، ومن هنا كان انسهم بالقرآن، كما أن أهل الشهوات والملذات انسهم بغناء الشيطان ومطالعة الفاتنات من النسوان، وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة، فإذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوب تعالى كان هذا شأنه - أي الأنس بالقرآن - ولغيره شأن آخر والله أعلم».

إن المرشح لإمامة المتقين لا بد أن يكون من أهل الحكمة أي حكيماً في أقواله وأفعاله ومواقفه وإلا فإن ضرره أعظم من نفعه وكون هذه الصفة لا بد منها للمرشح لإمامة المتقين لأنه يقوم بوظيفة الرسل عليهم صلوات الله وتسليماته، فهو من الدعاة إلى الله تعالى وقد امتن الله تعالى على رسله بأن آتاهم والحكمة كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

قال الطاهر بن عاشور: «المشار إليهم ﴿أُولَئِكَ﴾ هم المعنيون بأسمائهم - في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وهم سبع عشرة رسولاً آخرهم (لوط) عَلَيْهِ السَّلَامُ والمذكورون إجمالاً في قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ والآيات [٨٣-٨٨] سورة الأنعام».

ثم قال رَحْمَةُ اللَّهِ: «والحكم: هو الحكمة أي العلم بطرق الخير ودفْع الشر، قال تعالى في شأن يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْكُتُمُ صَبِيئًا﴾ [مريم: ١٢]، لم يكن يحيى حاكمًا أي قاضيًا» اهـ.
وقال تعالى أمرًا نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال السعدي: «أي ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم، المشتغل على العلم النافع والعمل الصالح (بالحكمة) أي لكل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده» اهـ.

وبناء على ما سبق ذكره من تفسير الآيتين يتبين أنه لا بد لإمامة المتقين من الحكمة فلذا سأذكر بعضًا من مما يتعلق بالحكمة من خلال النقاط الآتية:

B :

(أ) **الحكمة لغة:** مصدر قولهم حكم أي صار حكيمًا وهو مأخوذ من مادة (ح.ك.م) التي تدل على المنع أو المنع للإصلاح.

ومن هذا الأصل أخذ الحكم في معنى منع الظلم، وحكمة اللجام لأنها تمنع الدابة عما لا يريد صاحبها، والحكمة: لأنها تمنع من الجهل.

ويقال: حكمت السفينة وأحكمتها أي أخذت على يده، قال جرير:

ابني حنيضة احكموا سفهاكم إني أخاف عليكم أن اغضبا

(ب) **الحكمة اصطلاحًا:** ذكر العلماء عددًا من التعريفات منها:

قيل: هي الإصابة في القول والفعل.

وقيل: هي وضع الأشياء في مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل

الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام.

وقيل: هي معرفة الحق العمل به، والإصابة في القول والعمل.

وقيل: هي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

ولعل اجمع تعريف ما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين بقوله: أن الحكمة قسمان:

عملية وعلمية:

فالحكمة العملية: هي الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب

بمسيباتها خلقاً وأمراً، قدرًا وشرعاً.

الحكمة العملية: هي وضع الشيء في موضعه.

قلت: وقوله: «ومعرفة ارتباط الأسباب بمسيباتها.... الخ» يقصد به معرفة

سنن الله الكونية ومعرفة أوامره الشرعية، وبعبارة أخرى الفقه في السنن الكونية والمسائل

الشرعية لئلا يقع في مخالفة شئ منها فيخالف مقتضى الحكمة، ولهذا فسر الحكمة العملية

بقوله وضع الشيء في موضعه والله أعلم.

: B :

لقد وردت آيات في كتاب الله وأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آثار السلف

في بيان فضل الحكمة وأهميتها سأقتصر هنا على بعضها بحسب ما يسمح به المقام أقول

ومن الله أرجو العون والقبول:

١- قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا

كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يعطيها لمن يشاء

من عباده واختلف العلماء، في الحكمة هنا: قال ابن عباس: هي المعرفة بالقران فقهه

ونسخه، ومحكمه، ومتشابهه، وغريبه، ومقدمه ومؤخره، وقال مجاهد: الإصابة في القول

والعمل، وقال مالك بن أنس: «الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع»، وغير ذلك ثم قال القرطبي: هذه الأقوال كلها قريب من بعضها بعض لأن الحكمة مصدر من الأحكام وهو الإتيان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي حبس.. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يقال: أن من أعطى الحكمة والقرآن فقد أعطى أفضل ما أعطى من جميع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها لأنه قال لأولئك: ﴿وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وسمي هذا خيرا كثيرا؛ لأن هذا هو جوامع الكلم.

وقال بعض العلماء: «من أعطى العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم، فإنما أُعطي أفضل مما أُعطي أصحاب الدنيا، لأن الله تعالى سمي الدنيا متاعاً قليلاً فقال: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وسمي العلم والقرآن خيراً كثيراً». قلت: يكفي الحكمة فضلاً أنها من صفات الله تعالى، فقد وصف الله تعالى نفسه بأنه حكيم في عدد من كثير من الآيات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] وغير ذلك من الآيات.

٢- مما ورد من الحديث في فضل الحكمة وأهميتها:

في سنن الترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال ضمنني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «اللهم علمه الحكمة»، وهو في البخاري بلفظ: «اللهم علمه القرآن».

قلت: هذا الدعاء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدل على فضل الحكمة وأهميتها في حياة الناس وقد استجاب الله دعاءه فكان ابن عباس من أجبارة الأمة وعلمائها الأجلاء.

وفي البخاري ومسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَطَ عَلَى هَلِكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضَى بِهَا وَيَعْلَمُهَا».

قال ابن حجر: «وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة - وأطلق الحسد عليها مجازاً- وهي أن يتمني أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى منافسة، ووجه حصر الغبطة في هذين الأمرين: أن الطاعات إما بدنية وإما مالية أو مكونه منهما، وقد أشار إلى البدنية بإيتاء الحكمة والقضاء بها وتعليمها، والحكمة: المراد بها القرآن، وقيل: المراد بها كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح»^(١) اهـ باختصار.

وفي حديث الإسراء: «فنزل جبريل ففرّج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فافرغه في صدري ثم أطبقه»^(٢).

٣- من أقوال السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْحِكْمَةِ:

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نعم مجلس تنشر فيه الحكمة وترجي فيه الرحمة». وقال وهب بن منبه: «يا بني عليك بالحكمة، فان الخير في الحكمة كلها وتشرف الصغير على الكبير، والعبد على الحر، وتزيد السيد سؤدداً وتجلس الفقير مجالس الملوك».

وعن مالك بن أنس أنه بلغه أن لقمان قال لولده: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله تعالى يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء».

وعن عمر بن عبد العزيز قال: «إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة».

(١) الفتح (١/ ٢٢٥).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

: B . . . : B

قال الدكتور محمد خير الشعال أثابه الله: «اعلم - وفقني الله وإياك - أن العقل ينقسم إلى قسمين:

(أ) **قسم وهبي**: يتفق فيه جميع العقلاء هبة من الله وفضلاً.

(ب) **وقسم كسبي**: وهو ما يسمى بالعقل التجريبي وهو الذي يتمرن على اكتساب الحكمة بطرق سنعدها لاحقاً، وهذا العقل الكسبي يزداد تجربة وحكمة بأسباب كسبية منها:

١- **ملازمة الحكماء والأخذ منهم**: فإن ملازمتهم انتفاعاً من تجاربهم وعلمهم واكتساباً لحكمتهم، والتاريخ خير شاهد على أن كل حكيم عاقل كان وراءه مرب حكيم يدفعه ويقوى عزائمهم، وينهض بهمته.

قال المنصور للمهدي: «يا أبا عبد الله لا تجلس مجلساً إلا ومعك فيه رجل من أهل العلم يحدثك»، وقال الشاعر:

يطيب العيش أن تلقي حكيماً غذاه العلم والنظر المصيب
فيكشف عنك حيرة كل جهل وفضل العلم يعرفه الأديب

٢- **قراءة سير الحكماء**: فإن فانتك مجالسة الحكماء فلا تفتك قراءة سيرهم، فإن التعرف على سير أهل العقول إنارة للعقول، وسماع أخبارهم يقوم مقام رؤيتهم، كان المأمون يقول: «لا نزهة أطيّب من النظر في عقول الرجال»، ويدخل في هذا الباب قراءة الكتب التي تعلم الحكمة وتشر قصصها لأن القراءة من أهم إفادة لزيادة العقل، ولذلك كانت أول كلمة نزلت في الكتاب الحكيم (اقرأ).

٣- **كثرة التجارب**: فكل شيء يحتاج إلى العقل، والعقل محتاج إلى التجربة، ولا حكيم إلا ذو تجربة، وان التجارب كلها - ثوابها وخطؤها - تفيد عقلاً أن جرت على يد عاقل يريد الفائدة.

ولكن حذار من أن تفهم من هذا الكلام أن تجرب كل شيء فمن جرب المجرب فعقله مخرب، ولكن جرب ما لم يستطع غيرك أن يجربه واعلم أن من حنكته التجارب وهذبه المذاهب فهو حكيم، قال الشاعر:

ألا إن العقل زين لأهله ولكن تمام العقل طول التجارب

تلك هي أهم الأسباب التي عن طريقها يصل الإنسان إلى الحكمة وهي من كتاب (نداء إلى الإسلاميين فلتتعلم الحكمة) للدكتور محمد خير الشعال وهو كتاب حري بأن يقرأ ويتأمل فيه.

تنبيه: هذه الصفات الثلاث التي فصلت الحديث حولها من أهم صفات المرشح لإمامة المتقين - الصبر - اليقين - الحكمة، ولكن بقيت هناك عدة صفات منها: ما مضى ذكره من صفات عباد الرحمن مما تم شرحه إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥] وهي التقوى.

وخلاصة القول أن إمامة المتقين تعني المسارعة في الأعمال الصالحات والتحلي بأجمل الصفات، والمرشح للإمامة عمله أكثر من قوله وصمته أكثر من كلامه، ولهذا تعتبر إمامة المتقين من المهمات الجسام، ولكن مع تذكر أن ثوابها عظيم أجرها كبير ألا وهي الجنة فهل من مشمر؟!.



المبحث الرابع

أن الذي يرتقي إلى مرتبة الإمامة في الدين يصبغ - بلا شك - محل قدوة الناس فمنهم من يأخذ بأقواله ومنهم من يرمى أفعاله ويجعلها هي ما يدين الله تعالى بها، وهذا هو مكمّن الخطورة.

ولهذا كان لابد من الإشارة إلى أمر هام في هذا المبحث ألا وهو أنّ من واجب المرشح لإمامة المتقين أن يعرض أقواله وأفعاله على الشرع فلا يخالف شيئاً من الكتاب والسنة الصحيحة، وإن وقع منه فعل أو قول يعلم أنه موافق للشرع ولكن قد يوهم أنه مخالف له، ويوقع الناس في أشكال فان واجبه أن يوضح للناس ما يزيل الأشكال ويذهب الشكوك من الصدور، لأنه كما قيل: «زلة عالم بزلة عالم».

ولهذا سأبحث في هذا المبحث قضيتين هامتين مما يتعلق بأثر القدوة في الناس سلباً وإيجاباً.

: B

مما هو معلوم أن الناس يتوقعون من الداعية صورة تطبيقية واضحة لما يقوله، فإذا نهى عن شيء كان من ابعده الناس عنه وإذا أمر بشيء كان من أسرع الناس إليه، فإذا وجد منه ما يخالف ذلك أو تطرقت الشبهة العامة في حال الداعية أو في بعض تصرفاته، فهذا يعني انهدام دعوته وإسقاط شخصيته من حساباتهم، ويدل على هذا الذي قررناه واقع الناس، ولكن من الناس من يكون ذا عقل راجح فيسأل ذلك الداعية ليزيل الأشكال ومنهم من يكون حاله كما ذكرنا يبدأ بالطعن والسب لشخصية الداعية.

وسأذكر هنا شواهد من سيرة السلف مما يدل على إثارة التساؤلات حول أقوال الداعية أو أفعاله وهي مأخوذة من كتاب (السلوك أثره في الدعوة إلى الله تعالى) بتصرف.

١- استشكال أم سلمة صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلاة العصر:

روى الشيخان عن أم سلمة قالت: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهي عنها - أي الركعتين بعد العصر - ثم دخل عليّ وعندي نسوة، ثم رأيته يصلّيها فأرسلت إليه الجارية فقلت: قومي بجنبه وقولي: أم سلمة تقول سمعتك تنهي عن هاتين وأراك تصليهما، فإن أشار بيده فاستأخري عنه»، ففعلت فأشار بيده فاستأخرت عنه الجارية، فلما انصرف عن الصلاة قال: «يا ابنة أمية، سألت عن الركعتين بعد العصر وإنه أتاني أناس من عبد القيس فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان».

فإذا كان هذا التعارض بين قول وفعل سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثار تساؤلاً في نفس أم سلمة فكيف بغيره من الدعاة؟!

٢- استشكال حفصة في استمرار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحرامه بعد أمره أزواجه

بالتحلل:

روى الشيخان عن ابن عمر قال حدثني حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يَحْلُلْنَ عَامَ حِجَّةِ الْوُدَاعِ، قَالَتْ حَفْصَةُ: فَقُلْتُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَحْلِيَ؟ قَالَ: «أَنِّي لَبِدتُ رَأْسِي وَقُلدتُ هَدْيِي فَلَا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحِرَ هَدْيِي».

وهذا الحديث كسابقه فيه بيان أن من استشكل شيئاً يسأل عنه لثلاث تذهب به الظنون، كما أشار إلى ذلك النووي بقوله: «وفيه فائدة أخرى وهي انه بالسؤال يسلم من إرسال الظن السيئ بتعارض الأفعال أو الأقوال، وعدم الارتباط بطريق واحد».

قلت: وإذا استفهم الناس الداعية عن شيء وجب عليه أن يجيبهم ليمحو ما قد يلقي به الشيطان في نفوسهم، بل الواجب عليه إذا ظن أن الناس لم يفهموا قوله أو استغربوا فعله أن يبادر هو لبيان الحكم الشرعي وسبب مخالفته له لأنه ليس معصوماً.

٣- استغراب عبد الرحمن بن عوف بكاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ابنه لتعارضه

مع نهيهِ عن البكاء:

روى البخاري عن أنس بن مالك قال: دخلنا على إبراهيم -ابن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذر فان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة»، ثم قال: «إن العين تدمع والقلب يحزن، لا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بضراقتك يا إبراهيم لمحزونون».

قال الطيبي: في شرح قول عبد الرحمن بن عوف (وإنا يا رسول الله) فيه معنى التعجب، والواو تستدعي معطوفاً عليه أي لا يصبرون على المعصية وأنت تفعل كفعالهم، كأنه تعجب منه مع عهده منه أنه يحث على الصبر وينهى عنه الجزع، فأجابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «إنها رحمة» أي الحالة التي شاهدها منى هي رقة القلب على الولد لا ما توهمت من الجزع) اهـ (١).

: B

إن مصداقية الداعية متوقفة على تطبيقه لكلامه الذي يتحدث به أمام الناس، وكان هذا أمر فطري في نفوس الناس، فإنهم إذا رأوا الداعية يعمل بما يقول اقتدوا به، ولو كان قوله ضعيفاً، وبالعكس لو كان صاحب لسان فصيح وقوله بليغ ولكنه لا يعمل بما يقول قال الناس: لو كان مؤمناً بما يقول لفعل، ولو كان فيما يقوله الخير لكان أول من يطبقه.

ومن هنا قال بعض السلف: «فعل رجل في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل لرجل»، وكان تأثير السلف في المدعوين أشد من تأثير من جاء بعدهم وذلك لقوة أعمالهم الصالحة، وإليك بعضاً من القصص الدالة على تأثير القدوة في حياة الناس.

١- إسلام اليهودي على يد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

سقطت درع علي بن أبي طالب في إحدى المعارك فالتقطها رجل يهودي ولما وجدها على عنده تحاكما إلى القاضي، وكان علي إذ ذاك أميراً للمؤمنين، فلما وقفا بين يدي القاضي طلب من علي البينة فقال ابني الحسن يشهد لي بذلك، فقال القاضي: أنا أعلم أنك صادق أيها الأمير، ولكن لا بينة لك، ولا تصح شهادة ابنك، واليهودي هو واضع اليد - أي الدرع بيده - وحكم القاضي بالدرع لليهودي عملاً بظاهر الأمر، فامتثل علي وخرج.

فقال اليهودي: أنا أشهد أن هذه أخلاق الأنبياء، وأن هذا الدين حق، وأن الدرع درع علي، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما أسلم اليهودي وهبه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدرع.

٢- تأثر سعيد بن عامر الحمصي بمقتل حُبَيْب بن عدي وتأثيره في أهل

حمص:

ولى عمر بن الخطاب سعيد عامر على حمصي، فلم يمض وقت طويل حتى جاءت الشكوى إلى عمر من أهل حمص، وزعموا أن لهم عليه أربعة مأخذ، قال عمر بن الخطاب: فجمعت بينه وبينهم ودعوت الله أن يخيب ظني فيه، فقد كنت عظيم الثقة به، فلما أصبحوا عندي هم وأميرهم، قلت: ما تشكو من أميركم، قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، فقلت: وما تقول في ذلك يا سعيد؟ فسكت قليلاً ثم قال: «والله إني كنت أكره أن أقول ذلك، أما وإنه لا بد منه، فإنه ليس لأهلي خادم، فأقوم في كل صباح فأعجن لهم عجينهم ثم أترث قليلاً حتى يحتمر ثم أخبزه لهم ثم أتوضأ وأخرج للناس.

قال عمر: وما تشكون منه أيضاً؟ قالوا: تصيبه من حين إلى آخر غشيه فيغيب عمن في مجلسه، قال عمر: وما هذا يا سعيد؟ فقال: شهدت مصرع خبيب بن عدي وأنا مشرك، ورأيت قريشاً تقطع جسده وهي تقول: أتحب أن محمد مكانك؟ فيقول، والله ما

أحب أن أكون آمنًا في أهلي وولدي وأن محمدًا تشوكة شوكة، ثم رفع بصره إلى السماء وقال: «اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تغادر منهم أحدًا»، قال سعيد: إني والله ما ذكرت ذلك اليوم، وكيف أني تركت نصرته إلا ظننت أن الله لا يغفر لي، أصابتنى تلك الغشية.

عند ذلك قال عمر: الحمد للذي لم يخيب ظني به، ثم بعث له بألف دينار ليستعين بها على حاجته.

فلما رأتهما زوجته قالت له: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك، اشتر لنا مؤنه واستأجر لنا خادما، فقال لها: وهل لك فيما هو خير من ذلك؟ قالت ما ذاك؟ قال: ندفعها إلى من يأتينا بها ونحن أحوج ما نكون إليها قالت: وما ذاك؟ قال: نقرضها الله قرصًا حسنًا قال: نعم وجزيت خيرًا، فما غادر مجلسه الذي هو فيه حتى جعل الدنانير في صرر وقال لواحد من أهله، انطلق بها إلى أرملة فلان، وإلى أيتام فلان حتى وزعها كلها.

قلت: كم في هذه القصة من القدوة بالفعل لا بالقول، وأول ما يلفت الانتباه هو العظة العملية البالغة التي لقتها سعيد إلى أهل حمص حيث اشتكوه وظنوا به شرًا فوجدوه على درجة عالية من التقوى والعبادة والزهد والتواضع وكل واحدة من هذه الخصال مقابل شكوى من شكواهم.

ثم إنك إذا نظرت إلى سعيد كيف تأثر بخبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث رأى صلابته في دين الله تعالى وحبه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع تطاول السنين لم ينس سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقف خبيب هذا، ولعل هذا يغني عن مئات الخطب والمحاضرات.

٣- ثابت بن قيس يثير الحمية للقتال في موقعة اليمامة:

يوم أن بدأت موقعة اليمامة وهي معركة قد دارت رحاها بين أتباع مسيلمة الكذاب من جهة والمسلمين من الجهة الأخرى، وكانت أول المعركة في صالح جيش

مسيلمة الكذاب حتى بلغ بهم الأمر أن اقتحموا فسطاط خالد بن الوليد وهو وهموا بقتل زوجته.

فأرى ثابت بن قيس من تضعع من المسلمين ما شحن قلبه أسى وكمدا وسمع من تنابذهم ما ملأ صدره همًّا وغمًّا، والمقصود بالتنابذ اتهام بعضهم بعضًا بعدم إحسان القتال، عند ذلك تحط ثابت وتكفن ووقف على رؤوس الإِشهاد وقال: يا معشر المسلمين ما هكذا كنا نقاتل على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بئس ما دعوتكم أعداءكم من الجرأة عليكم، وبئس ما عودتم أنفسكم من الانخذال لهم، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: اللهم أنى ابرأ إليك مما جاء به هؤلاء من الشرك - يعني مسيلمة وقومه - أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين، ثم هب هبة الأسد وقاتل قتالًا عنيفًا ملأ قلوب المسلمين حمية وعزمًا، وشحن أفئدة المشركين وهنأ ورعبًا، وما زال يقاتل حتى أثنخته الجراح، فخر صريحا في ارض المعركة شهيدًا.

٤- موعظة بليغة من عمر بن عبد العزيز في الكف عن أكل الحرام:

قال مسلمة: دخلت على عمر بن عبد العزيز في صلاة الفجر وكان في بيت كان يخلو فيه بعد الفجر فلا يدخل عليه أحد فجاءته جارية بطبق عليه تمر صبحاني - وكان يعجبه التمر - فرفع بكفيه منه، فقال: «يا مسلمة أترى لو أن رجلاً أكل هذا ثم شرب عليه الماء، فان الماء على التمر طيب، أكان يجزيه إلى الليل» فقلت: لا أدري، فرفع أكثر منه وقال: فهذا، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى لا يبالي يذوق طعامًا غيره، قال: فعلام إذا ندخل النار، قال مسلمة: فما وقعت منه موعظة ما وقعت هذه».

٥- أبو بكر الصديق يبكي خوفًا من الدنيا:

روى زيد بن أرقم أن أبا بكر استسقى فأتى بإناء فيه ماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله، ثم عاد فبكي حتى ظنوا إلا يقدرُوا على مساءلته ثم مسح وجهه

أفاق، فقالوا: ما هاجك على البكاء؟ قال: كنت مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعل يدفع عنه شيئاً ويقول: إليك عني، إليك عني -يعني ابتعد عني - ولم أر معه أحد، فقلت، يا رسول الله أراك تدفع عنك شيئاً ولم أر معك أحداً؟ قال: هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها؟ فقلت إليك عني فتنحت وقالت: أما والله لئن انفلت مني لا ينفلت مني من بعدك» فخشيت أن تكون قد لحقتني، فذاك الذي أبكاني.

قلت: هذا أبو بكر يخشى على نفسه أن تصيبه الدنيا وهو يريد بذلك ألا ينقص دينه وتقواه، وهو من هو في إيمانه وخشيته من الله تعالى لعل زيد بن أرقم لم ينس هذا الموقف طيلة حياته لما رأى من شدة بكاء الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٦- ابن القيم يتأثر بذكر ابن تيمية لله رحمة الله عليهما:

قال ابن القيم: وحضرته مرة -يعني ابن تيمية- صلاة الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلى فقال: هذه غدوتي ولو لم أتغد هذا الغداء سقطت قوتي.

وقال لي مرة: لا اترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي إراحتها لأستعد لذكر آخر.

قلت: لا أظن أن خطبة أو محاضرة عن فضل الذكر ستبلغ هذا المشهد من حياة ابن

تيمية رَحِمَهُ اللهُ.



الصفة السادسة عشر:

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ
بِمَا صَبَرُوا﴾

الصبر



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد: ففي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ في ختام صفات عباد الرحمن بيان لأهم صفاتهم وبها استطاعوا - بعد الله تعالى - أن يتصفوا بجميع الصفات الخمسة عشر المتقدمة. ألا وهي صفة الصبر، ومن هنا سأذكر أقوال المفسرين في هذه الآية الكريمة ثم أذكر كلام أهل العلم في صفة الصبر وفي أنواع الصبر وما يتعلق به ويندرج ذلك ضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في أقوال المفسرين حول الآية الكريمة.

المبحث الثاني: تعريف الصبر وبيان حكمه وفضائله.

المبحث الثالث: في صور من صبر السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.



المبحث الأول

﴿أَوْلَيْتِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾

قال القرطبي: قال الضحاك: ﴿الْغُرْفَةَ﴾ الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بصبرهم على أمر ربهم وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام، وقال محمد بن علي بن الحسين: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الفقر والفاقة في الدنيا.

قال البقاعي: ولما كانت الغربة في غاية التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن، رغب فيها بأن جعلها سبباً لهذا الجزاء، فقال بِمَا صَبَرُوا أي أوقعوا الصبر على أمر ربهم ومرارة غربتهم بين الجاهلين في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وغير ذلك من معاني جلالهم.

قال القاسمي: ﴿أَوْلَيْتِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بما ذكر ﴿أَوْلَيْتِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي على مشاق المجاهدات في الدعوة إلى الخيرات والدأب على الخيرات، واجتناب المحظورات، والغرفة: الدرجة العالية من المنازل.

قال السعدي: لما كانت هممهم - أي همم عباد الرحمن - ومطالبهم عالية كان الجزاء من جنس العمل فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: ﴿أَوْلَيْتِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بالمنازل الرفيعة، والمسكن الأنيفة الجامعة لكل ما يشتهي، وتلذذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْمَلَيْتُكُمُ الْيَوْمَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرْتُمْ فَهِيَ الْغُرْفَةُ﴾ [الفرقان: ٧٥] من ربهم ومن الملائكة الكرام، ومن بعضهم على بعض ﴿فِيهَا نَجِيَّةٌ وَسَلَامٌ﴾ [الفرقان: ٧٥]، ولهذا قال هنا ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مِنْ لَحْمٍ طَيِّبٍ﴾ [الفرقان: ٧٥] ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

ثم قال رَحْمَةُ اللَّهِ: «والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له ولعباده، وحسن الأدب والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص في ذلك كله، والخوف من النار، والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب من النفقات، والاقتصاد في ذلك، وإذا كانوا مقتصدین في الإنفاق الذي جرت به العادة بالتفريط والإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى، والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الرديئة التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانياتهم وكما لهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم، لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه، لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصدقية، فله ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه المهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى هذه النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة وأنقى هؤلاء السادة» انتهى المقصود من كلامه رَحْمَةُ اللَّهِ.



المبحث الثاني

: B · B · · · B

١- **الصبر لغة:** قال في لسان العرب: لو حبس رجل نفسه على شيء يريد به قال صَبَرْتُ نفسي، والصبر: نَصَبُ الإنسان للقتل، وكل من حبسته لقتل أو يمين فهو قتل صَبْرًا، والصبر: الإكراه، يقال: صبر الحاكم فلانا على يمين صبرًا، أي أكرهه، وصَبَّرَ الرجل يُصَبِّرُهُ: لزمه. والصبر نقيض الجزع، قال الجوهري: الصبر: حبس النفس عن الجزع. اهـ.

٢- **الصبر شرعًا:** قال الدكتور أحمد الشرباصي: «الصبر في الاصطلاح الأخلاقي الديني: هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسهما عنه، و ضد الصبر هو الجزع ولذلك جاء في القرآن الكريم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحْجِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]» اهـ.

قلت: ومعنى قوله: «حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع» الحبس على الشيء أي على القيام به، فالمقصود أن يحبس الإنسان نفسه على متطلبات الشرع والعقل، أما متطلبات الشرع فهي فعل الطاعات وترك المحرمات والبعد عن الشهوات والرضا بالبيات التي قضى بها رب الأرض والسموات وأما متطلبات العقل: فهي القيام بما لا يخل بالمروءة ولا يخالف عادة تؤدي إلى الاستهزاء به.

٣- **الصبر في القرآن الكريم على خمسة أوجه: ذكرها الدامغاني:**

١- الصبر يأتي بمعنى الصوم: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، يعني بالصبر الصوم، قلت وقد ورد في الحديث استعمال الصبر بمعنى الصوم كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «من صام شهر الصبر وثلاثة أيام

من كل شهر ذهب عنه وحر الصدر». أي ذهب عنه ضيق الصدر وخرجت منه الأحقاد والأضغان.

٢- الصبر يأتي بمعنى الجرأة: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي فما أجرأهم على فعل ما يؤدي بهم إلى النار، وما أجرأهم عليها أي على النار.

٣- الصبر يأتي بمعنى الإصرار على الشيء: يدل عليه ما ورد في سورة ص: ﴿وَأَنْطَلِقُ اللَّمْلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦٠]، يعني اصبروا على عبادتها واثبتوا كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢] أي ثبتنا على عبادتها.

٤- الصبر يأتي بمعنى الرضا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور:٤٨] يعني ارض بقضاء ربك، ومثلها ما جاء في سورة القلم.

٥- الصبر يأتي بمعنى حبس النفس: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج:٣٥]، قلت: وأكثر ما ورد في القرآن الكريم من الصبر إنما هو من هذا النوع كقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦] إلى غير ذلك من الآيات.

: B

ذكر ابن القيم حكم الصبر على سبيل الإجمال فقال: «وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر».

قلت ويدل على وجوب الصبر قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

وقد فصل الغزالي في الإحياء حكم الصبر فقال: «واعلم أن الصبر ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم» وإليك تفاصيلها:

أما الصبر الفرض: فهو الصبر على ترك المحظورات ومن باب أولى الصبر على أداء الواجبات كأداء الصلوات الخمس وبر الوالدين ونحو ذلك.

وأما الصبر النفل: فهو الصبر على ترك المكروهات والبعد عن الشهوات وكذلك الصبر على أداء نوافل الخيرات كالسنن الراتبية وتلاوة القرآن وغير ذلك من المتطوعات، والمراد بقوله الصبر النفل أي المندوب.

وأما الصبر المحرم: فهو أن يصبر الإنسان على الأذى المحرم الذي يصيبه كمن صبر على قطع يده بغير حق أو قطع يد ولده أو أن يأتي أحد ليزني بزوجه فيسكت ويقول: نصبر على الأذى فهذا كله صبر حرام، لأنه في الحقيقة يترك واجب الدفاع عن نفسه وأهله وولده.

وأما الصبر المكروه: فهو أن يصبر على أذى يصيبه بجهة مكروهة في الشرع كمن يصبر على أكل ما هو مكروه من المأكولات أو غير ذلك.

: B

للصبر فضائل كثيرة متنوعة ومن جهات مختلفة سأذكر بعضها هنا بحسب ما يتيسر فأقول ومن الله أرجو القبول:

١- الصبر خلق جامع لجملة من الأخلاق الكريمة:

لقد تعرض الغزالي لبيان ما يندرج تحت الصبر من أخلاق كريمة وخصال جميلة وبين أن جميع تلك الخلال هي عبارة عن الصبر ولكنه يأخذ شكلاً آخر فقال رَحِمَهُ اللهُ: «إن الصبر -المحمود- إن كان عن شهوة البطن والفرج سمي عفة.

وإن كان عن احتمال مكروه اختلفت أساميها عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه: فإن كان - الصبر - في مصيبة أقتصر على اسم الصبر. وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو - أي الجزع - إطلاق داعي الهوى يسترسل في رفع الصوت وضرب الحدود وشق الجيوب وغيرها.

وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس وضده البطر، قلت: والمراد من احتمال الغنى ألا يكون الغنى سبباً في الإكثار من الشهوات أو الوقوع في المحرمات حتى يكون كما قال الله فيهم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَضَ ﴿٧﴾ وَسِيَّئٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَيَّانٌ إِنْ الْغِنَى يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ أَشَدَّ مِنَ الْفَقْرِ.

وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ويضاده التذمر، يعني العمل بما يمليه عليه الغضب من السب والشتم.

وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي ذلك الصبر سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر.

وإن كان في إخفاء كلام - أسر إليه به أحد الناس سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتمواً.

وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضاده الحرص، يعني الحرص على جمع الدنيا ليتلذذ بها زاد عن حاجته من الشهوات.

وإن كان الصبر على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره، والمراد بالحظوظ أي حظوظ الدنيا الزائدة عن الحاجة.

ثم ختم الغزالي ذلك بقوله: فأكثر أخلاق الإيثار داخلية في الصبر» اهـ.

٢- الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد:

قال الغزالي: وجد في رسالة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «عليك بالصبر: واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر: الصبر في المصيبات حسن، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى، واعلم أن الصبر مِلاك الإيمان، وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر» اهـ.

وورد عن سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له».

قلت: وتفسير ذلك: أنه ما عمل من أعمال الإيمان إلا وهو في حاجة إلى الصبر ففعل الطاعات تحتاج إلى صبر وترك المحرمات يحتاج إلى صبر وما ينزل بالإنسان مما قدره الله يحتاج إلى صبر، فإذا فقد الإنسان الصبر على ذلك كله، فما بقي له من أعمال الإيمان بل ما ذا بقي له من الإيمان.

٣- الصبر خير كله: روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال: «ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر».

قال ابن حجر في الفتح: «قال القرطبي: وإنما جعل الصبر خير العطاء لأنه يجبس النفس عن فعل ما تحب وإلزامها بفعل ما تكره في العاجل مما لو فعله أو تركه لتأذى في الآجل» اهـ.

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب قوله «وجدنا خير عيشنا بالصبر»، قال ابن حجر: «الصبر إن عُدِّي بعن كان في المعاصي، وإن عُدِّي بعلى كان في الطاعات وهو في هذا الأثر شامل للأمرين» اهـ.

يعني إن قلت صبر على كذا كان في الطاعة وإن قلت صبر عن كذا كان في المعصية وكلام عمر شامل للأمرين والله أعلم.

وروى مسلم عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضِرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

- قال ابن علان في شرحه لقوله: «صبر فكان خيرًا له» ما نصه: صبر واحتسب ذلك عند الله تعالى رجاء ثوابه، ورضي به نظرا لكونه فعل مولاة وهو أرحم به، «فكان» صبره في الضر خيرًا له، لأنه حصل له بذلك خير الدارين، أما غير كامل الإيمان فإنه يتضجر ويتسخط من المصيبة فيجتمع عليه نصبها ووزر سخطه ولا يعرف للنعمة قدرها فلا يقوم بحققها، ولا يشكرها، فتقلب النعمة في حقه نقمة وينعكس عليه الحال نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة».

قلت: وقد ورد في القرآن ما يدل على أن الصبر كله خير قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

٤- الصبر سبب في النصر:

لقد أوضح الله تعالى في كتابه أن الصبر إذا اقترن بالتقوى كان ذلك سبب في انتصار المسلمين على أعدائهم مهما كان عددهم يقول الله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصيته المشهورة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «واعلم أن النصر مع الصبر».

نجد أن ابن رجب يعطى هذا الحديث معنى أوسع من النصر في القتال بل يوضح لنا أن الصبر سبب في نصر الإنسان على نفسه فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «واعلم أن النصر مع الصبر» هذا موافق لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]... ثم ذكر بعض الآيات التي في هذا المعنى وهو النصر على الأعداء من الكافرين.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا كله في جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار، وكذلك في جهاد العدو الباطن وهو جهاد النفس والهوى، فإن جهادهما من أعظم الجهاد كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والمجاهد من جاهد نفسه» وقال عبدالله بن عمرو لرجل سأله عن الجهاد: «ابدأ بنفسك فجاهدها وأبدأ بنفسك فاغزها».

وقال أبو بكر لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين استخلفه: «إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك».

ويروى من حديث أنس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس عدوك الذي إذا قتلك أدخلك الجنة، وإذا قتلته كان لك نوراً، أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(١).

قال ابن رجب: فهذا الجهاد أيضًا يحتاج إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلب وحصل له النصر، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غلب وقهر وأسر، وصار ذليلاً أسيراً بين يدي شيطانه وهواه. فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن النصر مع الصبر» يشمل الصبر على جهاد العبد لعدوه الظاهر، وجهاده لعدوه الباطن وهو نفسه وهواه، وكان السلف يفضلون هذا الصبر على الصبر على البلاء. اهـ.

قلت: ولو لم يكن للصبر إلا هذه الفضيلة أعنى حصول النصر على العدو الظاهر والعدو الباطن لكفي به فضلاً على غيره من الأخلاق والصفات لأنه بهذا النصر يصل

(١) قال محققه: أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده منقطع في موضعين وبناء عليه فهو ضعيف شديد الضعف.

بقية تلك المكارم بل من انتصر على نفسه وصل إلى رضى الله جَلَّ جَلَالُهُ، وهذا غاية ما يتمناه المسلم، إذن فلا بد أخي الكريم من التمسك بالصبر وحث الناس عليه، عسى ولعل أن تعود الأمة الإسلامية إلا كتاب ربها وسنة نبيها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذلك الصبر الذي به تتعلم العلم النافع وبه تعمل العمل الصالح والله أعلم.

٥- جزاء الصابرين أعظم الجزاء في الدنيا والآخرة:

لقد وردت نصوص عديدة في جزاء الصابرين في دنياهم وأخراهم وسأحاول عرض بعض تلك النصوص باختصار في النقاط التالية:

(أ) الصابرون ينالون معية الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنْزِعُوا عَنْهَا فَنفَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ ﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «أمر الله تعالى به - أي بالصبر - وأخبر بأنه ﴿ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

أي ممن كان الصبر لهم خلقاً وصفة وملكة - بعونه وتوفيقه وتسديده - فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضى محبته ومعونته ونصره وقربه وهذه منقبة عظيمة.

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً

وشرفاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] وهذه عامة للخلق» اهـ.

(ب) الصابرون هم أحباب الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وهذه الآية كما قال أهل التفسير: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ أي الصابرين على الجهاد، لأن هذه الجملة جاءت في تذييل ذكر المجاهدين، ولا يعنى هذا أن غير المجاهدين - أعنى من الصابرين - أنه لا نصيب لهم في هذا الحب، كلا لأن من أنواع الجهاد: جهاد النفس والشيطان كما تقدم ذلك عن ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ.

(ج) الصابرين لهم البشري من الله تعالى ويوفون أجرهم بغير حساب:

يدل على المعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].
ويدل على المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال القرطبي: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تقدير، وقيل: يزداد على الثواب لأنه لو أعطي بقدر ما عمل لكان بحساب، وقال مالك بن أنس: هو الصبر على فجاج الدنيا وأحزانها.



المبحث الثالث

ذكر العلماء للصبر ثلاثة أنواع كلها على مرتبتين: «إحداهما واجبة والأخرى مندوبة، فأما الأنواع الثلاثة فهي: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على بلاء الله، فما كان من الطاعات واجب فالصبر عليها واجب وما كان من المخالفات حرام فالصبر عليه واجب، وما كان مكروها فالصبر عليه، والرضا بما قضى الله وقدر مندوب، لأن الرضا أعلى مرتبة من الصبر، وفي هذا الكتاب بيان لمنزلة الرضا فمن أراد التوسع فليرجع إليه في موضعه بالنظر إلى الفهارس، وأما الآتي فأليك بيان هذه الأنواع الثلاثة من الصبر، فأقول ومن الله أرجو العون والقبول».

والمراد بهذا الصبر أن يواظب الإنسان على أداء ما أوجب الله عليه من الطاعات دون ضجر ولا تبرم، ولا شك أن أكثر الطاعات يحتاج إلى صبر سواء تكرر في اليوم كالصلوات الخمس أو في السنة كالصيام والزكاة، أو كان واجباً في العمر مرة كالحج، أو ما كان ملازماً لحال الإنسان كبر الوالدين وصللة الأرحام والإحسان إلى الجيران والقيام بحق الزوجة والأولاد من التربية والتأديب وغير ذلك مما هو معلوم لدى المسلم من الطاعات، وأكثر ما ذكرته لك من هذه الطاعات واجب، وهناك طاعات مندوبة كالحرص على تلاوة القرآن الكريم والأذكار الصباحية والمسائية، وغيرها من أذكار المناسبات، والاستغفار والصلاة والسلام على النبي المختار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيرها فهذه كلها تحتاج إلى صبر ومثابرة على أدائها، ومن لم تكن الآخرة نصب عينيه قل ما يصبر على شيء من ذلك.

هذه الطاعات كلها ظاهرة، وهناك طاعة باطنة أي هي من أعمال القلب تحتاج أيضًا إلى الصبر، ومن ذلك الإخلاص لله تعالى في أداء تلك الأعمال الظاهرة، ومن طاعات القلب الخوف والرجاء والحب لله تعالى، والخشية والإنابة وحب الآخرة والتطلع إلى ما عند الله تعالى والتوكل واليقين وهذه كلها تحتاج إلى صبر.

ولا تظن أخي القارئ الكريم أنك في حاجة إلى الصبر دومًا وأبدًا فيما تقدم من طاعات، كلا بل إنما أنت في حاجة إلى الصبر في بداية سيرك إلى الله تعالى، ثم بعد ذلك تألف نفسك هذه الطاعات ويتحول الصبر عليها إلى حب لها بل ستشعر نفسك أن حاجتها إلى هذه الطاعات أشد من حاجتها إلى الطعام والشراب والملذات، فمن ثم لا بد من الصبر في البدايات لتفرح في النهايات.

ومن الأدلة على الصبر على الطاعات قول الله تعالى آمراً نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن كثير في تفسيرها: «أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء».

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأن اجلس مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة - الصبح - إلى طلوع الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلي من أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً».

وقال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأشفال: ٤٦].

وقال ابن كثير: وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في باب الشجاعة والائتثار بما أمرهم الله ورسوله، وامتثال ما أُرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد من بعدهم، فإنهم ببركة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة للجيوش في سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله تعالى وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين» اهـ.

لعل في هاتين الآيتين دلالة واضحة على أهمية الصبر على طاعة الله تعالى وبها أكتفي في بيان المراد.

تنبيه: لست في حاجة إلى بيان صبر الصحابة على طاعة الله تعالى وذلك لأنني أقول يكفيك نظرة فيما تقدم ذكره من صبرهم على قيام الليل وعلى الإنفاق في سبيل الله وغير ذلك مما ذكرنا من صفات عباد الرحمن ونماذج من أتصاف الصحابة بها، ولعل كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ المتقدم الآن أبلغ في بيان المرتبة العالية التي تبوأها الصحابة في الصبر على طاعة الله تعالى، والآن أضع بين يدي كل مسلم هذه الأسئلة عن حالنا نحن اليوم مع طاعة الله لننظر الفرق الشاسع بين ما كان عليه السلف وبين ما صرنا إليه وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كم طاعة عندك واطبت عليها سنوات عديدة دون أن تتركها ولو ليوم واحد؟
وعلى سبيل المثال:

كم سنة واطبت على صلاة الجماعة دون أن تتخلف فرضاً واحداً؟ بل كم شهر مضى عليك دون التخلف عنها؟ لقد ذكر عن سعيد بن المسيب أنه ظل أربعين سنة يسابق المؤذن في دخول المسجد.

وكم سنة واطبت على تلاوة القرآن وختمه أسبوعياً أو شهرياً دون أن تتخلف عن ذلك ولو لمرات يسيرة خلا عام أو أعوام؟

كم سنة أو شهر واطبت على قيام الليل؟ والحرص على الأذكار المطلقة أو المقيدة؟ لقد تقدم في قيام الليل أن عددا من السلف كانوا يجيئون الليل ثلاثين سنة أو أربعين دون انقطاع؟

كم عمل من أعمال القلوب رأيت أنه لا بد لك منه فوظبت على تدريب نفسك عليه كالخوف من الله ورجائه أو محبته أو حب الخير للناس كافة، أو التعامل مع الناس بالرحمة والوفاء؟، هذه الصفات قل من يلتفت إليها، إنا لله وإنا إليه راجعون.

أظن أننا في حاجة ماسة إلى الصبر على طاعة الله تعالى، لأن الكثير من طاعاتنا قل ما نصبر عليها، وهكذا تتوالى الأسئلة، هل يا ترى لازمت أخي القارئ حلقة علم حتى انتهيت من فهم أهم ما يجب عليك فهمه من دين الله.. رأيت كم نحن في حاجة إلى الصبر على الطاعة.

لا شك أن شهوات النفس وملذاتها - المحرمة - تحتاج إلى مجاهدة كبيرة حتى يتغلب عليها المؤمن ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ومن هنا كان الصبر عن المعاصي بنوعها الصغائر والكبائر يحتاج إلى صبر كبير من المسلم.

وقبل أن أذكر للقارئ بعض المعاصي التي تحتاج إلى صبر كبير عنها أورد هنا ما قاله أبو محمد القصرى المالكي في كتاب شعب الإيمان حول هذا الموضوع، حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: «والصبر عن النهي - المعصية - أعظم من الصبر على الأمر - الطاعة - وما صار الصديقون صديقين إلا بالصبر عن المنهيات فقد تجد الإنسان يكثر من العبادة وتحف

عليه - تصبح عنده سهلة - وتجده عمره كله لا يقدر على غض بصره وكف لسانه أو مواجهة الشيء الخفيف من المهنيات» اهـ.

وفي هذا المقام يرد الحديث الذي رواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لَجَبْرَيْلَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَفَهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ: انظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ النَّارَ قَالَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ وَجَاءَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَفَهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ وَجَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «حَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحَفَّتِ الْجَنَّةَ بِالْمَكَارِهِ».

ومن هنا نقول: من لا يوطن نفسه على الصبر في مواجهة الشهوات والبعد عنها، والواقع يقول أن أكثر الناس لا يصبر خصوصا في هذا الزمن الذي كثرت فيه الفتن وكثرة الواقعين فيها والداعين إليها ومن باب تذكير القارئ الكريم أذكر هنا جملة من المعاصي التي عجز عن مقاومتها أكثر الناس إلا من رحم ربك:

فمن ذلك اعتياد الناس على مشاهدة ما حرم الله عبر القنوات الفضائية من المشاهد الفاضحة والمناظر الخليعة، واعتيادهم على سماع الغناء المحرم الذي يشتمل على كلام أفحش من الفحش والذي يستحى أن يقوله الرجل إلى زوجته في غرفة النوم، وللأسف الشديد أصبح يسمعه الناس عبر هذه الأغاني صباحًا ومساءً.

ومما وقع فيه الناس أكل الربا وهذه المعصية بمثابة إعلان الحرب على الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا

فَأَذُنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ ﴿البقرة: ٢٧٨-٢٧٩﴾، ومن أعظم ما ابتلي به الناس في هذه المعصية هو عدم إحساسهم بأنها كبيرة من الكبائر، فأصبحت أيسر عندهم من شرب الماء البارد، وأعظم من ذلك كله هو عدم إحساسهم بآثارها أعنى آثار أكل الربا، إذ من آثاره موت القلب فلا يكاد يتأثر بآية قرآنية ولا بموعظة نبوية بل قد يصل الحال ببعضهم أنه يترك الصلاة ولا يشعر بعظم هذا الذنب والسبب المباشر هو أكله للربا خاصة ولكل مال حرام بصورة عامة.

ومن المعاصي التي غلبت الناس فعجزوا عن مقاومتها، ما انتشر في الأفراح من إقامة الحفلات الراقصة التي هي حرام بإجماع أهل العلم، ولا تغتر بمن يقول أن القرضاءوي أباح استماع الغناء فهذا كذب عليه ومن شاء فليراجع كتابه (فقه الغناء والموسيقى في ضوء القرآن والسنة) وهو آخر ما كتبه في الموضوع وأنا أنقل لك هنا ما قاله في المقدمة (ص ٨): «وبهذا أعلن من أول الأمر أن الغناء بصورته التي يقدم بها اليوم في معظم التلفزيونات العربية والقنوات الفضائية، بما يصحبه من رقص وخلاعة وصورة مثيرة لفتيات مائلات مميلات، كاسيات عاريات، أو عاريات غير كاسيات، أصبحت ملازمة للأغنية الحديثة... الغناء بهذه الصورة قد غدا في عداد المحرمات بيقين، لا لذاته ولكن لما يصحبه من هذه المثيرات والمضلات فقد تحول الغناء من شيء يسمع إلى شيء يرى، وبعبارة أخرى تحول من غناء إلى رقص خليع» اهـ. وقد سبق هذا النقل في موضع آخر من الكتاب.

فانظر أخي القارئ الكريم إلى هذا الرأي السديد من الشيخ جزاه الله خيرًا وأطال في عمره، بينما تسمع كل من ابتلي بسماع الغناء يقول لك أنا أعتمد على فتوى القرضاءوي، أقول: لقد نظقت كذبًا وتلفظت هجرا وهو محاسب على إلصاق فتوى بالقرضاءوي وهو منها براء.

كثير من الناس عندما يسمع هذه الكلمة يظن أن المقصود بالبلاء هو الفقر وشدة الحاجة أو يظنه المرض والعجز عن الحركة وما أشبه ذلك مما يكرهه الناس، وليس الأمر كذلك، لأن البلاء يشمل جميع ما يتعرض له الإنسان في هذه الحياة من أمور يجبها كالعافية وكثرة المال والولد والجاه، ومن أمور أخرى يكرهها كالفقر والمرض وغير ذلك، هذا كله ابتلاء من الله تعالى، يدل على ذلك آيات من كتاب الله تعالى سأذكرها بعد قليل، فالمقصود أن النعمة تحتاج إلى صبر على شكرها، وأن الفقر يحتاج إلى صبر عليه، وفي كلا الأمرين يكون الإنسان مبتلى إما أن يجتاز الابتلاء بنجاح فيثاب وإما أن يسقط ويعجز عن الصمود فيعاقب على ذلك ويوضح هذا المعنى نصوص من الكتاب والسنة، سأذكرها هنا تفسير آيتين ونماذج من الصبر في القرآن؛ فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:-

أولاً: قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

قال الخازن في تفسيره ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ ﴾ أي امتحنه ﴿ رَبُّهُ ﴾ بالنعمة ﴿ فَأَكْرَمَهُ ﴾ أي بالمال ﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ أي بما يوسع عليه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ أي بما أعطاني من المال والنعمة ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ ﴾ يعني بالفقر ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ أي فيضيق عليه ﴿ رِزْقَهُ ﴾ وقد أعطاه ما يكفيه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴾ أي أذلني بالفقر.

﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الأمر كذلك، أي لم ابتله بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه، فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وقلته، ولكن الغنى والفقر بتقدير الله جَلَّ جَلَالُهُ وحكمته فقد يوسع على الكافر لكرامته، ويضيق على المؤمن لا لهوانه، لكن الأمر اقتضته حكمة الله تعالى، وإنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته.

وقد يوسع على الإنسان من أصناف المال ليختبره أيشكر أم يكفر، وقد يضيق عليه ليختبره أيصبر أم يضرجر ويقلق. اهـ.

قال الطاهر بن عاشور: واعلم أن من ضلال أهل الشرك ومن فتنة الشيطان لبعض جهلة المؤمنين أن يخيل إليهم أن ما يحصل لأحدهم من نفع من الحوادث موضع كرامة من الله للذي صادفته تلك المنافع، وإذا صادف أحدهم ما يجلب له ضرراً تخيله انتقاماً من الله قصده به تشاؤماً منه، وعلم الله واسع وتصرفاته شتى وكلها صادرة عن حكمة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فقد يأتي الضرر للعبد من عدة أسباب وقد يأتي النفع من أخرى، والموفق يتيقظ للأمارات قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

وحرف كلا زجر عن قول الإنسان: ﴿رَبِّتْ أَكْرَمِينَ﴾ عند النعمة وقوله: ﴿رَبِّتْ أَهْنَنِينَ﴾ عندما يناله التقدير والمعنى ليست حالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا دليلاً على منزلته عند الله تعالى، وإنما يعرف مراد الله - من الإكرام والإهانة - بالطرق التي أرشد إليها بواسطة رسله وشرائعه، فرب رجل في نعمة في الدنيا وهو مسخوط عليه ورب أشعث أغبر مطرود بالأبواب لو أقسم على الله لأبره.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

- قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: والله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق لما به غناهم وفقدهم، فخلق الغنى والفقر ليبتلي بهما عباده أيهم أحسن عملاً، وجعلها سبب للطاعة

والمعصية والثواب والعقاب قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْوَىٰ وَالْجَنَابِ وَقَذَفُوا فِي سَبِيلِهِ الْمَوْلَىٰ وَجِئُوا بِإِذْنِهِ مِنَ الْيَمِّ الْمَوْتَىٰ﴾ كما قال ابن عباس: «بالشدّة والرّخاء والصّحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام وكلها بلاء»، وقال ابن يزيد: «نبلوكم بما تحبون وتكرهون، لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون».

قال الشريبي: ﴿وَبَلَّوْكُمْ﴾ أي نعاملكم معاملة المبتلى المختبر ليظهر في عالم الشهادة الشاكر والصابر والمؤمن والكافر كما هو عندنا في عالم الغيب، إن نخالطكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّجْوَىٰ﴾ وهو المضار الدنيوية من الفقر والألم وسائر الشدائد النازلة بالملكفين ﴿وَالنَّجْوَىٰ﴾ هو نعيم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكّن من المرادات، وقوله تعالى: ﴿فِتْنَةٌ﴾ مفعولة له لننظر أتصبرون وتشكرون أم لا، كما يفتن الذهب إذا أريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش، فبين الله تعالى أن العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكي يشكر على المنح ويصبر على المحن، فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم» اهـ.

B

لعله بما مضى ذكره من تفسير هاتين الآيتين يتبين لنا أن الإنسان مهما كان حاله فهو في ابتلاء دائم لأنه ما بين صبر وشكر في أمور دنياه وما بين فعل أمر ونهى في أمور دينه وكل هذه مندرجة تحت عبوديته لله تعالى، ولكي يعلم المؤمن أنه ليس في هذا السبيل بأوحد، ذكر الله لنا في كتابه عدة نماذج من الصابرين وأخرى ممن بطر بالنعمة ونسي المنعم ولم يشكر، وإليك بعضاً مما ذكر الله من تلك النماذج:

فمن أمثلة ممن صبر على البلاء سيدنا أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرِضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

أقول: وأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مر بالمرحلتين وخاض التجربتين أعنى الابتلاء بالغنى والفقر والصحة والمرض فكان صابراً في الشدة شاكراً في الرخاء ولهذا قال تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

قال السعدي: نعم العبد الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء والشدة والرخاء.

وممن صبر على الرخاء داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

فقد أعطاهما الله تعالى الملك، وكان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من جمع الله له بين الملك والنبوة في بني إسرائيل ثم ورثه سليمان وقد مدحهما الله تعالى في كتابه فقال: ﴿أَعْمَلُوا آءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]، ولا شك أنها امتثالا لأمر الله فكانا من القليل الشكور.

وممن ابتلي بالسراء والغنى فلم يشكر قارون عليه اللعنة:

فقد ذكر الله ما أعطاه من المال وبين كثرته بقوله: ﴿وَأَيُّنَّهُ مِمَّنَ الْكٰفِرِينَ مِمَّا إِنَّمَا مَفَاتِحُهُ لِنٰسٍ بِالْغٰصِبَةِ أُولِيَ الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، ثم بين موقفه عندما قال له قومه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتٰتَكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، كان رده سيئاً يدل على نسيانه للمنعم جَلَّالَهُ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ فلم يشكر الله تعالى على ما أعطاه فكان جزاؤه ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.

وممن لم يصبر على الابتلاء بالنعمة أصحاب الجنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الفلم: ١٧-٣٣].

وخلاصة قصتهم ما ذكره ابن كثير في تفسيره حيث قال: «قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها ضروان على بعد ستة أميال من صفار، وقيل كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير بسيرة حسنة فكان ما يستغل منها - أي محصول الجنة - يرد فيها - من البذور - ما تحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل.

فلما مات وورثه بنوه قالوا: لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال والريح والصدقة، فلم يبق لهم شيء قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ [القلم: ٣٣] أي هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المساكين وبدل نعمة الله كفرًا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق. اهـ.



المبحث الرابع

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

!è

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لما ثقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وا كرب أبتاه، فقال: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات، قالت فاطمة: يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت: أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التراب؟ رواه البخاري، وفي الحقيقة هذا صبر عظيم من فاطمة على فراق أبيها سيد العالمين محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

!é

قال ابن رجب: لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اضطرب المسلمون فمنهم من دهش فخلوط ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية. قال أبو بكر بن العربي: ولما سمع أبو بكر الخبر أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنْح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فتميم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي عليك فقد متها، وخرج أبو بكر، وعمر يتكلم، فقال: اجلس يا عمر، وهو ماض في كلامه وفي ثورة غضبه فقام أبو بكر في الناس خطيباً بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد: فإن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ

الشَّكْرِينَ ﴿آل عمران: ١٤٤﴾، فنشج الناس بيبكون، قال عمر: فوالله ما أن سمعت أبا بكر تلاها فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي، وعلمت أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات.»

قال القرطبي: هذه الآية أول دليل على شجاعة أبي بكر الصديق وجرأته فإن الشجاعة والجرأة حدها ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فظهرت شجاعته وعلمه قال الناس: لم يمت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم عمر، وخرس عثمان واستخفي علي واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسنع» اهـ.

!è رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بعد أن تم حصار عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في بيته من قبل الثوار وأهل الفتنة وطلبوا منه خلع نفسه أو يقتلوه، فقد رفض عثمان خلع نفسه، وقال: لا أخلع سربالا سربلنيه الله، يشير إلى ما أوصاه به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك فيما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت: أرسل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عثمان بن عفان، فأقبل عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان آخر كلام كلمه أن ضرب منكبه وقال: «يا عثمان إن الله عَزَّجَلَّ عسى أن يلبسك قميصاً، فإن أراذك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني» ثلاثاً.

قال العلماء: «ولقد سن عثمان سنة حسنة لمن بعده بمشورة ابن عمر وغيره من الصحابة - حيث أوصوه بالصبر وعدم التنازل عن الخلافة - حيث صبر واحتسب فلم يتنازل عن الخلافة، ولم يسفك دماء المسلمين، فلو تنازل عثمان لهؤلاء الخوارج وخلع نفسه لصار الخلفاء ألعوبة وملهاة بأيدي الطامعين أو المغرضين وبذلك تهتز صورة الخليفة» اهـ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

!e

عندما نزل الطاعون بأرض الشام، كان أبو عبيدة هو قائد الجيوش وكان الطاعون قد بدأ يحصد الناس حصداً ما عرف الناس طاعوناً مثله، ولما علم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأمره خشي على أبي عبيدة فكتب له رسالة يقول فيها: «إني قد بدت لي إليك حاجة لا غنى لي عنك بها، فإن أتاك كتابي هذا ليلاً فإني أعزم عليك ألا تصبح حتى تركب إليّ، وإن أتاك نهاراً فإني أعزم عليك ألا تمسي حتى تركب إليّ»، وكان مراد عمر هو أن ينجو أبو عبيدة من الطاعون، فلما أخذ أبو عبيدة كتاب عمر قال: «لقد علمت حاجة أمير المؤمنين إليّ، فهو يريد أن يستبق من ليس بباق، ثم كتب إليه يقول «قد علمت حاجتك إليّ يا أمير المؤمنين وإني في جند المسلمين ولا أجد بنفسي رغبة عن الذي يصيبهم، ولا أريد أن أفر حتى يقضى الله في وفيهم أمره، فإذا أتاك كتابي هذا فأحللني من عزمك وإذن لي بالبقاء».

فلما قرأ عمر الكتاب بكى حتى فاضت عيناه فقال له من عنده - لشدة ما رأوا من بكائه أمات أبو عبيدة يا أمير المؤمنين، فقال: لا، وكأن قد» أي وكأنه قد مات.

وما لبث أبو عبيدة أن أصيب بالطاعون وحضرته الوفاة فأوصى جنده وأمر معاذ بن جبل أن يصلى بالناس ثم توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال معاذ: «أيها الناس، إنكم قد فجعتم برجل - والله - ما أعلم إني رأيت رجلاً أبر صدرا ولا أبعد غائلة - أي شرّاً - ولا أشد حباً للعاقبة ولا أنصح للعامّة منه فترحموا عليه».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

!i

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان ابن لأبي طلحة يشتكي، فخرج أبو طلحة فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت له أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان، فقربت له العشاء فتعشى ثم أصاب منها فلما فرغ قالت: واروا الصبي

فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال: «أعرتهم الليلة؟» قال: نعم قال: «اللهم بارك لهما» فولدت غلامًا... أسموه عبد الله، قال رجل من الأنصار: «فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن، يعني من أولاد عبد الله المولود»^(١).

وفي رواية مسلم: «مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، فجاء فقربت إليه العشاء فأكل وشرب، فلما رآته قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا فقالت: احتسب ابنك، قال أنس: فغضب أبو طلحة ثم قال: تركتني حتى إذا تلطخت - يعني أجنبت بالجماع - ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... الخ.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

١! قيل لابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إن أسماء بنت أبي بكر في ناحية المسجد - وذلك حين صلب ابن الزبير - فمال إليها فقال: إن هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله فاتقى واصبري، فقالت: «وما يمنعي وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل»^(٢).

١!

جاء في السير عن هشام بن عروة بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن أباه خرج إلى الوليد بن عبد الملك حتى إذا كان بوادي القرى وجد في رجله شيئاً فظهرت به قرحة، ثم ترق به الوجع، وقدم على الوليد وهو في محمل فقال: يا أبا عبد الله أقطعها، قال: دونك، فدعا له الطبيب، وقال: اشرب المرقد - شراب يزيل العقل - فلم يفعل فقطعها من نصف الساق فما زاد أن يقول حس حس، فقال: الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا.

(١) رواه البخاري.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/٢١٥).

وأصيب عروة بابنه محمد في ذلك السفر، ركضته بغلة في إسطنبول فلم يسمع منه في ذلك كلمة، فلما كان بوادي القرى قال: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة، فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت».

!i ····· رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: عن الربيع بن أبي صالح قال: دخلت على سعيد ابن جبير حين جيء به إلى الحجاج فبكى رجل فقال سعيد: «ما يبكيك؟» قال: لما أصابك، فلا تبك، كان في علم الله أن يكون هذا، ثم تلا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

قال سليمان التيمي: كان الشعبي يرى التقية، وكان ابن الجبير لا يرى التقية، وكان الحجاج إذا أتى بالرجل - يعني ممن ثار عليه - قال له: أكفرت بخروجك علي؟ فإن قال نعم، خلى سبيله، فقال لسعيد: أكفرت؟ قال: لا، قال: اختر أي قتلة أقتلك؟ قال: اختر أنت فإن القصاص أمامك.

عن داود بن أبي هند قال: لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال: ما أراني إلا مقتولا، وسأخبركم، إني كنت وصاحباي لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ثم سألنا الله الشهادة، فكلا صاحبي رزقها، وأنا أنتظرها، قال فكأنه رأي أن الإجابة عند حلاوة الدعاء.

قال الذهبي: ولما علم من فضل الشهادة ثبت للقتل ولم يكثرث ولا عامل عدوه بالتقية المباحة له، رحمه الله ورضي عنه.



المبحث الخامس

ذكر العلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ الْقِيمِ (تقريب طريق المهجرتين وباب السعادتين) أسباب الصبر وجعل لكل نوع من أنواع الصبر أسبابًا خاصة به فجعل هناك أسبابًا للصبر على الطاعة وأخرى للصبر عن المعصية وأخرى للصبر على بلاء الله تعالى، وسأذكر هنا ملخصًا لبعض تلك الأسباب مع بعض التصرفات، فأقول مستعينًا بالله تعالى:

B :

١- علم العبد بقبح المعصية ورذالتها ودناءتها وأن الله تعالى إنما حرمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنيا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضر، وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلّق عليها وعيد بالعذاب.

٢- الحياء من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظر الله إليه، ومقامه عليه، وأنه بمرأى منه ومسمع وكان حييًّا استحي من ربه أن يتعرض لمساخطه.

٣- مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب فإن تاب ورجع، رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قال بعض السلف: أذنبت ذنبًا فحرمت قيام الليل سنة، وقال آخر: أذنبت ذنبًا فحرمت فهم القرآن.

٤- خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديق الله في وعده ووعيده، والإيمان به وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا السبب يقوي بالعلم واليقين ويضعف بضعفها قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

٥- محبة الله تعالى وهي أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته، فإن المحب لمن يحب مطيع، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة، وفرق كبير بين من يترك المعصية من جراء حبه لله وبين من يتركها خوفاً من عقابه.

٦- قصر الأمل وعلمه بسرعة انتقاله إلى الدار الآخرة، وأنه كمسافر نام في ظل شجرة وهو يعلم أن سيذهب ويتركها، فهو لعلمه بقله مقامه في هذا الظل وسرعة انتقاله منه يحرص على ترك ما يثقله حملة ويضره ولا ينفعه، وليس هناك أنفع للعبد من قصر الأمل، ولا أضر من التسوييف وطول الأمل.

٧- ترك ما زاد عن الحاجة من الطعام والشراب والنام والاجتماع بالناس، فإن هذه الأشياء الاستكثار منها هو الذي يدفع العبد إلى المعاصي، فعلى سبيل المثال من أكثر من مقالة الناس في غير طلب العلم أو سماع الموعظة جره ذلك إلى الغيبة والنميمة أو جره إلى الكذب والكلام يجر بعضه بعضاً، ومن هنا كان على المؤمن أن يقلل من هذه الفضول.

B :

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب - يعني أسباب الصبر عن المعصية - ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة.

ومن أقوى أسباب - فعل الطاعة - الإيمان بالله ومحبه، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه» اهـ.

ومن أسباب الصبر على الطاعة علمك بأن الله تعالى يحب أهلها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وغير ذلك من الآيات.

ومن أسباب الصبر على الطاعة أن تعلم آثارها الطيبة في الدنيا حيث وعد الله تعالى بالحياة الطيبة في الدنيا لكل من أطاعه قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةًۢ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا، من حيث لا يحتسب» اهـ.

ومن أسباب الصبر على الطاعة معرفة العبد بما أعده الله للطائعين في الآخرة، حيث ذكر الله تعالى الجنة وما فيها من النعيم المقيم، فإذا فُكِّرَ في هذا وجد أن صبره على الطاعة لا يسوى شيئًا مقابل ما أعدَّه الله له في الجنة والله أعلم.

B

١- شهود جزاء المصيبة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

٢- أن يتذكر تكفيرها للسيئات كما ورد في الحديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١)، ولهذا ورد عن إحدى العابدات أن أصبعها جُرحت حتى أدميت فضحكت، فقيل لها: ألم تشعري بألمها، قالت: إن حلاة أجرتها غلبت على ألمها فضحكتُ.

(١) متفق عليه.

٣- مما يعين على الصبر على المصيبة أن يعلم أنها ما نزلت به إلا بسبب ذنب أذنبه قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وهذا عام في كل مصيبة صغيرة كانت أو كبيرة، فإذا علم هذا شغل نفسه بالاستغفار لأنه من أعظم أسباب دفع البلاء، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة».

٤- أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه الله اليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجربته، ولا يتقيأ بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه هباءً، لأن هذا الدواء فيه شفاء والصحة والعافية، وزوال الألم ما لم يحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى حسن عاقبته قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وفي مثل هذا يقول القائل:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

٥- أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه فيثبت حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أولياء الله وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه الله واجتباؤه وألبسه ملابس الفضل، وأكرمه بما يُكرم به أوليائه، وأما إن لم يصبر وانقلب على عقبيه طُرد وصفح على قفاه، وأبعد من درجة الكرامة والولاية، وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر في تضاعفها وزيادتها ولكن سيعلم بعد ذلك أن المصيبة صارت في حقه مجموعة من المصائب، كما يعلم الصابر فيما بعد أن المصيبة في حقه صارت مجموعة من النعم.

٦- أن يعلم المؤمن أن الله تعالى يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع أحواله، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبوديته الله على

اختلاف الأحوال وأما عبر السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير أطمأن به وإن إصابته فتنة انقلب على وجهه فليس من عبده الذين اختارهم الله تعالى لعبوديته.

من استعمل هذه الأسباب كل واحد في بابه وصل بإذن الله تعالى إلى مقام الصبر الذي هو أعلى المقامات ومنه تتفرع كثير من هذه الطاعات والبعد عن المعاصي والسيئات، وما من مقام في الدين إلا والصبر في حاجة إليه كيف لا وقد علمت أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد والله أعلم.



خاتمة حسنة لعباد الرحمن:

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا

وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

جزاء عباد الرحمن



الْمَقَرَّمَةُ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين.

ويعد: لقد ختم الله تعالى صفات عباد الرحمن ببيان جزائهم ألا وهو الجنة، جعلنا الله وإياك من أهلها، فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦].

وهذا من حسن بيان القرآن ألا وهو الترغيب في القيام بتلك الصفات والعمل بها على الوجه الأتم حينما يسمع المؤمن ذلك الجزء العظيم ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾.

ولما كان الكلام على الجنة وما يتعلق بها طويل وكثير رأيت أن أقصر على ذكر أهم ما يتعلق بالجنة ضمن ثلاث مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾. إلى قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

المبحث الثاني: وصف الجنة بما يقرب صورتها للسامعين.

المبحث الثالث: بيان الجنة وتفاوت النعيم فيها وتفاوت أهلها في المنزلة.



المبحث الأول

﴿أَوْلَيْكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾
خَلْدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

قبل ذكر أقوال المفسرين في معنى هاتين الآيتين انتبه إليه أنه قد تقدم الكلام على قوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عند ذكر صفة الصبر وهي آخر صفات عباد الرحمن، ولهذا لن أعيد شيئاً مما سبقها هنا، ثم تنبيه آخر ألا وهو أنني سأكتفي بذكر أقوال أربعة فقط من المفسرين لأن أقوالهم متقاربة فلا حاجة إلى التكرار، ثم إنه سيأتي الكلام على أوصاف الجنة مفصلاً في المباحث التالية لهذا المبحث إن شاء الله تعالى.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

«يقول جل ذكره: هؤلاء الذين وصفت صفاتهم من عبادي من ابتداء من قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا﴾ [الفرقان: ٧٣] الآية.

﴿يُجْزَوْنَ﴾ يقول يثابون على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا ﴿الْعُرْفَةَ﴾ وهي منزلة من منازل الجنة رفيعة.

وقوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ بمعنى تتلقاهم الملائكة فيها بالتحية ﴿خَلْدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ يقول تعالى ذكره: أولئك يجزون الغرفة بما صبروا خالدين في الغرفة يعني أنهم ماكثون فيها، لا بسون إلى غير أمد، حسنت تلك الغرفة قراراً لهم ومقاماً يقول: وإقامة» اهـ.

وقال الخطيب الشربيني رَحِمَهُ اللهُ: ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين بعده إحسانه إليهم بقوله تعالى: ﴿أَوْلَيْكَ﴾ أي العالوا الرتبة العظيمة، العظيموا المنزلة

﴿يُجَزَّوْنَ﴾ أي فضلاً من الله تعالى على ما وفقهم له من هذه الأعمال الذاكية والأحوال الصافية ﴿الْغُرْفَةَ﴾ أي الغرفات وهي العلالى فى الجنة، فوحد -الغرفة- اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرْفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧].

وقيل: الغرفة هي من أسماء الجنة.

ولما كان المنزل لا يطيب إلا بالكرامة والسلامة وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي دعاء الحياة من بعضهم لبعض، ومن الملائكة الذين لا يرد دعائهم ولا يمتري في إخبارهم، لأنهم عن الله تعالى ينطقون، وذلك على وجه الإعظام والإكرام، وكان ما أهانهم عباد الشيطان وقيل معنى تحية: أي ملكاً، وقيل بقاء دائماً.

وقوله: ﴿وَسَلَامًا﴾ أي من الله والملائكة وغيرهم وسلامه من كل آفة مكان ما أصابهم أهل الكفر والمعاصي من الأذى والمصائب.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي الغرفة لا يموتون، ولا يخرجون منها ﴿حَسَنَاتٍ﴾ أي ما أحسنها ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ أي موضع استقرار ﴿وَمُقَامًا﴾ أي موضع «إقامة». اهـ.
قال الميداني رحمه الله: قول الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُجَزَّوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

فى هاتين الآيتين عرض لقطات من ثواب «عباد الرحمن» عند ربهم يوم الدين، مع بيان السبب الذي قدموه فاستحقوا به هذا الثواب العظيم «وهو الصبر».

قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾: المشار إليهم هم ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ واختير اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدلالة على ارتفاع منزلتهم عند ربهم عن سائر المتقين الذين لم يرتفعوا فى درجات مرتبتي الأبرار والمحسنين، بنوافل الفضائل النفسية والسلوكية التي تزيدهم من الله قرباً وحباً.

والغرفة في القصور الدنيوية عند العرب ذات منزلة رفيعة فيها، تختار لسيد القصر ومتعته الخاصة، ويصعد إليها بدرج وتكون عالية مشرفة.

قوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ على القراء حين تقول لغة: لقي الشيء إذا استقبله، وتقول: لقيته الشيء إذا قدمته إليه ليستقبله ويتلقاه منك.

وبهذا نري أن القراءتين قد تكلمتا في تأدية المعنى المراد، فعباد الرحمن يلقون من قبل الملائكة والحوار العين والولدان المخلدين تحية وسلاما، وهم - عباد الرحمن - من قبلهم يلقون ذلك سعداء به.

وجاء الجمع هنا بين التحية والسلام على سبيل العطف الذي يقتضي التغاير للدلالة على انهم يلقون الغرفة فيتلقون التحية والسلام في الفرق بينهما؟

الجواب: جاء في كتب اللغة أن التحية: تفعله من الحياة بمعنى البقاء في الحياة، وجاء أن التحية تأتي بمعنى الملك، وتأتي بمعنى: مطلق السلام.

وأما السلام: فهو البراءة من كل مكروه وكل نقص وهو العافية والأمن كالسلامة، واختاره الله -أي السلام - ليكون عبارة عن اللقاء بين المسلمين، إخاء وتكريماً وإيناساً ودعاء بالسلامة والأمن.

قوله: ﴿حَسُنْتَ مُسْتَقْرًّا﴾ أي يلازمها وصف الحسن العظيم، سواء كانت مستقرًّا لأهلها الذين أوتوا ملكها، أم مقامًا لزوارها من أهل درجات مرتبة المتقين في الجنة» اهـ.



المبحث الثاني

اعلم أخي القارئ الكريم أن الله تعالى من رحمته وصف لعباده الجنة وبين ما فيها من النعيم المقيم والخيرة والسرور، وما ذلك إلا ليرغبوا في دخولها وليعملوا العمل الصالح الذي يؤهلهم لدخولها، جعلنا الله وإياكم من أهلها.

كما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف الجنة لأمته وأطنب في ذكرها وتفنن في بيان نعيمها وذلك لشدة حرصه على الأمة أن يكونوا جميعاً من أهلها كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي»، قيل: ومن أبي يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبي»، وقد قال الله تعالى في صفة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فلما كانت الآيات والأحاديث كثيرة جداً في وصف الجنة وجميع ما يتعلق بها أحببت أن أنقلها هنا ما ذكره ابن القيم في وصف الجنة في كتابه الرائع (حادي الأرواح) وسأذكر هنا بعضاً من النصوص بحسب مقتضى الحال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

كيف بقدر قدر دار غرسها الله بيده، وجعلها مقراً لأحبابه وملاًها من رحمته وكرامته ورضوانه ووصف نعيمها بالفوز العظيم كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ووصف ملكها بالملك الكبير كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نِعْمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، وأودعها الخير بحذافيره وطهرها من كل عيب ونقص.



فإذا سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران كما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك عن أبي ذر في حديث المعراج قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أدخلت الجنة فإذا فيها جنادل اللؤلؤ وترابها المسك» وفيها أيضاً: «وتربتها الزعفران».



وإذا سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر، وإذا سألت عن حصائها فهو اللؤلؤ والجواهر، وإذا سألت عن بنائها فلبنة من ذهب ولبنة من فضة، كما صح ذلك في سنن الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قلنا: يا رسول الله الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة من فضة ولبنة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر، وحصاها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من دخلها ينعم لا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابهم ولا يفضى شبابهم».

وإذا سألت عن أشجارها فما فيها شجرة واحدة إلا ساقها من ذهب وفضة، إلا الحطب والخشب، وإذا سألت عن ثمارها فأمثال القلال - جمع قلة - ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإذا سألت عن ورقها فأحسن من رقائق الحلل. ويدل على كل هذه الأوصاف أحاديث منها:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب» (١).

وعن مالك بن صعصعة في حديث المعراج أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ورفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها كأنه قلال هجر ورقها كأنه أذان الضيول» (٢).

وقد وصف الله أشجار الجنة وثمارها في عدد من آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نِزْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَلَيْهِمْ كُورٌ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٢-٢٤]، إلى غير ذلك الآيات.

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) متفق عليه.



وإذا سألت عن أنهار الجنة فإنها من لبن لم يتغير طعمه، وأنها من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ﴾ [محمد: ١٥].



وإذا سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وإذا سألت عن شراهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإذا سألت عن آنية الذهب والفضة في صفاء القوارير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۗ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٥-٦]، إلى قوله تعالى: ﴿سَلْسِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ۗ خِتْمُهُ مِسْكَ ۗ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ [٦١] ومِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿المطففين: ٢٥-٢٨﴾، والرحيق: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش، وقوله: ﴿مَخْحُومٍ﴾ أي إذا شربوا هذا الرحيق فضي ما في الكأس الختم بخاتم المسك، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك.

والتسنيم: شراب ينصب عليهم من علو وهو أشرف شراب في الجنة، واصل التسنيم في اللغة: الارتفاع - سنام الجمل - فهي عين ماء تجري من علو إلى سفلى.



وإذا سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، وروى الإمام أحمد بسند صحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وأنتم توفون سبعين أمة أنتم آخرها أكرمها على الله عَزَّجَلَّ، وما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً وليأتين عليه يوم أنه لكظيظ».

وفي الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ما منكم من أحد يسبغ الوضوء - أي يأتي به تاماً - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء».

وإذا سألت عن ظل الجنة ففيها شجرة واحدة يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألف عام، وإذا سألت عن خياما وقبابها: فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلاً من جملة الخيام، وإذا سألت عن قصورها وغرفها فهي غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوُّ رَجَّهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وقد وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غرف الجنة فقال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»^(١).

وروى مسلم عن عبد الله بن قيس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً».

وإذا سألت عن لباس أهلها وهو الحرير والذهب، وإذا سألت عن فرشها فبطائنها من إستبرق مفروشة في أعلى الرتب، وأن سألت عن أرائكهم فهي الأسرة عليها الحجال مزرة بأزرار الذهب، فمالها من خروج ولا خلال.

(١) أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه.

وقد وصف الله تعالى لباس أهل الجنة في غير ما آية من القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَنُهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وروى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِثُوبٍ مِنْ حَرِيرٍ فَجَعَلُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حَسَنِهِ وَلِينِهِ فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا دِيلُ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا».

وقد وصف الله تعالى الفرش في الجنة فقال: ﴿مُتَّكِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ «قال العلماء: وصف جَلَّ وَعَلَا الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق، وهذا يدل على أمرين. ١- أن ظاهرها أعلى وأحسن من بطائنها، لأن بطائنها للأرض وظاهرها للجمال والزينة، فإذا كانت البطائن من إستبرق فما بالك أخي بظاهرها. **والإستبرق:** هو أحسن من الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي يباشرون.

٢- يدل على إنها فرش عالية لها سمك وحشو بين البطانة والحجارة والظهارة، وهذه الفرش قد أحيطت بالنمارق المصفوفة على هيئة تسر الخواطر وتبهج الأنفس، قال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِمُ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ١٣-١٦]، فالنمارق: هي الوسائد والسائد والمخار.

الزرابي: هي البسط والحسان، ومبثوثة أي مملوءة بها مجالسهم فوصف جَلَّ وَعَلَا النمارق بكونها مصفوفة أشار إلى إراحتهم من صفها أو صناعتها بل هي مصنوعة ومصفوفة فهي مجهزة لهم أحسن تجهيز وأكملة.

وإن سألت عن أسنانهم - أعمارهم - فأبناء ثلاثة وثلاثين على صورة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ
أبي البشر، وإن سألت عن وجوههم وحسنهم فهم على صورة القمر ليلة البدر.

وروى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ
زَمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبِ
دَرَى فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً؛ بَلْ لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوِّطُونَ وَلَا يَتْفَلُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، أَمْشَاطُهُمْ
الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعَيْنُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ،
عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ».

وأخرج أحمد والترمذي عن معاذ بن جبل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ
الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جَرْدًا مَرْدًا مَكْحَلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً».

وقد وصف الله تعالى أهل الجنة بقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]،
أي بهجته ونضارة نوره، وقال تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۗ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-٩]،
وقال تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ ۗ﴾ [٣٨] ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ﴾ أي مشرقة مضيئة، قد علمت ما
لها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي مسرورة فرحة ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾
أي أتاها الله من الكرامة.

وإذا سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلى منه سماع أصوات
الملائكة والنبیین، وأعلى منها سماع خطاب رب العالمين.

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِيَغْنِينِ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ، إِنْ مِمَّا يَغْنِينُ بِهِ: نَحْنُ خَيْرُ الْحَسَانِ.... أَزْوَاجٌ قَوْمِ كِرَامٍ.... يَنْظُرْنَ بِقُوَّةِ أَعْيَانٍ.»

وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يميتنه.. نحن الأمانات فلا يخفضنه نحن المقيمات فلا يظعنه»^(١).

وروى الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ اثْنَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يَغْنِيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَلَيْسَ بِمِزَامِيرِ الشَّيْطَانِ.»

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُنَّ: لَبِيكَ رَبَّنَا وَسَعْدِيكَ، الْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا نَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أَعْطَيْنَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ: أَلَا أَعْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحَلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٢).

وقد قال تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، وقال تعالى: «الْأَنبِيَاءُ جَرَى فِي أَعْضَائِهِمْ مَاءُ الشَّبَابِ، فَالْوَرْدُ وَالتَّفَاحُ مَا لَبَسَتْهُ الْخُدُودُ، وَاللَّرْمَانُ مَا تَضَمَّنَتْهُ النَّهْدُ، وَاللُّؤْلُؤُ الْمَنْظُومُ مَا حَدَّتْهُ الثُّغُورُ، وَالدَّقِيقَةُ وَاللِّطَافَةُ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْحَضُورُ.»

تجربى الشمس فى محاسن ووجهها إذا برزت، ويعنى البرق من بين ثناياها إذا تبسمت.

(١) رواه الطبراني فى الأوسط بإسناد صحيح.

(٢) متفق عليه.

إذا قابلت وجهها فقل ما شئت في تقابل النيرين، وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبيبين، إن ضمها فما ظنك بتعانق الغصنين، يرى وجهه كما يرى في المرآة التي جلاها صقيليها، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها. لو اطلعت على الدنيا لملاّت ما بين الأرض والسماء ريحا، ولا استنطقت أفواه الخلائق تهليلاً وتكبيراً وتسييحاً، ولتخرق لها ما بين الخافقين، ولأغمضت عن غيرها كل عين، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولا من على وجهها بالله الحي القيوم.

ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، ووصاله «المؤمن» أشهى إليه من جميع أمانيتها، لا تزداد على تناول الأحقاب إلا حسناً وجمالاً ولا يزداد لها على طول المدى إلا محبة ووصالاً.

مبرأة من الحمل والولادة والحيض والنفاس، مطهرة من المخاط والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يفني شبابها ولا تبلي ثيابها ولا يخلق ثوب جمالها، ولا يمل طيب وصالها، قد قصرت طرفها على زوجها، فلا لأحد سواه، وقصر طرفه عليها فهي غاية أمنيته وهواه إن نظر إليها سرتة، وإن أمرها أطاعته، وأن غاب عنها حفظته، فهو معها في غاية الأمان والأمان، هذا ولم يطمثها إنس ولا جان.

كلما نظر إليها ملاّت قلبه سروراً، وكلما حدثته أذنه لؤلؤاً منظوماً ومنثوراً وإذا برزت ملاّت القصر والغرفة نوراً.

وإذا سألت عن حسن الخلق فهن الخيرات الحسان، واللاتي جمع هن بين الحسن والإحسان، فأعطيت جمال الباطن والظاهر، فهن أفرح النفوس، وقرّة النواظر. وإذا سألت حسن العشرة ولذة ما هناك فهن القرب المحبّبات إلى الأزواج بلطفة التبعّل التي تمتزج بالزوج أي امتزاج.

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها، وإذا انتقلت من قصر إلى قصر، قلت: هذه الشمس منتقلة في بروج فلکها، وإذا حاضرت زوجها فيا حسن المحاضرة، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

واختر لنفسك يا أخا العرفان	فاسمع صفات عرائس الجنان ثم
ومحاسناً من أجمل النسوان	حور حسان قد كملن خلائقا
قد ألبست فالطرف كالحيران	حتى يحار الطرف في الحسن الذي
سبحان معطي الحسن والإحسان	ويقول لما ان يشاهد حسنها
فتراه مثل الشارب النشوان	والطرف يشرب من كؤوس جمالها
والليل تحت ذوائب الأغصان	والشمس تجري في محاسن وجهها

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ:

وتري محاسنها به بعيان	فيرى محاسن وجهه في وجهها
سود العيون فواتر الأجضان	حمر الخدود ثغورهن لآئى
فيضئ سقف القصر بالجدران	والبرق يبدو حين يبسم ثغرها
يبدو فيسأل عنه من بجينان	ولقد رويانا أن برقاً ساطعا
في الجنة العليا كما تريان	فيقال هذا برق ثغرضاحك

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ:

وتمأيلت كتمأيل النشوان	وإذا بدت في حلة من لبسها
ورد وتفاح على رمان	تهتز كالغصن الرطيب وحمله
لمثلها في جنة الحيوان	وتبخترت في مشيها ويحق ذاك
وعلى شمائلها وعن أيمن	ووصائف من خلفها وأمامها

كالبدر ليلة تمه قد حف في غسق الدجى بكواكب الميزان
فلسانه وفؤاده والطرف في دهش وإعجاب وفي سبحان
فالقلب قبل زفافها في عرسه والعرس إثر العرس متصلان

قال عطاء السلمي لمالك بن دينار رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يا أبا يحيى شوقنا؟ فقال: «يا عطاء في الجنة حوراء يتباهى أهل الجنة بحسنها، لولا أن الله كتب علي أهل الجنة أن لا يموتوا لماتوا من حسنها»، فلم يزل عطاء كمدًا من قول مالك أربعين يومًا.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: في الجنة حوراء يقال لها اللعة، كل حور الجنة يعجب بها، يضربن بأيديهن على كتفها ويقلن: «طوبى لك يا لعة، لو يعلم الطالبون لك لجدوا»، بين عينيها مكتوب: من كان يتبغي أن يكون له مثلي فليعمل برضى ربي.

وروى الإمام أحمد في مسنده - بإسناد حسن - عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الرجل في الجنة لتأتيه امرأة تضرب على منكبه فينظر وجهه في خدها أصفي من المرأة، وأن أدنى لؤلؤة عليها تضئ ما بين المشرق والمغرب، فتسلم عليه فيرد عليها السلام، ويسألها من أنت؟ فتقول أنا من المزيد، وإنه ليكون عليها سبعون ثوبًا أدناه مثل النعمان فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليهم التيجان، وإن أدنى لؤلؤة لتضئ ما بين المشرق والمغرب».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب» أخرجهم مسلم وأحمد.

وعن سعيد بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أشرقت لمئات الأرض ريح مسك، لأذهبت ضوء الشمس والقمر»،

وروى موقوفاً عن ابن مسعود عن الترمذي، وأما لرفوع فهو عن ابن حبان وابن أبي الدنيا.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لو أن حوراء أخرجت كفها بين السماء والأرض لأفتتن الخلائق بحسنها، ولو أخرجت نصيفها -خمارها- لكانت الشمس عن حسنه مثل الفتيلة في الشمس لا ضوء لها، لو أخرجت وجهها لأضاء حسننها ما بين السماء والأرض، ذكره ابن القيم في حادي الأرواح.

جَلَّ جَلَالُهُ

وإن سألت عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزه عن التشبيه والتمثيل؛ كما ترى الشمس في الظهيرة، والقمر ليلة البدر، كما تواتر عن الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنقل فيه موجود في الصحاح والسنن والمساني من رواية عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «يوم ينادي المنادي: يا أهل الجنة إن ربكم يستزيركم - أي يطلب منكم زيارته - فحي على زيارته، فيقولون سمعاً وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم، فيستنون على ظهرها مسرعين، حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعداً، وجمعوا هناك، فلم يغادر الداعي منهم أحداً، أمر الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى بكرسيه فنصب هناك، ثم نصبت لهم منابر من فضة، وجلس أذناهم - وليس فيهم دني- على كئيبان المسك، ما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم، نادى المنادي: يا أهل الجنة، أن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار، بينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرفت له الجنة، فإذا الجبار جَلَّ جَلَالُهُ، وتقدست أسماؤه، قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام، ومنك السلام

تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيتجلى لهم الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى يضحك إليهم ويقول يا أهل الجنة، فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني واتبعوا رسلي واتبعوا أمري، فسلوني هذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: رب رضينا عنك فارض عنا، فيقول لهم: يا أهل الجنة، أي لو لم أرض عنكم لما أسكتتكم جنتي فسلوني فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: رب أرنا وجهك ننظر إليه، فيكشف الله جَلَّ جَلَالُهُ الحجب، ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره شيء لولا أن الله قضى عليهم لا يحترقوا لا احترقوا مما غشاهم من نوره.



المبحث الثالث

ما من شك أن أهل الإيمان في الدنيا ليسوا جميعًا متساوين في اكتساب الصالحات والمسارة في الخيرات لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف، فهناك قوى الإخلاص، والإيمان العامل بالقرآن العالم به المتدبر له آناء الليل وأطراف النهار، وهناك من لا يكاد يحسن يقرأ ما يصلى به، وبين هاتين الدرجتين ما لا يحصى من الدرجات، وهكذا قل في إقامة الصلوات وأداء الصدقات وصلة الأرحام وغيرها من أعمال الإسلام والإيمان.

أقول لما كان هذا هو حال أهل الإيمان في الدنيا كان حالهم في الآخرة بحسب أعمالهم في الدنيا، ومن ثم كانت الجنة درجات، ويصل الفرق ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض أو أبعد من ذلك ولهذا قال العلماء: «إن أهل الجنة يدخلون الجنة برحمة الله ويقسمونها بأعمالهم»، ولا يقدرُوا على الأعمال إلا برحمة الله وتوفيقه لهم

ولقد أشار الله تعالى إلى الدرجات في الجنة في عدد من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

كما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر درجات الجنة في أحاديث كثيرة، من ذلك قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

(١) رواه البخاري وغيره.

فانطلاقاً من ذلك كله أحببت أن أختتم الكلام على جزاء عباد الرحمن بذكر درجات الجنة وما فيها من النعيم المقيم لأنهم هم أهل الدرجات العلى من الجنة - جعلنا الله منهم - وأصل هذا المبحث مأخوذ من كتاب (كيف ترفع درجتك في الجنة) للدكتور محمد بن إبراهيم النعيم وكتب أخرى، رحم الله جميع علمائنا وأجز لهم المثوبة وأعلى درجتهم في الجنة.

B : :

قبل بيان ارتفاع تلك الدرجات أقول: أن غالب ما ورد عن أهل التفسير وشرح الحديث أن تلك الدرجات إنما هي درجات حسبه كما سبق في الحديث: «كما بين السماء والأرض»، أو: «مسيرة مائة عام»، كما في أحاديث أخرى، وأشار ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في شرح حديث: «ذهب أهل الدثور بالأجور والدرجات العلى من الجنة»، إلى أن هذا قد يراد به علو القدر عند الله تعالى فيكون بهذا رفع معنوي، كما قلت: ومن استحق الرفع المعنوي فهو أهل لأن يرفع في درجات الجنة الحسبية..... والله تعالى أعلم.

وقد وردت الأحاديث الكثيرة في بيان ارتفاع درجات الجنة، من ذلك:

١ - عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكواكب الطالع في أفق السماء، أن أبا بكر وعمر وأنعماً»^(١).

٢ - عن سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكواكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٢).

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) متفق عليه.

وردت أحاديث أخرى في بيان ما بين الدرجتين من درجات الجنة منها ما تقدم في حديث: «أن في الجنة مائة درجة»، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن كعب مرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ارموا أهل صنع - أي صناعة السيوف - من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة»، فقال عبد الرحمن بن أبي الزحام: يا رسول الله، ما الدرجة؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما إنها ليست بعتبة أمك ولكنها بين الدرجتين مائة عام»، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة خمسمائة عام»^(١).

ولعل القارئ الكريم يظن أن هناك اختلاف بين الأحاديث التي تبين بعد ما بين الدرجتين بمائة عام وبين غيرها، وأجاب ابن عبد الله ذلك بأن هذا يحمل على بطء السير وسرعته، وكذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

B :

جاء في حديث أبي هريرة، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام»^(٢).

وجاء في حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه»^(٣)، وفي رواية: «يقال لقارئ القرآن اقرأ وارتنق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٤).

قال القرطبي: قال علماؤنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: حملة القرآن وقراؤه هم العالمون بأحكامه وبحلاله وحرامه، والعالمين بها فيه.

(١) رواه الطبراني والمنذري في الترغيب والترهيب.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه وأقره الذهبي.

(٤) رواه الترمذي.

قال مالك: «قد يقرأ القرآن من لا خير فيه، وقد تقدم أن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، فالجهاد يحصل مائة درجة، وقراءة القرآن تحصل جميع درجات الجنة، والله المستعان على ذلك والإخلاص فيه بمنه وفضله».

وقال المناوي رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِ: «فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ»: «سَبَقَ أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَخْبَارِ الدَّالَّةِ عَلَى زِيَادَةِ دَرَجَاتِهَا عَلَى الْمِائَةِ أَخْبَرَ أَنَّ قَارِئَ الْقُرْآنِ يَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ مَعَهُ دَرَجَةٌ حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ، لِأَنَّ تِلْكَ الْمِائَةَ دَرَجَاتٍ كِبَارٍ، وَكُلُّ دَرَجَةٍ مِمَّا تُتَضَمَّنُ دَرَجَاتٍ صَغَارًا» اهـ.

وقد ورد عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «أَنَّ عِدَدَ دَرَجِ الْجَنَّةِ بَعْدَ أَيِّ الْقُرْآنِ، فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ»^(١).

. B

إن أهل الدرجات في الجنة ليسوا في نعيم واحد، إنما لكل درجة متعتها الخاصة إذ كلما علت الدرجة اتسعت واتسع معها نعيمها.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥]، أن الرحيق المختوم هو أجود الخمر، أما قوله تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]، «فالتسним هو أشرف شراب أهل الجنة يكون للمقربين صرفاً وهو لأهل الجنة ممزوجاً».

كما ورد أن الشهيد يزوج باثنين وسبعين زوجة من الحور العين حيث روى بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْعَ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ رَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَحْلَى حِلَةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوِّجُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيَجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ

(١) رواه أحمد والحاكم وقال: هذا إسناد صحيح، رواه البيهقي في شعب الإيمان.

على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته»^(١).

بينما ورد أن أدنى أهل الجنة منزلة يزوج بزوجتين من الحور العين، استناداً إلى الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال - في حديث طويل -: «ثم يدخل بته فتدخل عليه زوجاته من الحور العين». سيأتي الحديث بتمامه إن شاء الله.

كما أن أهل الجنة يتفاوتون في الحسن والجمال بتفاوت مراتبهم ودرجاتهم في الجنة. حيث روى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين إثرهم كأشد كوكب إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن، يسبحون الله بكرة وحشياً، ولا يسقمون ولا يتمخضون ولا يبصقون، أنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة»^(٢).

وهذا الحسن والجمال لا يتوقف عند حد معين بل يزداد وتجدد أبداً كما ورد عن أنس أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن في الجنة لسوقاً فيها كثران المسك يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً»^(٣).

وأعلى نعيم أهل الجنة رؤية الله تعالى وهم أيضاً يتفاوتون فيه، فقد روى بأسانيد فيها ضعف أن من أهل الجنة من ينظر إلى الله تعالى بكرة وعشياً ومنهم من ينظر إليه كل جمعة والله أعلم.

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) رواه مسلم، الألوة هي العود.

(٣) رواه مسلم.

: B :

ما من شك أن أعلى أهل الجنة درجة ومنزلة هو نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدل على ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ، فإن من صلى عليّ صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله تعالى لي الوسيلة، فإن من سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة» قالوا: وما الوسيلة يا رسول الله؟ قال: «أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو».

وفي رواية أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة فسلوا الله أن يؤتيها على الخلق يوم القيامة»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسميت درجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوسيلة لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي أقرب الدرجات إلى الله، وأصل اشتقاق الوسيلة من القرب، وهي فصيلة: ومن وسل إليه، إذا تقرب إليه، قال لبيد: بلى كل ذي رأي إلى الله واسل ومعنى الوسيلة: من الوصلة، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها وأعظمها نوراً».

قال الكلبي: واطلبوا إليه القرب بالأعمال الصالحة، وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فقوله: أيهم أقرب تفسير للوسيلة.

ولما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الخلق عبودية لربه، وأعلمهم به، وأشدّهم له خشية أعظمهم له محبة، كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله، وهي أعلى درجة في الجنة،

وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ أَنْ يَسْأَلُوها لَهُ لِيُنَالُوا بِهَذَا الدُّعَاءِ الزَّلْفَى مِنْ اللَّهِ، وَزِيَادَةَ الْإِيمَانِ.

ويُلي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عُلُوِّ الدَّرَجَةِ وَشَرَفِ الْمَنْزِلَةِ وَرَفْعَةِ الْمَقَامِ بَقِيَّةَ أَوْلِيَاءِ الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَنُوحَ وَعِيسَى ثُمَّ يَلِيهِمْ بَقِيَّةَ الرُّسُلِ ثُمَّ بَقِيَّةَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ يَلِي هَؤُلَاءِ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ عَنْ أَعْلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فَقَالَ تَعَالَى: «أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كِرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُصَدِّقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وَأَعْلَى الْجَنَانِ هِيَ جَنَّةُ الْفَرْدُوسِ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَضَجُّرُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»، فَإِذَا كَانَتْ الْفَرْدُوسُ أَعْلَى الْجَنَّةِ فَيَكُونُ أَهْلُهَا هُمُ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى... جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْهُمْ بِمَنْهَ وَكْرَمَهُ آمِينَ.

B

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: أُدْخِلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ أَخَذَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخْذَاتَهُمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مُلْكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ رَضِيْتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ هَذَا وَعِشْرَةَ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَدَتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ، قَالَ مُوسَى: رَبِّ؛ فَأَعْلَاهُمْ، قَالَ: أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ» إِلَى آخِرِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ قَرِيبًا.

وهذا البيان الوارد في هذا الحديث القدسي جاء موضعًا مفصلاً في حديث آخر أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال - في حديث طويل - : «..ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا، فيدعوا له ما شاء أن يدعوه، ثم يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هل حسبت إن فعلت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا أسألك غيره، فيعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف اللهُ وجهه عن النار؟ فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء اللهُ أن يسكت، ثم يقول: أي رب قدمني إلى باب الجنة، فيقول اللهُ: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك؟ ويليك يا ابن آدم ما أعدرك فيقول، أي رب، فيدعو اللهُ، حتى يقول له: فهل إن أعطيتك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطى ربه من عهود ومواثيق فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفتحت له الجنة، فرأى فيها من الخير والسرور فسكت ما شاء اللهُ أن يسكت، ثم يقول: أي رب أدخلني الجنة، فيقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى له: أليس قد أعطيتك عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت، ويليك يا ابن آدم ما أعدرك!! فيقول أي رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك اللهُ منه، فإذا ضحك اللهُ منه أدخل الجنة، فإذا دخلها قال اللهُ له: تَمَن، فيسأل ربه وينتهي حتى أن اللهُ ليذكره، فيقول: تَمَن كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأمانى، قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: لك ذلك ومثله معه» الحديث في الصحيحين من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي رواية أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذلك لك وعشرة أمثاله».

ذكر النووي رَحِمَهُ اللهُ أَنْ وجه الجمع بين «ولك مثله» ورواية: «ذلك لك وعشرة أمثاله»، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم ما في حديث أبي هريرة، ثم تكرم اللهُ تعالى فزاد ما في رواية أبي سعيد فأخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسمعه أبو هريرة. اهـ.



الخاتمة

في ختام هذا الكتاب أتوجه إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالحمد والثناء والشكر له على ما منَّ به علي من قضاء الأيام والليالي في تدبر هذه الصفات ومحاولة فهمها وتقريبها للناس بحسب الواقع المعاش وقد بذلت ما في وسعي للوصول إلى هذه الغاية، فإن وفقت فبفضل الله ونعمته وتوفيقه وإن كانت الأخرى فمنى ومن الشيطان والله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه بريئان.

فإن كان لا بد من كلمه أخيره عادة من بيان الخاتمة فأقول: الهدف الذي أرجو تحقيقه من هذا الكتاب هو أن يحاول كل مسلم أن يرتقي إلى مرتبة عباد الرحمن ليفوز بأعلى درجات الجنان فلعل في هذا الكتاب عون لمبتغي ذلك والمتطلع إليه، ولكن لا بد من أمرين هامين ينتبه لهما من يريد هذه الرتبة أعني رتبة عباد الرحمن.

أولهما: أن يكثر من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى أن يبلغه ذلك، فإنك أخي المسلم متي ما علمت أنه لا حول ولا قوة لك إلا بالله حينها سوف تحسن الدعاء وتخلص فيه.

ثانيهما: أن يجاهد نفسه في العمل بكل صفة من هذه الصفات التي تم شرحها ولعل مما يعين على ذلك تذكر الصور التي سبق ذكرها عن الصحابة والتابعين وغيرهم في كل صفة من الصفات فإذا أراد الحلم مثلاً فليُنظر إلى حلمهم وإذا أراد التواضع فليُنظر إلى تواضعهم وهكذا، فلعله أن يبلغ مراده ويصل إلى مطلبه.

وثمة هدف آخر أرجو أن يتحقق من وراء هذا الكتاب ألا وهو الدعوة إلى العمل بما ورد فيه من صفات عباد الرحمن فلا يكون القارئ سلبياً في مجتمعه يعمل الصالحات في نفسه ولا يدعو غيره إليها بل يجب أن يدعو إليها بقاله وفعاله لتكون النهضة الإسلامية

بالمجتمع نحو صورة أفضل للمجتمعات المسلمة، لأن حالها الآن لا يغيظ عدوًّا ولا يسر صديقًا ونسأل الله العافية لنا وللمسلمين.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على نبينا محمدٍ وآله وسلّم تسليمًا كثيرًا.



الفهرس

- المقدمة..... ٥
- التمهيد: في بيان معني قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ وفائدة الإضافة..... ١٣
-
- ★ ﴿الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ التواضع..... ٣١
- المبحث الأول: أقوال المفسرين حول الآية الكريمة..... ٣٣
- المبحث الثاني: الكلام على صفة التواضع وما ورد فيه من الآيات والآثار..... ٣٦
- المبحث الثالث: صور من تواضع الصحابة والتابعين..... ٤١
- المبحث الرابع: في بيان كيفية اكتساب التواضع والبعد عن الكبر..... ٤٧
-
- ★ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الحلم..... ٥١
- المبحث الأول: أقوال المفسرين حول الآية الكريمة..... ٥٣
- المبحث الثاني: في بيان صفة الحلم وما يتعلق به..... ٥٥
- المبحث الثالث: في بيان الأسباب الموصلة للحلم..... ٥٨
- المبحث الرابع: صورة من حلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة وغيرهم..... ٦١
-
- ★ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيئُوكَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ قيام الليل..... ٦٧
- المبحث الأول: أقوال المفسرين حول الآية الكريمة..... ٦٩

- المبحث الثاني: ذكر آيات أخر تحث على قيام الليل وتفسير آيتين منها..... ٧٢
- المبحث الثالث: فوائد قيام الليل مأخوذة من الأحاديث النبوية الشريفة..... ٧٧
- المبحث الرابع: بيان الأسباب الميسرة لقيام الليل..... ٨٤
- المبحث الخامس: ذكر نماذج من قيام الليل عند السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..... ٨٧

- ★ ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ الخوف..... ٩٧
- المبحث الأول: أقوال المفسرين حول الآية الكريمة..... ٩٩
- المبحث الثاني: التعريف بمعنى الخوف وبيان أسبابه..... ١٠٢
- السبب الأول: الخوف من دخول النار..... ١٠٤
- السبب الثاني: الخوف من عاقبة الذنوب..... ١٠٥
- السبب الثالث: الخوف من هيبة الله وجلالة عظمتة..... ١٠٦
- السبب الرابع: الخوف من عدم قبول الأعمال..... ١٠٨
- السبب الخامس: الخوف من سلب الإيمان..... ١٠٩
- السبب السادس: الخوف من سوء الخاتمة..... ١١٠
- المبحث الثالث: ذكر صورة من خوف الصحابة والتابعين وغيرهم..... ١١٢
- المبحث الرابع: الوسائل العلمية لاستجلاب الخوف..... ١١٩

- ★ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ الاقتصاد في النفقة..... ١٢٥
- المبحث الأول: أقوال المفسرين حول الآية الكريمة..... ١٢٩
- المبحث الثاني: مراتب الإنفاق في القرآن الكريم..... ١٣٢
- المرتبة الأولى: الإنفاق من بعض المال بصورة عامة..... ١٣٢

- المرتبة الثانية: الإنفاق مما يجب الإنسان ويحرص عليه..... ١٣٧
- المرتبة الثالثة: الإنفاق مع الإيثار على النفس..... ١٣٩
- المبحث الثالث: استنباط أصول الاقتصاد الإسلامي من الآية الكريمة..... ١٤٣
- المبحث الرابع: يشترط لقبول النفقة أن تكون من كسب الحلال..... ١٤٦

- ★ ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الإخلاص..... ١٥١
- المبحث الأول: سؤالان هاما حول الآية الكريمة والجواب عنهما..... ١٥٣
- المبحث الثاني: أقوال المفسرين حول الآية الكريمة..... ١٥٦
- المبحث الثالث: الإخلاص وما يتعلق به..... ١٦٠
- أولاً: تعريف الإخلاص..... ١٦٠
- ثانياً: فضائل الإخلاص وفوائده..... ١٦٠
- ثالثاً: علامات الإخلاص والمخلصين..... ١٦٤
- المبحث الرابع: صورة من إخلاص السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..... ١٦٩
- المبحث الخامس: الأسباب الموصلة إلى الإخلاص..... ١٧٩

- ★ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ اجتناب قتل النفس بغير حق..... ١٨٢
- المبحث الأول: الآيات القرآنية التي بينت عقوبة القاتل وتفسيرها..... ١٨٦
- الآية الأولى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ الخ..... ١٨٦
- الآية الثانية: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الخ..... ١٨٨
- الآية الثالثة: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الخ..... ١٩١
- المبحث الثاني: ما ورد من الأحاديث في عقوبة القاتل وشرح بعضها..... ١٩٥

- شرح حديث: أسامة بن زيد عندما قتل من قال لا إله إلا الله..... ٢٠٠
- شرح حديث: إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام..... ٢٠١
- شرح حديث: لن يزال المؤمن في فسحة من دينه..... ٢٠١
- شرح حديث: من أشار إلى أخيه بحديدة..... ٢٠٢
- شرح حديث: من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة..... ٢٠٢
- خلاصة ما جاء في الأحاديث حول الموضوع..... ٢٠٥
- المبحث الثالث: تفسير معنى: ﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ٢٠٦
- المبحث الرابع: هل للقاتل المتعمد للقتل توبة؟ ٢١٢
- القول الأول: أن للقاتل توبة وهو قول جمهور العلماء وأدلته..... ٢١٢
- القول الثاني: القاتل المتعمد لا توبة له وهو قول بعض الصحابة..... ٢١٤
- جواب الجمهور عن أدلة المانعين لتوبة القاتل المتعمد..... ٢١٥
- المبحث الخامس: بيان حكم قتل الإنسان نفسه أو تمني الموت..... ٢١٧
- ★ ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ العفة..... ٢٢٣
- المبحث الأول: الآيات الواردة في تحريم الزنا وذكر تفسيرها..... ٢٢٥
- الآية الأولى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ٢٢٥
- الآية الثانية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ ٢٢٦
- الآية الثالثة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ٢٢٨
- فائدة: في بيان أن الزنا من الكبائر..... ٢٢٩
- المبحث الثاني: في ذكر ما ورد من الأحاديث المنفرة من الزنا..... ٢٣١
- المبحث الثالث: أضرار الزنا على الفرد وعلى المجتمع..... ٢٣٦

- المطلب الأول: أضرار الزنا على الفرد..... ٢٣٦.
- المطلب الثاني: أضرار الزنا على المجتمع..... ٢٣٩.
- أولاً: الزنا سبب في انتشار الأمراض الخطيرة القاتلة..... ٢٣٩.
- ثانياً: الزنا سبب في قطع الأرحام وعقوق الوالدين..... ٢٤٥.
- ثالثاً: الزنا سبب في تهيج العداوة وقد يؤدي إلى القتل..... ٢٤٥.
- المبحث الرابع: صور من عفة السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن الزنا..... ٢٤٧.

- ★ ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ التوبة..... ٢٥٣.
- المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى الآية الكريمة..... ٢٥٥.
- المبحث الثاني: بيان معنى التوبة وحكمها وشروطها وفضائلها..... ٢٥٩.
- المبحث الثالث: صورة من توبة السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..... ٢٧٠.

- ★ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ البعد عن كل باطل..... ٢٧٧.
- المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾..... ٢٧٩.
- المبحث الثاني: في التحذير من شهود المنكرات..... ٢٨٢.
- المبحث الثالث: في التحذير من شهادة الزور وقول الزور والكذب..... ٢٨٦.
- المبحث الرابع: أقوال السلف رضى الله عنهم في ذم الكذب وأهله..... ٢٩١.
- قصة الكذاب الذي تمنى لو تبتلعه الأرض..... ٢٩٢.

- ★ ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ تنزيه النفس عن اللغو..... ٢٩٣.
- المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى الآية الكريمة..... ٢٩٥.

- المبحث الثاني: الابتعاد عن الساقط من الأقوال والأفعال..... ٢٩٨.
- خمسة أشياء كنموذج للساقط من الأقوال والأفعال..... ٢٩٨.
- نصوص الأئمة الأربعة في شأن الغناء..... ٣١٩.
- مفاسد الغناء..... ٣٢١.
- المبحث الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدر الإمكان..... ٣٢٤.
- أولاً: بيان حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ٣٢٤.
- ثانياً: شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ٣٢٧.
- ثالثاً: فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميته..... ٣٣٠.
- المبحث الرابع: أهمية الوقت لدي عباد الرحمن..... ٣٣٥.
- أولاً: ما ورد في القرآن مما يدل على أهمية الوقت..... ٣٣٥.
- ثانياً: ما ورد في السنة مما يدل على أهمية الوقت..... ٣٣٧.
- ثالثاً: نبذة من أقوال السلف وأحوالهم في الحرص الوقت..... ٣٣٨.
- ★ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِالنَّحْلِ.. التآثر بآيات القرآن..... ٣٤٣.
- المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى الآية الكريمة..... ٣٤٥.
- المبحث الثاني: أهمية تدبر القرآن وتعظيمه وفوائده..... ٣٤٨.
- أولاً: أهمية تدبر القرآن الكريم..... ٣٤٨.
- ثانياً: كيف نتدبر القرآن الكريم..... ٣٥١.
- ثالثاً: فوائد تدبر القرآن الكريم..... ٣٥٥.
- المبحث الثالث: أقسام الناس عند تذكيرهم بآيات الله تعالى..... ٣٥٧.
- المبحث الرابع: صورة من تأثر السلف وبكائهم عند قراءة القرآن وسماعه..... ٣٦١.
- المبحث الخامس: صور من استجابة السلف للعمل بالقرآن..... ٣٦٥.

- ★ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ الدعاء بصلاح الذرية والزوجات..... ٣٦٩
- المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ الخ..... ٣٧١
- المبحث الثاني: فضل تربية الأولاد وأهميتها..... ٣٧٤
- المبحث الثالث: صفات المرابي الناجح..... ٣٨٠
- الصفة الأولى: العلم..... ٣٨٠
- الصفة الثانية: الأمانة..... ٣٨١
- الصفة الثالثة: القدوة..... ٣٨٢
- الصفة الرابعة: الرحمة والحب..... ٣٨٣
- الصفة الخامسة: الحكمة والتوجيه..... ٣٨٤
- الصفة السادسة: الصلاح..... ٣٨٥
- الصفة السابعة: العدل بين الأولاد..... ٣٨٦
- الصفة الثامنة: مخالطة الأولاد..... ٣٨٨
- الصفة التاسعة: الدعاء للأولاد..... ٣٨٩
- الصفة العاشرة: الحزم مع الأولاد..... ٣٩٠
- ★ ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ التقوى..... ٣٩٣
- المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى الآية: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾..... ٣٩٥
- المبحث الثاني: تعريف التقوى وبيان فضلها وأهميتها..... ٣٩٧
- المبحث الثالث: مراتب التقوى ومقاماتها..... ٤٠٨
- المبحث الرابع: ثمرات التقوى في الدنيا وفي الآخرة..... ٤١٢

- القسم الأول: ثمرات التقوى في الدنيا وهي ثنتا عشرة ثمرة..... ٤١٢
- القسم الثاني: ثمرات التقوى في الآخرة وهي ست ثمرات..... ٤٢٣
- المبحث الخامس: الأسباب المعينة على تقوى الله تعالى..... ٤٣٠
- المبحث السادس: صفات المتقين..... ٤٣٧
- الصفة الأولى: الإيمان بالغيب..... ٤٣٧
- الصفة الثانية: إقامة الصلاة..... ٤٤٢
- الصفة الثالثة: الإنفاق..... ٤٤٦
- الصفة الرابعة: اليقين بالدار الآخرة والإشفاق منها..... ٤٤٨
- الصفة الخامسة: كظم الغيظ والعفو عن الناس..... ٤٥٤
- الصفة السادسة: المسارعة إلى الاستغفار عند الوقوع في الذنب..... ٤٥٧
-
-
- ★ ﴿إِمَامًا﴾ الإمامة في الدين..... ٤٦٩
- المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إِمَامًا ﴿..... ٤٧١
- المبحث الثاني: بيان معنى الإمامة في الدين وفضلها وأهميتها..... ٤٧٥
- المبحث الثالث: صفات المرشح لأن يكون إمامًا للمتقين..... ٤٨٢
- الصفة الأولى: الصبر..... ٤٨٢
- الصفة الثانية: اليقين..... ٤٨٣
- الصفة الثالثة: الحكمة..... ٤٩٠
- المبحث الرابع: اهتمام الناس بأعمال الداعية المقتدى..... ٤٩٧

- ٥٠٥..... ❁ **يَمَا صَبْرُؤًا** ❁ الصبر..... ★
- ٥٠٧..... ❁ **يُجْزَوَاتُ الْعُرْفَةَ يَمَا صَبْرُؤًا** ❁..... المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى: ❁ **يُجْزَوَاتُ الْعُرْفَةَ يَمَا صَبْرُؤًا** ❁.....
- ٥٠٩..... المبحث الثاني: تعريف الصبر وبيان حكمه وفضائله.....
- ٥١٨..... المبحث الثالث: بيان أنواع الصبر.....
- ٥١٨..... النوع الأول: الصبر على طاعة الله تعالى.....
- ٥٢١..... النوع الثاني: الصبر عن معصية الله تعالى.....
- ٥٢٤..... النوع الثالث: الصبر على البلاء.....
- ٥٢٩..... المبحث الرابع: في ذكر صور من صبر السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.....
- ٥٣٤..... المبحث الخامس: الأسباب المعينة على الصبر.....
- ❁ **أَوْلَيْكَ يُجْزَوَاتُ الْعُرْفَةَ** ❁..... ★
- ٥٣٩.....
- ٥٤١..... ❁ **يُجْزَوَاتُ الْعُرْفَةَ يَمَا صَبْرُؤًا** ❁..... المبحث الأول: أقوال المفسرين في معنى: ❁ **يُجْزَوَاتُ الْعُرْفَةَ يَمَا صَبْرُؤًا** ❁.....
- ٥٤٤..... المبحث الثاني: وصف الجنة بما يقرب صورتها للسامعين.....
- ٥٥٦..... المبحث الثالث: بيان درجات الجنة وتفاوت النعيم فيها.....
- ٥٦٥..... الخاتمة.....
- ٥٦٧..... الفهرس.....